



وهو الجزء الثاني من كتاب

إعلام المقتطف

ويشتمل على اكثر ما نشر في مجلدات المقتطف السابقة عن تقدم
علم الجغرافيا وتخطيط البلدان وكشف المجاهل وارتياد
القطبين وتمهيد سبل المواصلات في البرّ
والبحر والهواء وسير اشهر الروّاد .

فيه فصل حافل خاص
بجغرافيي الاسلا

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم بمصر

سنة ١٩٢٧

اين يذهب الروّاد؟

من غرائب طبع الانسان حبّهُ للاكتشاف . فيضرب في مجاهل الأرض ويركب متونَ البحار ويمتطي أجنحة الرياح ويتجشم أعظم المشاق ويصبر على أنواع المكاره من قيظ وزمهرير وسغب ولغب،لكي يكتشف بلاداً جديدة أو يختط طريقاً لم تطأْهُ قدم انسان من قبل . ولقد كان هذا دأبهُ من قديم الزمان . أما حينئذٍ فكان مدفوعاً بطلب الرزق وانتجاع المراعي والمناهل . وأما الآن فيندفع اليهِ بالملكة التي تملكت أسلافه قروناً كثيرة وحباً بالمنافسة والفوز على الأقران . ولولا ذلك ما عمرت الأرض بالسكان ولا انتشر فيها نوع الانسان . ومن هذا القبيل السعي الى اكتشاف القطبين وارتياد المناطق المتجمدة حولهما أو الاهتمام باجتياز البحار والقارات بطيارات تسابق النسور في الهواء ، ففي كل ذلك لا يجد الروّاد باباً للكسب ولا سبيلاً للرزق . لذلك تحيط بأسمائهم هالة من المجد لا يفوز بها كثيرون من العلماء لأن اقدامهم على اقتحام المخاطر وصبرهم وشجاعتهم في مجالدة الشدائد التي تعرض لهم تضرب على وتر حسّاس في النفس فينظر اليهم الناس نظرة الاعجاب والاكبار ويضعونهم في مرتبة بين الآلهة والناس

*

* *

انقضى سبع وعشرون سنة منذ ارتفع الستار عن ميدان الارتياد في القرن العشرين، بلغ فيها الروّاد الى أقاصي الأرض وساروا في مناكبها العامرة والغامرة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، هنا يرودون صحراء قاحلة، وهناك يصعّدون في قنّة جبل شاهق، وهنالك يقتحمون مفازات من الجليد، أو أدغالاً تعجّ بالحيوانات الضارية والأفاعي السامة. لم يبق أمامهم سوى أعلى طبقات الجوّ وأعمق أغوار البحار، وهذه قد أخذت تذلّل أمام اقدام الطيّارين والغوّاصين، وابداع العلماء وما ابتكروهُ من غرائب المعدّات والأدوات للبحث والاكتشاف.

أبسط أمامك خريطة الارض ترَ في قلب آسيا وأفريقية وأميركا الجنوبية طرقاً معبدة تسير فيها سكك الحديد أو سيارات فورد أو تطير فوقها الطيارات والبلونات، وفي صدور الجبال انفاقاً تخترقها وعلى سطوح البحار مسالك الممالك الى الثروة والسلطان

أين المدن التي لم تفتح أبوابها للعلماء والروّاد؟ أين الجزائر التي لم تعيّن مواقعها وترسم خططها؟ أين الصحاري التي عجزت عن اختراقها قوافل الجمال ولم تخترقها قوافل السيّارات؟ أيُّ نهر من الأنهر العظيمة لم يعيّن منبعهُ أو لم يعرف مسيلهُ ومصبّهُ وما يدور حولهُ من الحقائق الجغرافية والعمرانية؟ ان قنن الجبال الشاهقة التي ردت عنها كبار المصعّدين بالأمس لا بدَّ أن تلين للطيارة والبلون في الغد، وقلب جزيرة غينيا الجديدة — أكبر الجزائر بعد قارة استراليا — الذي ما برح معتصماً بأسرارهِ قد أخذ يفقد ما يحيط بهِ من الاسرار امام اقدام الروّاد والباحثين. فقد جاء في الأنباء الأخيرة

أن الأميركيين لهم بعثات علمية مختلفة تخترق ادغال غينيا الجديدة وترود مجاهلها

وهكذا نرى أن الستار أخذ ينسدل رويداً رويداً على رواية أخاذة أحكمت وضعها العصور وما زالت منذ فجر التاريخ متصلة المشاهد متسلسلة الحلقات . ان العالم القديم الذي كان معروفاً للفينيقيين واليونانيين والرومانيين ، اتسع في القرون الخمسة الأخيرة اتساعاً عظيماً حتى شمل الكرة الأرضية بأسرها . لقد مهدت السبل ، وعُيِّنت المواقع ، وضبطت الحدود، وقيست المرتفعات والمنخفضات ورسمت الخرائط وكان للمخترعات الحديثة في ذلك الفضل الأعظم فأكمل الرّواد على متن البواخر والسيارات والطيارات عملاً بدأهُ اسلافهم سيراً على الأقدام أو ركوباً على الجمال أو سفراً في السفن الشراعية تتلقفها الأمواج وتتقاذفها الرياح

وأغرب ما في هذا التقدم سرعتُه . ففي العقدين الثامن والتاسع من القرن الماضي كان لفنستون وغيرهُ من الرّواد الانكليز وغير الانكليز قد كشفوا كثيراً من مجاهل القارة السوداء . على ان العلماء في مطلع القرن العشرين وجدوا رغم ذلك ، أميركا الجنوبية مجهلاً كبيراً ، وقلب آسيا معقلاً تحيط به الأسرار والصحراء الافريقية الكبرى والسودان تغطيهما بقاع لم تطأها قدم انسان، وكثيراً من جزائر الاوقيانوس الباسيفيكي نقطاً ترصع سطح اليم تعرف أسماؤها وتجهل مسمياتها ، وبلاد تيبت منيعة على المرتادين وعاصمتها لاسّا حَرَماً عليهم والجوّ ملكاً للنسور لا يطمع الانسان في مزاحمتها عليه

ولكن ما ذا نرى الآن وقد انقضت سبع وعشرون سنة على ذلك؟ ها جنود الانكليز يقودهم الكولونيل يُنغ هزْبند بنفسه يكتسحون (سنة ١٩٠٤) تيبت ويدخلون عاصمتها المقدسة . وها سيارات الفرنسويين تخترق الصحراء الكبرى حيث تعذر على قوافل الجمال أن تسير من قبل. وها بعثات الاميركيين بقيادة روزفلت آناً ترود مجاهل البرازيل وتكتشف أكبر نواصر الأمازون أو بقيادة الدكتور اندروز آناً آخر تخترق منغوليا تبحث عن آثار الانسان فتعثر على بيوض الدينوسورس المتحجرة التي يرجع عهدها الى عشرة ملايين من السنين . وها الحلم بانشاء خط حديدي من القاهرة الى الكاب أخذ يتحقق رويداً رويداً، بل قد يسبقه ويفوقه شأناً انشاء خط جوّي بين المدينتين. انك ترى الناس في الربع الأول من القرن العشرين وقد اعترتهم سورة المغامرة وحب الاكتشاف . فالسباق شديد الى اكتشاف القطبين . بيري يحاول الوصول الى القطب الشمالي يزاحمهُ ننسن وكوك ورُسْ . وأمندصن يسير الى القطب الجنوبي لا يقف الجليد في وجههِ ، ويسابقه اليهِ سكوت وشاكلتن . ثم هذا امندصن أيضاً بعد فترة الحرب العظمى يطير أولاً بالطيارة محاولاً بلوغ القطب الشمالي فيقصر عنهُ على نحو ١٣٦ ميلاً جغرافياً منه ثم يفوز بالطيران فوقهُ بالبلون في السنة التالية وبين محاولتهِ الأول وفوزهِ يطير الكومندر برد الاميركي من سبتسبرجن الى القطب الشمالي ذهاباً واياباً في ١٦ ساعة

لقد أخضعت عناصر الهواءِ، فغلب النسر على دولتهِ وصار فن الطيران بآلة أثقل من الهواء، الذي ولد في شهر دسمبر سنة ١٩٠٣، من وسائل المواصلات

التي ينتظر أن تعم العالم بأسره . ان فعال الطيارين في اجتياز المسافات الشاسعة ونقل البريد والركاب والبحث في طبقات الجوّ العالية ومسح الأراضي ومحاربة الحشرات نزعت من الجوّ أسراره وجعلت سبله ممهدة لمطالب الانسان . ولقد كثرت بعثات الارتياد وتعددت غاياتها وأساليبها حتى أصبحت أخبار أكثرها عادية مهما عظمت المكتشفات التي تكتشفها وصار يتحتم على زعمائها أن يرضوا بالأمجاد الضئيلة التي تكون نصيب التابعين السائرين في أثر من تقدم من الروّاد

*

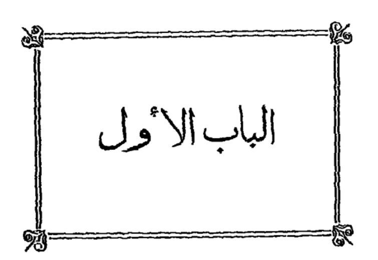
* *

كذلك انقضت الأعوام والقرون منذ فجر التاريخ إلى الآن ، والروّاد يسيرون بعضهم فى إثر بعض يحتقرون المشاق وينتصرون على العواصف ، يفشلون آناً وينتصرون آونة ، فعنت لهم الأرض وآتتهم خيراتها . إن صفحتهم لمن أنصع الصفحات في تاريخ العمران ، بل ان حديث أقدامهم وثباتهم ونبلهم وتفانيهم قصيدة بلغيـة محكمة الأبيات تثير في النفس تلك النزعات العالية التي بها يتمجد الأنسان . وأننا لا نتردد مطلقاً في الحكم بأن مقامهم في ترقية العمران يأتي بعد مقام العلماء والفلاسفة والمستنبطين بل قد يكونون واياهم فى مستوى واحد

لذلك أفردنا لهم هذا الكتاب ، فعسى أن يلقى ما لقيه سابقه «أعلام المقتطف» من الوقع الحسن لدى مشتركي المقتطف ومريديه .

فؤاد صروف

القاهرة ٢٢ يوليو ١٩٢٧



الباب الأول

تاريخ علم الجغرافيا[1]

ان لساني قاصرعن الاعراب عن سروري الفائق بهذه الزيارة الاولى لمهد المدنية القديمة الاولى حيث تحول الناس في فجر العالم الى تعهد العلوم والآداب والفنون

ألا يسمح لي في هذا المقام بان اشير الى نفسي اني رجل قدم من العالم الغربي البعيد الذي قد يكون الاتلنتس[2] المذكور في خرافات الاقدمين ويقال ان كاهناً قديماً من كهنة بلادكم روى قصته رواية مشوقة فرآها افلاطون جديرة بالاعادة والتكرار. ثم هل لي ان اقول فوق ذلك اننا نميل في لغة الشعر الى وصف ذلك العالم الغربي بحديقة هسبريديس[3] التي تغنى بها هزيود[4] ولو ان كثيراً من الاوصاف التي ذكرها لا تنطبق عليها

اني احمل تحية ذلك العالم الغربي الى هذه الحفلة ، حفلة افتتاح المؤتمر الدولي العظيم ، الذي شملتموه جلالتكم بجودكم والذي قدمتم فيه جلالتكم برهاناً على اهتمامكم بارتقاء العلوم والفنون . ويلوح لي ان خير كلمة استطيع التفوه بها في حفلة الافتتاح هذه ، هي كلمة تتناول تاريخ علمنا منذ بدايته الاولى الى ان بلغ المكان الرفيع الذي يشغله الآن بين سائر العلوم

اظن اني لا اخطئ اذا قلت ان الجغرافيا علم من اقدم العلوم ولا اغالي في تقدير هذا العلم اذا قلت انه شامل متصل بجميع العلوم الاخرى . ومن رأي استرابون[5] ان الجغرافيين اوفر الناس حكمة وانهم كلهم فلاسفة .وقد نشر بياناً في مقدمة كتابه العظيم باسماء الرجال الممتازين وقال انهم كلهم فلاسفة وانهم كلهم جغرافيون

---

(١) هذا الفصل هو ترجمة الخطبة الممتعة التي تلاها الاستاذ ادورد ستيفنصن الاميركي في حفلة افتتاح المؤتمر الجغرافي الدولي الذي التأم في القاهرة في ابريل ١٩٢٥

(٢) الاتلنتس جزيرة ذكرها افلاطون وقال انها الى غرب المضيق المعروف الآن ببوغاز جبل طارق (٣) هسبريديس في الميثولوجية اليونانية الحدائق التي تحميها حفيدات هسبرس اخي اطلس والتي قصدها هرقل للحصول على احدى اثمارها (٤) شاعر يوناني قديم يظن انه عاش في القرن الثامن قبل المسيح وبعد هوميرس بنحو قرن (٥) مؤرخ وعالم جغرافي يوناني وولد حوالي سنة ٦٣ ق . م

ان الصعوبة التي تعترض الباحث حين يجتهد ان يراجع ارتقاء علم الجغرافيا منذ نشأته هي في محاولة جمع تاريخ يعتمد عليه من اساطير لم تثبت حقيقتها

ولما كنا على جانب كبير من التأكد ان عقل الانسان ارتقى ارتقاء بطيئاً وان الانسان ناضل نضالا شديداً طويلا ضد اعداء اقوياء ولم يتغلب على القوى التي تكتنفه الا تدريجياً ، اقول لما كنا نعلم ذلك كله فاننا لا نجد حيلة غير الاندفاع وراء التخمين والظن اذا اردنا الوقوف على آرائه في شأن البلدان الواسعة التي كانت تحيط بالبقعة الضيقة التي كان يقطنها. ثم نسأل دون ان نفوز بجواب هل كانت معرفته الجغرافية مقتصرة فقط على البقعة التي يتجول فيها وهل كان يعرف شيئاً عن وجود بقاع اوسع تمتد الى جميع الجهات ؟ ليس لدينا سوى جواب مبني على الزعم والتخمين فيما يتعلق بالآراء التي ارتآها حينما وقعت عيناه لاول مرة على البحر الواسع ورآه يمتد امامه الى مسافات شاسعة حتى خيل اليه انه يلتقي بالسماء

وانقضت قرون على ذلك العهد المظلم قبل ان نجد اول دليل على محاولة وصف الارض او وصف جزء منها . وقد وجدت في كثير من البيانات الجغرافية العتيقة التي وصلت الينا آراء وافكاراً لم تبن على مشاهدة او امتحان لاحد المعاصرين بل تضمنت معلومات استقيت من مصادر عريقة في القدم يجب ان توضع اصولها وتواريخها بين الامور التخمينية .وهذا يقودنا الى اصول الاعتقاد الهندي بان الارض قائمة على ظهر سلحفاة او فيل ضخم والى رأي البراهمة ان الارض زهرة من ازهار النيلوفر المتفتحة طافية على سطح المياه والى رأي المصريين القدماء بان السماء قبة واسعة مرتكزة على الجبال

ثم جاء اليونان فوضعوا علماً لوصف الكون مبنياً على التخيل مثل الشعوب التي سبقتهم وانتقل معظم ارائهم هذه الى الشعوب التي خلفتهم في نشر لواء الحضارة فذكروا حتى في العصور الاولى الشرق بانه بلاد الغنى والثروة الواسعة والشمال بانه مهد سكان الشمال السعداء والجنوب بانه مسكن الاحباش المسالمين والغرب بانه مهد ما يأخذ اللب من الخيال والخرافات . ففيه كانت الجزائر الطافيــة وجزائر السعادة وجزائر المباركين ومركز جميع مجاري الاوقيانوسات حيث قطنت في الازمنــة الغابرة امة غنية منيعة

الجانب وفيه ايضاً حقول اليزيا [1] مسكن الابطال الذين ينجون من مخالب الموت بحيث الحياة خالية من الهموم والمتاعب . وهكذا نرى للغرب في تصورات العصور الاولى شأناً جغرافياً خاصاً

ومع ان كثيراً من المذاهب القديمة تبدو وهمية فانها تبين بداية الاهتمام بالمظاهر الجغرافية . وقد ارتقى علم الجغرافيا من هذه الاصول الضئيلة الى ان وصل الى مقامه الحالي الرفيع . ولا بد ان تكون اكثر المذاهب الجغرافية امعاناً في الوهم كالقول بالجزائر وراء اعمدة هرقل قائماً على شيء من معرفة الاراضي غرب الاتلنتيكي وقد بقي كثير منها مشهوراً في القرون التالية فاثر في الآراء الجغرافية حتى بعد ان كشف كولمبوس اميركا

كان الافق في نظر الشعوب القديمة ضيقاً كما اشرت الى ذلك قبلا لا يتعدى المنطقة التي يعيشون فيها فكان من الجرأة العظيمة اختراق هذا الافق والدخول في المنطقة الواقعة وراءه وارتيادها وليس لدينا الآن سوى حقائق ضئيلة عن الاعمال التي قام بها الناس قديماً للوصول الى تلك الغاية ولكن نقل من ذلك العهد الى العصور التالية اقاصيص عن رحلات واسفار وسعت معارف الشعوب عن وجود بلدان اخرى في انحاء الارض البعيدة . وقد تكون حكاية الارغونتيين [2] حكاية بعثة بحرية حقيقية على جانب كبير من الاهمية بحيث جعلت لها علاقة بحياة الابطال وانصاف الآلهة . اما قصة عولس [3] ورحلاته فانها تذهب بنا الى جزيرة فاروس عند مدخل مرفأ الاسكندرية وتشير الى مصر والنيل وشعوب الجنوب وآكلي اللوتس . على ان هذه القصة ليست قصة رحالة فقط بل هي بيان المعارف الجغرافية في ذلك العصر بعد ان جمعت بالسفر والارتحال

وللفينيقيين مقام كبير في توسيع المعارف الجغرافية . فقد استولوا في القدم على

---

(١) حقول اليزيا في الميثولوجية اليونانية مقام الابطال المباركين بعد الموت وصفها هوميرس بانها عند طرف الارض الغربي قرب الاوقيانوس وقال هزيود وبندار الشاعران انها في جزائر السعادة : ومن هذه الخرافات نشأت خرافة الاتلنتس التي ذكرت آنفاً

(٢) الارغونتيون هم الابطال الذين سافروا مع ياسون في السفينة ارغو حينما ذهب يبحث عن السلخ الذهبي (٣) عولس احد ابطال اليونان الذي حارب في حروب طرواده وبعد هذه الحروب حاول الرجوع الى بلاده فحملته الرياح الى شواطىء افريقية .

التجارة التي كانت بين المصريين في وادي النيل والبابليين في ما بين النهرين . وهم الذين ضربوا في البحر غرباً في اواخر أيام قرطاجنة فاجتازوا بوغاز جبل طارق ووصلوا الى جزائر الفنار ثم خاضوا عباب الاوقيانوس الاتلنتيكي الى الشمال فحطوا رحالهم في جزائر سكلي [١] ومقاطعة كورنول في بريطانيا . وقد يكونون طافوا بحراً حول افريقية قبل ان فعل ذلك فاسكو دي غاما بالفي سنة . وانشأوا مستعمرات تجارية بعيدة عن وطنهم الاصلي فنشأ فيها اهم المراكز التجارية التي ترصع شواطيء بحر الروم كما تشهد بذلك اسماء هذه المستعمرات . ثم تقدمت المعارف الجغرافية حينما شرع اليونان ينشئون مستعمراتهم على شواطيء البحر الاسود (اليوكسن) وبحر الروم . فانشاء هذه المستعمرات وسع المعارف الجغرافية توسيعاً سريعاً مطرداً فبعث على البحث عن احوال تلك البلدان ووصف طبيعتها فنجم عن ذلك ما حمل العلماء على التكهن في الاجابة عن المسائل الجغرافية الكبرى كالتي تتعلق بتكون الارض وتركيبها وما من احد كان اقوى اثراً في الحث على هذه الابحاث من بيثياس المسالي او المرسيلي [٢]

ان البيان الذي يشمل اسماء الذين قاموا بخدمات جليلة للجغرافيا بيان طويل حتى ولو أقتصرنا على ذكر علماء العصور القديمة . فيه نجد امثال هكاتوس وهبرخوس وفيثاغوروس واراتوسثينيس الاسكندري العظيم . كل هؤلاء افادوا هذا العلم فائدة خالدة

ثم كيف انسى في هذا المقام اسم هيرودوتوس العظيم الذي يعد تاريخه خزانة غرائب في التاريخ والجغرافيا . ومما يجب ان يذكر هنا اننا نرجع في هذه الايام الى مؤلفات هيرودوتوس للوقوف على معلومات قديمة تتعلق بقلب القارة التي تعيشون عليها . ولعمري لم يبق لدينا شك في روايات فرعون نخو وستاسبس وهانو وكيف ان الأول سير سفينته في القنال الذي كان يمتد من النيل الى الخليج العربي ومن ثم الى الجنوب وكيف أمر بحارتها بمواصلة السير الى الجنوب والعودة من خلال أعمدة هرقل الى مصر . والسبب الذي ذكره هيرودوتوس للارتياب في صحة أخبار هذه

(١) جزائر سكلي ارخبيل انكليزي صغير على ٢٥ ميلا الى الغرب الجنوبي من طرف كورنول بانكلترا (٢) ملاح وجغرافي يوناني منه عرف اليونان وصف غرب اوربا والجزائر البريطانية . والراجح انه كان معاصراً للاسكندر ذي القرنين

الرحلة أقوى الأدلة التي تؤيدها — وهو ان الشمس صارت على يمين البعثة حينما كانت تدور حول ليبيا في الجنوب . ومن الغريب ان ما ذكره عن افريقية وجد بعد الابحاث الحديثة غاية في الدقة

وليس من رأي جغرافي بين آراء اليونان القديمة الناضجة أبعد اثراً في نشر المعلومات الجغرافية وتوسيعها في القرون التالية مثل الرأي الخاص بشكل الأرض القائل انها قرص مستدير يجري حولها محيط هو منبع جميع المياه والانهار والعيون والبحار وانه يوجد بلا ريب شعوب تقطن وراء هذا المحيط. ثم تعددت الآراء خلال القرون التالية عن هؤلاء الشعوب وهل تمكن زيارتهم وهل هم مثل الشعوب التي تسكن البلدان المعروفة

والقول بكروية الأرض اولا كان يستلزم القول بوجود اناس في الجهة المقابلة من الكرة . فاتباع فيثاغورس قالوا ان الأرض يجب ان تكون كرة لان الكرة اتم الأشكال الهندسية وانها يجب ان تكون ساكنة لان السكون اكبر مهابة من الحركة وانها يجب ان تكون في مركز الكون لان ذلك هو مركز الشرف الممتاز . وبعد ان أعلن هذا الرأي القائل بكروية الأرض لم يهمل مع انه انقضت قرون كثيرة قبل ان تثبت صحته برحلة القبطان مجلان المشهورة

ولم يكتف الرومان بنقل المعارف الجغرافية التي اتصلت بهم من اسلافهم بل وسعوها كثيراً بما كشفوه من الحقائق الجديدة حين انهماكهم بالحروب والفتوحات وانشاء المستعمرات وتوسيع نطاق التجارة . فكتاب الرومان كانوا بارعين في رواية اخبار الاسفار والرحلات ووصف البلدان النائية عن ايطاليا وتلخيص ما كان معروفاً عن سطح الأرض في الأيام السابقة لايامهم

وأين نجد في تاريخ علم الجغرافيا كله من افاد هذا العلم أكثر من كلوديوس بطلميوس الأسكندري؟ لقد مررت في طريقي الى القاهرة بالمدينة التي شاهدت أعماله في تلك الأيام السالفة ولا أريد ان اغادر هذه البلاد قبل ان ابذل شيئاً من الجهد لأعرف هل كان بطلميوس يقرن ابحاثه في العلوم الجغرافية بخرائط كالتي أعتدنا ان ننسبها اليه ؟ على اننا ندخل هنا مجالا فيه كثير من الجدال ولذا لا أريد متابعة هذا البحث الآن

وصل التجار في أيام الامبراطورية الرومانية الى اقصى انحاء العالم المعروف في الشرق والغرب فقد كانت جزائر كناريا معروفة لديهم يكثرون التردد عليها ولكن هذه الجزائر جهل موقعها بعد سقوط الأمبراطورية ثم كشفت ثانية في القرون الوسطى . وعرفوا أيضاً بلاد الهند والشرق الأقصى وجمعوا حقائق كثيرة عن ثروة تلك البلدان الطائلة . وكان اهتمام رومية بالجغرافيا عملياً تؤيد هذه الحقيقة خرائطهم ولا سيما الخاص منها بالطرق . واذا تركنا النظر في الجغرافيا القديمة فاننا نترك عهداً كان هذا الموضوع يلاقي فيه اهتماماً علمياً حقيقياً وندخل في عهد مدهش باساليبه البعيدة عن العلم وفروضه السقيمة وما يترتب عليها من النتائج المغلوطة . ففي العهد الأول من القرون الوسطى المسيحية كان الأهتمام بالجغرافيا من اجل الجغرافيا نفسها قليلا لان الروح الديني كان مسيطراً على الغرب فلم يبد من الغربيين اهتمام بالجغرافيا الا اذا رأوا فيها وسيلة الى غاية دينية . ولكن كتابات الكتاب الذين جعلوا همهم تنوير معاصريهم في ذلك الزمن تحوي بعض الآراء القديمة في الارض وما عليها كما يظهر من الخرائط التي وصلت الينا من ذلك العهد . فانك تجد بلينيوس واسترابون يذكران في روايات سولينوس او ان مقامهما الرفيع يعود الى ما ذكره عنهم في قصصه .

اما قزما انديكوبلنتس فوجد كتب العبرانيين الدينية مصدراً كافياً لكل المعارف الجغرافية التي يحتاج الناس اليها وحين مطالعة كتابه « التبوغرافيا المسيحية » نجده يذكر المذاهب الجغرافية التي سبقت مذاهب العبرانيين ثم يبين ما فيها من الخطاء

ومعظم الكتاب في هذا العهد الذين يعرفون بآباء الكنيسة لم يكونوا يهتمون كثيراً بجمع معارف دقيقة عن سطح الارض . وسلطتهم في الامور الدينية التي لم يجرؤ احد على مقاومتها جعلت لآرائهم الجغرافية مقاماً خاصاً فسار علم الجغرافيا في مجار ضيقة وثبطت عزيمة كل باحث كانت غايته جمع الحقائق العملية عن البلدان القريبة والبعيدة

كذلك نحن مدينون بكثير من معارفنا الجغرافية للحجاج والمرسلين والتجار مع ان معظم الحقائق التي جمعوها كانت ثانوية في اعتبارهم .

وبينما كانت المسيحية قانعة باستقاء معلوماتها الجغرافية من موارد منحطة ، كانت

الشعوب العربية تنمي معارفها وتنشر معلوماتها الجغرافية والفلكية وكان العرب يعملون الى درجة ما طبقاً للقواعد اليونانية ولكنهم شيدوا على هذه القواعد صرح ابحاثهم المستقل الخاص بهم

وقد وضع ابو الحسن علي المعروف بالمسعودي الذي سافر اسفاراً كثيرة في اواسط القرن العاشر، مؤلفاً سماه: « مروج الذهب ومعادن الجوهر » روى فيه كثيراً مما يدل على ان شعبه كان شديد الاهتمام بالتجارة والاسفار البعيدة والارتياد واستقاء المعلومات التي اخذها الخلف عن السلف. وتمسك الادريسي، احد مواطنيه، باراء اليونان الصحيحة، ومنها الاعتقاد بكروية الارض ولو انه ارتاب في وجود منطقة آهلة بالسكان في الجنوب لانه كان يعتقد بوجود بحر الظلمات، وان كل سعي للوقوف على اسراره مقضي عليه بالفشل

وكان العرب يعرفون البحار الهندية ويسافرون فيها لانها كانت طريقهم التجاري المطروق، كما كانوا يعرفون شواطىء افريقية الشرقية والغربية جنوبي خط الاستواء. وقد دون المستر ده لارنسيه هذه الحقيقة في مؤلفاته الحديثة ولكن ما نعرفه عن ثقة يستدل منه أن العرب لم يتوغلوا في الاتلانتيكي للبحث عن ارض وراءه فلم يظهروا في ذلك شجاعة رجال الشمال ولا جسارة الطليان الاول

وجني العالم الاوربي فوائد كبيرة في علم الجغرافيا من هجرة الشعوب السكندناوية في القرن الحادي عشر. على ان هذه الفوائد الكبيرة الداعة لم تجن لان الشعوب السكندناوية كانوا رواداً من الطبقة الاولى اجتازوا البحر الى جزيرة جرينلندا وما وراءها ولا لانهم داروا حول الرأس الشمالي وارتادوا ثنايا البحر الابيض وفتحوا كثيراً من البلدان في الشمال الشرقي من اوربا بل لانهم هاجروا الى بلدان مختلفة وانشأوا فيها مستعمرات كثيرة فاليهم يعود الفخر في تجديد الدم الاوربي وأحياء النشاط الاوربي من جديد فبعثوا في الشعوب المسيحية شيئاً من العزم الذي يحركهم فبدأت ثانية في توسيع المعارف الجغرافية التي كانت قد أهملت بعد انحطاط الامبراطورية الرومانية

هذه كانت مهمة اهل الشمال المعروفين « بالنورس » او « الفيكنغ » اما الادوار

الشمالية من النهضة الاوربية فقد واصل رجالها العمل الذي بدأه سكان الشمال وتعهدوه بالعناية الى التمام

وحين انتهى عهد الحروب الصليبية التي ساعدت على توسيع المعارف الجغرافية ، ورحل فيه الاوربيون لاسباب دينية فقطنوا في بلاد مخالفيهم في الدين لاسباب تجارية — اقول في السنوات الختامية لهذا العصر نقرأ عن الاعمال المهمة التي قام بها بعض الايطاليين مثل كاربيني وروبره كي وماريغيولو الذين عرفوا كيف يدونون في اخبار اسفارهم اموراً ذات شأن جغرافي كما دونوا اموراً ذات شأن ديني . ومع علو كعبهم في تاريخ الجغرافيا ليست لهم المكانة الرفيعة التي لاسرة بولو البندقية . فالكتاب الذي وضعه ماركو بولو مقام رفيع بين الاسفار الجغرافية في القرون الوسطى ، فهو قصة جديدة لرحلة من الغرب اجتاز فيها الممالك القديمة ووصف بدقة نادرة ما يشاهده المسافر من ايطاليا الى ما بين النهرين وبلاد فارس ومرتفعات اسيا الوسطى وصحراء غوبي ومروج منغوليا الى الصين والبحر الاصفر . انها قصة شائقة نادرة ومن الصعب ان يقاس ماكان لها من الاثر في الغرب . انها تمثل أعلى مستوى بلغه كتاب العصور الوسطى في رواية اخبار الرحلات . وما تم بعد ذلك من توسع اوربا تم معظمه عن طريق البحر

لم تجن اوربا فائدة من البعثات التي ارسلها سكان الشمال الى مياه الاتلنتيكي لان وجهة اوربا كانت الى الشرق فلم تتم الخطوة الكبرى التالية في سبيل التوسع الجغرافي العلمي الا عند ما تحول بحارة البلاد الواقعة في شمال البحر المتوسط الى التجارة والنقل البحري بهمة ونشاط، فلم يلبث بحارة المدن الايطالية ان استولوا على زمام الملاحة في البحر المتوسط ورسموا طرق البحار بمهارة غريبة ، وانسلوا من بوغاز جبل طارق، وجابوا شاطىء الاتلانتيكي شمالا وجنوباً بجرأة عظيمة ، وصاروا يزدادون اقداماً ومخاطرة عاماً بعد عام ، ويبثون روح العمل والارتياد في نفوس الامة التي تقطن الطرف الاقصى من اوربا الغربية واعني بها امة البرتغال التي شاءت الاقدار ان تصير بفضل ملكها العظيم هنري الملاح في مقدمة الرواد الذين مهدوا لغيرهم الطريق . وليس هذا مجال الافاضة في ذكر الخدمات التي قام بها هذا الملك الجليل ، والتي كانت بمثابة وحي لاعمال الارتياد ولكن اقول باختصار ان فضله يلخص في تمسكه بفكرة عظيمة

باصراره على تنفيذها وفيما جاء بعد ذلك من الحوادث السريعة كارتياد شواطىء افريقية وسير السفن حول رأس الرجاء الصالح واكتشاف العالم الجديد وفتح الطريق البحري الى الهند وملقا والصين ، ثم اكتشفت استراليا قبل مضي قرن على اعمال الاكتشاف المتواصلة

واذا كانت هناك بعثات ارسلت الى شاطىء افريقية في القرن الخامس عشر فقد كانت هناك بعثات اخرى الى الاتلانتيكي، لم يدون كثير من اخبارها ، تحدو اصحابها فكرة احتمال العثور على اراض وجزائر جديدة . وخير ما لدينا من تاريخ هذه الرحلات ، الخرائط التي رسمت في ذلك العهد . نعم ليس من السهل فهم كل ما فيها ولكن يجد الناظر اليها لذة ومغزى عظيمين

ولم يكن بين جميع الذين سلكوا البحار وقاسوا اهوالها اعظم من خريستوفورس كولمبوس وقد كان عمله جرأة عظمى لا لانه وضع خطة للبحث عن الهند الشرقية بالسير الى الغرب فانا اعتقد كل الاعتقاد ان ذلك لم يكن جزءاً من خطته الاصلية بل لانه كان ينوي العثور على جزائر وبلدان اخرى.على ان الاعمال التي انجزتها رحلاته تجعل الفضل يعود اليه في ايجاد الطريق غرباً . ومن الآن نجتاز الحدود وندخل في اعجب عهد من توسع المعارف الجغرافية . ولا استطيع ان اسير الى ابعد من ذلك في هذا المقام متتبعاً هذا المسلك فالموضوع لا يستنفده البحث

واذا كان لا بد لي من ان اشير بكلمة الى توسع العلم بعد ذلك وأتتبعه حتى هذا الوقت فانني اشير الى سرعة تناقص الاقطار التي لم تكتشف بعد والى الحماسة التي يندفع بها المكتشف في هذا الزمن الى مغامراته . ولا بد لي من التنويه بالدروس الكثيرة في فروع عديدة من هذا العلم وهي الفروع التي اصبحت تعد ذات شأن كبير وفائدة عظمى كالجغرافيا الطبيعية والجغرافيا الاثنولوجية والجغرافيا الرياضية والجغرافيا التصويرية والجغرافيا الاجتماعية والاقتصادية والجغرافيا التاريخية والجغرافيا الحيوية . وفروع اخرى تدعو الى دروس عميقة

مقتطف مايو ١٩٢٥

—o:o—

تقدم علم الجغرافيا

في القرن التاسع عشر [1]

كان القسم المعروف من اليابسة سنة ١٨٠٠ يبلغ نحو خمس اليابسة كلها وكانت الخرائط ترسم ويترك القسم المجهول بلا كتابة فما جاءت سنة ١٩٠٠ حتى بلغ ما اكتشف من اليابسة عشرة اجزاء من احد عشر جزءاً تقريباً فبقي جزء من احدعشر مجهولا (انظر الرسم الذي في صدر هذه المقالة. والجزء المجهول متفرق على سطح الأرض بقعاً صغيرة وليس هناك مساحات واسعة لم تكشف الا في جهة قطبي الأرض الشمالي والجنوبي

والفرق بين القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر من هذا القبيل ان الأول اشتهر باكتشافاته البحرية والثاني اشتهر باكتشافاته البرية كما يتبين مما يأتي :—

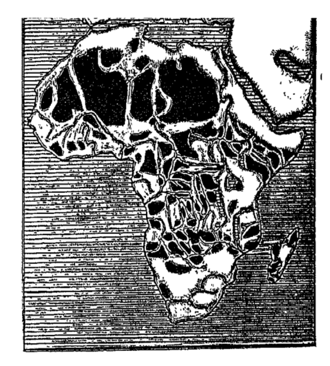
أفريقية

كانت قارة افريقية على الخارطة منذ مئة سنة بقعة سوداء تحفها حاشية بيضاء قليلة العرض مع قربها من أوربا ووقوع ساحلها الشمالي موازياً لساحل اوربا الجنوبي على مسافة الف ميل وما ذلك الا لان رداءة اقليمها جعلت اسبانيا وفرنسا وانكلترا والبرتوغال يشحن باوجههن عنها ويتزاحمن على الاستعمار في أطراف اميركا والهند السحيقة وانما قصدن افريقية للاتجار بالرقيق فيها . اما الآن فقد اصبح معظم القارة معروفاً بفضل لفنستون وستنلي وباكروسبيك ومنجو وغيرهم من اهل السياحة الذين جابوها طولا وعرضاً فأناروا ظلماتها ولم يبق مظلماً سوى بقع صغيرة متفرقة لابد ان تكشف قريباً . وقد ضمت دول اوربا كل ميل منها الى املاكهن بالطرق السلمية ماعدا المغرب الأقصى والحبشة على حين ان استعمار اميركا والهند كلفهن ألوف الرجال وبدرات الأموال

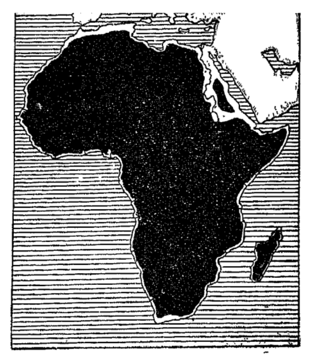
واهم ما في تاريخ اكتشاف افريقية اكتشاف منابع انهرها الأربعة العظيمة وهي النيجر والزمبيسي والنيل والكنجو فان الرحالة بروس اخترق القارة في اواخر القرن الثامن عشر من البحر الأحمر حتى بلغ اعالي النيل الازرق في الحبشة (الاتبرة) ثم

---

(١) من قلم العلامة جلبرت جروفنر



افريقية سنة ١٩٠٤



افريقية سنة ١٨٠٠



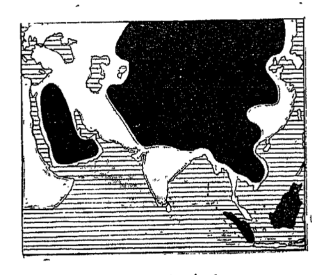
اميركا الشمالية سنة ١٩٠٤



اميركا الشمالية سنة ١٨٠٠



لسيا سنة ١٩٠٤



اسيا سنة ١٨٠٠

الرواد صفحة ١٨



جماعة من قدماء الرواد

١ — كولمبوس (انظر صفحة ٥٩) ٢ — اميركوس فسپوشيوس انظر صفحة ٦٦) ٣ — جاك كارتييه مكتشف نهر سنت لورنس في اميركا الشمالية ٤ — فرديننـد كورتز رائد برتوغالي ٥ — فاسكو دي غاما (انظر صفحة ٧٧) ٦ — فرنسسكو بيزارو الاسباني مكتشف بلاد بيرو في اميركا الجنوبية وفاتحها ٧ — فرديننـد مجلان اول من دار حول الارض (انظر صفحة ٧٣)

الروّاد الصفحة ٥٩

سار حذاء النهر حتى ملتقاه بالنيل قبلي بربر واستأنف السير من هناك الى القاهرة . اما الآن فقد اكتشف مجرى النيل على مدى طوله مسافة ٣٤٠٠ ميل وا كتشف ما طوله ٢٦٠٠ ميل من النيجر وبقي قسم صغير في اواسطه لم يكتشف بعد وما طوله ١٥٠٠ ميل من الزمبيسي نحو ٣٠٠٠ ميل من الكنجو وهو نهر لا يفوقه حجماً الأنهر الامازون في اميركا الجنوبية

اما مكتشف مجرى النيجر فجراح انكليزي اسمه منجو بارك انتدبته الجمعية الأفريقية الأنكليزية لذلك فسافر من غمبيا في غربي القارة سنة ١٧٦٩ الى مسافة مئات من الأميال وعاد الى انكلترا ثم استأنف السير سنة ١٨٠٥ فقطع نحو الفي ميل من النهر بقاربه ومعه اربعة من الرفاق حتى اذا كاد يبلغ منابعه هاجم الأهالي قاربه فانقلب به وغرق قبل ان يدرك غايته ويبلغ امنيته

وبعد موت بارك قام دنهام وكلابرتون فسافرا من فزان جنوباً الى الصحراء الكبيرة واكتشفا بحيرة تشاد ثم سارا الى سكوتو على النيجر .وتلاهما سائح فرنسوي اسمه كاليه فوصل مدينة تمبكتو سنة ١٨٢٨ . ثم سائح آخر اسمه نختجال فسار من النيجر الى بحيرة تشاد وتوجه شرقاً ماراً في وداي ودارفور والسوذان المصري

على ان من اعظم المكتشفين لفنستون الرحالة الانكليزي الشهير فانه سافر الى افريقية سنة ١٨٤٠ وكان طبيباً مرسلا فبدأ سياحته من مدينة الراس وظل يتوغل شمالا فلما جاءت سنة ١٨٤٩ حتى كان على بعد ٨٠ ميلا من مدينة مفكنج جنوباً و١١٠٠ ميل من مدينة الرأس . واكتشف بحيرة نجامي وما زال يوالي السفر حتى بلغ ساحل الاتلنتيكي عند مدينة لواندا ثم عاد الى نهر الزمبيسي واكتشف الشلالات التي سماها باسم الملكة فكتوريا وبحيرتي نياسا وشيرا اللتين يجري نهر الزبيسي منهما

وسنة ١٨٥٩ سافر الضابطان الانكليزيان برتون وسبيك من زنجبار قصد اكتشاف بحيرة كثر التحدث بها في تلك الايام فبلغا بحيرة تنجنيكا ثم عادا الى زنجبار وافترقا فسافر برتون جنوباً وسبيك شمالا برفقة صديق له واكتشفا بحيرة فكتوريا نيانزا سنة ١٨٦١ . وفيما كانا يدوران حولها وجدا نهراً كبيراً يخرج منها (البحر الابيض) ويجري شمالا فسارا حذاءه حتى التقيا بالسر صموئيل باكر (باشا) وكان قد قدم من الخرطوم واستأنف باكر المسير غرباً حتى اكتشف بحيرة البرت نيانزا . وهذه البحيرة وبحيرة فكتوريا نيانزا هما البحيرتان اللتان يستمد النيل اكثر مائه منهما

وفي سنة ١٨٦٥ قصد لفنستون بحيرة تنجنيكا واكتشف بحيرتين اخريين ثم انقطعت اخباره عن اوربا فأوفد المستر غوردون بنيت صاحب جريدة نيويورك هرالد الرحالة ستنلي للتفتيش عنه كما هو معلوم فسافر ستنلي من زنجبار غرباً حتى بلغ يوجيجي على ساحل بحيرة تنجنيكا الشرقي فوجده فيها . ودار ستنلي حول بحيرة فكتوريانيانزا ثم اكتشف بحيرة البرت ادورد وتوجه غرباً فبلغ نهر الكنجو وسار حتى ساحل الاتلنتيكي. وفي سنة ١٨٧٨ عاد يسعى في اجتياز افريقيا من الغرب الى الشرق للتفتيش عن امين باشا وانقاذه. فسافر من مصب الكنجو فرأى في سفرته هذه جبال القمر

وتلاه سياح ورواد آخرون فاكتشفوا بلاداً أخرى مجهولة منهم ذونلدسن سمث فانه سافر من بربرة واكتشف الارض الواقعة بين بحيرة رودلف والنيل . ومنهم جروجان فانه اجتاز القارة من مدينة الراس الى القاهرة فكانت سياحته هذه خاتمة الاسفار الافريقية المشهورة التي تمت في القرن الماضي

الاصقاع المتجمدة الشمالية

كان لرواد الاصقاع المتجمدة الشمالية في القرن الماضي ثلاث غايات يرمون اليها الاولى اكتشاف طريق شمالية غربية توصل الى الهند . والثانية اكتشاف طريق شمالية شرقية . والثالثة بلوغ القطب الشمالي . اما الغايتان الاولى والثانية فتمتا لهم فان مكلور اكتشف طريقاً صعبة من بوغاز بيرين الى اوربا بين سنة ١٨٥٠ و١٨٥٣ والبارون نورد نسجولد العالم الاسوجي سار حذاء ساحل آسيا فوصل الاوقيانوس الباسيفيكي وكان ذلك حوالي سنة ١٨٨٠ . على ان اكتشاف الطريقين لم يفد الناس فائدة تذكر ولا يبعد ان الطريق الثانية تفيد تجار الخشب والفرو وما اشبه من حاصلات البلدان الشمالية متى تقدمت تجارة سيبيريا

بقيت الغاية الثالثة اي اكتشاف القطب الشمالي وهي وان لم تتم بعد الا انها كادت تتم على ايدي ابطال المكتشفين مثل هول ولو كوود ونانسن وامبروزي فان كلاً منهم تقدم نحو القطب عن سالفه حتى لم يبق بين القطب وآخر مرحلة بلغوها سوى ٣ درجات و٢٧ دقيقة وكان قد سبق هؤلاء الاربعة نفر من الرجال فاكتشفوا اماكن عديدة لم تكن قد اكتشفت بعد—اشهرهم مكنزي وبري وفرنكلين وروس. على ان أفجع تلك الاسفار ما ألم بالسر جون فرنكلن ورفاقه وكانوا ١٢٨ نفساً . وتحرير الخبر انه ركب سفينتين هو وجماعته في شهر مايو سنة ١٨٤٥ ثم انقطع خبرهم

واحى أثرهم. وعرف فيما بعد ان الجمد سد المسالك على سفينتهم فمات فرنكلين في يونيو سنة ١٨٤٧ وكان عند جماعته حينئذ زاد يكفيهم سنة ومات ٢٤ نفساً منهم ولما كان الجمد لا يزال يكتنف السفينتين عقدوا النية ان لا ينتظروا ذوبانه بل يفتحوا لانفسهم طريقاً. ولم يعلم شيء عنهم بعد ذلك مع ان حملات كثيرة ارسلت براً وبحراً للتفتيش عنهم في كل الجهات حتى اذا كانت سنة ١٨٥٤ التقى الرحالة راي بشاب من الاسكيمو فاخبره هذا ان قومه رأوا منذ اربع سنوات ٤٠ رجلا ابيض يجرون قارباً في مكان معلوم. ولم يمض على ذلك اشهر قليلة حتى عثر الرحالة المذكور على ثلاثين جثة من جثثهم . وفي سنة ١٨٥٠ أرسل مكلور وكولنسن للتفتيش عن سائر المفقودين من رجال الحملة من الغرب الى الشرق فلقي حملة قادمة من الشرق بقيادة السر ادورد بلتشر ولم ير هو ولا غيره اثراً لفرنكلين ولا سمعوا بما جرى له مع انهم والوا البحث والتنقيب تسع سنوات متتابعة . إلا ان امرأة فرنكلين لم تيأس فجهزت سنة ١٨٥٩ حملة سارت بقيادة مكلنتوك فعثرت على هيكل انسان في بلاد الملك وليم وتوصل هوبسون الى معرفة ما جرى للحملة من سنة ١٨٤٥ الى ١٨٤٨ . وكانت نتيجة هذه الحملة معرفة مواقع الجزر الممتدة على الساحل الشمالي من اميركا الشمالية

الاصقاع المتجمدة الجنوبية

حول القطب الجنوبي بقعة لم تطأها قدم انسان بعد وهي ضعف اوربا مساحة ولا يعلم ما اذا كانت ارضاً يابسة او بحراً كبيراً

وأهم الذين قصدوا تلك الاصقاع للاكتشاف الكبتن سمث فانه اكتشف جزائر شتلاند الجنوبية سنة ١٨١٦ وتلاه كثيرون غيره واكتشفوا اراضي أخرى ابعدها على عرض الدرجة الثامنة والسبعين وكان الذي بلغ هذا العرض السر جيمس روس من مشاهير المكتشفين في الاصقاع الشمالية كما تقدم وذلك سنة ١٨٤٢ . ولم يتجاوز احد هذا الحد إلا بور شجرافنك سنة ١٨٩٩ فانه بلغ عرض ٧٨ و٥٠ . وهذا اقصى ما وصل اليه انسان في تلك المجاهل السحيقة حتى آخر القرن الماضي

استراليا

استراليا قارة تساوي الولايات المتحدة الاميركية مساحة وعدد سكانها الانكليز الآن ستة ملايين لا غير. وفي أواخر السنة الاخيرة من القرن الماضي اتحدوا والفوا حكومة مستقلة استقلالا ادارياً وقد كانت استراليا في السنة الاولى من القرن الماضي

بلاداً مجهولة تسكنها قبائل همجية منحطة في سلم المدنية وجماعة من الانكليز متفرقة على ساحل البلاد المعروفة اليوم باسم نيوسوث ويلس واما سائر اقسام القارة فلم يكن يعرف عنها شيء

وفي أواخر القرن الماضي اكتشف الكبتن كنغ مصاب أنهر استراليا وسواحلها الشمالية والغربية وما بينها . وقام بعده ستيوارت فاكتشف نيوسوث ويلس واوغل في القارة حتى بلغ أواسطها وعاد فجدد الكرة واجتازها من جهة الى جهة سنة ١٨٦٢ فكان أول ابيض فعل ذلك وتلاه كثيرون فاكتشفوا أماكن مجهولة حتى لم يبق من القارة سوى أماكن قليلة لم تكشف ومعظمها صحارى قاحلة

اميركا الشمالية

أهم الاكتشافات الجغرافية التي جرت في القرن التاسع عشر كان في اميركا الشمالية وخصوصاً الولايات المتحدة الغربية. ومعظم الفضل في ذلك عائد على المستعمر والمعدن لا على الجغرافي ولا السائح المكتشف . وقد كانت البلاد الواقعة غربي نهر مسسيبي والجبال الصخرية في جملتها مجهولة سنة ١٨٠١ . فكانت كتب الجغرافية المعروفة حينئذ تصف اميركا الشمالية بانها بلاد « معظمها سهول مستوية قليلة الانحدار ليس فيها من الجبال الشامخة غير الجبال الواقعة نحو القطب والجبال التي تخرق الولايات المتحدة الشرقية وتسمى جبال اليغاني »

إلا ان كثيرين من الرواد والمكتشفين ساعدوا في اكتشاف بعض الاماكن المجهولة مثل وادي نهر مسور والجبال الصخرية وكليفورنيا وغيرها . ومن أولئك الرواد فريمونت ولويس وكلارك وبيك وبونفيل وبويل وغيرهم كثيرون

اميركا الجنوبية

ليس بين القارات الست قارة يجهلها الناس الآن مثلما يجهلون هذه القارة مع انها كانت منذ مئة سنة اشهر القارات واعرفها ما عدا اوربا . فان الجزويت أوغلوا فيها بطريق الأنهر التي تخترقها من كل جانب حتى بلغوا قلبها ورسموا خرائط الاماكن التي مروا بها

ومن اشهر مكتشفيها همبلت المشهور فانه ساح في كثير من بلادها وكان اول من توسع في تفسير كلمة « جغرافية » فاطلقها على وصف اقاليم البلدان وهوائها وتوزع الحيوان والنبات فيها وطبيعة تربتها ولم يقتصر على رسم الأنهر والجبال وغيرها كما

ترسم الخرائط عادة . وتلاه مكتشفون آخرون مثل سيكس ومارتيوس وشومبرج وكريفو فاكتشفوا كثيراً من الأماكن التي لم تكتشف قبلا فصارت اميركا الجنوبية على ما نراها الآن

اسيا

كان ماركو بولو الاوربي الوحيد الذي جاب جزءاً كبيراً من اسيا قبل سنة ١٨٠٠ وما استهل القرن التاسع عشر حتى امها المكتشفون من كل ملة ونحلة ورسموا خارطتها فجاءت مضبوطة في مجملها وأوفدت روسيا عدداً عديداً من الرجال للاكتشاف من الشمال الشرقي فقامت انكلترا تناظرها وارسلت رجالها من الجنوب . وربما كان اكتشاف مجاهل اسيا اصعب مراساً وابعد منالا من اكتشاف مجاهل افريقية او استراليا او اميركا الشمالية لان الاجنبي كان يلتقي فيها مئات من ملايين الشعوب والقبائل التي تختلف في طباعها واخلاقها عن متوحشي افريقية فتقف في سبيله وتحول دون تقدمه

وفي سنة ١٨٢٩ دخل همبلت اواسط اسيا وسواحل بحر قزبين . وعقبه المرسل الفرنسوي هوك فعبر بلاد التبت سنة ١٨٤٤ — ١٨٤٥ وأقام عدة اشهر في لاسا عاصمتها . وساح بلجراف في بلاد العرب حوالي سنة ١٨٦١ واجتازها من جهة الى جهة . ثم قام السائح جارنييه المشهور وساح في كمبوديا والصين وقطع اكثر من ٥٠٠٠ ميل في بلاد لم يعرفها الغربيون قبلا . وتلاهم كثيرون غيرهم مثل سفن هدن ورشتوفن وروكهل فاكتشفوا اقاليم كثيرة ومسحوها وعينوا مواقعها في الخارطات فاصبحت اسيا وهي تكاد تعرف كلها

الخاتمة

وغاية القول ان تقدم الجغرافيــة في القرن التاسع عشر كشف خبايا كل زاوية من زوايا الأرض امام اهالي اوربا واميركا . بل ان تقدم العلوم الجغرافية فيه اماط النقاب عن اصل الأرض وكيفية تكونها . فان علم الجيولوجيا الذي يبحث في طبيعة قشرة الأرض وتكونها يخبرنا عن الدور الجليدي ويدلنا بواسطة البقايا المتحجرة على أن الحياة ظهرت في الارض منذ الوف الملايين من السنين . ثم ان علم الظواهر الجوية الذي يبحث في أحوال الهواء المحيط بالارض وعلم اعماق البحر انما هما نتيجة تقدم الجغرافية في القرن الماضي . وسيكون مدار بحث الانسان في هذا القرن على سبر غور البحار لحل اسرارها وهتك استارها

مقتطف نوفمبر ١٩٠٤

تخطيط البلدان ورسم الخرائط

يسألنا قراء المقتطف مرة بعد أخرى عن اسم المكتشف الأول لهذا الامر او ذاك والمستنبط الاول لهذه الآلة او تلك والواضع الاول لهذا العلم اوذاك ونحوذلك من المسائل الدالة على رغبة السائل في البحث والتنقيب فنجيبهم بما يحضرنا او بما نقف عليه في كتب القوم . وقد سئلنا الآن عن واضع علم الجغرافيا المعروف بتخطيط البلدان وكنا قد عثرنا على صورة الخريطة التي رسمها الشريف الادريسي منذ نحو ٨٠٠ سنة بامر الملك رجار صاحب صقلية فرأينا ان نرسمها ونضيف اليها رسم الخريطة التي وضعها بطليموس قبل ذلك ونجمع مقالة وجيزة في هذا الموضوع نذكر فيها تاريخ هذا العلم منذ نشأته الى ان بلغ العرب وانتقل منهم الى الافرنج

اول صورة يتصورها المرء للارض انها جسم مسطح مستدير. كذا كنا نتصورها ونحن اطفال وكذا كان الناس يتصورونها في طفولية نوع الانسان وكانوا يحسبون البحر يحيط بها من كل ناحية . واول من ركب البحر وبلغ الاقطار الشاسعة واخبر غيره بما رأى فيها ووصلت اخباره الينا الفينيقيون اسلاف السوريين تلك الامة التي كانت لا يقر لها قرار الا بالسفر وركوب الاخطار مثل ابنائها في هذا العصر فانك تراهم منتشرين في كل الممالك والبلدان من اليابان شرقاً الى اقاصي اميركا غرباً ومن بلاد الروس شمالا الى بلاد الراس جنوباً فلا تخلو قارة ولا مملكة منهم . ويظهر مما أورده هوميروس في اشعاره انهم كانوا قد جابوا البحر الاسود وقطعوا البحر المتوسط ودخلوا الاوقيانوس الغربي (الاتلنتيكي) واستوطنوا اسيا الصغرى في القرن الثاني عشر قبل المسيح وبلاد اليونان في القرن الحادي عشر وقرطاجنة في القرن التاسع. ويقال انهم طافوا حول افريقية كلها فساروا في البحر الاحمر جنوباً وداروا حول رأس الرجاء الصالح من جهة الجنوب وظلوا سائرين غرباً وشمالا الى ان دخلوا بوغاز جبل طارق وقطعوا البحر المتوسط وعادوا الى مصر . وكان ذلك في القرن السابع قبل المسيح في عهد الملك نخو من ملوك الدولة السادسة والعشرين من الدول المصرية . والدليل على صحة ما تقدم انهم قطعوا البحر حيث صارت الشمس عن يمينهم وهم متجهون غرباً ولا يكون ذلك إلا جنوبي افريقية. وقد استبعد هيرودوتس هذا الامر

ولكنه صحيح وهو دليل قاطع على صدق الخبر

وفي القرن السابع والسادس قبل المسيح زادت معارف الناس عن شكل الارض واتساعها وبلغ بحارة قرطاجنة الفينيقيون الجزائر الانكليزية في اقصى الشمال ووصفوها. ويقال ان طاليس وتلميذه انكسمندر اول من وضع رسم الخرائط وازال بعض الاوهام وذلك في القرن السابع قبل المسيح كما سيجيء

ثم نشأ هيرودوتس ابو التاريخ وابو الجغرافيا فوصف الممالك التي رآها في اسفاره الشاسعة وهي تشمل بلداناً طولها من الشرق الى الغرب الف وسبعمئة ميل وعرضها من الشمال الى الجنوب الف وستمئة وستون ميلا فضمن تاريخه المشهور كل ما كان يعلم عن سطح الارض في عصره. وكان المظنون حينئذ ان الارض تنتهي جنوباً بالاوقيانوس الهندي وغرباً بالاتلنتيكي وشرقاً باطراف بلاد الفرس الشرقية وشمالا ببلاد الكهرباء التي بلغها الفينيقيون في بحر بلطيك

ثم قام الاسكندر المقدوني ودوخ بلاد المشرق وبلغ بلاد الهند وبعث بالعلماء يجوبون الاقطار القاصية ويجمعون له اخبارها ونوادرها وكل غريب فيها حيواناً كان او نباتاً فكانت غزواته السياسية مشفوعة ببعثات علمية اتسع بها نطاق المعارف الطبيعية والجغرافية

ولما كان الاسكندر يخترق آفاق المشرق كان فيثياس المرسيلي الفينيقي يمخر بحار المغرب فدار حول اسبانيا وغاليا واجتاز بريطانيا ودخل الاوقيانوس الشمالي وبلغ جزيرة تولى التي يظن انها ايسلندا. قال ابو الفدا انها على نهاية المعمور في الشمال

هذا من حيث المعارف الجغرافية عند الاقدمين بنوع عام، اما تخطيط البلدان او رسم الخرائط فاقدم من ذلك كثيراً وأول خريطة وصلت الينا من الاقدمين خريطة مصرية قديمة رسمت في عهد رعمسيس الثاني على ما يظن وهي الآن في متحف تورين وفيها رسم وادي الايكة حيث كانت مناجم الذهب في بلاد النوبة. والبلاد جبال قاحلة ومفاوز محرقة يهلك فيها الانسان والحيوان في السير الى تلك المناجم. وفي الخريطة رسم الشعاب والصخور وقد أعلمت الجبال التي وجد الذهب فيها بحبر احمر. وفيها ايضاً اشارات الى الآبار التي في الطريق والمباني والمرافق المنشأة بقرب المناجم والطرق الممتدة الى البحر ولم يترك شيء في ذلك المكان الا رسم في تلك الخريطة. ومن هذا القبيل خريطة اخرى فيها رسم بحيرة الفيوم والمدن والهياكل التي حولها

ووجدت خريطة بابلية قديمة رسمت فيها مدينة سوسه واسوارها وحصونها وقصر الملك الذي فيها وساحة المدينة في وسطها يحيط بها رواق من ثلاث جهات ورستاق المدينة حولها فيه اشجار النخيل والمباني منتشرة فيه الى ضفة النهر . والمظنون ان هذه الخريطة صنعت في القرن السابع قبل المسيح

ولكن الخرائط البابلية والخرائط المصرية كانت قاصرة على رسم ما في بابل ومصر ولم تتجاوز الى البلدان القاصية ولا يبعد ان يكون الفينيقيون قد سبقوا غيرهم الى رسم الخرائط الكبيرة التي ترشد البحارة في سلك البحار لكن لم يصل الينا شيء منها. واول امة صنعت خريطة تشمل المسكونة كلها في ما يعلم الامة اليونانية فقد ذكر سترابون المؤرخ ان انكسمندر الذي ولد سنة ٦١٢ قبل المسيح صنع خريطة رسم فيها المسكونة كلها . وقال ديوجنس لارتس عنه انه اول من صنع الخرائط والمزاول (الساعات الشمسية) . اما المزاول فقد رجح الدكتور دالي انها نقلت الى بلاد اليونان من بلاد الكلدان . وقال هيرودوتس انه لما ذهب ارستاغورس الى كليومينس ملك اسبرطة سنة ٥٠٤ قبل المسيح ليحمله على غزو بلاد الفرس اراه صفيحة من النحاس عليها اسم دائرة الارض بكل بحارها وانهارها

ويقال ان هكتايوس الذي كان معاصراً لانكسمندر اصلح الخريطة التي رسمها انكسمندر بعد ان جاب الاقطار وكتب رحلته في كتابين جغرافيين بقي الناس يعتمدون عليهما قروناً كثيرة بعده

وكان الناس الى ذلك الحين يعتقدون ان الارض مسطحة مستطيلة من الشرق الى الغرب وتحتها قبو طويل تمر فيه الشمس ليلا وهو الجحيم (طرطاروس) مسكن أرواح الاشرار . ووراء اعمدة هرقل (جبل طارق) من ناحية الغرب خلائق غريبة الاشكال والى شماليها باب الجحيم ووراءه في جهة الغرب بعد طرف الارض اقطار الفردوس بلاد صيفها دائم ونسيمها لا ينقطع هناك تسكن نفوس الذين ارتضتهم الآلهة وهنالك جنات فيها تفاح ذهبي. والى الشمال والشمال الشرقي الشماريون المقيمون في ظلمة دائمة والهبربوريان [١] الذين لا يتعبون ولا يمرضون بل يعيش الواحد منهم الف سنة في نعيم مقيم

(١) الشماريون نسبة الى الشماري اقوام يزعم انهم يسكنون كهفاً مظلماً والهبربوريان من هبر وراء و بورياس زوبعة اي الساكنون غير البلاد التي تعصف فيها الزوابع

إلا ان طاليس الحكيم قال قبل ذلك بكروية الارض وبأن دائرة البروج غير موازية لخط الاستواء بل مائلة عليها وقسم الارض الى خمس مناطق او خمسة اقاليم. وخلفه انكسمندر وقال بكروية الارض ايضاً ويقال انه صنع كرة تمثلها. وجاء فيثاغورس بعده ولم يكتف بكروية الارض بل قال انها تدور حول الشمس لكنه كان يعلم بذلك سراً واذا تكلم جهاراً قال ان الشمس تدور حول الارض مخافة ان يكذبه الجمهور ويكفروه

ثم سافر فيثياس المرسيلي شمالاً فبلغ جزيرة ايسلندا كما تقدم ويقال انه اول من انتبه الى حساب العرض فانه رأى ظل المزولة يختلف طولاً في وقت معلوم باختلاف البعد عن خط الاستواء فاستدل به على مقدار هذا البعد اي على عروض الاماكن وكان ذلك في عهد الاسكندر كما تقدم

وبنى الاسكندر مدينة الاسكندرية في مصر لكي تكون مقر تجارة المشرق والمغرب فجعلها خلفاؤه البطالسة داراً للعلم والعلماء ايضاً وجمعوا فيها كل ما وصلت يدهم اليه من كتب العلم . وقام في ذلك الحين رجل اسمه اراتوستنس كان كتبياً في مكتبة الاسكندرية وعالماً كبيراً وبه ابتدأ علم الجغرافية حقيقةً . وكان الناس الى ذلك الحين يقيسون الابعاد بين الاماكن بالمراحل اى بالايام التي تقضى في قطعها ، ولا يخفى ما يقع في ذلك من الخطأ ، فقال انه يتعذر رسم خريطة صحيحة ما لم تعلم مساحة سطح الارض ولا تعلم المساحة ما لم يعلم محيط الارض وهذا يعلم اذا قيست درجات قوس من الهواجر وقيس طولها ثم تعلم الابعاد بعد ذلك بقياس الدرجات . واهتم بهذا الامر فوجد ان نور الشمس يقع عمودياً في اصوان وقت الظهر في الانقلاب الصيفي لانه اذا دخل بئراً عمودية حينئذ انار قاعها كله ولم يبق فيه ظلاً وفي ذلك اليوم عينه يكون نورها مائلاً في الاسكندرية سبع درجات و١٢ دقيقة فالبعد بين الاسكندرية واصوان سبع درجات و١٢ دقيقة اي جزء من خمسين جزءاً من محيط الارض وطول هذا الخط معروف فعرف منه محيط الارض. وكانت مكتبة الاسكندرية حاوية كل ما كتبه الذين سبقوه في الجغرافية فجمع منها كتاباً كبيراً وصنع خريطة للارض كانت أكمل ما صنع الى ذلك الحين وأصح من خريطة بطليموس الآتي ذكرها من بعض الوجوه

ونشأ بعده هبرخس الفلكي الشهير وهو اول من بدأ بقسمة سطح الارض الى دوائر وهمية تمر حولها من قطبة الى قطبة وتقطع خط الاستواء على ابعاد متساوية وهي خطوط الليل و بدوائر اخرى موازية لخط الاستواء ترسم على ابعاد متساوية وتصغر رويداً رويداً الى ان تبلغ القطبتين وهي خطوط العرض

وعني الرومان برسم الخرائط لسلطنتهم الشاسعة لكنهم كانوا يهتمون غالباً برسم الطرق الموصلة بين المدن المختلفة وما تمر به من الجبال والاودية والينابيع ارشاداً لجنودهم في غزواتهم ولقوافل التجار في رحلاتهم

وفي القرن الثاني قبل المسيح قام مارين الصوري واطلع على ما كتبه السلف في علم الجغرافيا وجمع اخباراً كثيرة نقلها عن البحارة واهل الرحلات والف كتاباً كبيراً في الجغرافيا اضاف اليه كثيراً من الخرائط رسم فيها خطوط الطول والعرض حتى تظهر مواقع المدن والاماكن الشهيرة كما هي . وعلى هذا الكتاب كان اعتماد بطليموس في جغرافيته الشهيرة كما اعترف هو نفسه . فان كان التاريخ قد بخل علينا بذكر الخرائط الاولى التي صنعها السوريون للبلدان الشاسعة التي اكتشفوها في رحلاتهم فهو لم يبخل بذكر هذا الكتاب الجغرافي الكبير الذي الفه مارين الصوري وعليه كان اعتماد بطليموس في جغرافيته. و يقال ان غاية ما فعله بطليموس تنقيح هذا الكتاب وقد اخطأ في هذا التنقيح قدر ما اصاب . وبطليموس هذا واسمه كلوديوس بطليموس من يونانيي مصر نشأ في الاسكندرية وكان حياً فيها سنة ١٦١ للمسيح واطلع على كتب من تقدمه واستخلص منها ومن مبتكراته العلمية كتابين كبيرين ارتشد بهما الناس ونسجوا على منوالهما الى ان بزغت شمس العلوم الحديثة منذ قرنين او ثلاثة وهما كتاب الجغرافيا المار ذكره وكتاب المجسطي في الفلك . وكتاب الجغرافيا هذا في ثمانية اجزاء ذكر فيها كل الاماكن المعروفة ووصفها وصفاً موجزاً وذكر اطوالها وعروضها وقد حسب الطول من جزائر كناري (الجزائر الخالدات) حاسباً انها ابعد المعمور غرباً لكنه حسب انها على درجتين ونصف غربي رأس سنت فنست بافريقية والحال انها على تسع درجات وثلث منه . وصنع ستاً وعشرين خريطة للبلدان المختلفة وخريطة واحدة تجمعها كلها

وخريطة بطليموس على ما تظهر هنا ليست افضل من خريطة اراتوستنس ولا



بطلميوس صاحب الجغرافيا والمجسطي

امام الصفحة ٢٨

خريطة الشريف الادريسي

خريطة بطليموس

يمتاز عليها الا بخطوط الطول والعرض ورسمها منحنية لكي تظهر بها كروية الارض وقد وصل كتابه الينا سليماً ووجدت نسخة يونانية منه كتبت منذ نحو سبع مئة سنة وهي الآن في دير الروم بجبل اثوس

وقد رسم الاقدمون بطليموس بصورة شيخ جليل القدر متكىء على صفيحة تحيط بها ابراج السماء ونقل هذه الصورة الدكتور دالي رئيس الجمعية الجغرافية الاميركية فنقلناها عنه

واطبق ليل الجهل بعد بطليموس ولكن بقيت كتبه تنير حنادس الظلم الى ان قويت شوكة العرب واستعانوا بالسوريين على ترجمة كتب اليونان واهتموا بعلم الجغرافية فنسجوا على منوال بطليموس واضافوا الى معارف اليونان والرومان ما عرفوه باسفارهم الكثيرة في اسيا وافريقية والاوقيانوس الهندي

قال الملك المؤيد ابو الفدا صاحب حماه في مقدمة كتابه تقويم البلدان " اني لما طالعت الكتب المؤلفة في البلاد ونواحي الارض من الجبال والبحار وغيرها لم اجد فيها كتاباً موفياً بغرضي . فمن الكتب التي وقفت عليها في هذا الفن كتاب ابن حوقل وهو كتاب مطول ذكر فيه صفات البلاد مستوفياً غير انه لم يضبط الاسماء وكذلك لم يذكر الاطوال ولا العروض فصار غالب ما ذكره مجهول الاسم والبقعة ومع جهل ذلك لا تحصل فائدة تامة . وكتاب الشريف الادريسي في الممالك والمسالك وكتاب ابن خردادبه وغيرها . وجميعهم حذوا حذو ابن حوقل في عدم التعرض الى تحقيق الاسماء والاطوال والعروض . اما الزيجات والكتب المؤلفة في الاطوال والعروض فانها عرية عن تحقيق الاسماء وضبطها مثل كتاب الانساب للسمعاني والمشترك لياقوت الحموي وكتاب مزيل الارتياب عن مشتبه الانتساب وكتاب الفيصل وكلاهما لابي المجد اسمعيل بن هبة الله الموصلي، فانها اشتملت على ضبط الاسماء وتحقيقها من غير تعرض الى الاطوال والعروض . ومع الجهل بالاطوال والعروض يجهل سمت ذلك البلد . ولما وقفنا على ذلك وتأملناه جمعنا في هذا المختصر ما تفرق من الكتب المذكورة من غير ان ندعي الاحاطة بجميع البلاد او بغالبها فان ذلك امر لا مطمع في الاحاطة به ، فان جميع الكتب المؤلفة في هذا الفن لا تشتمل الا على القليل الى الغاية »

ولم يحط ابو الفدا بكل ما كتبه جغرافيو العرب قبله ولم يقتصر الذين جاءوا بعده على ما عرف في ايامه ولذلك ففي كتبهم اكثر مما ذكر في كتابه . وقد وفي هذا الموضوع حقه في مقالتين مسهبتين أدرجت الاولى منهما في المجلد السابع من المقتطف والثانية في المجلد الثالث عشر منه

اما الخرائط الجغرافية التي كان العرب يرسمونها فاقتفوا بها اولا خطوات الرومان اي كانوا يرسمون المدن والطرق التي يسار بها اليها .ثم دعا الملك روجر صاحب صقلية الشريف الادريسي في القرن الثاني عشر للميلاد فألف له كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق شرح به كرة ارضية صنعها من الفضة وصنعت خريطة عن هذه الكرة وجعل الجنوب فيها الى فوق والشمال الى اسفل على ضد الخرائط المعروفة الآن

والشريف الادريسي من الادارسة اصحاب المغرب الاقصى ولد بسبتة تجاه جبل طارق سنة ٤٨١ للهجرة (١٠٨٩ للمسيح) ودرس بقرطبة من مدن الاندلس وطاف في اسبانيا وافريقية واسيا الصغرى ودعاه الملك روجر الثاني صاحب صقلية اليه لما بلغه عن علمه وفضله واجزل صلاته وعهد اليه في تأليف جغرافية مسهبة يصف بها بلدان المعمور، بانياً وصفه على المشاهدة فبعث بالرواد الى الاقطار المختلفة ليجوبوها ويحملوا اليه اوصافها وقياس اطوالها واعراضها ثم جمع ما كتبوه ولخصه في كتابه نزهة المشتاق. والظاهر انه غير الكتاب الذي ذكره ابو الفدا . ولم يتم تأليف نزهة المشتاق الا سنة ١١٥٤ وهو اوسع جغرافية الفت الى ذلك الحين .ولخص هذا الكتاب وطبع في كسروان وقد طبع جانب منه في ليدن سنة ١٨٦٦ اما الكتاب كله فلم يطبع حتى الآن

***

لقد كان اعتماد العرب على اليونان يقرب من العبادة فكانوا يأخذون بقولهم ولو تبينوا فساده بالامتحان، قال البيروني «الروم والهند اصدق سائر الامم عناية بهذه الصناعة ، ولكن الهند لا يبلغون غاية اليونانيين فيعترفون لهم بالتقدم ولمثله نميل الى آرائهم ونؤثرها . فاما الهند ففي كتبهم ان نصف كرة الارض ماء ونصفها طين يعنون البر والبحر . وان على ترابيع خط الإستواء اربعة مواضع هي جمكوت الشرقي والروم الغربي وكنك الذي هو القبة والبقاطر لها فلزم من كلامهم ان العمارة في النصف الشمالي

باسره » . وان صح ما فهمه البيروني من كلام الهند فهم يعنون بالمقاطر اميركا الشمالية وذلك دليل واضح على أنهم كانوا يعرفونها . ثم قال « واما اليونانيون فقد انقطع العمران من جانبهم ببحر اوقيانوس فلمالم يأتهم خبر الا من جزائر فيه غير بعيدة عن الساحل ولم يتجاوز المخبرون عن الشرق ما يقارب نصف الدور (الدائرة) جعلوا العمارة في احد الربعين الشماليين لا ان ذلك موجب امر طبيعي فمزاج الهواء الواحد لا يتباين ولكن امثاله من المعارف موكول الى الخبر من جانب الثقة فكان الربع دون النصف هو ظاهر الامر والاولى ان يؤخذ به الى ان يرد دليل لغيره خبر طارىء»

وهذا الكلام حسن ودليله هو الدليل العلمي المعول عليه الآن وهو ان امثال هذه المعارف موكول الى الخبر من جانب الثقة والاولى بان يؤخذ به الى ان يرد دليل على غيره ولكن كان الاولى بعلماء العرب ان يقفوا على ادلة اهل الهند في حسبانهم الارض منتشرة في النصف الشمالي كله فانها اذا كانت مبنية على الخبر من جانب الثقة فهي تشير الى اميركا الشمالية بلا ريب ولو فعلوا لعرفوا قارة اميركا قبل غيرهم

ويظهر تمسك العرب باقوال اليونان ولو خالفها اختبارهم مما ذكره ابو الفدا من تحقيق طول الدرجة الارضية قال « وقد قام بتحقيق طول الدرجة طائفة من القدماء كبطليموس صاحب المجسطي وغيره فوجدوا حصة الدرجة الواحدة من العظيمة المتوهمة على الارض ستة وستين ميلا وثلثي ميل . ثم قام بتحقيقه طائفة من الحكماء المحدثين في عهد المأمون وحضروا بامره في برية سنجار وافترقوا فرقتين بعد ان اخذوا ارتفاع القطب محرراً في المكان الذي افترقوا منه واخذت احدى الفرقتين في المسير نحو القطب الشمالي والاخرى نحو القطب الجنوبي وساروا على اسد ما امكنهم من الاستقامة حتى ارتفع القطب للسائرين في الشمال وانحط للسائرين في الجنوب درجة واحدة . ثم اجتمعوا عند المفترق وتقابلوا على ما وجدوه فكان مع احداها ستة وخمسون ميلا وثلثا ميل ومع الاخرى ستة وخمسون ميلا فأخذ بالاكثر . وقد تقدم ان القدماء وجدوا حصة الدرجة ستة وستين ميلا وثلثي ميل فبينهما من التفاوت عشرة اميال فينبغي ان يعلم ان ذلك انما هو للخلل في العمل ، لان مثل هذه الاعمال لايخلو من تفاوت اذ لايمكن الاحتراز من المساهلة والمسامحة تارة في استقامة الشيء على خط نصف النهار وتارة من جهة الذرع وغير ذلك ... وغالب عمل المتأخرين

انما هو على رأي القدماء لتعلق كثير من المسائل به »

ولم يكتف علماء العرب بهذا القياس بل قاسوا قياساً آخر بين تدمر والفرات فوجدوا الدرجة ٥٧ ميلا من اميالهم ومع ذلك بقوا على قياس بطليموس . لكنهم زادوا على ما نقلوه عن بطليموس في قياس عروض الاماكن ولا سيما ماتاخم منها بحر الروم شرقاً وما وقع منها في بلاد العرب واكثر الممالك الشرقية التي دانت لهم

ومن اهم الحقائق الجغرافية التي عرفها علماء العرب وجهلها علماء الافرنج الذين جاءوا بعدهم ان اسيا واوربا والجانب الاكبر من افريقية تشغل ربع سطح الكرة الأرضية لا غير . قال ابو الفدا في مقدمة كتابه تقويم البلدان ان خط الاستواء هو الدائرة العظيمة المتوهمة التي تمر بنقطتي الاعتدالين الربيعي والخريفي وتفصل الارض بنصفين احدهما شمالي والآخر جنوبي واذا توهمت عظيمة اخرى تمر بقطبي هذه الدائرة انقسمت الارض بها ارباعاً احد الشماليين هو الربع المسكون وثلثة الارباع غير معلومة الاحوال والاكثر على انها مغمورة بالماء . وانما حكم بان المعمور ربع لانه لم يوجد في ارصاد الحوادث الفلكيـة كالخسوفات تقدم ساعات الواغلين في المشرق لها على ساعات الواغلين في المغرب زائداً على اثنتي عشرة ساعة لكل ساعة خمس عشرة درجة وخمسة عشر في اثني عشر بمئة وثمانين وهو نصف الدور . وانما قيل ان المسكون الشمالي لانه لا يوجد اظلال انصاف نهار الاعتدالين في شيء من المساكن جنوبياً الا في قليل من مساكن على اطراف الزنج والحبشة لكن لا يزيد عرضها على ثلاث درجات . وفي جانب الشمال ايضاً لا يمكن ان يسكن في ما جاوز عرضه تمام الميل الكلي عرض ست وستين درجة ونصف تقريباً . والبحر محيط باكثر جوانب الارض، اما من جانب المغرب وشماله والجانب الشرقي فمعلوم ، واما جنوب المغرب فانه لم يصل احد فيه الى البحر، وكذلك شمال المشرق ليس لنا وقوف يقيني على البحر الذي فيه »

وفي اواخر القرن الثالث عشر طاف ماركو بولو البندقي في ممالك اسيا مع ابيه وعمه وكانا من كبار التجار و بلغ بلاد الصين واقام عند صاحبها زماناً عاملاً له ثم عاد الى بلاده ووصف الممالك التي رآها وصفاً مسهباً يذكرنا بوصف ابن بطوطة كأن احد الرجلين اقتفى الآخر . فاتسعت المعارف الجغرافية بذلك وصنعت خريطة جديدة

للعالم مبنية على وصف ماركو بولو ووصف رحالة آخر اسمه كدمستو ونقشت على جدار دير في البندقية لكن اهالي اوربا كانوا قد انكروا كروية الارض زعماً منهم ان القول بها مخالف لنص التوراة ولذلك لم يعودوا يهتمون بالطول والعرض الجغرافيين فلما رسموا خريطة مبنية على وصف ماركو بولو جعلوا اسيا تمتد الى النصف الغربي من الكرة الارضية حتى اعتقد كولمبس انه يبلغ الصين بالسفر اليها غرباً من اوربا. وكانت نتيجة هذا الخطإ انه اكتشف اميركا ثانية سنة ١٤٩٢ كما لا يخفى . قلنا « ثانية » لان اهالي اوربا اكتشفوها قبل ذلك في القرن التاسع او العاشر لكن اكتشافهم لها لم يأت بفائدة لانه لم يشتهر وانما المكتشف الحقيقي للشيء هو الذي يكشف للناس كيفية الانتفاع به

ولما كشف كولمبس اميركا ترجح ان الارض كروية او كمثرية ثم ثبتت كرويتها بدليل حسي لما طاف مجلان حولها سنة ١٥٢١

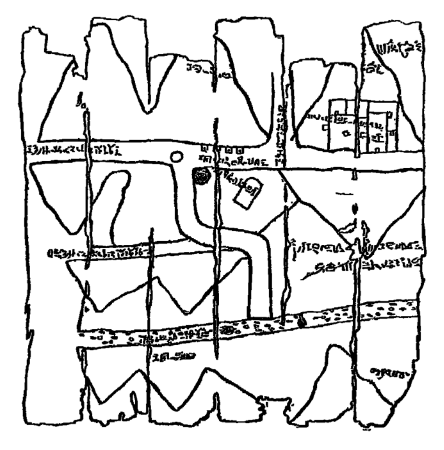
ورسمت اميركا اول مرة في خريطة اضيفت الى نسخة من كتاب بطليموس طبعت في رومية سنة ١٥٠٨ . وتقدم الناس في رسم الخرائط بعد ذلك كلما زاد تحقيقهم لمواقع الاماكن على سطح الارض الى ان قام مركاتور وصنع اولا خريطته التي في شكل قلبين متماسين من رأسيهما وهي مرسومة في نسخة تخصه من كتاب بطليموس تاريخها سنة ١٥٧٨ ثم صنع خريطته الثانية التي ترسم خرائط الملاحة على نسقها حتى الآن

ولم تزل المعارف الجغرافية تتسع وتتحقق عاماً بعد عام والخرائط تصحح بحسبها حتى لم يبق من الكرة الارضية غير مكشوف الا قليل من اواسط اسيا وافريقية وجهات القطبة الجنوبية . وانقسم علم الجغرافيا الى فروع كثيرة وألفت فيه الكتب الضخمة وصنعت له الاطالس الكبيرة ولا يزال يزيد اتساعاً واتقاناً باهتمام الاوربيين والاميركيين اما العرب فخرجوا من ميدانه منذ مئات من الاعوام .

مقتطف اغسطس واكتوبر ١٨٩٨

اقدم المناجم والخرائط

في اوائل القرن العشرين اهتمت شركة انكليزية بالبحث عن المناجم التي كان المصريون الاقدمون يستخرجون الذهب منها ومضى وفد الى الاماكن التي كانت فيها بين الاقصر والقصير فاكتشف سبعة عشر منها ووجد الذهب في بعضها كثيراً يبلغ ستة عشر درهماً في الطن



وقد اطلعنا الآن على اقدم خريطة من الخرائط المصرية التي بقيت الى الآن وهي اقدم خريطة وصلت الى ابناء هذا العصر مما صنعه الاقدمون وقد رسمت لتدل على مناجم الذهب في البلاد فرأينا ان نتحف القراء برسمها ووصفها فنقول :

تسلط على مصر منذ ثلاثة آلاف وثلثمئة سنة ملك اسمه ستي الاول وهو الذي بنى الرواق الاكبر في قصر الكرنك وكان فاتحاً عظيماً وقائداً كبيراً عبأ الجيوش ودوخ الاقطار ولم يكتف بالبناء والفتح بل وجه همته الى استخراج الذهب من معادنه . وقد وصلت الينا خريطة من البردي طولها نحو ٣٨ سنتمتراً في مثلها عرضاً

مشرمة الحواشي مشققة الصدر لكثرة الاستعمال ولما توالى عليها من القرون . وهذه الخريطة منقولة اصلا عن الخريطة التي رسمها لبسيوس الشهير وهي الآن في دار التحف البريطانية وفيها رسم واديين متوازيين ارتفعت الآكام على جانبي كل منهما ووصل بينهما شعب منحن . وأحد الواديين قاحل ملأته الحجارة والانجم الشائكة كما يظهر من صورته وهو الاسفل في الرسم والآخر كتب عليه انه يؤدي الى البحر . وفيه اسم اربعة بيوت من بيوت المعدنين عند سفح اكمة وهناك كلمة « معدن الذهب » . وعند اتصال هذا الوادي بالشعب الممتد الى الوادي الآخر ارض زراعية فيها بئر او صهريج بجانبه كتابة يقال فيها « بئر الملك ستي الاول » وصفيحة مثل الصفائح التي تنصب فوق المدافن ويحتمل انه كتب فيها تاريخ حفره لتلك البئر والمعدن . والى اليمين من هذه الارض والبئر اكمة قليلة الارتفاع عليها كتابة مصرية يقال فيها « هنا الجبال التي يصول فيها الذهب ولونها احمر مثل لون هذه الكتابة » . والآكام بين الواديين ملونة في الخريطة باللون الاحمر . وعلى الجانب المقابل من هذا الوادي اكمة اخرى ارفع من الاولى في سفحها رسم هيكل كبير للاله امون وعلى الاكمة كتابة مصرية يقال فيها « الجبل الطاهر »

والخريطة على بساطة رسمها تدل دلالة واضحة ناطقة على ما وضعت له وهي دليل قاطع على اهتمام المصريين القدماء باستخراج المعادن وعلى انهم اهتدوا الى رسم الخرائط واتخاذها دليلا للاهتداء بها وهذا امر لا يفعله ابناء هذا القطر حتى الآن من تلقاء انفسهم . ولا غرابة في ذلك لان عمران المصريين في تلك الايام كان ارقى من عمرانهم في هذا العصر اذا استثنينا ما استفدناه حديثاً من اوربا . وكان ارقى كثيراً من عمران العرب الذين فتحوا هذا القطر وتغلبوا عليه . ولا ندري كم كان ربح الدول المصرية القديمة من استخراج الذهب حينئذٍ ولكن لا شبهة في انها كانت تجود بنفوس الاسرى ولا تقدر لعملهم قيمة بل كانت تكتفي باطعامهم ما يقوّتهم لكي يبقوا قادرين على العمل

اما الآن فلا مطمع باستخراج الذهب الا اذا كان منه ربح يزيد على نفقات استخراجه ويبقى منه ربحاً لرأس المال يبلغ عشرة او اكثر في المئة والا فمعدن الرمل الذي يقوم بنفقات استخراجه و يبقى منه ربح عشرة في المئة اربح من معدن الذهب.

مقتطف سبتمبر ١٩٠٠

جغرافيو الاسلام(١)

١

لقد عني العرب في صدر الاسلام بالعلوم ففازوا منها بالنصيب الاوفر واحرزوا لهم في صفحات التاريخ ذكراً يخلد نفقت لهم سوق العلم وزهت دولة الحكمة في عصرهم والشعوب الاوروبية تتعثر في عشواء الجهالة وتخبط فيها . حصلوا علوم الاوائل بل زادوا فيها ومهدوا اصول الادب و بينوا مناهج الطلب ما عنوا بشيء من العلوم الا بلغوه وما طمعوا بمطلب من الفنون الا ادركوه ولهم في افانين العلوم وضروبها كتب جاءت بحل عقـد من مغازيها وجمعت من اشتات ضوابطها ومعانيها ما اثبت فضلهم وعظم قدرهم

ومن استطلع تاريخ الاسلام واستكشفه يعجب لما يراه من سرعة حركة الخواطر الادبية التي جاشت في الامة العربيـة اثر فتوح الممالك والبلدان وهي حركة عظيمة ما عتمت ان انبسطت في العالم الاسلامي اجمع وسرت منه منتشرة في سواه من الاقطار حيث أثرت بالافكار وجاءت بخير الثمار ، ونتائج الافكار لا تقف عند حد وتصرفات الانظار لا تنتهي الى غاية لان العلم المعنوي واسع كالبحر الزاخر . وكان ظهور الاسلام في القرن السابع وما استهل القرن الثامن إلا وملكهم عظيم متسع الارجاء وامرهم مستفحل في البلاد وكلمهم نافذة في الاقطار . فتحت بلاد الشام من سنة ٦٣٢ الى سنة ٦٣٨ وبلاد فارس بين الفرات والسند وجيحون من سنة ٦٣٢ الى سنة ٦٤٠ ومصر سنة ٦٣٨ والقيروان سنة ٦٤٧ وجزيرتا قبرص ورودس سنة ٦٤٩ ودانت بلاد ارمينية حتى جبال قوه قاف للخلفاء . وفي بداءة القرن الثامن فتح العرب بلاد ما وراء النهر سنة ٧١٠ وبلاد الاندلس من سنة ٧١١ الى سنة ٧١٤ فامتدت ولاية الخلفاء من حد الهند الى الاوقيانوس الاتلانتيكي ومن قنن جبال قوه قاف الى صحاري إفريقية الداخلية

واختص العرب من فتوحهم بنصيب الرومان في معرفة البـلاد والاصقاع فانهم ما وطئوا ارضاً إلا سبروها وما فتحوا بلاداً إلا استقصوها وكان من اثر اختلاطهم

(١) خطبة لسليم افندي شحاده تلاها في المجمع العلمي الشرقي ببيروت في جلسة مارس سنة ١٨٨٣

بالشعوب الاخرى تنبه الخاطر فيهم الى كسب علوم الاوائل فجدوا في هذا السبيل وسهل لهم تناولها ذكاء قد فطروا عليه وعاطفة طبيعية ازدانت بقوة التبصرة ونقاذ الفكر . واخذ العرب بداءة بدء الآداب اليونانية عن السوريين وهم تلقنوها عن النساطرة الذين كانوا نفروا عن البلاد الى فارس هرباً من اضطهاد قياصرة الروم لعلة دينية. وكان هؤلاء النساطرة على جانب من العلوم مهروا في الطب وشادوا مدرسة في ايذسا (مدينة الرها) وهي من اجل المدارس خربها زينون الايزوري فجددوا نشأتها في جند يسابور من خوزستام وهرع اليها العدد الكثير من الطلاب ولما وقف العرب على تصانيف حكماء اليونان ولعوا بها واخذوا في استقراء اسبابها وفوائدها ونشأت اسباب تلك الحركة الادبية في خلافة ابي جعفر المنصور العباسي وهو أول من عني منهم بالعلم واقبل على طلبه في مواضعه فداخل ملوك الروم وسألهم وصلة ما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا اليه منها بما حضرهم فاحضر لها مهرة المترجمين فترجموا له على غاية ما امكن وانتظم في دار الخلافة جماعة من ذوي الفهم اتقنوا كثيراً من الفلسفة والعلوم وكانوا يحدقون بالخليفة احداق الهالة بالقمر ونبغ جماعات اخرى من العلماء المحدثين في كثير من مدن الاسلام ذلك ما زاد عصر الخلافة فخاراً ورونقاً

واستيفاء الكلام في هذا الباب خارج عن حد مقالتي هذه اذ اختصها ببيان حال الجغرافية في صدر الاسلام وبذكر الاسباب التي آلت الى تقدم هذا العلم على ان هذه الاسباب كثيرة لايسعنا تعدادها بل نقتصر على ايضاح بعضها وهو اخصها واهمها. فمنها سعة فتوح الائمة من الخلفاء الراشدين فحاجتهم الى معرفة البلاد وشعوبها كانت اضطرارية أمس من حاجة غيرهم اليها لانها فتحت صلحاً وعنوة واماناً وقوة ولكل ذلك حكم في الشريعة في قسمة الفيء واخذ الجزية وتناول الخراج واجتناء المقاطعات والمصالحات وانالة التسويغات والاقطاعات فكانت معرفتهم البلاد التي دانت لدولتهم تشمل المعمورة بل القسم الاعظم منها . ومنها ايضاً اتساع نطاق تجارتهم وانتشارها في الاقطار شرقاً وغرباً جنوباً وشمالا وقد تعاظمت تجارتهم الى حد تجاوز حد فتوحهم على انه من البين المعلوم ان اقواماً عديدة من العرب تشاغلت منذ القدم في التجارة وكانوا في ايام الفينيقيين حتى بعد ذلك ايام البطالسة والرومان خير وساطة للتجارة بين البحر المتوسط وبلاد الهند . الا نعلم ان الفينيقيين انفسهم فرع من الشجرة العربية العظيمة وهم كانوا سادة البحر في ايام دولتهم ولا عجب ان رأينا تجار العرب في ذلك

العهد يقطعون الارض ذات الطول والعرض ويخوضون عباب البحر طلباً لاسباب التجارة فان اختلاطهم بالسواد الاعظم من شعوب القارة الآسيـة والقسم الشمالي من قارة افريقية كان الفاعل الاهم في رواج تلك الاسباب مع ما وجد فيهم من الميل الطبيعي للاتجار وقد حصلوا درجة مكينة لم يبلغها غيرهم من الشعوب القديمة حتى من جاء بعدهم قبيل اكتشاف البلاد الاميركية. وكان تجار العرب يتجرون في جميع انحاء المعمورة واطرافها وكانت قوافلهم منتشرة في الاقطار تخترق الجبـال وتقطع القفار فتأتيهم بالاموال والخيرات العظيمة وبالسلع المتنوعة الاشكال المختلفة الاجناس . وقد ترتب من ذلك عدة طرق تجارية يمكن حصرها في اربع تبـدأ من قادس وطنجة وتنتهي الى اقاصي البلاد الآسية اولاها تمر في الاندلس والاقطار الاوربية وبلاد الصقالبة حتى بحر الخزر وبلخ وبلاد تفزغز والثانية تخترق القسم الشمالي من افريقية ومصر والشام والكوفة وبغداد والبصرة والاهواز وفارس وكرمان والسند والهند واما الطريقان الاخيرتان فتعبران بحر الروم وتمر احداهما في سـورية والخليج العجمي والاخرى في الاسكندرية والبحر الاحمر وتلتقي بتلك في بحر الهند . وبعبارة اخرى اقول ان تجارة العرب امتـدت شرقاً الى الصين مارة في الجزائر الآسية وشمالاً الى اراضي القبائل الرحالة في اواسط آسيا والى بلاد الصقالبة (وهي الروسيـة) حتى شواطىء البلطيق وجنوباً الى ساحل افريقية الشرقي الى مدغشقر وغرباً الى اراضي السودان الشاسعة حتى شواطىء الاوقيانوس الاتلانتيكي

ومن الاسباب المنوه عنها فرض الحج على اهل السنة من الاسلام فكانوا يقصدون الكعبة الشريفة من اطراف البلاد على ما نراهم يفعلون حتى الآن ويجتمعون في ايام معلومة في بغداد والقاهرة ودمشق ويسيرون منها قاصـدين الاقطار الحجازية . كل ذلك مع حب الرحلة في طلب العلم الذي فشا امره بين العرب في القرن التاسع والعاشر للميلاد ساعد على تقدم المعارف الجغرافية فوضع طبقة من اهل الادب كتباً جليلة في هذا الفن دونوا فيها ما عرفوا من البلاد وما سمعوه من اخبارها اخذاً ونقلاً عن الرحالة والتجار والحجاج واهل السير والآثار . ومن الكتب التي صنفها المتقدمون من الاسلام في اسماء الاماكن ما قصد بتصنيفه ذكر المدن المعمورة والبلدان المشهورة ومنها ما قصد به ذكر البوادي والقفار واقتصر على منازل العرب الواردة في اخبارهم والاشعار. واما من قصـد ذكر العمران فجماعة سلكوا قريباً من طريقة المتقدمين من حكماء

اليونان في ذكر البلاد والممالك وعينوا مسافة الطرق والمسالك وهم ابن خردادبه واحمد ابن واضح والجيهاني وابن الفقيه وابو زيد البلخي وابو اسحق الاصطخري وابن حوقل وابو عبد الله البشاري والحسن بن محمد المهلبي وابن ابي عون البغدادي وابو عبيد البكري والقزويني وياقوت الرومي الحموي وشمس الدين المقدسي وابو الحسن علي الهروي والشريف الادريسي وابو الفدا وابو العباس احمد السرخسي وعلي بن حسين المسعودي والمراكشي وعبد الرشيد الباكوري وابو القاسم الشيرازي والشيخ ازري الاسفرائيني والشيخ تقي الدين المقريزي . واما الذين قصدوا ذكر الاماكن العربية والمنازل البدوية فطبقة اهل الادب وهم ابو سعيد الاصمعي وابو عبيد الشكوني والحسن بن احمد الهمذاني وابو الاشعث الكندي وابو سعيد السيرافي وابو محمد الاسود الغندجاني وابو زياد الكلابي ومحمد بن ادريس بن ابي حفصة وهشام بن محمد الكلبي وابو القاسم الزمخشري وابو الحسن العمراني وابو عبيد البكري الاندلسي وابو بكر محمد بن موسى الحازمي وابو الفتح نصر بن عبد الرحمن الاسكندري وبرهان الدين ابرهيم البقاعي وابو الفتح محمد الهمذاني وابن الجوراني وعلي بن محمد الخوارزمي ومحمد بن اياس الحنفي وابو المجد اسمعيل بن هبة الله الموصلي وابو الفضل البقالي الخوارزمي وابو عمر محمد الكندي وابو عبد الله محمد القضاعي والظاهري وابو الحسن احمد الاشعري . وعندنا ايضاً طبقة اخرى رحالة سطروا اخبار رحلتهم الى الآفاق واخص منهم بالذكر ابن بطوطة الرحالة المشهور . وبرع اهل الادب منهم في الجغرافية الوصفية الحاوية معرفة الممالك والبلدان والاصقاع والاقطار والمسالك والطرق وقد احاطوا علماً بالاقطار الاسلامية اكثر من غيرها من بلدان النصارى وغيرهم لما انهم كانوا يأبون الرحلة اليها وتفقه عادات اهلها واستقصاء احوالهم وامزجتهم وان ما رووه عنها جاء في مواضع كثيرة مشوهاً مغلوطاً ولا يؤاخذون بذلك لجهلهم لغات اولئك الامم والشعوب وعدم تيسر امتزاجهم بهم الناشيء عن اسباب جمة لا يسع ذكرها في هذه المقالة . وقد المع بذلك ابو الفداء في مقدمة كتابه تقويم البلدان حيث قال جمعنا في هذا المختصر ما تفرق في الكتب المذكورة من غير ان ندعي الاحاطة بجميع البلاد او بنا لها فان جميع الكتب المؤلفة بهذا الفن لا تشتمل الا على القليل الى الغاية فان اقليم الصين مع عظمته وكثرة مدنه لم يقع الينا من اخباره الا الشاذ النادر وهو مع ذلك غير محقق وكذلك اقليم الهند

فان الذي وصل الينا من اخباره مضطرب وهو غير محقق وكذلك بلاد البلغار وبلاد الجركس وبلاد الروس وبلاد السرب وبلاد الاولق (الفلاخ) وبلاد الفرنج من الخليج القسطنطيني الى البحر المحيط الغربي فانها بلاد كثيرة وبلاد عظيمة متسعة الى الغاية ومع ذلك فان اسماء مدنها واحوالها مجهولة عندنا لم يذكر منها الا القليل النادر وكذلك بلاد السودان في جهة الجنوب فانها ايضاً بلاد كثيرة الاجناس مختلفة من الحبش والزنج والنوبة والتكرور والزيلع وغيرهم فانه لم يقع الينا من اخبار بلادهم الا النادر وغالب كتب المسالك والممالك انما حققوا بلاد الاسلام ومع ذلك فلم يحصوها عن آخرها . اه

وكلما متعنا النظر في التصانيف الجغرافية العربية نرى انهم احسنوا فيها السبك والوضع وجمعوا بين اشتات الفوائد والحقائق وان قصروا دون تنسيقها العلمي واستقراء اسبابها لان بين هذين الامرين مرحلة لم يتهيأ لكثير من الشعوب ان يتخطوها وكفاهم نبلاً ما شادوا لهذا الفن من المباني واوجدوه له من المحاسن حسبما اداهم اليه الاجتهاد وقد تبلج فجره على الآفاق في المئة الثامنة للميلاد اعني في المئة الاولى للهجرة النبوية واخذ في النماء بعد ذلك لما سطعت شمس المعارف الاسلامية نيرة في جبين عصرهم مطوقة جيده بعقد من لآليها الحسان فانالتهم خطة رفيعة القدر بين الشعوب الشرقية

٢

واما المصنفات الجغرافية التي صنفت في خلال القرن الثامن المذكور فكانت عبارة عن رسالات وضعت لنفع القبائل البدوية تعريفاً للمنازل والمناهل والبوادي والقفار ومن ذلك كتاب النضر البصري كتبه في النصف الثاني من المئة الثامنة وهو نازل على خراسان والنضر هذا ولد سنة ٧٤٠ للميلاد وكتابه موجود في بعض المكاتب الاوروبية وقد اشتمل على وصف خواص الرجل والمرأة والمضارب والمنازل والجبال والمعابر والنوق والانعام والقمر والشمس والليل والنهار واللبن والخمرة والشجر والنبات والآبار والمياه والرياح والامطار. وقد احسن المصنف وضعه وضمنه ما تحتاج القبائل البدوية الى الاحاطة به ولدينا اسماء غيره من الكتب لا نخصها بالذكر في هذا المقام . على ان اول كتاب وضع في هذا الفن في وصف الممالك والبلدان مما اتصل بنا كتاب لابي اسحق الاصطخري وكان من علماء الاسلام ومشاهير الرحالة

والمتجولين الذين نبغوا في القرن التاسع والعاشر للميلاد فانهم كانوا ينزعون الى الرحلة والتجول طلباً لاسباب العلم والتقاطاً لدرره محاكاةً وتلقيناً نقلاً وروايةً وتعلماً فقد جمعوا في اسفارهم اشتات الاخبار ونوادر الآثار وتفحصوا خواص البلدان وامزجة الاقاليم . فطبقة منهم اقتصروا على تدوين اخبار رحلتهم واحاديث اسفارهم وطبقة اخرى دونوا مطالعاتهم في تصانيف تاريخية وجغرافية وادبية كما فعل الاولون من حكماء اليونان ومشاهير اهل الادب منهم لانه لم يكن لديهم من الوسائط ما لدينا الآن من وفرة الكتب والمصنفات في تنوعات العلوم وتفرعاتها مما جعلها دانية القطوف . وكانوا في اضطرار الى الارتحال طلباً للتحصيل وعليه فنرى ان فحول مؤرخي القدم كهيرودتس وبوليبيوس كانوا من اعاظم الرحالة كالمسعودي وابن حوقل في الاسلام. ونبغ ابو اسحق الاصطخري في النصف الاول من القرن العاشر وكانت ولادته في مدينة اصطخر من بلاد فارس رحل في طلب العلم وجاب بعض البلدان الاسلامية ودون اخبار رحلته. وجاء في كتابه بذكر الاقاليم والبلدان والجبال والانهار وبعض المسافات وان فاته وصف خواص البلدان وامزجتها فانه حري بالتعظيم وبان يكون في مقدمة الكتبة في هذا الفن.وقد اشتهر كتابه بين كتب المسالك والممالك ونقل منه ابن حوقل الذي نبغ بعده ببضع سنين واستشهد به في كثير مما ذكره . وقد اخذ ابو اسحق الاصطخري عن كتاب في المسالك والممالك لابي زيد البلخي يعرف بتقويم البلدان صنفه نحو سنة ٨٨٠ للميلاد كما نقل المسعودي من الفزاري فان اكثر جغرافيي الاسلام حذوا هذا الحذو ودونوا ما رأوه رأي العين في اسفارهم وتجولهم وما حصلوه في تطوافهم ونقلوا من كتب وتواريخ من تقدمهم من اهل الادب والمحدثين . ومن افواه الرواة وتفاريق الكتب وذلك ما ذهب اليه ايضاً جغرافيو اليونان وكتابهم ونرى ان بطليموس انتحل في كتابه الجغرافي جغرافية مارينوس الصوري . ومن الكتب المصنفة في هذا الفن في المئة التاسعة كتاب المسالك والممالك لابي العباس احمد بن محمد الطيب السرخسي المتوفي سنة ٨٩٩ للميلاد ذكره حجي خليفة وذكر غيره لعلي بن حسين المسعودي ولعبد الله بن عبد الله المشهور بابن خردادبه المؤرخ الجغرافي وهو اشبه بكتاب نزهة المشتاق للشريف الادريسي ولكنه اكثر منه ايجازاً وذكر فيه ان الطريق من موضع كذا الى موضع كذا مقدار من المسافة . وقال في مقدمة كتابه هذا رسم ايضاح مسالك الارض وممالكها وصفتها

ويعدها وقربها وعامرها على ما رسمه المتقدمون منها فوجدت بطليموس قد ابان الحدود واوضح الحجة في صفتها بلغة اعجمية فنقلتها عن لغته باللغة الصحيحة ليوقف عليها وكانت وفاته في حدود سنة ٩١١ للميلاد وقد ذكر الجيهاني كتابه وقال انه مختصر جداً لا يحصل منه فائدة كبيرة وقد ترجم هذا الكتاب الى الافرنسية وطبع في باريز سنة ١٨٦٥

﴿المسعودي﴾ اما المسعودي فكانت ولادته في بغداد حدود المئة التاسعة للميلاد وقد اقبل على طلب العلم والتجول منذ نشأته وجاب معظم قسم من الممالك الاسلامية وغيرها من البلدان المحيطة بها وكان مولعاً بالعلوم احرز الكثير منها في الحكمة والادب والتاريخ والجغرافية وفي سنة ٩١٥ كان نازلا على اصطخر فأقام بها مدة ثم رحل الى الهند وتفحص بعض اقطارها وكان قد جاءها مرة قبل اربع سنوات ثم عبر البحر الجنوبي وجاب سواحل افريقية الشرقية ومنها اجتاز البحر الى جزيرة العرب وليس لدينا من صحيح الرواية ما يحقق تواريخ اسفاره على انه يتحصل من مصنفاته انه انقطع عن الرحلة نحو سنة ٩٤٠ فلزم بيته متشاغلاً في تصانيفه الجليلة التي اثبتت له عظيم شهرة وكانت وفاته سنة ٣٤٦ للهجرة الموافقة ٩٥٧ للميلاد وقيل توفي في القسطاط

وللمسعودي كتاب اخبار الزمان ومن اباده الحدثان في التاريخ وهو تاريخ كبير قدم فيه القول بهيئة الارض ومدنها وجبالها وانهارها ومعادنها واخبار الابنية العظيمة وشأن البداء واصل النسل وانقسام الاقليم وتباين الناس ثم اتبع باخبار الملوك الغابرة والامم الداثرة في القرون الخالية واخبار الانبياء ثم ذكر الحوادث سنة سنة الى وقت تأليف مروج الذهب سنة ٣٣٥ للهجرة (سنة ٩٤٦ للميلاد) ثم اتبعه بكتاب الاوسط فيه فجعله اجمال ما بسطه ثم رأى اختصار ما وسطه في كتاب سماه مروج الذهب ومعادن الجوهر ورتب اخبار الزمان على ثلاثين فناً وكتاب اخبار الزمان لم يتصل بنا وهو عزيز الوجود وقد قيل انه اكتشف على نسخة في مكتبة السلطان محمد الثاني الفاتح في الاستانة العلية ولم نقف على خبر إيضاً لكتابه الاوسط وهو ينيف مع اخبار الزمان على عشرين مجلداً . واما كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر فمن اجل المصنفات العربية قال في مقدمته انه اراد فيه اجمال ما بسطه في كتاب اخبار الزمان واختصار ما وسطه في كتاب الاوسط وقال نودعه ما في ذينك الكتابين

مما ضمناها وغير ذلك من انواع العلوم واخبار الامم وقد طبع مروج الذهب في مصر وطبع ايضاً في ثمانية مجلدات في باريس مترجماً الى الفرنساوية باشر المجمع الشرقي في طباعته سنة ١٨٦١ وانجزها سنة ١٨٧٣ وقد قال ابن خلدون في مقدمة كتاب العبر وديوان المبتداء والخبر ما يأتي عن كتاب مروج الذهب : شرح المسعودي فيه احوال الامم والآفاق لعهده في عصر الثلاثين والثلث مئة غرباً وشرقاً وذكر نحلهم وعوائدهم ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول وفرق شعوب العرب والعجم فصار اماماً للمؤرخين يرجعون اليه واصلاً يعولون في تحقيق الكثير من اخبارهم عليه اه . وقد يتضح من ذلك توسط هذا الكتاب النفيس بين التاريخ والجغرافية لما حواه من الفوائد في هذين الفنين وقد ذهب بعض كتبة الافرنج الى تشبيه المسعودي بيلينيوس فسموه بلينيوس المشرق ووجه التشبيه بينه وبين بوليبيوس اولى من ذلك

﴿ ابن حوقل ﴾ ونبغ ابن حوقل في النصف الثاني من المئة العاشرة وهو ابو محمد بن العلي الموصلي التاجر الرحالة ولد في بغداد ونشأ بها واقبل على التجول في البلاد الاسلامية في عهد المسعودي يوم انقطع هذا من الارتحال الى بيته واستمر في حل وارتحال ثماني وعشرين سنة وذلك من سنة ٩٤٢ الى سنة ٩٧٠ للميلاد ودون اخبار رحلته سنة ٩٧٦ في كتاب سماه المسالك والممالك اقتصر فيه على ذكر صفات الممالك الاسلامية ولم يتعرض لغيرها الا قليلاً متنصلاً من ذلك بقوله في كتابه المذكور اما بلاد النصارى والحبشة فلم اتكلم عليها الا يسيراً لان تولعي بالحكمة والدين والعدل وانتظام الاحكام يأبى ان اثني عليهم بشيء من ذلك . وقد ذكر ابو الفداء كتاب ابن حوقل في مقدمة تقويم البلدان وقال ان كتاب ابن حوقل مطول ذكر فيه صفات البلاد مستوفياً غير انه لم يضبط الاسماء وكذلك لم يذكر الاطوال ولا العروض وصار غالب ما ذكر مجهول الاسم والبقعة اه.وهذا الكتاب مختص بالجغرافية من سواها قد شمل وصف الاقطار والاصقاع والمدن والبلدان والانهار والمناهل والغدران والسباسب والقفار وألمع في ثروة البلاد وتجارة اهلها وفي جباية الضرائب والفرائض وذكر مسافة الطرق والمسالك وقد حرص علماء الافرنج على اجتناء فوائده للالمام باحوال الممالك في تلك الازمنة وقد طبع هذا الكتاب في ليدن سنة ١٨٧٣ كما

انه طبع كتاب ابي اسحق الاصطخري سنة ١٨٧٠ واقدم احدهم على ترجمتها الى الالمانية

ومن المصنفات الجغرافية في القرن العاشر كتاب الممالك والمسالك لابي محمد حسين ابن احمد الهمذاني النحوي المتوفي سنة ٩٣٥ للميلاد ذكر فيه عجائب اليمن وجزيرة العرب واسماء بلادها وكتاب احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم للشيخ شمس الدين ابي عبدالله محمد بن احمد المقدسي الحنفي المعروف بابن البناء وهو كتاب جليل مرتب على الاقاليم العرفية ذكر فيه احوال الربع المعمور وبلاده وبره وبحره وجباله ونهره وطرقه ومسالكه ومعادنه وخواصه وقال انه لا بد منه للمسافرين ولا غنى عنه للعلماء والرؤساء وذكر انه جمعه بعد ما جال ودخل الاقاليم وتفطن مساحتها بالفراسخ واستعان على ما لم يشاهده بالفحص عنه من الناس . وقد صنف كتابه في سنة ٩٨٥ عشر سنين بعد ابن حوقل . ولابي عمر محمد بن يوسف الكندي المتوفي سنة ٩٦١ كتاب في خطط مصر وهو اول من صنف فيه

وفي عهد المسعودي راسل احد امراء بلاد اتل (فولجا) الخليفة المقتدر بالله يعرفه باسلامه ويسأله انفاذ من يعلمه الصلوات والشرائع ولم اقف على السبب في ذلك فأنفذ اليه رسلاً في جملتهم احمد بن فضلان مولى محمد بن سليمان فعمل هذا رسالة ذكر فيها ما شاهده منذ انفصل عن بغداد الى ان عاد اليها وقال فيها لما وصل كتاب المس بن شلكي يلطوار ملك الصقالبة الى امير المؤمنين المقتدر بالله يسأله فيها ان يبعث اليه من يفقهه في الدين ويعرفه شرائع الاسلام ويبني له مسجداً وينصب له منبراً ليقيم عليه الدعوة في جميع بلده واقطار مملكته ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له اجيب الى ذلك وكان السفير له نذير الحرمي . قال فرحلنا من مدينة السلام لاحدى عشر ليلة خلت من صفر سنة ٣٠٩ (سنة ٩٦١ للميلاد) ثم ذكر ما مر له في الطريق الى خوارزم ثم منها الى بلاد الصقالبة ما يطول شرحه ولم يتصل بنا من رسالة ابن فضلان الا شذر منها اثبتها بعض المصنفين في مصنفاتهم وفيما تبيناه قد حوت اخباراً وفوائد جمة عن بلاد الصقالبة واحوالهم وعاداتهم طابقت ما ذكره في البلدان الشمالية قسطنطين البرفيروجينيتي في كتاب له وضعه في سياسة المملكة وصنفه في نحو من ذلك العهد وكانت رحلة ابن فضلان الى بلاد الصقالبة متأخرة عن رحلة اهثر النروجي الذي رحل قبل بستين سنة وهو اول رحالة تجول

في روسيا الشمالية وتفحص شعوبها المنتشرة حتى سواحل البحر الابيض

٣

ونبغ ايضاً في الاسلام كثير من السياح الملاحين الذين خاضوا عباب البحر وجروا فيه الى اقاصي المعمورة واشهر هؤلاء السياح بل اولهم عهداً فيما ذكره المسعودي تاجر يسمى سليمان نبغ في النصف الثاني من المئة التاسعة للميلاد وكان مقيما ببلدة سيراف على ساحل بحر فارس وسيراف هذه كانت الفرضة العظيمة لفارس وكانت السفن تقصدها من جميع الاطراف حتى ومن الصين وملاسيا مشحونة بالسلع والاموال لاتساع نطاق التجارة يومئذ بين بلاد فارس والمشرق الاقصى . ورحل سليمان طلباً لاسباب التجارة واجتاز بحار الهند ماراً بين سيلان وملقا ودخل بحار الصين وقد دون اخبار رحلته ابو زيد البلخي في حدود سنة ٨٨٠ وزاد عليها ما نقله من غيره وحدثه به السياح الذين احتلوا سواحل الصين واخصهم ابن وهاب فانه جاب سواحلها وتفحص احوال اهاليها وقصد قاعدة المملكة فدخلها وهي فيما رواه على مسيرة شهرين من البحر وقابل سلطانها . وقد ترجم كتاب ابي زيد الى الفرنسوية وطبع في باريز سنة ١٧١٨ وهو مفيد لانه اول كتاب حوى وصف البلاد الصينية وقد ضبط ترجمته العالم رينود واعاد طباعته مع الاصل العربي سنة ١٨٤٥. ولابي زيد وهو احمد بن سهل البلخي المتوفى سنة ٩٥١ كتاب صور الاقاليم ايضاً ومسالك الممالك وكتاب البدء والتاريخ . ومما نعلمه ان تلك الاقطار لبعدها القاصي ولعذر مسالكها كانت موضوعاً للاخبار المستحيلة وخرافات القصاص عند العرب على شاكلة قصة سندباد البحري في كتاب الف ليلة وليلة وما ماثلها من الحكايات الغريبة والاحاديث الواهية التي كثيراً ما وقع لبعض مؤرخي العرب نقلها واثباتها بدون تمحيص واحكام نظر . وللعرب ايضاً قصص موضوعة على الاوقيانوس الاتلانتيكي الذي سموه ببحر الظلمات تبعاً لخرافات اليونان والرومان ومن ذلك خبر المغرورين الذين خرجوا من مدينة لشبونة (قاعدة البرتغال) وركبوا بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه والى اين انتهاؤه فانشأوا مركباً حمالاً ثم دخلوا البحر وجروا به نحواً من احدعشر يوماً فوصلوا الى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير التروش قليل الضوء فايقنوا بالتلف ولهم في ذلك اخبار نضرب عنها صفحاً وكان سفر المغرورين في حدود النصف الاول من القرن الثاني عشر للميلاد

ومما يحسن ذكره هنا انه ترتب على الصلات التجارية التي وجدت بين العرب والصين في ذلك العهد معرفة استخدام الحك وهي الابرة المغنطيسية وخاصتها ان يتجه طرفاها الى الشمال والى الجنوب وقد عرف الصينيون الحك من القدم ولكنهم لم يستخدموه في الملاحة الا في حدود المئة الرابعة للميلاد ويرجح الآن ان العرب نقلوا معرفة استخدام هذا الحك عن الصينيين في اسفارهم الى بلادهم وان الفضل للعرب في اتحافهم العالم الاوروبي بهذه الآلة النافعة فاخذها الافرنج عنهم في عهد التجريدة الصليبية الثانية . وقد احسن بعضهم ايضاً رسم الخرائط للملاحة ووضعوا لها قواعد محققة اهتدى بها الملاحون في ذلك العهد ونرى ان فاسكو دي غاما السائح البرتغالي المشهور اكتشف خريطة للملاحة عند مغربي في الجزرات استصحبه رباناً في سفره الى ملندة وذلك سنة ١٤٩٧ والبيوكرك الكبير نائب الملك في الهند احرز خريطة رسمها له رجل عربي يسمى عمر وكان يستخدمها في اسفاره في بحر عمان وبحر فارس

﴿ البيروني ﴾ ونبغ في القرن الثاني عشر للميلاد بعض الرحالة واهل الادب الذين صنفوا كتباً في الجغرافية واخص بالذكر منهم البيروني وهو الشيخ العلامة ابو الريحان محمد بن احمد البيروني الخوارزمي المتوفي سنة ١٠٣٨ صاحب قانون المسعودي في الهيئة والنجوم وكتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية في النجوم والتاريخ وهو كتاب مفيد الفه لشمس المعالي قابوس وبين فيه التواريخ التي يستعملها الامم والاختلاف والاصول التي في مبادئها . واشتهر البيروني في الرياضيات وعلم الهيئة وهو اول من حقق صفة بلاد السند وبلاد الهند الشمالية وقد صحب السلطان محمود الغزنوي في غزواته من سنة ١٠٠٠ الى سنة ١٠١١ واصلح ما وجده من الخطإ في خريطة تلك البلاد وضبط مواقع مدنها وفعل ما فعله غيره من المتقدمين في تحقيق البلدان الاسلامية وترجم الى العربية بعض مصنفات البراهمة الهنود المدونة في اللغة السنسكريتية والحق يقال انه من المجتهدين الذين سعوا في تقدم العلم فاحرز منه الكثير وافاد وقد طبع نبذ من الآثار الباقية في باريز مترجمة الى الفرنسوية

***

وللشيخ ابي محمد الحسن بن احمد النسابة كتاب في اسماء الاماكن ألفه سنة ١٠٣٦ للميلاد ولابي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الاندلسي المتوفي سنة ١٠٩٤ كتاب المسالك والممالك وكتاب المغرب في ذكر البلاد الإفريقية والمغرب صنفه سنة ١٠٦٨

وهو عبارة عن وصف القسم الشمالي من افريقية اعني من وادي النيل الى الاوقيانوس الاتلانتيكي ومن البحر المتوسط الى السودان وكتابه هذا مختصر غيره واظنه مأخوذاً عن كتاب المسالك والممالك وقد طبع في الجزائر سنة ١٨٥٧ وطبع ايضاً مترجماً الى الفرنسوية في باريز سنة ١٨٥٩ وله ايضاً كتاب سماه معجم ما استعجم من اسماء البقاع ذكره ياقوت وقال لم اره بعد البحث عنه والتطلب له اه . وهذا المعجم موجود في بعض مكاتب اوروبا وهو اول معجم وضع في العربية واقتصر فيه مصنفه على ذكر المنازل العربية الواردة في اشعارهم واخبارهم . ولابي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي المتوفي سنة ١٠٦٢ كتاب في خطط مصر سماه المختار في ذكر الخطط والآثار . وللشيخ ابي القاسم محمود الزمخشري المتوفي سنة ١١٤٣ كتاب الامكنة والمياه والجبال وهو معجم يحاكي معجم البكري وان كان اكثر ايجازاً منه الا انه اصح رواية منه في كثير من مواضعه وقد نقل عنه صاحب القاموس اسماء الاعلام الجغرافية وعول عليه في الكثير منها وهو كتاب لطيف وقف عليه ابو الحسن العمراني تلميذ الزمخشري فزاد عليه وقد ترجم الى اللاتينية وطبع في باريز سنة ١٨٥٦ ولابي الفتح نصر بن عبد الرحمن الاسكندري المتوفي سنة ١١٤٦ كتاب في اسماء البلدان وله ايضاً كتاب فيما اختلف وائتلف من اسماء البقاع اختصره الحافظ ابو موسى محمد ابن عمر الاصفهاني ذكره ياقوت وقال انه وجده تأليف رجل ضابط قد انفذ في تحصيله عمراً واحسن فيه عيناً واثراً وقد نقل منه في معجمه . ولعلي بن محمد الخوارزمي المتوفي سنة ١١٦٤ كتاب اشتقاق اسماء المواضع والبلدان ولابي الفضل محمد بن ابي القاسم البقالي الخوارزمي المتوفي سنة ١١٦٦ كتاب في منازل العرب

﴿ الادريسي ﴾ وللشريف محمد بن محمد الادريسي الصقلي كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق صنفه لروجر الافرنجي صاحب صقلية وهو من اصحابه ورتبه على الاقاليم السبعة واورد اوصاف البلاد والممالك مستوفياً وهي المسافات بالميل والفرسخ ولكنه لم يذكر الاطوال والعروض واختصره بعضهم . وهذا الشريف الادريسي من اشهر جغرافيي الاسلام الذين نبغوا في القرن الثاني عشر ولد في سبتة سنة ١٠٩٩ ورحل الى قرطبة في طلب العلم ثم رحل الى صقلية فاحسن روجر صاحبها وفادته وقربه منه فصنف له كتابه نزهة المشتاق وفرغ من تصنيفه سنة ١١٥٤ وعمل له ذات حلق وكرة مسطحة من الفضة زنتها ثماني مئة مارك رسم عليها جميع اقاليم واقطار

المعمورة المعروفة في عهده . وشأن الادريسي انه نقطة المماسة بين جغرافية الاسلام وجغرافية الافرنج وكتابه ترجم الى اللاتينية سنة ١٦٩٤ ترجمه اليها عالمان مارونيان هما جبرائيل الصهيوني الاهدني المتوفى ١٦٤٨ والخوري يوحنا الحصروني من جبل لبنان وهو اول كتاب في هذا الفن تداوله الافرنج وقد ترجم الى الفرنسوية سنة ١٨٣٦ وطبع في باريز وقد طبع القسم المتعلق في وصف المغرب وارض السودان ومصر والاندلس على حدة في ليدن سنة ١٨٦٤ مع ترجمته الى الفرنسوية وقد استعان الادريسي في تصنيف كتابه نزهة المشتاق بمصنفات من تقدمه من علماء هذا الفن وبما نقله عن غيرهم من اخبار التجار والملاحين وعرف الطرق والمسالك ما امكنه وجعل لكتابه ٦٩ رسماً نقلها عن كرته المنوه عنها . وله ايضاً كتاب روض الانس ونزهة النفس وهو اعم من كتاب نزهة المشتاق استعان به ابو الفداء وسماه كتاب الممالك وهذا الكتاب لا وجود له الآن وقيل بل يوجد منه نسخة في مكتبة باريز الملكية

ومن الكتب الموضوعة في هذا الفن كتاب مزيل الارتياب عن مشتبه الانساب لابي المجد اسمعيل بن هبة الله الموصلي ذكره المؤيد في تقويم البلدان اعتنى فيه بضبط الانساب فقط ولم يذكر الطول والعرض وله ايضاً كتاب التفصيل . وكتاب المسالك والممالك لابي الحسن علي المراكشي ذكره ابن الوردي . وكتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر لشمس الدين محمد الانصاري الدمشقي. وكتاب عجائب الدنيا للشيخ ازري الاسفرائيني وكتاب عجائب البلدان لابن الجزار . وكتاب اللباب الى معرفة الانساب لابي الحسن احمد الاشعري. وكتاب اسماء البلدان لابي الفتح محمد بن جعفر الهمذاني. وكتاب عيون اخبار الدنيا لمحب الدين النجار البغدادي المتوفى سنة ١٢٤٥ وكتاب عجائب الاسفار وغرائب الاخبار لابي القاسم مسلم بن محمود الشيرازي . وكتاب المسالك والممالك المشهور بالعزيزي لحسن بن احمد المهلبي الفه للعزيز بالله الفاطمي صاحب مصر ونسبه اليه . وكتاب المسالك والممالك لابي عبد الله الجيهاني وزير امير خراسان وكان صاحب فلسفة ونجوم فجمع الغرباء وسألهم عن الممالك ودخلها وكيف المسالك اليها ليتوصل بذلك الى فتوح البلدان فجعل العالم سبعة اقاليم وجعل لكل اقليم كوكباً ولم يفصل الكورة ولا وصف المدن بل ذكر الطرق شرقاً وغرباً وشمالاً وبذلك طال كتابه ، كذا قال صاحب احسن التقاسيم وقال واما ابن الفقيه الهمذاني فانه لم يذكر

الا المدائن العظمى ولم يرتب الكور والاخبار وادخل في كتابه ما لا يليق به اه . وكتاب زبدة كشف الممالك في بيان الطرق والمسالك في فضائل مصر واعمالها للفاضل خليل بن شاهين الظاهري . وكتاب الاشارات الى اماكن الزيارات لابن الجوراني ابتدأ فيه بذكر مدينة دمشق وما فيها من قبور الصحابة الى آخره. وكتاب منازل الارض ذات الطول والعرض للشيخ علي بن ابي بكر السائح الهروي المتوفي بحلب في سنة ١٢٠٣ وقيل في سنة ١٢١٤ ذكر انه كتب واستوعب فيه ما قدر عليه ووصل اليه في سياحته وله ايضاً كتاب الاشارات الى معرفة الزيارات مختصراً ابتدأ فيه من مدينة حلب وكتب ما رآه براً وبحراً من المزارات والمشاهد وذكر انه لم ير كثيراً مما ذكره اصحاب التواريخ ببلاد الشام والعراق وخراسان والمغرب واليمن وجزائر البحر ولا شك ان قبورهم اندرست . وذكر ان الانكتار (ريشارد) ملك الفرنج اخذ كتبه ورغب في وصوله اليه فلم يجب ،ومنها ما غرق بالبحر وانه زار اماكن ودخل بلاداً من سنين كثيرة فنسي اكثر ما رآه واعتذر عنه مع انه ذكر فيه من زيارات الشام و بلاد الفرنج والارض المقدسة وديار مصر والمغرب وجزائر البحر و بلاد الروم والجزيرة واطراف الهند والحرمين واليمن وبلاد العجم وهذا مقام لا يدركه احد من السياح والزهاد الا رجل كال الارض بقدمه واثبت ما ذكره بقلبه وقلمه

واكثر هذه الكتب عزيز نادر الوجود وبعضها قد اندثر ولا يعلم له من خبر ولدينا من اهل الادب الذين صنفوا في الجغرافية في القرن الثالث عشر للميلاد من قد اشتهر امرهم في الرحلة والتجول في الاقطار كابن سعيد المغربي الغرناطي القلعي الاندلسي ولد بغرناطة سنة ١٢١٣ وتوفي بتونس في حدود سنة ١٢٨٦ رحل الى القاهرة والى حلب وتجول الى دمشق ودخل ارجان وحج ثم عاد الى المغرب وقد صنف في رحلته مجموعاً سماه بالنفحة المسكية في الرحلة المكية وكان نزوله في ساحل افريقية سنة ٦٥٢ للهجرة ثم رحل ثانياً من تونس الى المشرق سنة ٦٦٦ للهجرة وله تآليف عديدة منها الموضوعان الغريبان المتعددا الاسفار وهما المغرب في حلى المغرب والمشرق في حلى المشرق وكتاب عدة المستنجز وعقلة المستوفز في رحلته الثانية .على ان تصانيف ابن سعيد مؤاخذة ببعض الخطإ الذي اصلحه ابو الحسن المراكشي في كتابه في وصف بلاد المغرب والاندلس فقد نقل ابن سعيد من كتب الاولين غير

منتقد واخذ عنه ابو الفداء في كتابه تقويم البلدان في ذكر العروض والاطوال فتعثر بزلاّته وسقط في خطائه

﴿ ياقوت ﴾ وكتاب معجم البلدان لياقوت الحموي اشهر من ان يذكر وهو الشيخ الامام شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي صاحب التصانيف المشهورة وكان يوناني المولد أُسر في حداثته فبيع من تاجر حموي مقيم ببغداد ونشأ في خير مولاه وطالع العربية وحصّل العلوم واشتغل بداءة بدء في الاتجار وكان مولاه ينفذه الى الاقطار في طلب اسبابها ورحل غير مرة الى جزيرة كيش الواقعة في وسط بحر فارس وكانت هذه الجزيرة وقتئذٍ محط رحال التجارة بين المشرق والمغرب وفيها كانوا يتبادلون متاع الهند وملاسيا بحاصلات مصر وبلاد الشام والمغرب الاقصى . ولما عتقه مولاه تعاطى التجارة لنفسه ولاسيما الاتجار في الكتب والتآليف ذلك ما سهّل له الاحاطة بجميع العلوم وادخار اشتات الفوائد التي دونها في مصنفاته الجليلة وزاد عليها ما شاهده في اسفاره وحصله في تطوافه وقد قضى سنين في الرحلة والتجول في بلاد العرب ومصر والشام والجزيرة وخراسان حتى شواطىء نهر جيحون ورحل الى القسطنطينية فيما رواه بعضهم عنه . وفي حدود سنة ١٢٢٠ كان في خوارزم لما اغار جنكيز خان مع التتر على البلاد فعاد الى بلاد الشام وتوفي فيها سنة ١٢٢٩ .اما كتابه معجم البلدان فانه من اجلّ الكتب الموضوعة في الجغرافية وقد احرز السبق عليها لانه جاء اعم من غيره لترتيبه على حروف المعجم وقد احاط بجميع اقسام المعمورة وذكر اسماء البلدان والجبال والاودية والقيعان والقرى والمحال والاوطان والبحار والانهار والغدران والاصنام والابدار والاوثان وتعرّض للكلام على صفة الارض وما فيها من الجبال والبحار وحذا حذو اليونان القدماء في قسمة الارض الى سبعة اقاليم وافصح في اشتقاقها والاختلاف في كيفيتها وجاء في تفسير الالفاظ التي تكرر ذكرها في كتابه مثل البريد والفرسخ والرستاق والجند والطول والعرض والصلح والسلم والفيء والغنيمة وذكر امزجة البلدان واهوائها ومطالع نجومها وانوائها وعاذا اختصت من الخصائص وضبط تصحيح الاسماء واشتقاقها والمع بذكر من دفن فيها من الاعيان والصالحين والصحابة والتابعين واورد نبذاً مما قيل فيها من الاشعار ومن ينسب اليها من العلماء والمحدثين وقد حرص على تدوين اخبار بعض الرحالة الى بلاد الفرنج وغيرهم مما جاء بعظيم فائدة كما فعله في اثبات رحلة ابن فضلان

الى بلغار . وقال ياقوت في مقدمته ما يأتي بعد ان ذكر كثيراً من الكتب وهذه الكتب المدونة في هذا الباب التي نقلت منها ثم نقلت من دواوين العرب والمحدثين ومن افواه الرواة وتفاريق الكتب وما شاهدته في اسفاري وحصلته في تطوافي اضعاف ذلك اه .وكان بمرو الشاهجان في سنة ٦١٥ (١٢١٨ للميلاد) لما وقع له بعض البواعث لجمع هذا الكتاب واسهب في ذكر ما لقيه من النصب والتعب في اتمامه ففرغ من تأليفه في سنة احدى وعشرين وست مئة (سنة ١٢٢٤ للميلاد) على انه اعاد النظر اليه وصححه غير مرة . وفي المكاتب الافرنجية عدة نسخ منه واحدة منها كان الشروع من تبييضها سنة ٦٢٥ وهذه النسخة طبعت في ليبسيك سنة ١٨٦٦ في ثماني مجلدات وزيد عليها فهرسة باسماء الاعلام الذين جاء ذكرهم في هذا الكتاب وله كتاب المشترك وضعاً والمفترق صقعاً انتخبه من كتابه معجم البلدان على الحروف وطبع في كوتنجن سنة ١٨٤٦ وقد اختصر ياقوت معجمه في كتاب سماه مراصد الاطلاع على مراصد الاطلاع ولم يتمه واختصره صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق وهذا المختصر موجود في المكاتب الاوربية وقد طبع في المانيا

﴿ القزويني ﴾ اما الشيخ زكريا بن محمد القزويني فقد نبغ في القرن الثالث عشر وكانت وفاته سنة ١٢٨٣ وله كتاب آثار البلاد واخبار العباد مجلد في الجغرافية على مقدمة وسبعة اقاليم وله ايضاً كتاب عجائب المخلوقات جمع به ما عرف وسمع من خصائص البلاد والعباد لكن فيه الغث والسمين وتاريخ تأليفه سنة ١٢٧٥ وهذان الكتابان طبعا في كوتنجن سنة ١٨٤٩ وقد سماه بعضهم بلينيوس المشرق لانه عني بالتاريخ الطبيعي ودوّن منه ما احاط به علماً وما نقله عن المتقدمين . ولزين الدين عمر بن المظفر بن الوردي المتوفى سنة ١٣٤٨ كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب مجلد نصف اوله في ذكر اقاليم وبلدان والباقي في بعض احوال المعدن والنبات والحيوان وهذا الكتاب موجود في المكاتب الاوروبية ولا يركن اليه لتعدد الزلات والشطط فيه . وللقاضي تاج الدين بن المتوج المتوفى سنة ١٣٢٩ كتاب اتعاظ المتأمل وايقاظ المتغفل في بلاد مصر

واشهر جغرافيي المئة الرابعة عشرة ابو الفداء فان ابا القاسم محمد النويري المالكي اقتصر على تدوين اخبار المتقدمين في القسم الجغرافي ولم يأت بفائدة جديدة ثم نبغ بعده الذهبي وهو شمس الدين ابو عبد الله محمد بن احمد بن عثمان المصري المتوفى سنة

١٣٤٧ وله المعجم الصغير . ولعبد الرشيد بن صالح بن نوري الباكوري الذي نبغ في حدود سنة ١٣٩٧ كتاب تلخيص الآثار في عجائب الاقطار. اما ابو الفداء فهو الملك المؤيد عماد الدين اسمعيل بن علي بن ايوب بن شاذي صاحب حماه ولد سنة ١٢٧١ للميلاد وصار من جملة امراء دمشق وبالغ في خدمة الملك الناصر محمد بن قلاوون الى ان وعده بسلطنة حماه وقام له بما وعده و بكل ما يحتاج اليه وكان فيه مكارم وفضيلة تامة مع فقه وطب وحكمة وغير ذلك . وكان اجدر ما يعرفه علم الهيئة لانه اتقنه وان كان قد شارك مشاركة جيدة وكانت وفاته سنة ١٣٣١ وكتابه تقويم البلدان طبع في باريز سنة ١٨٤٠ وقد ترجم الى اللاتينية وترجم قسم منه الى الفرنسوية . قال ابو الفداء في مقدمته قد جمعنا في هذا المختصر ما تفرق في كتب عديدة على ما ستقف عليه عند ذكرها وحذونا في تأليفه حذو ابن جزلة في كتاب تقويم الابدان في الطب وسمينا كتابنا تقويم البلدان وقبل ذكر البلاد في الجداول نقدم ما يجب معرفته في ذكر الارض والاقاليم السبعة والبحار اه .وقد جرى في تأليفه على تقسيم الاقاليم فانه ذكر في جداوله الاسماء واسماء المنقول عنهم والطول والعرض والاقليم الحقيقي والاقاليم العرفي وضبط الاسماء وبسط الاوصاف والاخبار العامة وهو مؤاخذ ببعض الاغلاط التي نقلها من كتب المتقدمين بدون انتقاد وتمحيص كما اخذ عن ابن سعيد في وصف بلاد المغرب بدون تحري ومع ذلك فان كتابه جدير بالمطالعة ويعد في طبقة المصنفات الجغرافية الجليلة التي خلفها لنا علماء العرب

﴿ابن بطوطة﴾ ومن اعظم متجولي الاسلام رحلة واكثرهم استيعاباً للاخبار ابو عبد الله محمد بن ابرهيم اللواتي الطنجي المشهور بابن بطوطة صاحب تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار خرج من طنجة مسقط رأسه في ١٤ حزيران سنة ١٣٢٥ وتجول في المغرب وافريقية وطرابلس وبرقة ومصر وفلسطين وبلاد الشام ثم رحل الى حلب وجاء دمشق وذهب حاجاً ثم رحل الى نجد وعاد الى الشام وطاف العجم والعراق وبلاد ما بين النهرين وعرج نحو الجنوب فدخل بحر بربرة وجاء كيلوا على ساحل افريقية الشرقي وعاد الى هرمز مخترقاً القسم الجنوبي من جزيرة العرب وجاب جزائر بحر فارس المشهورة بمغاصات اللؤلؤ ثم ذهب حاجاً ثانياً ورحل من الحجاز الى الشام ومنها دخل الاناضول وتجول فيها ومنها ركب البحر قاصداً القرم وتسوح في بلاد القفجق (قبجاق) وهي روسيا الجنوبية وكانت في ولاية ايد من

سليلة جنكيز خان ومن قفجق رحل الى بلغار قاعدة بلاد البلغار القديمة التي ذكرها ابن فضلان في رحلته وآثارها قائمة الى الآن على ضفة نهر الاتل وبلغ ابن بطوطة آخر حد من المعمورة في الشمال عرفه العرب وما وراءه ارض الظلمة وبينها وبين بلغار مسيرة اربعين يوماً ورغب في دخول ارض الظلمة لكنه اضرب عن ذلك لعظم المؤونة فيه وقلة الجدوى . قال والسفر اليها لا يكون الا في عجلات صغار تجرها كلاب كبار فان تلك المفازة فيها الجليد فلا يثبت قدم الآدمي ولا حافر الدابة بها والكلاب لها الاظفار فتثبت اقدامها في الجليد ولا يدخلها الا الاقوياء من التجار اه . وقد المع ابن بطوطة في كيفية الاتجار في ارض الظلمة وهي عبارة عن معاوضة يجريها التجار مع شعوب تلك البلاد ويأخذون بدلاً من متاعهم السمور والسنجاب والقاقم ورحل الى القسطنطينية واقام بها مدة يشاهد عظمة هذه المدينة ثم عاد الى قفجق ورحل منها متجولاً في البلاد الواقعة في شمالي بحر الخزر ودخل خوارزم (خيوا) وبخارى وخراسان وقندهار ووادي السند الفاصل بين الهند وايران واقام بدهلي قاعدة السلطنة الاسلامية في الهند سنتين ونصب على القضاء فيها ثم رغب في الرحلة فذهب رسولاً من السلطان الى سلطان الصين متجولاً في البلاد الممتدة من كنباية الى كاليكوت واضطر الى الاقامة بجزائر ملديف وولي فيها القضاء سنتين ثم نهض منها متتبعاً سيره الى الصين فدخل جزائر سيلان وسومطره وجاوه في سفره وشاهد عدة مدن من الصين واقام اياماً بخان يالق وهي بكين قاعدة المملكة ورحل عنها قاصداً المغرب وكان قد بارح بلاده منذ ٢٤ عاماً فوصل طنجه في حدود سنة ١٣٤٩ للميلاد وما لبث ان عاد الى الرحلة فدخل الاندلس وتطوف فيها مسرحاً نظره في مبانيها الفاخرة ومعاهدها الزاهرة لاسيما بلد غرناطة . وفي سنة ١٣٥٢ ذهب رسولاً من سلطان مراكش الى بلاد السودان وعبر البلاد الى ما وراء نهر تمبكتو ثم عاد الى فاس وفيها وافته المنية سنة ١٣٧٧ . ورحلته هذه طبعت في باريز سنة ١٨٥٣ ، وقد ترجمها بعضهم الى الفرنسوية وهي في اربع مجلدات ، وهي كثيرة الفائدة حوت من نوادر الاخبار ومشاهد البلدان والامصار ما تحلو مطالعته ، وان تخللها اشياء يتبرأ الانسان من صحتها فانه قد علق اكثر المواد بخطه وتقاعد عن تدوينها فضلاً عما اصابه من ضياع كتبه واوراقه في احدى رحلاته

وهاك بيان اسماء غيرها من الرحلات التي صنفها بعض العلماء الاعلام ، رحلة الشيخ

ابن حبيب ،ورحلة ابن جبير طبعت في المانيا، ورحلة ابن خلدون وهي عزيزة الوجود، ورحلة ابن رشيد، ورحلة ابن الصلاح ورحلة ابي القاسم التجيبي،ورحلة بدر الدين بن رضى الدين الغزي ، والرحلة الفيومية والمكية،والدمياطية للشيخ جلال الدين السيوطي ورحلة الكتاني ورحلة محمد بن رشد المالكي

***

﴿المقريزي﴾ وجلّ من نذكره فى هذه المقالة بعد من تقدم ذكرهم تقي الدين المقريزي المتوفى سنة ١٤٤٣ وله كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار طبع في مصر . ولبرهان الدين ابرهيم البقاعي المتوفى سنة ١٤٨٠ كتاب يسمي اسفار عن اشردة الاخبار ألفه سنة ٨٤٤ للهجرة لما خرج الى غزوة قبرص ورودس من البحر ولم يتيسر له الفتح سوى فتح قلعة الميش . ولمحمد بن اياس الذي نبغ في حدود سنة ١٥١٦ كتاب نشق الازهار في عجائب الاقطار اخذه من تواريخ الامم وذكر فيه أغرب ما سمعه واعجب ما رآه من عجائب مصر واعمالها وابتدأ فيه بذكر طرف يسير من اخبار الفلك وعلم الهيئة . والحسن ولد فى غرناطة في آخر المئة الخامسة عشرة ورحل وبجول في بلاد المغرب الشمالية فأسره قرصان من النصارى سنة ١٥١٧ فأتوا به الى البابا لاون العاشر فتنصر وسمي يوحنا لاون الافريقي واقام بايطاليا وتفقه في اللاتينية والايطالية وعلم العربية وصنف كتاباً فى وصف افريقية كتبه بالعربية ثم استخرجه الى الايطالية في سنة ١٥٢٦ وهو كتاب مفيد يعول عليه في معرفة تلك الاقطار وقد ترجم الى اللاتينية والفرنسوية .وخاتمة جغرافيي الاسلام كاتب جبلي او حلبي خليفة صاحب كتاب جهان نما المتوفى سنة ١٦٥٧ الا ان هذا المصنف استعان بكتب الافرنج ونقل منهم ما كتبوه في اكتشافات السياح من البرتغال والاسبان

٤

و بعد استيفاء الكلام في مقالتي هذه عن حالة الجغرافية الوصفية في عهد العرب وذكر لمع من اخبارها ومن تراجم المصنفين في هذا الفن استأنف الكلام موجزاً في شأن الجغرافية الرياضية وما حصلوه منها وقد قدمت القول ان العرب اخذوا علوم الاوائل عن المؤلفات السريانية واليونانية وان الحركة الادبية بدأت في عهد

الخليفة ابي جعفر المنصور العباسي وتعاظم امرها في خلافة المأمون حفيده الذي بويع بالخلافة سنة ٨١٣ للميلاد وقد امر ان يترجم له المجسطي وكتاب بطليموس في الجغرافية وقد اثرت ترجمة هذه الكتب تأثيراً مهماً في تاريخ الجغرافية الاسلامية وعليها عول علماء العرب في الجغرافية الرياضية واتخذوا بطليموس اماماً لهم يرجعون اليه في هـذا الفن وقد ذاع صيت المأمون وطارت شهرته في الآفاق لازدهاء العلوم في خلافته التي عدها بعضهم بدء زمان المولدين وجعل البعض الآخر بدءه في خلافة المنصور وللمأمون في الرياضيات والهيئة آثار تثبت فضله في بطون الاوراق . امر بالوقوف للنجوم والارصاد في سنة ٩٢٠ ووضع الزيج الصحيح في اصلاح المجسطي وضبط اطوال بعض الاماكن من الكرة الارضية وخط رسم الارض . وفي حدود سنة ٨٢٨ امر الخليفة المأمون بقياس درجة من الهاجرة لاستقراء جرم الكرة الارضية وقام بهذا العمل اربعة من علماء الهيئة مدونة اسماؤهم في صفحات التاريخ وهاك ما قاله ابو الفداء في هذا الشأن . قد قام بتحقيق حصة الدرجة طائفة من القدماء كبطليموس صاحب المجسطي وغيره فوجدوا حصة الدرجة الواحدة من العظيمة المتوهمة على الارض ستة وستين ميلاً وثلثي ميل . ثم قام بتحقيقه طائفة من الحكماء المحدثين في عهد المأمون وحضروا بامره في برية سنجار وافترقوا فرقتين بعد ان اخذوا ارتفاع القطب محرراً في المكان الذي افترقوا منه واخذت احدى الفرقتين في المسير نحو القطب الشمالي والاخرى نحو القطب الجنوبي وساروا على اشد ما امكنهم من الاستقامة حتى ارتفع القطب للسائرين في الشمال وانحط للسائرين في الجنوب درجة واحدة ثم اجتمعوا عند المفترق وتقابلوا على ما وجدوه فكان مع احداهما ستة وخمسون ميلاً وثلثا ميل ومع الاخرى ستة وخمسون ميلاً بغير كسر فاخذ بالاقل وهو ستة وخمسون ميلاً اه . ولم يذكر ابو الفداء الا عملاً واحداً والحال انهما عملان جريا في آن واحد احدهما في برية سنجار من بلاد ما بين النهرين والآخر الى الشمال من بلد الشام بين تدمر والفرات وقد اثبتهما ابن يونس وهو من فحول علماء الهيئة الذين نبغوا في عصر الخلافة العباسية وكانت وفاته سنة ١٠٠٨ للميلاد قال سناد بن علي امرني المأمون ان احقق وخالد بن عبد الملك درجة من الدائرة العظيمة على سطح الارض فذهبنا لذلك وسار علي بن عيسى الاسطرلابي وعلي بن البحتري في طريق اخرى اما نحن فتوجهنا الى ان وصلنا بين فامية وتدمر فوجدنا الدرجة ٥٧ ميلاً ووجدها كذلك علي

ابن عيسى وعلي بن البحتري وبعثنا بالخبر فوصل في آن واحد. وذكر ابن يونس رواية احمد بن عبد الله الملقب بحبش في كتابه مطامع الارصاد وحاصلها ان العلماء ساروا في برية سنجار وتحققوا الدرجة فوجدوها ستة وخمسين ميلاً وربع ميل والميل اربعة آلاف ذراع هاشمية والذراع الهاشمية وضعها المأمون وهي $\frac{٥٤١}{١٠٠٠}$ من المتر فالميل العربي يعدل: ٢١٦٤ متراً والدرجة تعدل ٥٧ ميلاً واذا اخذنا المعدل الاوسط بلغت الدرجة ١٢٢٥٠٠ متر مع صرف النظر عن الكسر وفي ذلك زيادة تبلغ ١١٥٠٠ متر عن قياس الدرجة الحقيقي في هاتيك الانحاء اعني عند الدائرة المتوازية الخامسة والثلاثين حسبما تبين من تحقيقات العلماء المتأخرين حيث بلغت حصة الدرجة ١١٠٩٢٠ والفرق جسيم يحاكي كثيراً من المغالط التي وجدت في بعض الازياج وسببها نقص في القواعد المتخذة وفي آلات الرصد المستخدمة. وما صححه العرب في ازياج بطليموس شمل البلدان الواقعة حوالي بغداد اختصاصاً اعني بها جزيرة العرب والبحر العجمي وبلاد دجلة والفرات وبلاد العجم وشواطيء بحر الخزر الجنوبية. وفي بداءة المئة الحادية عشرة صحح البيروني الازياج الموضوعة في اطوال بلاد الروم وما وراء النهر والسند فسد ما وجد من النقص في رسم الارض عن القسم الشرقي وحذا حذوه ابو الحسن علي المراكشي المتوفي سنة ١٢٣٠ في تحقيق اطوال وعروض البلدان الواقعة في القسم الغربي. وابو الحسن هذا ولد في مراكش ويعد في طبقة الرحالة المتجولين وقد صحح الخطاء الذي وجده في ازياج بطليموس في سعة بحر الروم في طرفه الجنوبي وصنف كتاباً مفيداً في التاريخ والهيئة والرياضيات دوّن فيه اسماء بلاد الاسلام التي عينت اطوالها وعروضها وهي مئة وخمسة وثلاثون بلداً حقق طول وعرض اربع واربعين منها ممتدة من الاوقيانوس المحيط الى مصب النيل وفي آخر المئة الثالثة عشرة نبغ ناصر الدين الفلكي وفي منتصف المئة الخامسة عشرة نبغ فلكي آخر هو ألوغ بك ابن شاه رخ صاحب بلاد الصفد قد اتقن علم الهيئة ووضع ازياجاً حسنة وفي سنة ١٤٣٧ رسم خريطة الكرة الارضية واستند في علمه على مصنفات ناصر الدين الطوسي الذي كان يقف للنجوم في مرصد شاده له هولاكو خان على مقربة من مراغة. وقد روى بعضهم ان ألوغ امر علي كوشجي ان يسير الى الصين فسار اليها وقاس درجة من الهاجرة وحقق جرم الكرة. واذا اعملنا النظر في مصنفات العرب في الجغرافية الرياضية وتفحصنا ازياجهم نرى بينهم وبين العلماء المتأخرين من

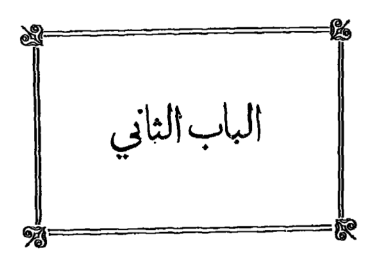
الافرنج تفاوتاً عظيماً لان هؤلاء بلغوا من التحقيق والضبط والاكتشاف مبلغاً لم يبلغه العرب الذين قد فاقوا بطليموس ويرجحون عليه فى كل حال لتعديلهم ازياجه واثبات بعض الاصلاح فيها وعلى ذلك فنرى ان الطول الغربى من طنجة بالنسبة الى الاسكندرية لا يزيد على ٩َ ٣ ° والزيادة حسب بطليموس ١٨° وخط بحر الروم المستقيم من طنجة الى طرابلس الشام ٣٠َ ٤٢° فى الزيج العربي وزيادته فيه على طوله الحقيقي ٥٢َ حالة كونها بلغت فى زيج بطليموس ١٩° وقد يتضح من ذلك ان العرب عرفوا قطر بحر الروم الحقيقي قبل ان يعرفه الافرنج بخمس مئة سنة

وفي هذا القدر كفاية ليعلم فضل العرب في تقدم العلم الجغرافي. وزبدة المقال انهم زادوا على اليونان والرومان تعريفاً في اقسام المعمورة خصوصاً في طرفيها الشمالي الغربي والشرقي وفي القسم الشمالي بلغت معرفتهم حد معرفة الاوائل وقد صححوا شيئاً من المغالط وحققوا بعض المواقع في اواسط القارة الآسية. وفي الاطراف الجنوبية اقتصر ملاحوهم على التجول في شواطىء افريقية الشمالية ولم يتوغلوا في البلاد اكثر مما عرفه بطليموس فذكره في زيجه وقد فاقوا سواهم في تعريف صفة البلاد الواقعة في اقاصي المشرق وفي اواسط افريقية من المغرب. عرفوا الصين ووطئوا ارضها ولم يطأها الرومان وتوغلوا في افريقية ودخلوا الصحراء الى بلاد السودان ولم يجتز الرومان حد الصحراء الشمالي

وقد اجاد العرب في تقويم الطرق والمسالك وبيّنوا المسافات على احسن اسلوب وقد احرزوا السبق في تصنيف القواميس الجغرافية ولم يتقدم الرومان الى مثل ذلك بل واليونان ايضاً فان هؤلاء نزعوا الى مثل ذلك في القرن السادس للميلاد فصنف احدهم قاموساً للاعلام الجغرافية اختصره اسطفان البيزنطي وهذا المختصر وحده موجود. اما اول قاموس جغرافي وجد عند الاوربيين فقد صنف في منتصف المئة السادسة عشرة صنفه اورتليوس البلجي وطبعه في انورس سنة ١٥٧٨ وفي سنة ١٦٢٧ صنف فيليب الفراري الايطالي قاموساً آخر ثم تتبعه غيره

وبالجملة فان ما فعله العرب في العلم الجغرافي يورثهم فخاراً ولا سيما وجودهم كصلة بين علوم الاوائل وعلوم المتأخرين فانهم رغبوا في علوم اليونان وادابهم ومرنوا فيها ايام كانت اوربا في غفلة عنها ويا حبذا لو حرصوا عليها لتزيد في فخارهم فخاراً.

مقتطف مايو ويونيو ويوليو سنة ١٨٨٣



الباب الثاني

كولمبوس (١٤٤٦ او ١٤٥١ — ١٥٠٦)

اذا ذكرت الحوادث الخطيرة التي لها الشأن الاكبر في احوال البشر وجب ان يذكر معها اكتشاف اميركا واحتلالها لا من حين وصل اليها الناس اولاً وسكنوها بل من حين وصل اليها خريستوفورس كولمبوس وذهب اليها اهالي اوربا بعده واحتلوها وعمروها . لان وصول الاولين اليها لم يكن له شأن يذكر في احوال البشر واما استيطان الاوربيين لها فقد نتج عنه قيام جمهورية عظيمة فيها تضاهي أعظم الممالك ثروة واشدها منعة ، وانتظام ممالك وجمهوريات اخرى سائرة كلها او اكثرها في سبيل النجاح

وقد طلب الينا بعض الفضلاء ان نلخص لهم قصة ذلك الاكتشاف والاحتلال فجاء طلبهم منطبقاً على ما كنا نفكر فيه منذ مدة وهو وصف اشهر حوادث التاريخ الحديثة كاكتشاف اميركا وثورة فرنسا واحتلال الهند ونحو ذلك مما جعل عمران القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ارقى من كل عمران سبقه صناعة وتجارة وبوّأ الاوربيين منصة القضاء والسيادة في المسكونة فدان لهم إقيال الهند وسنوا السنن لملوك الصين وجابوا فيافي افريقية ومجاهلها وجعلوا ينشئون فيها الممالك

لما وصل خريستوفورس كولمبوس الى اميركا وجدها آهلة بالسكان شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً بعضهم قبائل رحل يعيشون بالصيد والقنص وبعضهم اهل حضارة ونعيم لهم المدن الفخمة والقصور المشيدة والهياكل الكبيرة والقرى والدساكر وبين هذين الطرفين اقوام متباينون في درجة حضارتهم

ولا يعلم من مصّر تلك القارة اولا ولاً من اين اتاها سكانها الاولون . ولاهل البحث في ذلك مذاهب شتى سنشير الى المذهب الاوجه منها

وكولمبوس كاشف اميركا للاوربيين رجل ايطالي ولد بجنوى سنة ١٤٤٦ او ١٤٥١ وابوه مشاط صوف فعلمه صناعته ثم بعث به الى مدرسة بافيا الجامعة فاقام فيها مدة قصيرة حتى اذا صار عمره اربع عشرة سنة ذهب في احدى السفن ملاحاً وجندياً حسبما كان الملاحون في ذلك العصر حتى اذا اشتد ساعده جعل رئيساً على سفينة وأرسل الى تونس ليوقع بسفينة من سفنها . وفي سنة ١٤٧٠ كسرت سفينته عند

رأس سنت فنسنت في الطرف الجنوبي الغربي من بلاد البرتغال فركب لوحاً من الخشب وبلغ البر عليه . واقام في مدينة لسبون مدة واقترن فيها بابنة رجل ايطالي الاصل كان عاملاً من قبل ملك البرتغال على بورتو سانتو جزيرة صغيرة قرب جزائر مديرا غربي المغرب الاقصى . وذهب الى هذه الجزيرة واقام فيها مدة وكان يكتسب معيشته برسم الخرائط للبحارة فاضطر ان يبحث وينقب في خرائط حميه ويباحث شيوخ النوتية عما لقوه من المشاق في اسفارهم، فاستنتج من كل ما رآه وسمعه انه لم يزل جانب كبير من الارض مجهولاً ويمكن الوصول الى طرف آسيا الشرقي بالسير اليه غرباً واطلع طبيباً فلورنسياً على هذا الرأي فاقنعه بصحته

وكان كثيرون قد ارتأوا مثل رأيه قبله وابعد واحد من اهالي البرتغال الفاً ومئتي ميل عن رأس سنت فنسنت غرباً محمولاً بتيار عنيف فوجد قطعة من الخشب طافية على وجه الماء وفيها آثار تدل على ان يد الانسان عملت بها . والتقط صهر كولمبوس انابيب كبيرة من القصب امام بورتو سانتو يسع الانبوب منها نحو اقتين من الخمر وهي مما لا ينبت إلا في بلاد الهند فهذه الامور وامثالها قوت اقتناعه بانه اذا واصل السير غرباً بلغ بلاد الهند

وسار سنة ١٤٧٧ حتى بلغ شمالي البلاد الانكليزية ولا يبعد ان يكون قد سمع وهو هناك عن وصول بعض اهالي نروج الى بلاد مجهولة واستيطانهم لها قبل ايامه بخمس مئة سنة وانقراض نسلهم منها . فعزم على الرحلة الى هذه البلاد وجعل يفتش عمن يعده بالمال والرجال وطلب ذلك اولاً من مجلس جنوى مسقط رأسه فرفض المجلس طلبه . ولما رأى ان أبناء وطنه لم يحفلوا به لجأ الى يوحنا الثاني ملك البرتغال فاحاله على لجنة من العلماء تنظر في المسائل الجغرافية التي من هذا القبيل . فكان قرارها على غير مراده . وكان الملك ميالاً الى البحث عن البلدان الجديدة فاشار عليه احد الاساقفة ان يرسل سفينة تضرب في عرض البحر الغربي خفية عن كولمبوس ففعل وبعث بالسفينة فسارت الى ان يئس بحارتها من طول الشقة فعادوا بها أدراجهم. وعرف كولمبوس ذلك فاغتاظ من هذه المخاتلة وبعث بكتاب الى الملك هنري السابع ملك الانكليز يعرض عليه رأيه ويطلب منه المساعدة على تحقيقه . ولا بد ان يكون قد وعده بأن يكتشف الارض الجديدة باسمه كما وعد غيره

ثم هرب من بلاد البرتغال الى اسبانيا وقصد دوق مدينة صيدونيا جنوبي اسبانيا

وطلب مساعدته فلم يحفل به بل حسب رأيه من قبيـل الاوهام . فتركه وقصد دوق مدينة سلي فانزله على الرحب والسعة واكرم مثواه وعزم ان يجهزه بثلاث سفن ولـكنه عاد فرأى ان العمل كبير فوق طاقته فاهمله . وعزم كولمبوس ان يستعين بملك فرنسا فصرفه هـذا الدوق عن عزمه وكتب الى الملـكة ايزابلا [١] ملـكة قشتالة (Castilla) يتوسل اليها ان لا تدع عملاً مثل هذا يذهب الى الغرباء فامرت بمجيء كولمبوس اليها الى قرطبة (Cordova) وكانت الحرب ناشبة بين العرب نزلاء اسبانيا وبين اهلها الاصليين فلم تجد الملكة ايزابلا مجالاً للنظر في طلب كولمبوس لـكنها اكرمت مثواه وامرت واحداً من خواصها ان ينظر في طلبه . ولم يكن الا القليل حتى اقنع كثيرين بصدق دعواه وسار مع حاشية الملكة الى سلمنكا ولقي هناك الـكردينال مندوزا صاحب الصول والطول في اسبانيا . وظن هذا الـكردينال اولاً ان في رأي كولمبوس رائحة الـكفر لـكنه اقتنع بصحته حالاً واقنع الملك فردينند زوج الملـكة ايزابلا حتى قابل كولمبوس وسمع ما يقوله واحاله على مجلس من علماء الفلك والجغرافية سنة ١٤٨٧ فبسط كولمبوس ادلته لاعضاء هذا المجلس فناقضوه وقاوموه واستدلوا على فساد آرائه بكثير من آيات التوراة واقوال آباء الـكنيسة وبعد جدال طويل دام نحو ثلاث سنوات اقر المجلس على ان رأيه باطل لا يعمل به

وكان كولمبوس في كل هذه المدة يسير في حاشية الملك والملـكة وهما يحاربان العرب وحضر حصار مالقة (Malaga) فلما حكم المجلس برفض طلبه سار قاصـداً فرنسا ودخل في طريقه ديراً في الاندلس وطلب ماء وطعاماً لابنه فسأله رئيس الدير الى اين يقصد فاخبره بقصده فدعاه الى داخل الدير وكان فيه طبيب ماهر في علم الجغرافية فاخذ يباحثه في امر الوصول الى الهند فاقنعه كولمبوس بصحة رأيه وكان رئيس الدير قبل ذلك معرفاً للملـكة ايزابلا فكتب اليها عن كولمبوس فاتاه الجواب منها ان يأتي اليها به وارسلت اليه نفقات السفر . ووصل الى غرناطة وقتما استلمها الاسبانيون من العرب

وطلب من كولمبوس حينئذ ان يبين الشروط التي يشترطها لـكشف هذه البلاد الجديدة فطلب ان يعطى لقب امير البحر (اميرال) ويجعل والياً على كل البلدان التي يكتشفها وعشر ما يرد منها سواء كان من الغنائم او من التجارة فرفض طلبه . وفي

(١) انتقل اليها ملك قشتالة بعد وفاة اخيها الملك هنري الرابع واقترن بها فردينند ملك اراغون وصقلية

شهر يناير من سنة ١٤٩٢ اقلع من اسبانيا قاصداً فرنسا ولكن تشفع بعضهم في امره لدى الملكة واقنعها بمساعدته فارسلت اليه رسولاً ادركه على غلوتين من غرناطة ورده اليها وفي السابع عشر من ابريل سنة ١٤٩٢ أمضى الاتفاق بينه وبين الملكة وزوجها ولم يكن اعداد السفن والبحارة بالامر السهل لانه لم يكد يجد من يخاطر بنفسه مثله في مجاهل البحار . وبعد عناء شديد اعدت له ثلاث سفن وهي سنتا ماريا وفيها خمسون بحاراً وكانت ادارتها في يده والبنتا وفيها ثلاثون بحاراً وقيادتها في يد مارتن بنزون والنينا وفيها ٢٤ بحاراً وقيادتها في يد اخيه فنسنت بنزون وجملة النفوس ١٢٠ . واقلعت هذه السفن يوم الجمعة في الثالث من اغسطس سنة ١٤٩٢ ووجهتها جزائر كناري وبعد ثلاثة أيام اضاعت البنتا دفتها فاضطر كولمبوس ان يرسو بسفنه في مرفأ تاريف مدينة كناري ليصطنع لها دفة غيرها وعاود السير في السادس من سبتمبر وفي الثالث عشر منه شاهد رجاله انحراف الابرة المغنطيسية اول مرة عن الشمال والجنوب فارتاعوا من ذلك وزاد ارتياعهم بعد يومين اذ رأوا نيزكاً كبيراً وقع من السماء على مقربة منهم . وبلغوا في اليوم التالي مكاناً رهواً ولقوا نسيماً عايلاً تطيب به النفوس فاطمأنوا ثم زاد انحراف الابرة المغنطيسية فزاد اضطرابهم إلا ان كولمبوس فسر لهم ذلك بما سكن روعهم . وشاهدوا حينئذ كثيراً من طيور البحر فايقنوا انهم مصيبون براً عن قريب ولما لم يصلوا الى البر تذمروا وتمردوا وكانوا يشاهدون احياناً ما يظنونه براً قريباً فتطيب نفوسهم حتى اذا بلغوه ورأوه سراباً بقيعة عادوا التذمر والتمرد الى ان كان الحادي عشر من اكتوبر فالتقطت بحارة البنتا قناة وقطعة من الخشب وعصاً ولوحاً وشاهدت بحارة النينا وتداً عليه نبات مزهر . وفي المساء شاهد كولمبوس نوراً في الافق وفي الساعة الثانية صباحاً رأى البر بحار من بحارة النينا وكان هذا البر اول جزيرة من جزائر اميركا وقد ظن اولاً انها الجزيرة المسماة الآن سان سلفادور ثم اتضح انها الجزيرة المسماة الآن سامنا. ونزل فيها كولمبوس ذلك الصباح وهو لابس حلة فاخرة ومعه العلم الاسباني ونزل معه الربانان الآخران وفريق كبير من البحارة وركعوا على ركبهم وشكروا الله والدموع ملء عيونهم وتقدم اليه البحارة الذين تمردوا عليه قبلاً واسترحموه وطلبوا عفوه

والجزائر هناك كثيرة قريبة بعضها من بعض فاكتشف كولمبوس كثيراً منها واشهرها واكبرها جزيرة كوبا وجزيرة هايتي وسمى هايتي (هسبانيولا) وارتطمت

سفينته عندها لاهمال بحارتها لها فاضطر ان يخرج كل الامتعة منها ويتركها هناك وانشأ مستعمرة في تلك الجزيرة وترك فيها ٤٣ نفساً من بحارته واقلع في النينا في السادس عشر من شهر يناير سنة ١٤٩٣ قاصداً اوربا وكانت البنتا قد افترقت عنه فتبعته بعد اربعة ايام وبعد عناء شديد بلغ مرفأ لسبون في الرابع من شهر مارس فاستقبله ملك البرتغال بالاكرام والترحاب

وكان بلاط الملكة ايزابلا في برشلونة فمضى كولمبوس اليها فاستقبلته هي وزوجها ورجال بلاطهما وقص عليهم اخبار سفره وأراهم بعض ما اتى به من الذهب والقطن والاسلحة والنباتات الغريبة والطيور والوحوش وتسعة من هنود اميركا جاء بهم معه . فاقر الملك والملكة على ما منحاه قبلاً من الالقاب والامتيازات ونودي قدامه كعظيم من عظماء اسبانيا وصنع له ترس عليه شعار قشتالة وليونة اي القصر والاسد

وفي الخامس والعشرين من شهر سبتمبر اقلع بثلاث سفن كبيرة واربع عشرة سفينة صغيرة و١٥٠٠ رجل وكثير من الادوات اللازمة للاستعمار فبلغ جزائر الهند الغربية التي بلغها اولاً واكتشف جزائر كثيرة لم يكتشفها قبلا وبلغ جزيرة هايتي فوجد المستعمرة التي انشأها فيها قد لعبت بها ايدي سبا فعزم على انشاء مستعمرة غيرها

الى الآن كان كولمبوس يكتشف الجزائر التي لم تراها عين الاوربيين قبله فنجح في ذلك نجاحاً بيناً ولكنه حالما شرع في استعمار تلك الجزائر واستخراج الذهب منها وسلب الغنائم من اهلها توالت النوائب عليه لان هواء البلاد لم يوافق الاسبانيين واهاليها الذين رحبوا بهم اولا ثم قلبوا لهم ظهر المجن الآن وقابلوهم بالعدوان . ومرض هو حتى كاد يقضي نحبه ولما شفي رأى ان لا بد له من اخذ الهنود بالقوة فاسر منهم خلقاً كثيراً وارسلهم الى اسبانيا فبيعوا فيها عبيداً وضرب الجزية الفاحشة على الذين بقوا في البلاد منهم

وقام له خصوم في بلاط اسبانيا حسداً فوشوا به واوغروا الصدور عليه فبعث الملك والملكة واحداً يبحث عن اعماله فاوجس كولمبوس شراً وعاد الى اسبانيا في ١١ مارس سنة ١٤٩٦ فوصل الى قادس في ١١ يونيو واقنع الملك والملكة باستقامته ونجاح عمله وطلب منهما ثماني سفن للاستعمار وست سفن لمواصلة الاكتشاف . ولم تكن خزينة اسبانيا في حالة راضية لكن الملكة كانت شديدة الرغبة في اجابة طلبه وجهزت له ست سفن فاقلع بها في ٣٠ مايو سنة ١٤٩٨ وبعد عناء شديد رأى احد

البحارة ارضاً لم يروها قبلاً وثلاث انداد اي تلال فيها فسموها تريئداد اي الانداد الثلاث وهو اسمها الى اليوم . وفي غرة اغسطس سنة ١٤٩٨ رأى طرف البر من قارة اميركا الجنوبية فظنه جزيرة وظل يسير غرباً وهو يرى الرؤوس الناتئة من البر فيظنها جزائر الى ان رأى الماء الغزير الذي ينصب من نهر اورينوكو فحكم ان البلاد قارة كبيرة وانها هي ضالته المنشودة

ثم افتقد المستعمرات التي انشأها في طريقه فوجدها في حالة يرثى لها لان اهاليها ثاروا بالسكان او ثار السكان بهم ونشبت الحروب بينهم وسفكت الدماء واسر رجاله كثيرين من السكان وبعثوا خمس سفن الى اسبانيا مشحونة بالاسرى عبيداً. فاغتاظت الملكة ايزابلا من ذلك وقالت من اباح له ان يأسر هؤلاء المساكين وامرت ان ينادى في اشبيلية (Seville) وغرناطة وغيرها من المدن الكبيرة بعتق كل العبيد الذين اتي بهم من جزائر الهند الغربية اخيراً . فاغتاظ الذين اتوا بهم من هذه الخسارة ولم يجدوا سبيلاً لتنفيس كربهم إلا بالتظلم من كولمبوس واخويه واجتمعوا في ساحة الحمراء وعلا صياحهم فاصغت الملكة اليهم وعينت رجلاً اسمه بوبادلا حاكماً على هايتي وامرته ان ينزع الولاية من كولمبوس ويبحث عن حقيقة الشكاوي ويرفع ظلامة المتظلمين

وكان كولمبوس قد اخمد ثورة الثائرين في هايتي ونصّر اهاليها واستخرج كثيراً من الذهب حتى بلغ نصيب الدولة الاسبانية منه ستين مليوناً من الريالات ولكن وصل بوبادلا الوالي الجديد حينئذ واستولى على بيت كولمبوس وقبض عليه وعلى اخويه ورفعت الشكاوى عليهم بانهم مرتشون ظالمون عتاة حتى رأى كولمبوس انه غير ناج من القتل لكن بوبادلا لم يقتله بل كبله بالقيود هو واخويه وبعث بهم الى اسبانيا

وكان ربان السفينة التي ارسلوا فيها على جانب من الشهامة فاراد ان يفك قيود كولمبوس فلم يقبل بذلك بل قال له يجب ان تبقى هذه القيود كما هي الى ان يفكها الملك والملكة ثم احتفظ بها تذكاراً للجزاء الذي نلته . وفعل كما قال وعلق هذه القيود بعد ذلك في غرفته لتدفن معه بعد موته

ووصلت السفينة بكولمبوس واخويه وهم في القيود وكتب كولمبوس الى السيدة التي كانت تربي ابنة الملك كتاباً يلين الجماد بما فيه من التظلم والتذلل واطلعت عليه الملكة فرقت له ورثت لحاله ومال اليه كل اهل البلاد ففكت قيوده وقوبل بالاكرام

والاجلال حتى يقال ان الملكة بكت لما سمعته يقص قصته . وعزل بوبادلا من الولاية وعين وال آخر بدلاً منه وانهالت الهبات الملكية على كولمبوس ولكن لم يرد الى ولاية البلاد التي اكتشفها

وكانت نفس كولمبوس لا ترضى بالسكينة والراحة فطلب ان يجهز بسفن اخرى ليذهب ويكتشف طريقاً يصل الى المشرق الاقصى الى املاك البرتغاليين في اسيا فاعطي اربع سفن و١٥٠ بحاراً وامر ان لا يدخل جزيرة هايتي فاقلع من قادس فى ٩ مايو سنة ١٥٠٢ واكتشف جزيرة مرتنيك في ١٣ يونيو وثارت عليه العواصف فاضطرته ان يلجأ الى هايتي ولكن واليها منعه من النزول فيها . وبعد مشاق يطول وصفها وصل الى البرزخ الموصل بين اميركا الشمالية واميركا الجنوبية فوجد هناك ذهباً كثيراً وانشأ مستعمرة ترك فيها ثمانين من رجاله ولكن ثارت الفتن بينهم وبين السكان الاصليين حالاً فاضطر ان يترك لهم سفينة من سفنه ليعودوا بها الى وطنهم وعاد هو بطريق كوبا واخذ الزاد من اهاليها وسار الى جمايكا وجنحت سفنه هناك في مكان يسمى كهف خريستوفورس الى الآن وهش له السكان وانزلوه على الرحب والسعة لكن رجاله اساءوا اليهم فابتعدوا عنه ومنعوا عنه الزاد الى ان انبأهم بخسوف قريب فخافوه وعادوا الى اكرامه . وكان قد ارسل يطلب النجدة من الجزائر الاخرى التي نزلها الاسبانيون فاتته سفينتان عاد بهما الى اسبانيا فبلغها فى ٧ سبتمبر سنة ١٥٠٤ بعد عناء شديد ومخاطر كثيرة

وتوفى في ٢٠ مايو سنة ١٥٠٦ ودفن في اسبانيا اولاً ثم نقل الى هايتي ودفن في كنيستها . ولما انتقل قسم اسبانيا من تلك الجزيرة الى فرنسا نقلت رفاته الى هافانا بكوبا . ويقال ان رفاته لا تزال في هايتي والتي نقلت انما هي رفات ابنه ففي سنة ١٨٧٧ وجد قبر في كنيسة هايتي عليه حروف تدل على انه قبر « مكتشف اميركا الاميرال الاول » وعلى التابوت الذي فيه ثلاثة حروف C. C. A . خريستوفورس كولمبوس الاميرال .

وكان كولمبوس طويل القامة كبير العينين جميل المنظر شاب شعره وهو في الثلاثين من عمره . وكان غير متأنق فى مأكله ومشربه ولباسه شديد التدين يكثر من الصوم والصلاة حتى يظن من يراه انه من الرهبان . عالي الهمة يقتحم المخاطر لنيل مقاصده غير مبال بخداع المخادعين وختل الخاتلين (مقتطف اكتوبر سنة ١٩٠١)

اميركوس فسبوشيوس (١٤٥١ — ١٥١٢)

الرائد الذي دعيت قارتا اميركا باسمه

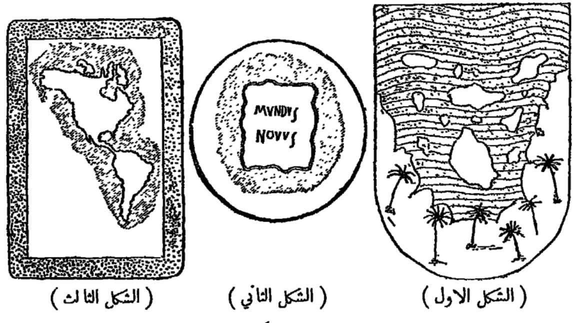
بسطنا الكلام في الفصل السابق على كولمبوس مكتشف اميركا للاوربيين . ولا بد من ان يستغرب القراء ان تلك القارة العظيمة لم تسمَّ باسمه بل باسم رجل آخر اميركوس فسبوشيوس وهو رجل من اهالي فلورنسا كان كاتباً في بيت مديشي اشهر تجار تلك المدينة وارسله هذا البيت الى اسبانيا سنة ١٤٩٠ فاقام في قادس ثم انتقل الى اشبيلة وانتظم في خدمة تاجر فلورنسي اسمه براردي وهو الذي هيأ السفن لرحلة كولمبوس الثانية سنة ١٤٩٣.ثم اخذ في اعداد اثنتي عشرة سفينة لملك اسبانيا ولكنه توفى سنة ١٤٩٥ قبل ان يعهدها فطلب من اميركوس ان يتمم اعدادها

ولا دليل على ان اميركوس سافر مع كولمبوس في سفرته الاولى ولا في سفرته الثانية ، ولكن لابد من انه كان يعرفه ويعرف ايضاً ان ملك اسبانيا استرجعه بعد سفرته الثانية ونزع منه الامتياز الذي اعطاه اياه اولاً . وكان كثيرون قد رغبوا في الرحلة الى العالم الجديد ويقول اميركوس انه رحل مع بعضهم اليه في اواسط سنة ١٤٩٧ فبلغوا بره في٢٧ يوماً .فان كان صادقاً في وصفه فيكون قد بلغ مع رفاقه خليج كميشي في الطرف الجنوبي من خليج المكسيك ثم داروا شمالاً وشرقاً حتى بلغوا رأس سابل في طرف فلوريدا الجنوبي من الولايات المتحدة الاميركيـة وساروا منه شمالاً الى رأس هتراس شرقي ولاية كارولينا الشمالية . وعادوا الى اسبانيا فبلغوها في الخامس عشر من اكتوبر سنة ١٤٩٨

وسافر اميركوس مرة ثانية في ١٦ مايو سنة ١٤٩٩ فبلغ شاطىء برازيل عند رأس سنت روك وسار من هناك شمالاً حتى بلغ مصب نهر الامازون وعاد الى اسبانيا فبلغ مرفأ قادس في ٨ سبتمبر سنة ١٥٠٠ ودخل في خدمة عمانوئيل ملك البرتغال وسافر الى برازيل في ١٠ مايو سنة ١٥٠١ فبلغ ريو جنارو في غرة يناير سنة ١٥٠٢ فسميت باسم ذلك الشهر وهي عاصمة بلاد برازيل الآن وعاد الى لسبون فبلغها في ٧ سبتمبر سنة ١٥٠٢ ثم سافر سفرة رابعة سنة ١٥٠٣ قام من لسبون في العاشر من

يونيو بست سفن قاصداً ان يصل الى ملقّـا في اقصى الهند بالسير غرباً وافترقت سفينته عن سفن رفاقه فبلغ رأس فريو شمالي ريو جنارو حيث بنى حصناً . وعاد الى لسبون فبلغها في ١٨ يونيو سنة ١٥٠٤ وانتقل منها الى اسبانيا في السنة التالية ورجع الى خدمة الملك فرديننـد واقام في اشبيلية ويقال انه سافر بعد ذلك مرتين الى اميركا فبلغ برزخ بناما وعين ربانًا اكبر سنة ١٥٠٨ وتوفي سنة ١٥١٢

فان كان خبر اميركوس صحيحاً فيكون قد اكتشف بر اميركا قبل كولمبوس وقبل كابوت البندقي نزيل انكلترا الذي سار اليها بامر من الملك هنري السابع سنة ١٤٩٧ فوصل الى الارض الجديدة في ٢٤ يونيو من تلك السنة وسار امام شاطئ اميركا الشمالية الى حد فلوريدا وذلك قبلما رأى كولمبوس البر بنحو سنة من الزمان . والظاهر انه



(الشكل الاول)   (الشكل الثاني)   (الشكل الثالث)

اقنع اهل زمانه بصحة خبره سواء كان صحيحاً او غير صحيح فكتب بعضهم مقدمة جغرافية سنة ١٥٠٧ قال فيها « لقد كشفت قارة خامسة من قارات الارض كشفها اميركوس ولذلك سميناها اميركا » . وقال في مكان آخر لقد « كشف اميركوس ڤسبوشيوس قارة رابعة فلا ارى ما يمنع تسميتها باسمه اميركا » فسميت باسمه ثم بحث همبلت الشهير عن دعوى اميركوس فرأى ادلة قوية على فسادها ولكن كان ذلك سنة ١٨٣٧ اي بعد ان اشتهر اسم اميركا باكثر من ثلثمئة سنة

وحالما اشتهر اكتشاف كولمبوس وغيره من الذين اقتفوا خطواته جعل الناس

يظنون الظنون في شكل العالم الجديد واخذ صانعو الخرائط يجمعون اخبار الذين رأوه لكي يصلحوا خريطة العالم . والظاهر ان اول خريطة رسمت له كانت في شعار كولمبوس نفسه على ترسه كما ترى في الشكل الاول المرسوم ههنا ويقال ان كولمبوس نفسه رسم هذا الرسم على ترسه ممثلاً به مرفأً من مرافئ اميركا التي دخلها والجزائر امامه. وضاع هذا الرسم فلم ينتبه احد له الى ان اظهره العلاّمة همبلت في القرن الماضي

ويتلو هذا الرسم في القدم والبعد عن الحقيقة رسم صنع سنة ١٥٠٠ جعلت فيه قارة اميركا مربعةً كما ترى في الشكل الثاني وكتب فيها ما معناه (العالم الجديد) فكان ذلك قبل ان اطلق عليه اسم اميركا . قابل هذا الشكل بالشكل الثالث الذي يليه وهو خريطة اميركا الشمالية والجنوبية حسبما تعرف اليوم تجد بينهما بوناً شاسعاً لا لان

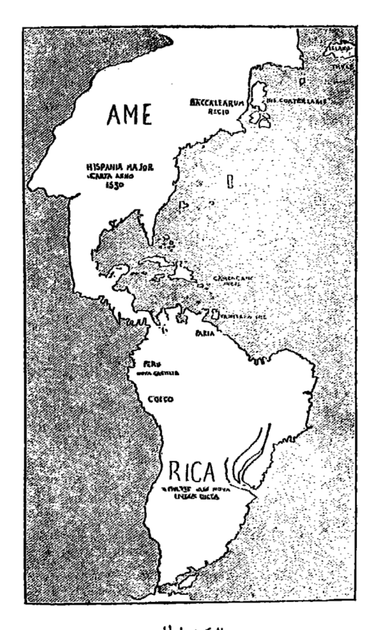


(الشكل الرابع)

البلاد تغير شكلها فانها لم تتغير منذ الوف كثيرة من السنين بل لان معرفة الناس بها زادت رويداً رويداً حتى بلغت حد الكمال وقد تدرجت اليه تدرجاً شأن كل معارف البشر

ومن الخرائط القديمة التي رسمت لاميركا بعد ان اطلق عليها هذا الاسم خريطة شونر Schöner المرسومة في الشكل الرابع رسمها سنة ١٥٢٠ ويظهر منها ان اميركا الشمالية لم تكن معروفة حينئذ لان المرسوم هنا هو اميركا الجنوبية وجزيرة كوبا وجزيرة ازابلا واسبانيولا

وتوالى عمل الخرائط الى ان قام مركاتور الشهير ورسم خريطة اميركا الشمالية



الشكل الخامس

والجنوبية رسماً يقرب من الحقيقة كما ترى في الشكل الخامس وعلى خريطته تاريخ سنة ١٥٣٠ ولكن يقال انه رسمها سنة ١٥٤١

(مقتطف نوفمبر سنة ١٩٠١)



العربية في اميركا قبل كولمبوس

ان يكون الناس قد دخلوا اميركا وسكنوها قبل كولمبوس وقامت لهم دول فيها اينع عمرانها حتى فاق عمران الاسبانيين فاتحيها امر لا جدال فيه، واما ان يكون العرب قد وصلوا الى اميركا وسكنوها قبلما قصد اليها كولمبوس فامر قلما خطر على بال احد. لـكن نشر في السنوات الاربع الماضية كتاب كبير في ثلاثة مجلدات الفه عالم من علماء جامعة هارفرد اسمه ليو وينر Leo Wiener عنوانه افريقية وكشف اميركا اثبت مؤلفه وجود كلمات عربية في لغات هنود اميركا

يعرف هذا المؤلف ٢٦ لغة وقد شرع منذ سنوات في تعلم لغات هنود اميركا كما دونها المرسلون اليسوعيون (في عهد كورتز القائد الاسباني الذي فتح المكسيك) ليرى ما فيها من الـكلمات والتعابير التي قد يستدل منها على الشعوب الذين اتصلوا باولئك الهنود في غابر الزمن فوجد فيها كثيراً من الكلمات الانكليزية والاسبانية والفرنسوية والبرتغالية واقدم من هذه كلها كلمات عربية . وقال بعد نشر كتابه انه يرجع اقدم هذه الكلمات الى سنة ١٢٩٠ اي الى قرنين قبلما وصل كولمبوس الى اميركا وقد يكون اصحاب تلك الكلمات اتصلوا بها قبل ذلك بقرنين آخرين

وتدل المباحث الحديثة في السجلات القديمة على ان سفن التجار كانت تمخر عباب الاوقيانوس الاتلنتيكي كل سنة للاتجار وكانت تخفي اعمالها عن غيرها حتى تبقى مستأثرة بالـكسب . ومن ذلك ان البيوت التجارية في ديب وروان من ثغور فرنسا كانت ترسل سفنها الى غانة على الشاطىء الغربي من افريقية قبل زمن كولمبوس بمائة سنة لجلب الذهب والعاج والطيوب والجلود والحجارة الـكريمة وما اشبه . والمرجح انها كانت ترسلها الى اميركا الجنوبية أيضاً . وانه كان لهذه البيوت نظام تجاري كنظام البيوت التجارية الآن من غير ابهة لـكي يبقى عملها سراً فلا يكثر المزاحمون لها ، ولـكي لا يطمع بها الملوك والحـكام فيقاسموها ثروتها ، ولذلك كانت سفنها تخرج من مرافئها خلسة وتعود اليها خلسةً . وقد ثبت الآن ان مدينة ديب بقيت مركزاً لهذا النوع التجارة بضعة قرون قبل ولادة كولمبوس، وكان كل ربان سفينة يصف لمستخدمه حين رجوعه ما شاهده في اسفاره . ودامت الحال على هذا المنوال الى سنة ١٦٩٤

حين نشبت الحرب بين فرنسا وانكلترا فاطلق الانكليز مدافعهم على ديب وخربوها وخربوا بيوت اولئك التجار واتلفوا كل ما فيها

ولكن كان للتجار في ذلك العصر مشاكل ودعاوى كما لهم الآن ، وكانوا يرفعون دعاويهم الى مجلس القضاء فتسجل في سجلات المحاكم بالتفصيل ، وقد وجدت هذه السجلات ووجد الباحثون فيها حوادث كثيرة بتواريخها المختلفة ، من ذلك انه كان في مدينة ديب بيت تجاري اسمه بيت اغنوت بتي وروشيلد عصره من سنة ١٤٧٠ الى سنة ١٥٥١ . وكان قد صار في مقام رفيع من الثروة واتساع التجارة سنة ١٤٧٠ دلالة على انه نشأ منذ سنين كثيرة قبل ذلك . وتدل الدلائل ايضاً على انه كان لمدينة ديب تجارة واسعة مع ساحل غانة في غرب افريقية قبلما ادعى البرتغاليون اكتشافها سنة ١٤١٩ وان رجلاً فرنسوياً اسمه جان كوزن وصل بسفنه الى برازيل سنة ١٤٨٩ ثم عاد وسار محاذياً لساحل افريقية الجنوبي الى ان وصل الى رأس الرجاء الصالح ثم عاد أدراجه الى ديب ، وكان معه لما خرج من ديب وسار غرباً رجل اسباني اسمه بنزون وهو شجاع حاد الطبع فاختلف مع بعض السكان واطلق عليهم النار فأنبه رئيسه وقاصه ولما عادت السفن الى ديب شكاه الى الحكومة فاخذت الجواز منه ومنعته من السفر بحراً فعاد الى اسبانيا ماشياً فلقيه كولمبوس واخذه معه هو واخوين له وسلمه قيادة سفينة من سفنه الثلاث واعتمد على خبرته . ويقال في مذكرات كولمبوس ان بنزون هذا كان يحاول السير جنوباً اي الى جهة برازيل التي عرفها من قبل وكان كولمبوس يشكو من حدة طبعه . ولما وصلوا الى البر انفرد بنزون بسفينته وسار بها جنوباً واستمر سائراً ثلاثة اسابيع ولقيه كولمبوس صدفة عند ساحل كوبا الجنوبي . ويظهر من ذلك ان بنزون هذا كان قد وصل الى اميركا قبل كولمبوس، وان كولمبوس كان يعلم ذلك وانه اخذه معه كمرشد له

وقد ذكر كولمبوس لدى رجوعه من رحلته الثالثة انه وجد زنوجاً في البلاد التي كشفها اي في اميركا وذكر ايضاً ان الهنود (اي سكان اميركا) الذين لقيهم في رحلته الاولى اهدوا اليه شيئاً من الجوانين (ومعنى الجوانين في ذلك العصر شذور الذهب الممزوج بالنحاس التي كان يؤتى بها من غانه في الجنوب الغربي من افريقية ومنها اسم الجنيه بالانكليزية) وعليه فكولمبوس وجد في اميركا زنوجاً وذهباً افريقياً فلا بد من ان يكون قد سبقه اليها اناس معهم الزنوج وشذور الذهب الافريقي الممزوج .

بالنحاس[١] والظاهر ان كولمبوس اخذ معه زنوجاً افريقيين ليكونوا تراجمة بينه وبين هنود اميركا لان الزنوج الذين فيها يعرفون لغة اهلها.واولئك الزنوج خلاسيون اي ان اباءهم من البيض وامهاتهم من الزنوج فزنوج افريقية عرفوا اميركا قبل كولمبوس

وفوق ذلك فقد ذهب بعض الباحثين الآن الى ان عمران الازد والمايه عمران عربي محض ، وان الازد والمايه مستعمرات عربية وجدت في اميركا بين سنة ١١٥٠ وسنة ١٢٠٠ للميلاد، والعمران العربي بلغ اوجه في افريقية في القرن التاسع المسيحي وامتد جنوباً الى مندنجو في غرب افريقية ومن هناك وصل الى مشوا كان على شاطىء خليج المكسيك لان آثار العربية في لغات اميركا ترد كلها الى ذلك المكان والى مندنجو وهي الكلمات التي تبقى عادة من لغة الغالب في لغة المغلوب كالكلمات الطبية والسياسية . ولما انقطع اتصال العرب باميركا ذوى عمران الازد والمايه لانه كان مبنياً عليهم وكان في اساسه تجارياً.هذا وقد لخصنا ما تقدم من مقالة للمستر برتن كلين في جزء فبراير من مجلة العالم اليوم World Today وابناء العربية في هذا القطر وسائر الاقطار احرى الناس بالبحث عن صحة هذا النبإ .ونحن نستبعد ان يكون العرب دخلوا اميركا ولم ينشروا فيها الاسلام او ان يكون الاسلام انتشر فيها ثم انقرض منها قبل وصول الاسبانيين اليها، ولكننا نرجح ان يكون الذين ادخلوا اليها الكلمات العربية اناساً من البربر او من الافريقيين الذين تعلموا العربية،فان ابن بطوطة الرحالة المشهور الذي ضرب في اكثر البلاد الافريقية شرع في رحلته سنة ١٣٢٤ للميلاد سنة (٧٢٥ هـ) فوجد العربية منتشرة فيها . وكان ذلك قبل رحلة كولمبوس الاولى باكثر من ١٥٠ سنة . ولا يمكن القول الفصل في هذه المسألة إلا بعد الاطلاع على كتب وينر والوقوف على أدلته واسانيده

وعسى ان يهتم المطلعون على التواريخ والرحلات العربية بالبحث عما فيها مما يؤيد ذهاب العرب الى اميركا بين القرن التاسع والخامس عشر غير حديث الاخوة المغرورين لان ذلك الحديث لا يروي غليلاً ولا يبعد ان يوجد في مكاتب اسبانيا والمغرب الاقصى وتونس والجزائر والقيروان ما يشير الى اسفار تجار العرب في تلك القرون كما وجدت رحلة ابن بطوطة.ومن العار علينا ان يعرف رجل اميركي من تاريخ العرب وآثارهم في اميركا اكثر مما نعرف نحن (مقتطف اغسطس سنة ١٩٢٦)

---

(١) كانوا يمزجون الذهب بقليل من النحاس حتى يصلب ويلمع اذا صقل وقد حللت شذور الذهب التي جاء بها كولمبوس من اميركا فوجد فيها من النحاس قدر ما يوجد في شذور غانة

مجلان

اول من طاف حول الارض

ولد في البرتغال سنة ١٤٨٠ وكان ابوه من اشراف البلاد فنشأ في حاشية الملكة لنور زوجة الملك يوحنا الثاني ملك البرتغال. ثم اتصل بحاشية الملك مانويل خلف الملك يوحنا ولما كان في الرابعة والعشرين من عمره انضم الى المتطوعين الذين سافروا في ركاب اول نائب عن ملك البرتغال الى بلاد الهند. وخاض في الهند معارك كبيرة ابلى فيها بلاء حسناً وجرح في معركة كنانور وشهد افتتاح مدينة ملقا وسافر شرقاً لاكتشاف جزائر الافاويه فمر من شمال جزيرة جاوى فبينها وبين جزيرة مدورا ثم قطع ارخبيل سليبس حتى وصل الى جزيرة بندا فوجد فيها من الافاويه ما يفوق الوصف فقفل راجعاً الى ملقا. وفي هذه الرحلة شهد امامه انبساط الاوقيانوس الشرقي الذي دعاه بعدئذ بالباسفيكي اي الهادئ وهو اسمه الى الآن

عاد الى البرتغال سنة ١٥١٢ بعد ما نال لقب قبطان جزاء له على شجاعته ومهارته وفي سنة ١٥١٣ رافق الحملة البرتغالية التي سافرت الى شمال افريقية لافتتاح مدينة في المغرب الاقصى فجرح في الحصار ولكن البرتغاليين افتتحوها عنوةً. واتهم بعد ذلك انه خان وطنه بمحاولته الاتفاق مع البربر لكنه نفى هذه التهمة بوثائق ايدت اقواله : على ان مليكه كان قد اخذ يصرف نظره عنه لسبب مجهول وافهمه انه لايريده في بطانته فغادر بلاده الى اشبيلية فوصلها في ٢٠ اكتوبر سنة ١٥١٧ ومنها ذهب الى بلاط ملك الاسبان في فلادوليد فتخلى عن جنسيته البرتغالية وتقلد الرعوية الاسبانية بواسطة رجل برتغالي الاصل ذي نفوذ كبير في بلاط ملك اسبانيا

وتزوج مجلان ابنة هذا الرجل فساعده في ان يعرض على الملك المشروع الذي اعده للطواف حول الارض ويتلخص هذا المشروع في محاولة الوصول الى جزائر الافاويه بالسفر غرباً. وكان مجلان يأمل ان يكتشف عند طرف اميركا الجنوبية مضيقاً يتصل منه الى الجانب الآخر من اميركا وقال انه مستعد للسفر جنوباً الى ان يبلغ الدرجة ٧٥ من العرض الجنوبي لاكتشاف هذا المضيق. وساعده في اعداد خطته فلكي برتغالي نفي من بلاده يدعى فاليرو. وفي ٢٢ مارس سنة ١٥١٨ وقع مجلان

وفاليرو وثيقة رفعت الى ملك اسبانيا وعدا فيها بان يكون لهما ١/٢٠ من كل الغنائم التي يصيبانها والباقي يعود لحكومة اسبانيا لقاء مساعدتها المادية والادبية، ومنحا ايضاً الحق في اقامة حكومة في كل البلدان التي يكتشفانها يتولاها ابناؤهم واحفادهم بالوراثة . وفي



مجلان اول من طاف حول الارض

العاشر من اغسطس سنة ١٥١٩ اقلع الاسطول الذي اعدته له الحكومة الاسبانية وهو مؤلف من خمس سفن اكبرها سفينة تدعى سانت انطونيو حمولها ١٢٠ طناً

والثانية ترنداد ومحمولها ١١٠ اطنان وكانت هذه السفينة امتن السفن كلها فجعلها مجلان « سفينة العلم » ثم الكونسبسيون ومحمولها ٩٠ طناً والفتوريا ومحمولها ٨٥ طناً وسنتياغو ومحمولها ٧٥ طناً . ولم يعد الى اسبانيا من كل هذه السفن سوى الفتوريا كما سيجيء . وكان عدد الرجال الذين سافروا معه ٢٧٠ رجلاً أو ٢٨٠ اكثرهم اسبان وبينهم ٥٧ على اقل تقدير من البرتغاليين و٣٠ من الطليان من (جنوى) و١٩ من الفرنسويين وانكليزي واحد والماني واحد رجع منهم في السفينة فتوريا ٣١ رجلاً اما فاليرو الفلكي فتخلف عن السفر لانه استطلع مصير الرحلة بوسائله الفلكية فزعم انها صائرة الى الاخفاق ورجالها الى الهلاك . وجملة ما انفق على تجهيز هذا الاسطول بلغ ٥٠٣٢ جنيهاً وقيمتها حينئذ تساوي نحو ١٥٠ الف جنيه من نقودنا الآن

اقلعت السفن في ١٠ اغسطس متجهة الى الجنوب الغربي وفي ٢٩ نوفمبر لمح مجلان جنوب اميركا عند رأس سانت اغسطين ومن ثم سار محاذياً لشواطىء اميركا الجنوبية حتى وصل الى مصب نهر لابلاتا فوقف فيه يبحث عن منفذ منه الى الجهة الاخرى من اميركا . وفي آخر مارس من السنة التالية وصل الى بورت سانت جوليان وهي على الدرجة ٤٩ والدقيقة ٢٠ من العرض الجنوبي فقضى فيها الشتاء . ووطد علائق الصداقة مع اهلها واطلق عليهم اسم البتاغونيين اي ذوي الاقدام الكبيرة

وغادر مرفأ سانت جوليان في ٢٤ اغسطس سنة ١٥٢٠ وبعد مسيرة شهرين تقريباً كشف رأس الاحد عشر الف عذراء عند مدخل المضيق المعروف الآن بمضيق مجلان في طرف اميركا الجنوبية . وطول هذا المضيق ٣٦٨ ميلاً وهو حافل بمخاطر البحار فقضى ٣٨ يوماً في اجتيازه بعد ما انفصلت عنه سانت انطونيو اكبر سفن الاسطول . وفي ٢٨ نوفمبر عقد مجلساً من ضباط السفن وربانيها لينظروا في مداومة السفر ، الا أنهم بلغوا منتهى هذا المضيق الخطر في ٢٨ نوفمبر واطلوا على « البحر الجنوبي العظيم » فدعاه مجلان بالباسيفيك اي الهادئ لهبوب ريح لطيفة ساقت المراكب في تؤدة وطمأنينة

وقضى مجلان ورجاله ٩٨ يوماً في اجتياز هذا الاوقيانوس الزاخر الذي « يفوق التصور في اتساعه » ولم يكشفوا في هذه المدة سوى جزيرتين . وكان الطعام معهم قد قارب النفاد فلم يبق معهم سوى ماء قليل آسن وبسكويت عفن . واخذ داء الاسكربوط يفتك بهم وعضهم الجوع بنابه حتى صارت الجرذان وجلود الثيران والنشارة اكلاً

يحسد عليه من يستطيع الوصول اليه . اخيراً وصلوا جزائر لادرون في ٦ مارس سنة ١٥٢١ وقد دعاها مجلان كذلك لتفشي اللصوصية بين سكانها والراجح ان المرفأ الذي رسوا فيه كان مرفأ جوام . هناك اخذ الاسطول عدته من الماء والطعام وبعد ثلاثة ايام اقلعوا منها متجهين الى الغرب فساروا سبعة ايام شاهدوا في نهايتها جزيرة سامار وهي من جزائر الارخبيل المعروف الآن بالفيلبين . وفي ٧ ابريل وصلوا الى جزيرة سيبو في قلب الارخبيل فتصادق مجلان مع اميرها المشهور بالغدر وكان يدّعي انه مسيحي ليستخدم مجلان ورجاله في قضاء مآربه . وجهز مجلان حملة لاكتساح جزيرة مكتان ليضيفها الى امارة صديقه ولينشر فيها الدين المسيحي فقتله بعض سكانها في ٢٧ ابريل سنة ١٥٢١ فاتفق امير سيبو مع نفر من رجال الاسطول لينضموا اليه، ولما صاروا في قبضته ذبحهم ذبح الاغنام وبينهم جوان سرانو احد اميري البحر الذين انتخبا ليخلفا مجلان في قيادة الاسطول فاحرق الباقون احدى سفنهم وغادروا الفيلبين الى ملقا وبورنيو . وظهر خلل في السفينة ترنداد فتخلفت عن المسير في جزيرة تدور . فتولى قيادة السفينة الباقية « فتوريا » رجل يدعى جوان سبستيان دل كانو واقلع بها متجهاً الى اوروبا في ٢١ دسمبر سنة ١٥٢١ ولقي من المشاق والمصاعب في رحلته حول رأس الرجاء الصالح ما يفوق الوصف . ولما بلغوا جزائر الرأس الاخضر اسر البورتغاليون ثلاثين من رجالها فلم يصل الى اشبيلية من رجال الاسطول الاصليين سوى ٣١ رجلاً وكانت الفتوريا السفينة الاولى التي طافت حول الارض

ومع ان مجلان لم يصل الى جزائر الافاويه التي كانت غايته لانه قتل في الفيلبين لكن غرضه كان قد تحقق لانه في رحلته الاولى كان قد قطع خط الطول الذي وصله قبيل قتله وكانت طريق البحر من ملقا الى اوربا معروفة لدى البحارة الاسبان والبرتغاليين ومع ذلك لم ينل اسمه ما يستحقه من الظهور في التاريخ الا ان العلماء يرون انه واحد من الرواد العظام الذين نذكر في مقدمتهم كولمبس وماركو بولو. فانه حقق الخطة التي تخيلها كولمبس وطوافه حول الارض يوازي اكتشاف اميركا ، كلا العملين في الطبقة العليا بين اعمال المكتشفين والرواد

(مقتطف مارس سنة ١٩٢٦)

فاسكو دي غاما

مكتشف طريق الهند بحراً

احتفل البورتغاليون في الاسبوع الاخير من سنة ١٩٢٤ في عاصمتهم لشبونة والفرضة البحرية تاغوس بانقضاء اربعمائة عام على موت الرحالة الشهير فاسكو دي غاما مكتشف طريق الهند براً وصاحب الفتوحات الكثيرة على سواحل افريقية الجنوبية والشرقية . واشتركت في هذا الاحتفال بوارج كثيرة من اساطيل الدول

ولد دي غاما سنة ١٤٦٠ في بلدة سينز بمقاطعة المتيجو من اعمال البورتغال . وما يعرف عن حداثته قليل جداً . لكن اكتشاف كولمبوس لاميركا سنة ١٤٩٢ ورحلات بعض البحارة من الاسبان والبورتغاليين وغيرهم كان باعثاً لعمانوئيل الاول ملك البورتغال على ان يجهز اسطولاً من المراكب الكبيرة للسفر الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ووضع على رأسه فاسكو دي غاما الذي اشتهر من قبل في حروب البورتغال مع قشطالة وعرف بمهارته في سلك البحار

« فخرج فاسكو من مرفأ لشبونة باحتفال عظيم وشيعه الملك وعظماؤه ورجال بلاطه بين هتاف الرجال وزغردة النساء . فاجتاز السواحل الغربية واستولى على جميع السواحل والبلاد التي مر بها في طريقه حتى وصل الى رأس الرجاء الصالح . ثم حول بسفنه شمالاً واستولى على السواحل الشرقية فرسا أولاً عند بلاد سماها نتال واخذ بلاد كفروريا واكتشف في طريقه مدغشقر وجزائر القمور والجوان ولم يزل يسير شمالاً محاذياً السواحل حتى وصل الى بلاد سغالا (موزمبيق) فاحتلها ورفع عليها العلم البرتغالي وهناك اكتشف مناجم الذهب القديمة التي كانت معروفة منذ القدم عند المصريين والرومان والعرب . ويقال انها بلاد ترشيش التي ورد ذكرها في سفر الملوك وقيل ان سليمان الملك كان يأتي منها بالذهب والفضة والقرود والعاج والطواويس (ملوك اول ص ١٠) وبنى فاسكو في اكثر البلاد التي احتلها القلاع والحصون ووضع فيها بعض الحامية من رجاله وجعلهم وكلاء له لشراء الذهب والعنبر والعاج وقد وجد الرحالون البرتوغاليون في اسفارهم هذه كثيرين من تجار العرب عند شواطىء نتال والترنسفال وموزمبيق يحملون تراب الذهب في الاكياس وينقلونها الى سفنهم

ويأخذونها الى زنجبار وعمان وشبه جزيرة العرب

ثم استولى على كل الممالك العربية الافريقية الشرقية وهي قطوة وسعداني وشيكوه وبتة وكلوه وبنجاني وملندة وكلها كانت ممالك زاهرة عامرة تحت حكم سلاطينها المستقلين من العرب وقد ذكر ابن بطوطه اكثر هذه البلاد وحكامها في رحلته المعروفة

ولما وصل ورجاله الى مصب نهر زمبسي الكبير ركبوا فيه بسفنهم وبنوا على ضفته القلاع والفرض وأقاموا فيها اناساً من قومهم للمحافظة عليها وفتحوا اسواقاً عظيمة التجارة

ثم استولوا على بقية الشواطىء الشرقية فرسوا في ممبسة وكانت وقتئذ مدينة تجارية عامرة فسروا بها لأنهم لم يروا مدينة عظيمة مثلها وكان فيها بيوت فخمة وقصور ومبان فاخرة واسواق عظيمة . قال ملطبرون في جغرافيته القديمة « ان اهالي ممبسة كانوا قبل دخول البرتوغاليين من قبائل العرب العرباء وكلهم على حضارة يعيشون بالبذخ الترف وعندهم بعض العلوم والصنائع وكانوا ملمين باحوال التجارة ولهم فيها طرق مفتوحة في داخلية البلاد وسفنهم تمخر في انهارها وتتجر مع عمان وحضرموت والهند

ثم استولى القبطان فاسكو على سلطنة ملندة شمالا وكانت زاهية زاهرة كثيرة المباني واسعة التجارة ورأى فيها جماعة من البنيان وهم طائفة التجار الهنود فاخذ بعضهم الى سفنه ليدلوه على طريق الهند . وبعد ان استولى على سلطنات لامو وملندة وكلوة ومغدشو وجميع السواحل الشرقية وجزائرها وطد قومه اقدامهم فيها فبنوا فيها القلاع الحصينة ولم تزل آثارها باقية الى الآن وعليها كتابات بإغنهم وعلى بعضها كتابات برتوغالية ازاء الكتابة العربية القديمة » . ثم واصل اسفاره حتى وصل الى الهند ورسا في كاليكوت على ساحل ملابار سنة ١٤٩٨ ونصب هناك عموداً من الرخام دليلاً على افتتاحه لتلك البلاد جرياً على عادة سار عليها البورتغاليون قبله . والظاهر ان حاكم كاليكوت الهندي احتفى به في البدء لكنّ التجار وذوي النفوذ خافوا على ضياع تجارتهم باكتشاف سلك بحري حول رأس افريقية الجنوبي قد يحل محلّ الطرق التجارية البرية فاقنعوا الحاكم بنهي دي غاما عن انشاء مستعمرة تجارية هناك . لكنه مكث مدة كافية اطلع في خلالها على احوال الهند وثروتها العظيمة ثم عاد الى بلاده عن طريق رأس الرجاء الصالح فوصل البورتغال في سبتمبر (ايلول) سنة ١٤٩٩ . واستقبله الملك احسن استقبال واكرمه ومنحه الحق ان يلقب نفسه « بالدوم » وقطع له معاشاً وارضاً

وتبع رحلة دي غاما الى الهند رحلة اخرى مؤلفة من ثلاث عشرة سفينة بقيادة

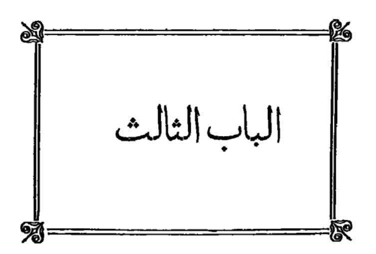
بدرو الفارز كبرال مكتشف برازيل فأسس مستعمرة تجارية برتغالية حال وصوله الى كاليكوت بيلاد الهند وبعد عودته قام اهالي البلاد على البرتوغاليين الذين تركهم في المستعمرة وقتلوهم جميعاً . فاخذت حكومة البرتوغال تستعد للاخذ بالثأر فجهزت عشر سفن مسلحة في لشبونة عاصمتها والقيت مقاليد قيادتها الى كبرال اولاً ثم جعل دي غاما قائداً لها ومنح لقب اميرال الهند . وغادر البرتوغال في اوائل سنة ١٥٢٠ ولما وصل الى الهند امام كاليكوت اطلق قنابله عليها ونزل الى البر فبطش بأهلها . ثم سار من كاليكوت الى كوتشن ومن بعد ان عقد معاهدات تجارية معها ومع مدن اخرى على الشاطىء بينها وبين كاليكوت قفل راجعاً الى لشبونة في سبتمبر ١٥٠٣ وسفنه ملآنة بالتحف . فاحتفي به وبمساعديه ومنح امتيازات جديدة وزيد معاشه

بعد رجوعه من رحلته هـذه اعتزل الاسفار وسكن في داره بايفورا إما لعدم رضائه عما ناله من العطف الملكي لانه كان يطمع بأعظم من ذلك او ليتمتع بامتيازاته الكثيرة وثروته الطائلة لانه كان قد صار من اغنى اهالي البورتغال وكان قد تزوج سنة ١٥٠٠ سيدة غنية من عائلة شريفة ولد له منها ستة اولاد . وبقي من مستشاري ملك البورتغال في مسائل الهند والسياسة البحرية الى سنة ١٥٠٥ ويؤخذ من وثائق تاريخية انه بقي متمتعاً بالعطف الملكي من ١٥٠٧ الى ١٥٢٢ . ومنح سنة ١٥١٩ لقب كونت على مقاطعة فيديجويرا

واتسعت فتوحات البورتغاليين في الشرق فعهد بادارتها الى خمسة حكام بالتتابع كان خامسهم ضعيف العزم سقيم الرأي فاختلت الامور في ايامه . فاستدعى الملك يوحنا الثالث خلف عمانوئيل فاسكو دي غاما من عزلته وسماه نائباً للملك في الهند فغادر لشبونة في ابريل سنة ١٥٢٤ ليتقلد منصبه الجديد وله من العمر حينئذ ٦٤ سنة

وحالما وصل الى جوى عاصمة المستعمرة البرتوغالية في الهند بعد سفر خمسة اشهر اهتم باصلاح ذات البين فيها ولكن لم يفسح في اجله طويلاً ليتم هذا الاصلاح لانه اصيب بحمى في كوتشن وتوفي ليلة عيد الميلاد سنة ١٥٢٤ ودفن فيها اي منذ اربعمائة سنة ثم نقلت رفاته الى فيديجويرا سنة ١٥٣٨ فالى كنيسة القديسة ماريا في بلم سنة ١٨٨٠

ونتج عن رحلاته هذه ان زادت ثروة البرتوغال فصارت في المقام الاول بين دول اوربا في ذلك العصر ومهد السبيل للاستعمار الاوربي في الشرق باكتشاف طريق البحر اليه حول رأس الرجاء الصالح (مقتطف فبراير سنة ١٩٢٥)


الباب الثالث

الروّاد المصريون القدماء(١)

زعم المصريون الاقدمون ان بلادهم تشمل المسكونة كلها غير ان هذا الوهم لم يكن ليبقى راسخاً في اذهانهم بعد ان امتدت التجارة الى بلادهم من البلدان المجاورة لها وسار ملوكهم الفاتحون شمالاً وجنوباً ودوخوا الاقطار البعيدة فعلموا حينئذٍ بوجود بلدان اخرى وشعوب آخرين

ويراد بالروّاد الآن الرجال الذين يجوبون البلدان المعروفة لزيادة العلم بها او يكتشفون البلدان المجهولة للوقوف على احوالها مما يتعلق بالعلم . اما روّاد ذلك الزمان فهم اول من اكتشف مجاهل الارض وابلغ نور التمدن اليها

ويتعذر التمييز بين التاريخ المصري القديم وما يتخلله من الاساطير الخرافية لكن الباحثين فيه قد اثبتوا بعد طول التنقيب ان المصريين القدماء استخرجوا الفيروز والنحاس من مناجم برية سينا في عهد الدولة الرابعة (منذ ٥٠٠٠ سنة) وان الملك صنفرو اول ملوك تلك الدولة انشأ هناك مستعمرة مصرية . وقد اكتشف المسيو بنديت في تلك المناجم رسم الملك سوزيري من ملوك الدولة الثالثة فاثبت ان ذلك الملك اول من وسّع تخوم مصر وعرّف اهل بلاده باهالي البلدان المجاورة لها . ويظهر انه هو الذي بنى السور بين اصوان وجزيرة الفنتين وبنى الهرم المدرج في دهشور مدفناً له

وقد وجد عند سفح جبل سينا صحيفة من الحجر عليها صورة صنفرو يقتل رجلاً بفأسه وتحتها كتابة تعريبها « الملك القدير ذو التاجين ملك الجنوب والشمال سيد الحق هورس الذهبي المعطي الحياة والسعادة الذي يشرح القلوب »

والظاهر انه كان لهذا الملك سلطان عظيم على رعاياه فدامت عبادته في مصر الى زمن البطالسة . وهو اول من وجد في آثاره اسماء النساء كاسم الملكة مرتيتف واسم ابنته نفرتكو وهما موصوفتان وصفاً رقيقاً

ووجد على صخور سيناء اسم خوفو من ملوك الدولة الرابعة وسكوري من ملوك

(١) لحضرة الدكتور بو نولا بك سكرتير الجمعية الجغرافية العام وهي خطبة تلاها في تلك الجمعية ولخصها بالعربية نسيم افندي بربارى

الدولة الخامسة ويقال انهما كانا يرسلان رجالاً من قبلهما لادارة الاعمال في تلك المناجم

وشرع المصريون الاقدمون في الاسفار من عهد الدولة السادسة ، غير انه يظهر من وجود خشب الارز وبعض المعادن بين آثارهم القديمة ، انهم كانوا يعرفون بوجود بلدان اخرى غير بلادهم قبل ذلك الوقت بزمن طويل . ولا ريب ان امراء جزيرة الفنتين كانوا يتعدون الحدود الجنوبية ، وان الطريق بين اصوان ورأس بناس (على البحر الاحمر) كانت مطروقة منذ عهد قديم، وان السفن المصرية كانت تمخر البحر الاحمر حينئذ . وكانوا يسمون سكان البلاد التي جنوبي اصوان باسم توكنس اي الرماة والذين الى جنوبهم باسم المتلعثمين او الاعاجم لأنهم لم يكونوا يتكلمون اللغة المصرية. وقالوا ان وراء ارض المتلعثمين الارض المباركة التي تفيض الخيرات، ووراءها ارض الارواح وشجرة الآس حيث تقيم الآلهة ووراء الجميع البحر الجنوبي الذي يجري منه النيل وتطفو عليه الجزر . ولهذا البحر غرائب ونوادر بقيت شائعة في مصر زمناً طويلاً وهي تتضمن ما كان يعتقده المصريون الاقدمون في بلاد الجنوب ايام حكم الآلهة على الارض حسب زعمهم

ومن اساطيرهم القديمة رواية الاخوين المشهورة وهي من اقدم الروايات المصرية الغرامية وخلاصتها ان اخوين كانا يعملان معاً في الحقل اسم اكبرهما انبو واسم اخيه بطو . وذهب بطو الى البيت لاحضار البذار فرأته امرأة اخيه وراودته عن نفسه فامتنع وعاد مسرعاً الى اخيه . وعاد انبو في المساء الى بيته فشكت امرأته اليه اخاه ظلماً وعدواناً فاستلّ سكيناً ورصد له خلف الباب قاصداً الفتك به غير ان البقرات التي كانت سائرة امام بطو انبأته بالخطر فهرب وتبعه اخوه فجازا الحقول والاودية حتى اتيا الى نهر فعبره بطو اولاً ثم فاض النهر بغتة وكان مشحوناً بالتماسيح فلم يتمكن انبو من الخوض فيه. ووقف بطو على الشاطئ الآخر قبالة اخيه واثبت له انه بريء مما اتهم به واخبره انه عازم ان يسير في النهر جنوباً حتى يصل الى البلاد التي فيها شجرة الآس ويضع قلبه عليها فيضمن لنفسه الخلود ما دام قلبه هنالك

وسار بطو الى تلك الارض المباركة وجعل يصيد الوحوش البرية وبنى لنفسه بيتاً والتقى بمجمع الآلهة فصنعوا له « امرأة لا اجمل منها في الدنيا لان روح الآلهة كانت فيها » . وحدث ان غديرة من شعرها وقعت في النهر وجرت فيه حتى وصلت

الى حيث كان النساء يغسلن ثياب فرعون فصار للثياب رائحة عطرية منها فدعا فرعون جميع السحرة وسألهم عن امرها فقالوا انها من شعر ابنة « فراهرماكس » وان فيها روح كل الآلهة

فارسل فرعون رسلاً كثيرين الى كل الجهات للتفتيش عنها فعادوا بخفي حنين الا الذين ذهبوا الى الارض المباركة فان بطو قتلهم كلهم وابقى واحداً منهم ليخبر مولاه بما حل بهم . فارسل فرعون الرماة والمركبات وارسل معهم امرأة معها كثير من الجواهر لتستميل قلب بنت الآلهة فتمكن من احضارها الى مصر

وقد كتب هذه الخرافة رجل في عهد الدولة التاسعة عشرة (منذ ٣٣٠٠ سنة) لكنها كانت متداولة قبل ايامه ومفادها ان الى الجنوب من بلاد مصر بلاداً خصبة فيها شجرة الآس دليل الخلود. وان تلك البلاد يرويها النيل الذي حمل غديرة زوجة بطو الى مصر وان الوصول اليها سهل ميسور لان بطو بلغها وحده ورسل فرعون دخلوها . ويستدل منها على ان فرعون كان اذا اراد تحقيق امر متعلق ببلاد غريبة او مجهولة يستشير السحرة ثم يرسل الرسل والتجريدات المسلحة وكانت هذه التجريدات تركب احياناً طريق القارظين فلا تعود وترجع احياناً اخرى باخبار واحاديث لا اثر لها من الصحة. وقد تفلح في ما ارسلت له ثم تبالغ في وصف مالقيته من المخاطر وما رأته من الغرائب فنشأ عندهم نوع من الجغرافية الخيالية ولذلك امثلة كثيرة في القرون الوسطى الحديثة فقد ادعى بعضهم انه رأى جزيرة في البحر المتوسط تتبع سفن لويس التاسع ملك فرنسا وادعى آخر انه لمس باصبعه ابواب الجنة في الشرق الاقصى وامثال ذلك كثيرة

وقد اكتشف العالم غولنشف قصة مصرية ينتهي تاريخها الى الدولة الثانية عشرة ومفادها ان مصرياً ركب سفينة كبيرة طولها مئة وخمسون ذراعاً وعرضها اربعون ذراعاً ومعه ١٥٠ نوتياً من نخبة رجال مصر وصعد بها في النيل حتى انتهى الى بلاد المتلعثمين التي تلي بلاد الرماة . وهناك ثارت عليه زوبعة اغرقت السفينة بمن فيها ولم ينج منهم سوى راوي هذه القصة فتعلق بقطعة من الخشب وظلت الامواج تتقاذفه حتى القته على جزيرة « لم يجد له فيها مؤنساً سوى قلبه الشجاع » وكانت الجزيرة كثيرة الزرع والاثمار فبنى فيها مذبحاً وقدم ذبيحة شكراً للآلهة على نجاته . وفيما هو جالس سمع صوتاً كهزيم الرعد واذا بحية طولها ثلاثون ذراعاً ولها لحية

طولها ذراعان وجسمها يلمع كأنه مغطى بصفائح من الذهب فلما رآها ارتعدت فرائصه وجثا امامها يتوسل اليها لكي لاتضره فحملته بفمها واوصلته الى حجرها وامرته ان يقص عليها خبر مجيئه الى تلك الجزيرة فحدثها بما كان من امره وكان مع الحية اخوتها واولادها وهن خمس وستون فوعدته بقدوم سفينة تعود به الى اهله بعد اربعة اشهر وكان كما قالت فعاد الرجل الى بلاده بالهدايا الثمينة من العاج والاثمار والقرود والحيوانات . ثم اختفت الجزيرة في الماء

وقد ظن مسبرو ان هذه الحكاية خرافية محضة ولكن لو حذفنا منها الحية وابدلناها برئيس قوم لصارت جغرافية محضة . ولا ريب عندي ان لها اصلاً حقيقياً ثم زيد عليه اختفاء الجزيرة لاخفاء الحقيقة كما كان يفعل الفينيقيون في ما يقصونه عن البلدان التي يجلبون بضائعهم منها

وبديهي ان اول بلاد دخلها ملوك مصر الاقدمون كانت البلاد المجاورة لتخومهم الجنوبية او بلاد السودان وكانوا يرسلون اليها بضائعهم من الكتان والطيوب والزجاج ويجلبون منها التبر وجلود الاسود وريش النعام وخشب الابنوس

واول سائح مصري وصل خبره الينا نشأ في عهد الدولة الخامسة (منذ ٤٧٣٠ سنة) في ايام الملك اسا واسمه اردودو وهو من كبار رجال الدولة وغاية ما يعلم من امره انه سار جنوباً الى الارض المباركة واحضر منها قزماً اعجب الملك برقصه . ولقد كان لسياحة هذا الرجل شأن عظيم عند المصريين القدماء فنقشوا خبرها بين آثارهم . وقام بعد اردودو سائحان اسم احدهما اونة واسم الآخر خركوف وكانا متعاصرين . ويظهر من النقوش التي وجدت على قبر اونة (وقد كشفه مريت باشا في العرابة المدفونة ونقله الى دار التحف المصرية) انه كان يحمل التاج في عهد الملك تتا اول ملوك الدولة السادسة ثم ارتقى في عهد خلفه بي الاول وتقلد مناصب سامية « اكتسب بها رضى الملك اكثر من كل رجال الدولة » وبعث به الملك الى ترويو (طره) لاحضار حجر ابيض يصنع منه ناووس للملك فأتم ما أمر به على ما يرام فجعله الملك صديقاً له وعهد اليه بقيادة حملة لمحاربة عربان جبل سينا واهالي جنوبي سورية فجمع جيشاً من اهالي الجنوب ومن اهالي مدجاو السود (وهم البرابرة وكانوا في تلك الايام شرطة البلاد وحفظة الامن فيها) ومن اهالي امام واواوت وكاو وتاماهو (وهؤلاء من صحراء ليبية) وغزا العرب خمس مرات « فقطع اشجارهم واحرق بيوتهم

وحصونهم وذبح الوفاً منهم » ثم سار بحراً الى العريش واخضع سكان تلك البلاد فعلت منزلته عند فرعون وسمح له ان يلبس نعليه في حضرته وهذا اعظم ما يكافأ به احد عند ملوكهم

وخدم اونة الملك مرنرا خليفة بي فأمره اولاً بعمل ناووسه ثم ولاه على الوجه القبلي وفوض اليه انشاء السفن . ولما اعوزه الخشب في مصر كلف امراء بلاد النوبة و بلاد الجنوب باحضاره وبنى معامل كثيرة في بلادهم ولاسيا في بلاد امام

وزاره الملك في جزيرة الفنتين ورأى اعماله العظيمة ونقش اسمه وصورته على صخر الشلال . وتوفي اونة بعد ذلك بزمن قصير

وقد عثر العلماء في حكاية اونة على اسماء شعوب وبلدان كثيرة جنوبي مصر ولكنهم لم يتفقوا على تعيينها . وقد درست هذه الاسماء مع صديقي العلامة غروف وقابلناها على الاسماء الواردة في حكاية خركوف فاستنتجنا منها اموراً جديرة بالذكر وسيأتي الكلام عليها

واكتشفت قرينة ولي عهد اسوج ونروج مدفن خركوف وهو احد كبار الدولة في ايام الملك مرنرا وبي الثاني وذلك في شهر فبراير سنة ١٨٩٢ في التل الذي على الجانب الايسر من النيل في اصوان.واتفق اذ ذاك وجود العالم ارنست شيابرلي هناك فاعتنى بفتح المدفن وقراءة الكتابة التي فيه وهي تصف ثلاثة سياح وست رحلات وفيها امور تمكنا بواسطتها من تحقيق اسماء البلدان التي ذكرها اونة . وقد اعلن المسيو شيابرلي اكتشافه هذا للجمعية الجغرافية في جلسة ٢٧ فبراير سنة ١٨٩٣

اما السياح والسياحات التي ذكرها خركوف فهي : —

(١) سياحة اردودو المار ذكرها

(٢) سياحة خركوف مع ابيه وكان الملك مرنرا قد ارسلهما مع آرا لاكتشاف طريق جديد الى بلاد « امام » وهي قرب بربر والاتبرة . واذا ثبت هذا كانت هذه الطريق طريق كروسكو الى ابي حمد وهي تخترق بلاد اوهات وهناك التقى خركوف في سفرته الثالثة بامير امام . ومن المحتمل ان آرا كان قد زار تلك البلاد مع اونة فان اونة قضى نحو سنة في ذهابه وايابه الى بلاد امام لانه سار في النيل وكان مضطراً ان ينتظر زمان الفيضان ليتمكن من عبور الشلالات. لكن خركوف وآرا قضيا سبعة اشهر فقط في سياحتهما هذه وعادا بالهدايا الثمينة « فاستحقا شكر الملك لهما »

(٣) والتي خركوف بسياحته هذه او بالتي تليها بامير امام في برية كروسكو وكان زاحفاً لقتال شعب تاماهو الذين كانوا ساكنين في بلاد الغرب ولعلها عند منحرف النيل وكان هذا الشعب ممتداً الى الواحات فسار خركوف اليهم مع جنود امير امام وصادقهم والزمهم بعبادة آلهة المصريين

(٤) ثم ارسله الملك وحده (وهي الرحلة الثالثة) لاستكشاف البلاد التي تلي بلاد امام فسار الى بلاد ارت ومسكر وترارس وأرتيت وستو « ولم يفعل ذلك قبله احد من مستشاري الملك او مندوبيه في بلاد امام »

(٥) ورحلته الرابعة كانت بتجريدة عسكرية على ما يستدل من قوله انها كانت « لتوطيد الامن » . ووصل فيها الى بلاد امام وارت وستو وبلاد المتلعثمين ورجع منها بثلاث مئة حمار تحمل الهدايا الثمينة كالابنوس والعاج وجلود الوحوش واحضر معه الرجال الذين اخذهم اونة الى معامل امام . « عند ما سار اليها بالقوارب الحاملة ثمراً واشربة وآنية النحاس»

وقد قابلنا اخبار هذه الرحلات باخبار رحلة اونة فتمكنا من تحقيق اسماء بعض البلدان . فقد تقدم القول ان اونة جلب الخشب من امراء امام وارت وبلاد المتلعثمين وانه انشأ معامل في النوبة وانه سار الى تلك البلدان صاعداً في النيل وقد شحن قواربه بالاشربة والجوهرات والآنية النحاسية وبقي في سفرته هذه سنة من الزمان لانه اضطر ان ينتظر الفيضان لكي يتمكن من عبور الشلالات ولذلك فبلاد امام واقعة في ما يلي الشلالات او حوالي مدينة بربر .

وجاء في رحلة آرا ان الملك ارسله ليكتشف طريقاً اقصر من التي سار فيها اونة ولا ريب انه سار براً مخترقاً صحراء كروسكو لانه لم يذكر السفن قط . ولما عاد خركوف من الحملة على اهل ارت وستو وبلاد المتلعثمين رجع الى مصر بطريق النيل ماراً ببلاد امام واحضر معه الرجال الذين كان اونة قد استخدمهم في المعامل التي انشأها هناك

فاذا تقرر ان بلاد المتلعثمين كانت جنوبي بلاد النوبة حيث الطول من ١٥°—٢٠° وان بلاد اوهات كانت في صحراء كروسكو وبلاد امام وارت حوالي بربر وبلاد ارتيت على جانبي نهر الاتبرة جنوبي امام ويليها ستو امكننا ان نتتبع رحلات اولئك الرواد بالتدقيق وان نعرف مواقع البلدان التي زاروها

(٦) اما رحلة خركوف الخامسة والاخيرة فلا يزال تفسيرها مبهماً . فقد ذكر ان بي الثاني خلف مرنرا ارسله الى بلاد الجنوب ليأتيه بطيوبها فعاد اليه بالهدايا الفاخرة من امير اماو . وهذه اول مرة ورد فيها هذا الاسم وقد اتفق العلماء ان هذه البلاد واقعة الى جنوبي بلاد امام وارتيت وستو . واحضر خركوف معه قزماً من البلاد المباركة كالذي احضره اردودو ولكنه لم يذكر هل سار بنفسه الى تلك البلاد او اخذ القزم من القوافل . وقد اثبت العالم شيابرلي ان البلاد المباركة كانت لاتزال بعيدة الى الجنوب الشرقي حيث موطن الاقزام الاصلي — ولما بلغ فرعون وعبيده خبر مجيء القزم قاموا وقعدوا ولم يطمئن بالهم حتى وصل اليهم سالماً فسلم فرعون الى خركوف رسالة « مملوءة من الفرح والمحبة » دبج سطورها « المنجمون الجالسون في حضرة الملك » ومنها « يعلم الناس مظاهر الشرف والافتخار التي اولاه اياها الملك »

وانتهت الرحلات ايام الدولة السادسة بخطب عظيم وذلك ان بينكت احد المقربين الى بي الثاني سار بامره لاخضاع اهالي جبل سينا وجنوبي سورية . وبعد ان اتم مهمته اراد السفر بحراً الى البلاد المباركة ثم الرجوع منها بحراً سائراً بجانب الشاطىء الى رأس باناس ومن هناك براً الى انس الوجود . وبينما كان يبني سفينته هاجمه عربان جبل سينا وذبحوه مع اكثر رجاله فحمل الباقون جثته ودفنوها في الجبل مقابل اصوان . وقد اكتشف بوريان مدفنه سنة ١٨٩٢ . وحدثت كل هذه الامور منذ اكثر من خمسة آلاف سنة حينما كان اهالي اوربا يأوون الى الكهوف والبحيرات . وقد تمكن العلماء بعد الجهد من حل رموز الكتابات القديمة فصرنا نروي اليوم اخبار تلك الايام . ومن فضل العناية الموجهة للمكتشفات الاركيولوجية صرنا نقف امام الخزائن في المتحف المصري ونرى جثة الملك مرنرا سلف محمد علي باشا الذي بعث باونة وآرا وخركوف لاكتشاف بلاد الجنوب

(مقتطف مايو سنة ١٨٩٧)



الرحلات الافريقية القديمة [١]

(١)

الرحلة القديمة

قال استرابون المؤرخ الجغرافي اليوناني ان ابعد ما عرف عن الرحلات القديمة رحلة ربان قرطجني ارتاد بسفنه سواحل ليبية وافريقية الشمالية الى ان بلغ خط الاستواء

وقال هيرودوتس الرحالة اليوناني الذي ساح في مصر وشمالي افريقية ان نخو أحد فراعنة مصر اوفد بعثة فينيقية لارتياد سواحل افريقية الجنوبية واكتشاف بلدانها فجازت تلك البعثة بسفنها الى البحر الاحمر بترعة حفرت في عهد هذا الملك وبعد ان قضت ثلاث سنين على سواحل افريقية وصلت الى اعمدة هرقل (اي بوغاز جبل طارق) وقد عجب هيرودوتس من امر حدث لرجال هذه البعثة وهو ان الشمس كانت تطلع اولاً عن يسارهم ثم صارت تطلع عن يمينهم

وذكر استرابون رحلة اخرى يونانية مصرية على عهد البطالسة قام بها يوناني اسمه ارطيميدورس اجتاز سواحل افريقية من البحر الاحمر الى رأس الرجاء الصالح

وذكر أيضاً رحلة اخرى اقدم من هذه قام بها يوناني اسمه اودكسوس لكي يأتي بالبخور والطيوب والبهارات فأتى اولاً الى مصر وذلك على عهد البطالسة واجتمع بملكها ووزرائه وطلب منهم ان يعينوه على رحلته هذه لاستجلاب الطيوب والتقادم للآلهة . وكان قد وجد قبل وصول اودكسوس الى مصر بمدة وجيزة رجل غريب على شاطىء البحر الاحمر ملقى على الرمل مشرفاً على الموت فعولج وبعد ان شفي اتي به الى الملك فسأله عن امره فلم يقدر ان يفهمه شيئاً لجهله اليونانية التي كانت لغة البطالسة في مصر وقتئذ فعلم هذه اللغة ولما صار يفهمها قال انه من بلاد الهند اتى مع جماعة في مركب للتجارة على شواطىء بلاد العرب فطلع عليهم نوء حمل مركبهم الى سواحل افريقية وحطمه فغرق اصحابه كلهم ولم ينج غيره . فامر بطليموس هذا الرجل

(١) للمرحوم ديمتري نقولا

ان يصحب اودكسوس كدليل يدله على البلاد التي مر بها وعلى طريق الهند . ثم زود اودكسوس بالمال والرجال واعطاه هدايا ليقدمها للملوك الذين يأتي بلادهم وجهز له مركباً كبيراً فسافر به واخذ معه الرجل الهندي وبعد بضع سنين رجع من سفرته ومثل بين يدي الملك واخبره بانه اجتاز مضيق باب المندب وتتبع سواحل افريقية الشرقية وذكر له عوائد اهلها ووصفهم بآكلي السمك والبشر وقال : ان عندهم كثيراً من الذهب والعاج والطيور الكبيرة الجثة كالجمل ووصف وجوههم وفطس انوفهم وتجعد شعورهم وصفاً ينطبق على اهالي سواحل افريقية وزنجبار . واحضر معه كثيراً من البهارات والطيوب والحجارة الكريمة والمرجان واللؤلؤ فاخذ الملك كل ما أتى به اودكسوس من تلك البلاد وحرمه منها وتركه وشأنه فاقام في الاسكندرية حزيناً ليس معه مال يرجع به الى بلاده

ثم توفي هذا الملك وملكت بعده زوجته الملكة كليوباطرة الشهيرة فرفع اليها امر هذا الرجل فامرته ان يسافر سفرة ثانية واعطته من السلع والتحف اكثر مما كان معه في السفرة الاولى وجهزته بمركب ومال ونوتية فسافر وغاب مدة طويلة وقذفت الريح مركبه الى اثيوبية (الحبشة) فجال فيها مدة ثم غادرها وسار الى ما وراءها من البلاد على سواحل البحر وخالط اهلها وتعلم لغاتهم واعطاهم القمح والنبيذ والتين اليابس والحبوب التي لا يعرفونها فسروا بها جداً واعطوه عوضاً عنها كثيراً من العاج والذهب وغيرهما . ووجد اودكسوس عند أحد ملوك البلاد التي مر بها مقدم مركب منقوش عليه رأس فرس وقيل له انه مقدم مركب لجماعة غرباء جاءوا من الجنوب فانكسر بهم وغرقوا . ولما رجع الى مصر كانت الملكة كليوباطرة قد ماتت فاستولى الحاكم الروماني على كل ما جاء به من التحف الثمينة والهدايا والحيوانات الغريبة والطيور والطيوب والعنبر وحرمه منها ايضاً ولم يبق له سوى مقدم المركب فاخذه الى السوق في الاسكندرية ليبيعه ويسد رمقه بثمنه فعرفه الملاحون وقالوا له انه مقدم سفينة ايبيرية (ايبيريا هي بلاد اسبانيا والبرتغال اليوم) لان هذه السفن لا تصنع الا في تلك البلاد . فادرك اودكسوس بثاقب فكره انه يمكن السفر حول افريقية من مضيق جبل طارق اذ لا يمكن ان تكون هذه السفينة قد اجتازت الى البحر الاحمر من البحر المتوسط ولا بد انها اجتازت الى بحر الظلمات (المحيط الاتلنتيكي) ومرت

بسواحل افريقية الغربية الى رأس الرجاء الصالح ثم صعدت شمالاً على سواحل افريقية الشرقية .ولما خطر له ذلك رجع الى بلاد (اليونان) وباع بيته وكل ما يملكه وجهز سفينة وسافر بها الى صقلية ومنها الى موريتانيا (مراكش والجزائر) ثم الى مدينة قادس في اسبانيا فعرض على بعض اهلها مقدم السفينة الذي وجده في شرق افريقية فعرفه بعضهم بانه مقدم سفينة سافرت مع سفن كثيرة في بحر الظلمات جنوباً ثم انقطعت اخبارها ولم ترجع . فتأكد اودكسوس عند ذلك انه مصيب في ما ظنه من امر هذه السفينة وحكى لأهالي قادس حكاية رحلاته ورغبهم في تجهيز رحلة بحرية الى شرق افريقية وكان سكان سواحل ايبيريا وقتئذ حسب اتفاق المؤرخين من الفينيقيين الذين هجروا بلادهم بعد ان افتتحها الاسكندر . والفينيقيون اهل اسفار وتجارة جابوا الامصار واكتشفوا البلاد القاصية وامتلكوا ناصية التجارة في الدنيا بما لهم من الخبرة في سلك البحار ومعرفة تخطيط البلدان ومواقعها وعادات اهلها ومحصولاتها واتقان صنع السفن فلم يحجموا عن امداد اودكسوس بالمال والرجال فجهز سفناً عديدة وجعل نوتيها من اهل قادس الخبيرين في سلك البحار واخذ معه اطباء واناساً يعزفون على الآلات الموسيقية وملأ السفن بالتحف ودار حول افريقية واكتشف بعض جزائرها الى ان وصل الى شرقيها .وهبت عليه عاصفة فجنحت سفنه على ساحل جزيرة فنزل اليها وتعرف باهاليها ووصف معيشتهم ومحصولاتهم وحيواناتهم بما ينطبق على اوصاف اهالي زنجبار وشرقي افريقية والحبشة ثم تركهم وسار الى الهند ثم عاد الى قادس

وبعد ردح من الزمن جهّز سفناً اخرى وسافر حول افريقية وحدث له اثناء رحلته هذه حوادث شتى ذكرها ملطبرون في جغرافيته نقلاً عن استرابون المؤرخ . وقال : انه اكتشف جزيرة كبيرة عند سواحل افريقية الشرقية واقام فيها مع رفاقه طول الشتاء وزرع فيها وحصد ولاشك انها جزيرة مدغشقر لانها اكبر جزيرة هناك. فعلى حسب رواية استرابون هذه كان الايبيريون او الفينيقيون الذين استوطنوا اسبانيا والبرتوغال اول من اكتشف رأس الرجاء الصالح بقيادة هذا الرحالة اليوناني العظيم . وهم اول من طاف حول افريقية من قادس الى زنجبار والحبشة

واذا صدقت رواية هيرودوتس التي تقدم ذكرها عن رحلة فينيقية مصرية في

زمن الملك نخو فرعون مصر فيكون عهد اكتشاف تلك الاصقاع قبل المسيح بزمن طويل

وذكر بعض المؤرخين الاولين ان جميع سواحل افريقية الشرقية كانت معروفة عند المصريين القدماء وانهم جابوها وعمروها وتجروا مع اهلها ولكن الرواية ضعيفة لان المصريين القدماء قلما كانوا يتغربون عن بلادهم ولم يتجاوزوا في حروبهم الى ما وراء النوبة

وقال بلينيوس المؤرخ الطبيعي: انسواحل افريقية والحبشةوغيرها كانت معروفة لدى التبابعة ملوك اليمن القدماء وكانوا يتجرون مع اهلها بالقرفة وانواع الطيب المختلفة وكانوا يحرمون على العامة التجارة بهذه الاصناف لئلاً يفشوا سرها او يبيعوها للرومان واليونان

ومحصل ما تقدم ان الفينيقيين واليونان والمصريين والايبيريين كانوا يعرفون معظم سواحل افريقية قبل الميلاد (مقتطف يوليو سنة ١٩١٥)

—o:o—

٢
تاريخها الاسلامي

ذكر بلينيوس المؤرخ الروماني سنة ٧٠ للمسيح ان التابعة ملوك اليمن عرفوا جميع ممالك افريقية الشرقية وجزرها وكان لهم عليها شيء من السلطة وكانوا يتجرون مع اهلها بالافاوية والطيوب المختلفة وقد حرموا على السوقة من عامتهم الاتجار بهذه الاصناف مع اليونان والرومان لئلا يفشوها على زعمهم

ولما ظهر الاسلام رحل كثيرون من العرب في القرنين الاولين للهجرة الى سواحل افريقية الشرقية والشمالية فملكوا تونس وطرابلس الغرب واجتاز كثيرون منهم صحارى القيروان وليبية وتوغلوا في داخلية البلاد وبعضهم ذهبوا الى السودان من طريق مصر وقنا وكانت القصير مرفأً لمراكبهم يجتازون منها مضيق باب المندب في البحر الاحمر ويرتادون السواحل الشرقية حتى وصل بعضهم في بدء تاريخ الهجرة الى سواحل جزيرة مدغشقر جنوباً وأسسوا في شمالها مملكة عربية لم تزل آثارها وقلاعها وبقايا شعوبها موجودة حتى الآن . ويعرفون هناك بالسقلابة ولغتهم عربية قديمة مشوبة بالحميرية والسواحلية وعندي صورة كتاب ارسلته سميكوه رسول سلطانة السقلابة في شمالي مدغشقر سنة ١٢٥٠ هـ . الى السيد سعيد بن سلطان امام مسقط وعمان تطلب منه ان يحمي بلادها من مراكب الفرنسيس فارسل هذا الامام وقتئذ اسطوله العماني بجيش كبير واحتل جزيرة موكين وعقد معاهدة مع السلطانة المذكورة ووزرائها على ان تكون بلادها تحت حمايته ويدفع اهلها اليه الخراج غرشاً عن كل شخص واحد واحصوا الذكور منهم فكانوا ثلاثين الفاً وهذا مآل تلك المعاهدة :

بسم الله الرحمن الرحيم : نقول نحن الفقراء الى الله تعالى نهكيو بن بتيك الوزير وبوبه بن فنهانك بان مولاتنا صاحبة الاجلال والاقبال السلطانة سميكوه بنت السلطان رسول فوضتنا ان نعطي سيدنا سعيد بن سلطان امام مسقط جزيرة بوكين وان كل الناس الخاضعين لسلطانها من الوزراء والامراء وكبار السقلابة يكونون تحت حماية مولانا المذكور . وقد رضينا ان نسلم له عن كل راس من السقلابة قرشاً واحداً وقدرناهم بثلاثين الف رجل ..... وتعهدنا باصلاح بنيان القلعة وتسليمها له .... الخ ..

وقال بعض مؤرخي العرب انه في القرن الرابع للهجرة كانت كل سواحل

افريقية الشرقية وبلاد الزنج التي تليها معروفة عند العرب فاستوطنوها واتجروا مع اهلها بالعاج والذهب والطيوب العطرية وجلبوا منها الرقيق وهم الذين سموا بلادها وانهرها وجبالها باسمائها المعروفة الآن . وكانت بلاد مايندة وممبسة ومغدوشو وبتة وسفالة وكلوا وبمبا وزنجبار ممالك مستقلة زاهية عامرة وسلاطينها ذوي جاه وسطوة وصولة

وقال حميد بن محمد بن زريق العماني في تاريخه « الصحيفة القحطانية » (وهو كتاب كبير خطي مفرد بمكتبة زنجبار السلطانية تكرم علي باعارته المرحوم السيد حمود ابن حمد السلطان الاسبق)

« لما تولى العراق الحجاج بن يوسف الثقفي من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان الاموي حارب اهل عمان وفيها يومئذ الاميران سعيد وسليمان الازديان الجلنديان وبعد حروب طويلة جمعا زراريهما وسوادهما وخرج معهما خلق كثير من بني الازد ولحقوا ببلاد الزنج واستوطنوا افريقية وجزيرة بتة »

ومن ذاك الوقت تأسست ممالك العرب الاسلامية في تلك البلاد .وقال المسعودي في جغرافيته « ان على مسيرة يومين بحراً من زنجبار جزيرة قنبلو التي اسلم اهلها على يد العرب »

وذكر بعضهم ان العرب كانوا يسافرون الى الهند وسواحل افريقية من الاسكندرية فكانوا يركبون في النيل الى الفسطاط ومنها على الماء نحو اثني عشر يوماً الى قفط ومنها يركبون الابل مدة خمسة عشر يوماً الى شط برنيقة (وهي القصير على البحر الاحمر) ثم يركبون البحر بالسفن في زمن الصيف قبل شروق الشعرى وبعد مسيرة ثلاثين يوماً يصلون الى قانة ببلاد اليمن بعد اجتيازهم باب المندب ومنها يذهبون اما الى بلاد الزنج وممبسة جنوباً او الى كلكوت الهند فيصلونها بعد اربعين يوماً »

ويظهر من قول ابن الاثير في تاريخه الكامل . ان الزنوج اسلموا في بدء ظهور الاسلام وذكر ان كثيراً من الزنوج اموا اليمن والبصرة في ولاية الحجاج الثقفي (سنة ٧٥ هـ) وولوا عليهم رجلاً منهم دعوه اسد الزنج فافسدوا ونهبوا الثمار فامر الحجاج زياداً رئيس شرطته ان يقاتلهم فسير عليهم جيشاً مع ابنه حفص فقاتلهم ولكنهم تغلبوا عليه وقتلوه وهزموا اصحابه فارسل عليهم جيشاً آخر فهزمهم

ثم امتدت شوكة العرب في كل داخلية افريقية شمالاً وغرباً وشرقاً حتى بلاد الكونغو والزولو وكفروريا (الكفرة) ولم تزل آثارهم هناك الى الآن . وقد عثر بعض الاثريين الانكليز سنة ١٩٠٣ في شمال رودسيا شمالي الترنسفال وبالقرب من بلاد الكفرة على قبر عربي قديم وعليه كتابة بالحرف الحميري تنبيء ان اسم الميت سلام وانه توفى سنة ٩٥ هجرية (٧١٤ م) وينتظر العلماء اكتشاف آثار أخرى عربية مهمة في تلك الاصقاع النائية . واكتشف الالمان منذ بضع سنوات بالقرب من دانغا تحت انقاض مدينة فوماكو القديمة داخل افريقية الشرقية كتابات عربية قديمة فنقلوها الى متحفهم في برلين . وفي خرائب وقلاع ممبسة ومليندة وبتة آثار كثيرة وكتابات عربية لم تزل محفوظة الى الآن

واستدل العلماء من ذلك ان العرب من بدء الهجرة عرفوا اكثر بلاد افريقية ووصلوا الى منابع النيل وتوغلوا في بحيراتها وغاباتها ومجاهلها وكانت حتى اواسط القرن الماضي يجهلها الافرنج . ووطئت اقدام الفاتحين من العرب تلك البلاد السحيقة قبل ان تطأها اقدام السياح المتأخرين .

وقرأت في كتاب منقول عن تاريخ فتوحات البرتوغال وهم اصدق شاهد لانهم اخذوا في القرون الوسطى اكثر بلاد افريقية من العرب انه « بينما كانت سفن البرتوغال سائرة عند شطوط افريقية الجنوبية والشرقية (بين رأس الرجاء وناتال) وجدوا العرب شاغلين المرافئ كلها بمراكبهم الكثيرة وقد جمعوا احمالاً وافرة من الذهب اخذوها من بلاد كفروريا ووضعوها في سفنهم يريدون نقلها الى بلادهم » وحقيقة الامر انه كان للعرب تجارة واسعة في العصور الخالية في افريقية كلها

وقد اثبت اصحاب الخطط وبينهم المقريزي ان كل سواحل افريقية الشمالية والشرقية والجنوبية اكتشفها العرب بعد الفتح الاسلامي بزمن وجيز على عهد الخلفاء الامويين والعباسيين اي في ابان مجد مملكة العرب وسعة سلطانها ثم توغلوا في مجاهل البلاد حوالي النيل والنيجر والكونغو وكان عرب عمان وحضرموت والشحر والبحرين اول من عرف طريق الهند من عهد سحيق. وفي بدء الفتوحات الاسلامية اجتازت مراكبهم سواحل افريقية كلها وملكوا الصومال وجوبع وممبسة وزنجبار وموزمبيق وجزائر الكومور ولم تزل بقايا العرب في جزائر مدغشقر وفيليبين واسسوا فيها الممالك

واقاموا فيها الحصون والقلاع ووسعوا تجارتهم في تلك الجهات فاتجروا بالذهب وريش النعام والعاج والبهارات والطيوب . واما النخاسة فكانت منتشرة عندهم انتشاراً عظيماً يأتون بالرقيق من داخلية البلاد وينقلونه بمراكبهم الى العراق والشام ومصر والاندلس وكان للنخاسة اسواق عظيمة في مصر ودمشق و بغداد والبصرة وقرطبة واشبيلية

وزار ابن بطوطة الرحالة الشهير كثيراً من هذه الممالك الاسلامية الافريقية وجال في ممبسة ولامو ومغدشو وكلوة وشفالة وغيرها ، ووصف اهلها وعاداتهم ولقي من سلاطينها الاكرام والحفاوة والهدايا الكثيرة ووصفهم بالتقوى والامانة وقرى الضيفان . وكان ذلك قبل ان يمتلكها اليعاربة ملوك آل نبهان بعد القرن الخامس عشر

ولما ضعفت شوكة العرب بفقدان العصبية وضعف شأن الخلافة العباسية ببغداد وبانتقالها الى الفاطميين بمصر والعلويين في مراكش وجزائر الغرب وتفرقت الممالك الاسلامية العربية بين الدول التركية والتترية والشركسية سقط مجد العرب وتفرقت كلمتهم ونبذوا العلوم والمعارف وتركوا اسباب التجارة واشتغلوا عنها بالمنازعات القومية والحروب الاهلية ورضخوا لنير الاستعباد فسادهم الجهل وضاعت البلاد من ايديهم

وقد اشتد ساعد الاسبان والبرتوغال والاندلس فطردوا العرب منها فرحلوا الى فاس ومكناسة وتفرقوا في الجزائر ومراكش وتونس ولما قويت شوكة الافرنج هناك قام البرتوغاليون وجهزوا السفن والرجال في اواخر القرن الرابع عشر وارسلوها الى سواحل افريقية الغربية والجنوبية والشرقية وطردوا العرب منها

مقتطف اغسطس سنة ١٩١٥

٣
الرحلات البرتوغالية

ذكرنا في المقالة السابقة ان العرب توسعوا في الفتوحات منذ القرن الثاني للهجرة وامتلكوا كل شواطئ افريقية الشمالية والشرقية والغربية وتوغلوا في داخلية البلاد الى ان ضعفت شوكتهم بفقدان العصبية وضعف شأن الخلافة العباسية في بغداد والفاطمية في مصر والعلوية في بلاد المغرب وخضعوا للدول التركية والترية حتى سقط مجدهم وتفرقت كلمتهم واشتغلوا بالمنازعات القومية والدينية الى ان اشتد ساعد الاسبان والبرتوغال في الاندلس فطردوا العرب منها. ولما قويت شوكة الافرنج قام البرتوغاليون سنة ١٤٠٠ فجهزوا السفن الكثيرة والمراكب الكبيرة وارسلوها الى سواحل افريقية فطردوا العرب من بلاد السنيغال وشط العاج وكل السواحل الغربية. وكانوا يتنافسون في تحصيل اسباب الفخار والتوسع في الاسفار ويردفون الغزوة بالاخرى حتى ان نساء لشبونة عاصمة ملكهم كن يحرضن رجالهن على السفر وجوب البحار وغزو العرب ويدفعن حلاهن عن طيبة خاطر الى امراء البحر لتجهيز السفن. وكن يأبين التزوج بمن لا يذهب لغزو العرب وطردهم من بلادهم. ومما ساعد البرتوغاليين على تلك الغزوات البحرية استعمالهم البوصلة (او الحك) لمعرفة الجهات فانها جرأتهم على التوغل في عرض المحيط فاكتشفوا اولاً الجزائر التي على السواحل الغربية حتى رأس الرجاء الصالح. ثم اتجهوا شمالاً فاكتشفوا السواحل الشرقية كلها حتى باب المندب وشواطئ حضرموت وخليج العجم ومن هناك توصلوا الى اكتشاف طريق الهند كما سيأتي بيانه

ففي سنة ١٤٣٣ اكتشفوا جزيرة ماديرا واسسوا فيها مستعمرات وغرسوا فيها قصب السكر والكرم ودخلوا بلاد غينيا وسنيغامبيا وشط العاج وعصاب وملكوها وزرعوا ارضها واخذوا منها الخشب الى بلادهم

وفي سنة ١٤٤٣ اكتشفوا بلاد السنيغال وسواحل الكونغو وانجولا وجلبوا منها الارقاء والعبيد السودانيين واخذوهم الى لشبونة وهي المرة الاولى التي رأى فيها اهلها الزنوج وذوي الشعر الجعد والاجسام المطيبة بالافاويه والزيوت. واكتشفوا جزائر سانتا ماريا وسانتا هيلانة وفرناندوبو وغيرها. وفي سنة ١٤٥٦ اخذ القبطان

بطرس القنطرة بلاد سيراليون من العرب وتألفت فيما بعد في لشبونة شركة برتوغالية لاكتشاف سواحل افريقية كلها وطريق الهند فجهزت السفن الكثيرة العدد والعدد وامدتها بالرجال والذخائر وكانت تنتقل من بلاد الى أخرى ومن فرضة الى غيرها في السواحل الغربية وتتجر مع اهلها بالعاج والذهب والطيور الغريبة والقرود والطيوب والافاويه واحتكر ملوك البرتوغال لانفسهم تجارة العاج فأرسل يوحنا الثاني جماعة من قومه على سفن له الى سواحل افريقية فاكتشفوا في طريقهم جزائر سان توماس والبرنسس وشواطىء العاج ونجريا وسواحل الكونغو وزرعوا فيها القطن واسسوا المستعمرات

وفي اواسط القرن الخامس عشر هاجر الى هذه البلاد اليهود المطرودون من اسبانيا والبرتوغال فاستعمروها واتخذوا العرب والزنوج عبيداً لهم ولم يزل الى الآن في تلك البلاد السحيقة بقية منهم وهم يهود الا انهم اقتبسوا عادات الزنوج الاصليين في معيشتهم

وفي سنة ١٤٧٢ اكتشف القبطان البرتوغالي يوحنا ستنارم بلاد ساحل الذهب فاخذها من سكانها العرب وهاجر اليها البرتوغاليون واستوطنوها وبنوا فيها المدن والقلاع ثم دخلوا بلاد البنيان والكونغو ومنها نقلوا الى بلادهم زراعة الفلفل وغيرها من البهارات والفاكهة . وفي سنة ١٤٨٦ اكتشفوا اقليم السنيغال وانتهى الامر ان برتلمي دياذ الرحالة البرتوغالي الشهير واصل اكتشافاته جنوباً حتى وصل الى رأس افريقية الجنوبي بعد ما عانى الاهوال من العواصف والانواء وسماه « رأس الاهوال » ولكن يوحنا الثاني ملك البرتوغال ابدله باسم « رأس الرجاء الصالح » . وحينئذ تيقن البرتوغاليون ان في وسعهم الطواف حول افريقية بحراً اذ عرفوا ان هذه القارة جزيرة او شبه جزيرة . وفي سنة ١٤٩٥ دعا ملك البرتوغال القبطان الشهير والرحالة العظيم فاسكودي غاما للسفر الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح فجهز له اسطولاً من المراكب الكبيرة وأمده بالمال والرجال « فخرج فاسكو من مرفأ لشبونة باحتفال عظيم وشيعه الملك وعظماؤه ورجال بلاطه بين هتاف الرجال وزغردة النساء . فاجتاز السواحل الغربية واستولى على جميع السواحل والبلاد التي مر عليها في طريقه حتى وصل الى رأس الرجاء الصالح . ثم تحول بسفنه شمالاً واستولى على السواحل الشرقية فرسا أولاً عند بلاد سماها تنال اي المولد باسم المدينة

التي كانت مسقط رأسه واخذ بلاد كفروريا واكتشف في طريقه مدغشقر وجزائر القمور وانجوان ولم يزل يسير شمالاً محاذياً السواحل حتى وصل الى بلاد سغالة (موزمبيق) فاحتلها ورفع عليها العلم البرتوغالي وهناك اكتشف مناجم الذهب القديمة التي كانت معروفة منذ القدم عند المصريين والرومان والعرب . ويقال انها بلاد ترشيش التي ورد ذكرها في سفر الملوك وقيل ان سليمان الملك كان يأتي منها بالذهب والفضة والقرود والعاج والطواويس (ملوك اول ص ١٠) وبنى فاسكو في اكثر البلاد التي احتلها القلاع والحصون ووضع فيها بعض الحامية من رجاله وجعلهم وكلاء له لشراء الذهب والعنبر والمعادن والعاج .وقد وجد الرحالون البرتوغاليون في اسفارهم هذه كثيرين من تجار العرب عند شواطىء الترانسفال وموزمبيق يحملون تراب الذهب في الاكياس وينقلونها الى سفنهم ويأخذونها الى زنجبار وعمان وشبه جزيرة العرب

ثم استولى هذا القبطان الشهير على كل الممالك العربية الافريقية الشرقية وهي قطوة وسعداني وشيكوه وبثة وكلوه وبنجاني وملندة وكلها كانت ممالك زاهرة عامرة تحت حكم سلاطينها المستقلين من العرب. وقد ذكر ابن بطوطة اكثر هذه البلاد وحكامها في رحلته المعروفة

ولما وصل القبطان ورجاله الى مصب نهر زمبيسي الكبير ركبوا فيه بسفنهم وبنوا على ضفتيه القلاع والفرض واقاموا فيها اناساً من قومهم للمحافظة عليها وفتحوا اسواقاً عظيمة للتجارة

ثم استولوا على بقية الشواطئ الشرقية فرسوا في ممبسة وكانت وقتئذ مدينة تجارية عامرة فسر البرتوغاليون بها لانهم لم يروا مدينة عظيمة مثلها وكان فيها بيوت فخمة وقصور ومبان فاخرة واسواق عظيمة . قال ملطبرون في جغرافيته القديمة « ان اهالي ممبسة كانوا قبل دخول البرتوغاليين من قبائل العرب العرباء وكلهم على حضارة يعيشون بالبذخ والترف وعندهم بعض العلوم والصنائع وملمون باحوال التجارة ولهم فيها طرق مفتوحة في داخلية البلاد ،وسفنهم تمخر في انهارها وتتجر مع عمان وحضرموت والهند»

ثم استولى القبطان فاسكو على سلطنة ملندة شمالاً وكانت زاهية زاهرة كثيرة المباني واسعة التجارة ورأى فيها جماعة من البنيان وهم طائفة من التجار الهنود فاخذ بعضهم الى سفنه ليدلوه على طريق الهند .وبعد ان استولى على سلطنات لامو وملنده

وكاوة ومغدشو وجميع السواحل الشرقية وجزائرها وطد قومه اقدامهم فيها فبنوا فيها القلاع الحصينة ولم تزل آثارها باقية الى الآن ، وعليها كتابات بلغتهم وعلى بعضها كتابات برتوغالية ازاء الكتابة العربية القديمة ». ثم واصل دي غاما سفره الى الهند ورسا على سواحلها وجلب منها البضائع ورجع الى بلاده . وفي سنة ١٥٠٠ خرج القبطان الينوزا البرتوغالي بمراكب كثيرة من لشبونة واجتاز بها سواحل افريقية الغربية ثم دار حولها متعهداً اثار من سبقه من الرواد وموطداً دعائم المستعمرات البرتوغالية وظل يسير شمالاً حتى اجتاز بوغاز باب المندب الى البحر الاحمر ثم ارتاد سواحل شبه جزيرة العرب بين عدن والشحر وحضرموت ثم رجع الى بلاده

وفي سنة ١٥١٣ استولى البيوكرك الاكبر البرتوغالي الشهير على جزيرتي زنجبار وبمبا وكان ملوكها واهلها وقتئذ من اليعاربة اصحاب الشوكة والصولة وجرى بينه وبينهم حروب عديدة براً وبحراً مدة سنين كثيرة واخيراً تم النصر للبرتوغاليين ففرضوا على ملوك تلك البلاد الخراج والمغارم ودخلت جميع ممالك العرب في طاعتهم . وكان في السواحل الشرقية بلاد يحكمها مشايخ من العرب بالشورى ولذلك دعاها مؤرخو البرتوغال جمهورية بروا فالزموا اهلها ان يدفعوا لهم كل سنة خمسمائة مثقال ذهباً . وكان لملك البرتوغال ايراد سنوي من هذه الممالك العربية يؤخذ ويصرف ثمناً لجلب البضائع من الهند الى لشبونة . فانفتحت بذلك للبرتوغال اسباب الغنى والسيادة على سواحل افريقية كلها شرقاً وغرباً حتى خليج العجم وعمان والهند . واخذوا عن العرب كثيراً من العلوم والفنون والصنائع واصول التجارة وعلم اسفار البحر وعرفوا المواقع والمرافئ والخلجان . وقد وصفهم مؤرخو البرتوغال في كتبهم بانهم في سعة من العيش والحضارة ولسلاطينهم شوكة وصولة وانهم من ذوي الكرم والثروة . وكانت لهم تجارة واسعة مع سواحل العرب وحضرموت والبصرة وعمان والهند وكانت كل سلطنة مستقلة عن الاخرى في احكامها ومعاملاتها

وفي سنة ١٥٧٣ وصلت حملة بحرية برتوغالية واجتازت السواحل الشرقية وتوغلت في داخلية البلاد طلباً لاكتشاف مناجم الذهب وبعد مشقات كثيرة وحروب عديدة مع العرب والزنوج وصلوا الى ماتيكا في داخلية بلاد سفالة (موزمبيق) واكتشفوا معادن الذهب القديمة التي ذكرناها ولكنهم وجدوا الاراضي قاحلة جدباء وايقنوا

انهم لا يقدرون ان ينتفعوا منها بشيء لانهم لم يكونوا يعلمون طرق الحفر والنقب الحديثة وليس عندهم آلات للنزول الى اعماق الارض وبلوغ عروق الذهب وكان العامل يشتغل اياماً ولا يستخرج من عمله اكثر من خمسة دراهم فتركوا البلاد ورجعوا الى بلادهم .

ثم ارسل ملوكهم عمالاً لهم الى تلك الاصقاع بعد ان رسخت اقدامهم فيها وكان اولهم القبطان فرنسز الفارس وامتد حكمهم نحو اكثر من مائتين وخمسين سنة في مسقط وعمان وخليج العجم وممبسة ولامو وملندة وكاوة وزنجبار وسلطنة ويتو وكل ممالك افريقية الشرقية وجزائرها الى سنة ١٧١٥ حين قام الامام الاكبر سعيد بن سلطان ابن سعيد بن سلطان بن مالك بن ابي العرب بن سلطان بن مالك اليعربي القحطاني النبهاني امام مسقط وعمان الملقب بقيد الارض فاخرج البرتوغاليين من بلاده واجلاهم عن مسقط وخليج العجم ثم جهز السفن العديدة وارسلها مع جيش عظيم من العرب الى زنجبار وبمبا وسواحل افريقية الشرقية وطردهم من تلك الاصقاع وحاربهم في مواقع بحرية ومعارك برية يطول شرحها واخذ البلاد كلها منهم ودك حصونهم وقلاعهم واقام عمالاً له في لامو وممبسة وملندة وبستة من مشايخ آل المذروعي وفي زنجبار وبمبا اناب عنه امراء من آل نبهان ولبثت تلك البلاد تحت سلطة ائمة اليعاربة الى ان قام سنة ١٧٤١ الامام السيد احمد بن سعيد بن احمد بن محمد ابو سعيدي اليمني الازدي جد الاسرة البوسعيدية المالكة الآن في زنجبار وعمان وطرد اليعاربة من عمان وكل شواطىء افريقية ودانت له البلاد كلها وامتدت سلطته من عمان وخليج العجم وافريقية الشرقية حتى جزيرة القمور وشمالي جزيرة مدغشقر . وبعد ذلك انفصلت سلطنة زنجبار عن سلطنة عمان في اخبار طويلة لا سبيل لذكرها الآن

اما البرتغاليون فتقلص ظلهم من كل البلاد الافريقية الشرقية ولم يبق تحت حكمهم سوى اقليم موزمبيق .

مقتطف اكتوبر سنة ١٩١٥



٤
الرحلات الحديثة

قصد كثيرون من السياح الاوربيين اكتشاف مجاهل افريقية منذ القرن السابع عشر بعد ان عرفت واكتشفت شواطئها كلها . والمعروف منها رحلات كافانسي وبروا وكولنسي . وفي القرن الثامن عشر قام السياح كبانيون وستيوارت وسكاو ولوكوك وبرون ونوريس وبورمان وباروى ومندوزا لامرد برحلات عديدة ولكن تقاريرهم التي وضعوها في اسفارهم قلما يركن اليها واكثرهم لم يتجاوزالشواطئ الغربية والشرقية الا في بعض مئات من الاميال

وفي بدء القرن التاسع عشر قام ادمس الرحالة سنة ١٨١٠ عشر برحلة وصل بها الى تمبكتو وقام بعده الرحالة مونغوبرك فوصل بها الى نهر النيجر وهناك قتل بايدي المتوحشين

وكانت بعد ذلك رحلات السياح كلابرتون ولاحي . ورتشرد لندر الانكليزي ورينيه كاييه الفرنسوي وكلهم لم يتوغلوا كثيراً في المجاهل الافريقية فلم تأت رحلاتهم بفائدة تذكر . وقام بعدهم الرحالتان الشهيران برث وفوجل برحلات في الاقطار السودانية الغربية وتجاوزا نهر النيجر وكتبا عن اهالي تلك البلاد وعوائدهم . وفي سنة ١٨٠٦ رحل بعض السياح البرتوغاليين من موزمبيق الى داخل افريقية ووصلوا بعد مشقات ومصاعب عديدة الى مصب نهر زمبيسي العظيم ثم كانت بعد ذلك رحلة المرسل الانكليزي كريف ورفيقيه ارهرت وربمان فاكتشفوا بلاداً كثيرة في الداخلية كانت قبلاً مجهولة ووصلوا الى جبال كينيا وكلمنجارو المكللة رؤوسها بالثلوج صيفاً وشتاء واتجروا مع العرب وحصلوا على ثروة طائلة وهم اول من قالوا بوجود بحيرات كبيرة في اواسط افريقية وذكروا بعض معلومات عنها افادت السياح من بعدهم للوصول الى تلك البحيرات

وفي سنة ١٨٤٤ رحل شاب فرنسوي يدعى ميزان وكان من ضباط البحرية الفرنسوية فخطر له تبعاً لتقارير السائح كريف ان يتوغل في داخلية افريقية ويكتشف بنفسه بحيراتها الكبرى ويصف كل ما يتعلق بها فصوبت الحكومة الفرنسوية رأيه وامدته بالمال فذهب اولاً الي جزيرة بوربون ثم الى زنجبار وكان فيها وقتئذ المسيو .

بروشان قنصلاً لهذه الدولة لدى الحكومة الزنجبارية فساعده في مهمته واراد ان يعده بعض الحرس ، الا ان ميزان رفض ان يأخذ معه احداً ولم يستصحب معه سوى رجل واحد من السواحليين من التجار العارفين لطرق تلك البلاد السحيقة وتابع اسمه فريدريك . ولما وصل ميزان الى بغامويو لحقه اربعون رجلاً من الزنجباريين كان ارسلهم قنصل فرنسا وراءه ليقوموا بحراسته غير ان ميزان أمرهم ان يرجعوا من حيث اتوا ولبث في بغامويو مدة شهرين يتعلم فيها اللغة السواحلية حتى اذا اتقنها خرج في رحلته الى داخلية البلاد مع تابعه فريدريك

وفي شتاء سنة ١٨٥٤ وصل الى مقاطعة واكمبو وزار فازي مازنجري زعيم قبائل (المساي) ورحب به ، غير انه لما رأى ما عنده من الآلات الفلكية والادوات الهندسية والنظارات العلمية وقد بهرت انظاره بلمعانها غدر به طمعاً بالحصول عليها فقبض عليه واذاقه من العذاب الواناً وامر بتقطيع جسمه عضواً عضواً . واما تابعه فتمكن من الفرار بعد ان احتمى بزوجة هذا الزعيم الوحشي ورجع الى زنجبار واخبر قنصل فرنسا بما جرى لميزان فارسلت حكومة زنجبار قوة عظيمة للاقتصاص من تلك القبائل وزعيمها تبعاً للاوامر المشددة الصادرة من فرنسا

وجاء بعده برتون وسبيك الرحالتان الانكليزيان الشهيران فذهبا الى الهند سنة ١٨٥٦ وعزما على السياحة في داخلية افريقية لاكتشاف مجاهلها وبحيراتها فوصلا الى جزيرة بمبا ومنها الى زنجبار فاستقبلهما السر هاملتون قنصل انكلترا ورحب بهما ونشطهما على السياحة وكانت وطأة التعدي على الاجانب قد خفت في تلك الاصقاع بفضل سلاطين زنجبار ونفوذهم

وفي سنة ١٨٥٧ ركبا سفينة سواحلية ووصلا الى ممبسة وتجمع الاهالي على الشاطئ ليروا السائحين الغريبين وكان الاولاد يتراكضون حولهما ويصيحون بلغتهم « مزنجو مزنجو» اي الافرنج البيض وزارا بالقرب من هذه المدينة المرسل الانكليزي رعان وكان مقيماً هناك من مدة طويلة وقد تعلم لغة تلك البلاد . ثم ذهبا الى تنغا وركبا سفينة في نهر بنجاني الى الداخلية . ولا بأس بتلخيص هذه الرحلة لما فيها من الغرائب والفوائد الجغرافية

استصحب هذان السائحان معهما بعض الحرس والحامية من السواحليين والعرب وكان سيرهم في نهر بنجاني بطيئاً متعباً وقد التقوا بقطعان من عجول البحر وغيرها من

الحيتان ورأوا نوعاً من التماسيح هائل الجثة وهي كثيرة هناك تسرح على الشاطئ من الجانبين ومروا في طريقهم بغابات تكثر فيها القرود على اختلاف اجناسها ووجدوا انواعاً كثيرة من الاشجار الغريبة الضخمة ومن النباتات النادرة منها، نوع يشبه النخل له سعف ضخمة كفخذ الانسان وطول الورقة منها عشرون ذراعاً وهي محددة الرأس كالرمح

ووصلوا في الليلة الاولى الى قرية ذات ادغال كثيفة فاستقبلهم الاهالي بترحاب وامدوهم بالمؤونة والفاكهة وما زالوا يتوغلون في مجاهل تلك البلاد حتى وصلوا الى مدينة فوجه القريبة من جبال كينيا الشامخة التي تعلو تسعة آلاف قدم من سطح البحر

ثم رجع الرحالتان ومن معهما الى زنجبار واستعدا في تلك السنة لرحلة اخرى اعظم من الاولى واخذا معهما الرجال والدواب والاحمال والزاد ولكن قبل ان يصلا الى اوغندا اعترت سبيك الحمى الخبيثة الافريقية واصيب رفيقه برتون باعراضها . ولما شفيا واصلا السير الى الداخلية فوصلا في شهر يوليو الى مقاطعة وازرمي وزنجوميرو وهناك قبائل المساي الشهيرة بالغزو والسطو . وقد تجشمت هذه الحملة كثيراً من المشاق والمخاطر الى ان وصلت الى قازه وهي محط رحال القوافل من تجار العرب والنخاسة الى اواسط افريقيا وبحيراتها . وقد تحمل رجال هذه الحملة من لدغ النمل الاحمر والاسود ما جعلهم يتوقفون عن المسير الى الامام، وهذا النمل يسير في تلك الفيافي كالجيش المرصوص وهو كبير الجثة طول النملة منه بوصتان او ثلاث ، ولها منسران صلبان حادان كنصل الرمح واحياناً يلتقي هذا الجيش بجيش آخر من النمل الابيض فيتقاتلان اشد القتال في معارك كبيرة الى ان يتغلب احدهما على الآخر ويفتك به، ولدغ النمل الاحمر اشد ضرراً لانه سام

وقد التقت هذه الحملة في طريقها باسراب كثيرة من الفيلة والزرافي . والاهالي هناك يصطادونها ويجعلون من جلودها تروساً وهي متى جففت على طريقة يعرفونها تصبح صلبة متينة كالحديد لايخرقها الرمح الحاد

ثم وصلت الحملة الى بلاد اونياموزي وهي كثيرة الخصب جيدة المرعى ومنها واصلت سيرها الى بحيرة تنغنيكا فوصلت بعد سفر شاق اليها فطاف سبيك وبرتون حولها في قارب من جذع احدى الاشجار الضخمة ولاقت الحملة اهوالاً واخطاراً

عظيمة من الاهالي والوحوش يعسر وصفها ثم وصلا الى اوبواري واهلها يأ كلون الجرذان والحشرات ولحوم البشر نيئة وهم في اسفل دركات الانحطاط والهمجية لافرق بينهم وبين الحيوانات في هيئاتهم وعوائدهم . ثم استأنفا المسير الى عوبرة على الشاطئ الغربي من هذه البحيرة ودخلا في بلاد اوجيجى . وبعد اربعة اشهر رجع برتون الى قازة مع بعض رجال الحملة قاصداً زنجبار لان الحمى انهكت قواه ولم يستطع مواصلة السير .واما رفيقه سبيك فاخذ باقي الحملة وواصل سفره وقد عزم ان لا يرجع بالخيبة والفشل الا بعد ان يكتشف بحيرة فيكتوريا نيانزا . وبعد شهر وصل اليها وهو اول من وصفها وصفاً جغرافياً علميـاً . وبعد ان طاف حولها ذكر جزائرها ووصف اهلها وحيواناتها وزراعتها وحاصلاتها وقال ان اهلها على جانب من الحضارة وكلهم مسالمون وعندهم قطعان البقر والغنم والماعز ويزرعون الفول والارز وهو اول من قال بان منابع النيل من تلك البحيرة العظيمة .

وفي اوائل سنة ١٨٥٩ رجع سبيك الى قازه فوجد رفيقه برتون قد تعافى من مرضه فاخبره انه اكتشف منابع النيل ثم طافا في تلك البلاد ووصلا الى اوغندا والتقيا بملكها ووصفا اهلها وحكومتها وكان للملك جيش لا يقل عدده عن مئة الف رجل . ومن هناك رجعا مع الحملة الى زنجبار ومنها الى اوروبا . وهذه هي الرحلة الاولى المهمة الى اعالي النيل . واقبل بعد سبيك وبرتون كثيرون من السياح لارتياد تلك البلاد السحيقة اشهرهم السائح العظيم لفنستون وستانلي الرحالة الشهير . ولا يسعنا المقام وصف رحلتهما وما اكتشفا من البلاد والجبال والبحيرات والانهر. وانما نكتفي بالاشارة الى رحلة ستانلي وهو اول من اخترق قارة افريقية مرتين من الشرق والغرب اي من زنجبار الى الكونغو وبالعكس وعادت اكتشافات هذا الرحالة بفوائد جمة على علم الجغرافية وكشفت النقاب عن مجاهل افريقية الوسطى

رحل ستانلي من باريس ووصل في فبراير سنة ١٨٧١ الى زنجبار وامده المرحوم برغش سلطان زنجبار بحملة كبيرة من الرجال السواحليين وفي ٢١ مارس وصل الى بحيرة تنغنيكا وفي شهر نوفمبر وصل مع الحملة بعد ان لاقى المصاعب والاهوال الى بلاد اوجيجى حيث التقى بالرحالة لفنستون وكان التفتيش عنه هو المهمة التي انتدب لها كما هو معروف . واقام ستانلي عند لفنستون شهرين واتحدا معاً على اكتشاف حدود

البحيرة الشمالية . وفي شهر مارس سنة ١٨٧٢ فارق ستانلي لفنستون لانه لم يشأ ان يرجع معه الى اوروبا .

وطاف ستانلي في اواسط افريقية وحده ورجع الى زنجبار ونقل خبر وجود لفنستون حياً بلسان البرق الى اوروبا . وقام بعد سنة برحلة اخرى لاكتشاف ما بقي من اواسط افريقية المجهولة واخترقها من الشرق الى الغرب واستصحب معه من زنجبار حملة كبيرة وقارباً صغيراً مفككاً ورافقه بضعة اشخاص من اوروبا فاجتاز في رحلته هذه كل مقاطعات افريقية الشرقية واوغاندا ووصل سنة ١٨٧٥ الى منابع النيل وبحيرة البرت ثم واصل سيره في اواسط افريقية حتى وصل الى الكونغو على المحيط الاتلنتيكي بعد ثلاث سنوات

ورحل ستانلي رحلة ثالثة سنة ١٨٨٤ اخترق فيها افريقية من الغرب الى الشرق اي من الكونغو الى زنجبار واكتشف في رحلته هذه بلاداً كثيرة وجبالاً وبحيرات وانهراً كانت مجهولة مما هو معلوم فلا نطيل فيه

وفي سنة ١٨٨٧ قام برحلة رابعة منتدباً من الجمعيات الجغرافية الاوربية ومن المرحوم توفيق باشا الخديوي الاسبق للتفتيش عن امين باشا حكمدار مديرية لادو ولبطون بك حكمدار بحر الغزال وكازاتي السائح الايطالي ويونكر السائح الروسي وقد انقطعت اخبارهم بعد ثورة الدراويش واستيلاء المهدي على السودان . فقام ستانلي بمهمته هذه المحفوفة بالمخاطر والمشقات واشتركت في نفقات هذه الحملة الحكومة المصرية والجمعية الجغرافية الانكليزية فاكتشف كثيراً من البلاد المجهولة وطاف في جهات السودان كلها . وفي ١٦ يناير سنة ١٨٨٩ التقى ستانلي بامين باشا ومن معه من الجنود المصريين ورجع بهم عن طريق زنجبار . وفي سنة ١٨٩٠ وصل الى مصر وكان له استقبال حافل وقدخدم هذا الرجل العظيم العالم اجمع وخلد له اسماً مجيداً باكتشافاته العلمية الثمينة (مقتطف نوفمبر سنة ١٩١٥)



ابن بطوطه في السودان

(١)

لقينا بالامس رجلاً من ضباط الجيش البريطاني اخبرنا انه جال في السودان الغربي التابع لفرنسا ورأى فيه كثيراً من الآثار الدالة على عمران سابق يفوق عمرانه الحالي وقال ان أحد كتاب العرب وصفه منذ نحو ستماية سنة فقلنا لعله ابن بطوطه فقال هو هو فرجعنا الى ابن بطوطه فرأينا فيما كتبه عن السودان فوائد حرية بالنشر فاثبتنا منه ما يلي وابقينا الكلام بصورة المتكلم بعد ما حذفنا منه ما لا حاجة اليه . وزدنا فيه بعض الزيادات وضعناها بين قوسين

وابن بطوطه هو شرف الدين ابو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الرحالة المشهور ولد بطنجة سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٤م) وخرج منها سائحاً سنة ٧٢٥ (١٣٢٥م) فجاء الاسكندرية والقاهرة وكانت أكبر المدن حينئذ على ما يرجح ما عدا بعض مدن الصين وحاول المسير الى مكة بطريق عيذاب فتعذر عليه ذلك فانقلب راجعاً الى مصر وسار الى فلسطين فحلب فدمشق ومنها الى المدينة ومكة حاجاً . ثم زار مشهد الامام علي في مشهد وسار منها الى واسط فالبصرة وقطع جبال خوزستان الى اصفهان وشيراز وعاد الى الكوفة فبغداد فالموصل فديار بكر . وحج ثانية وجاور ثلاث سنوات وجاء عدن وعبر الى افريقية وزار ممبسه وكلوى ثم عاد الى عمان وهرمز ومكة وحج ثالثة ثم جاء القاهرة بطريق اسوان وذهب الى بلاد الشام وبر الاناضول وعبر البحر الاسود واتصل بالسلطان محمد اوزبك صاحب تلك البلاد ووصل الى مدينة بلغار حيث العرض ٥٤ درجة و٥٤ دقيقة لكي يشهد قصر ليالي الصيف وحاول الوصول الى الارض المظلمة . وسار الى القسطنطينية في عهد الامبراطور اندرونيكس الثالث وعاد الى بلاد السلطان محمد اوزبك وقطع الى خوارزم وبخارى وسار الى كابول بطريق خرسان ودخل بلاد السند وانتقل الى ملتان ومنها الى دهلي عاصمة السلطان محمد تغلق واقام هناك ثماني سنوات ثم اوفد الى بلاد الصين فمر على جزائر ملديف فجزيرة سيلان وعبر الى بنجالة وعاد فزار جاوه وسومطره ووصل الى الصين ثم عاد الى سومطره ومليبار وعمان وبلاد فارس وبغداد وتدمر ودمشق وحمص وحلب

والقدس والقاهرة وحج حجة رابعة وعاد الى فاس بطريق سردينية فوصلها بعد ما قضى في رحلاته هذه اربعاً وعشرين سنة وقطع الى الاندلس وعاد الى مراكش ومنها الى مكناسة ففاس ورحل من هناك الى بلاد السودان وهي الرحلة الاخيرة التي اردنا تفصيلها هنا قال : —

ودّعت مولانا ايده الله (الامام الخليفة أمير المؤمنين ابا عنان فارس المريني من آل عبد الحق) وتوجهت الى بلاد السودان فوصلت الى مدينة سجلماسة وهي من احسن المدن وبها التمر الكثير الطيب وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر لكن تمر سجلماسة اطيب ونزلت عند الفقيه ابي محمد البشري وهو الذي لقيت اخاه بمدينة قنجنفو من بلاد الصين فيا شد ما تباعدا فاكرمني غاية الاكرام واشتريت بها الجمال وعلفتها اربعة اشهر ثم سافرت في غرة شهر الله المحرم سنة ٧٥٣ (١٨ فبراير ١٣٥٢م) في رفقة فيها جماعة من تجار سجلماسة فوصلنا بعد ٢٥ يوماً الى تغازى وهي قرية لا خير فيها من عجائبها ان بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح ولا شجر بها وانما هي رمل فيه معدن الملح يحفر عليه في الارض فيوجد منه الواح ضخام متراكبة كأنها قد نحتت ووضعت تحت الارض يحمل الجمل منها لوحين . ولا يسكنها الا عبيد مسّوفة الذين يحفرون على الملح ويتعيشون بما يجلب اليهم من تمر درعة وسجلماسة ومن لحوم الجمال ومن الانلي (الذرة) المجلوب من بلاد السودان . ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح ويباع الحمل منه بمدينة ايوالاتن بعشرة مثاقيل الى ثمانية وبمدينة مالي بثلاثين مثقالاً الى عشرين وربما انتهى الى اربعين مثقالاً (المثقال من الذهب يساوي نحو ٤٥ غرشاً) وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعاً ويتبايعون به . وقرية تغازى على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر . واقمنا بها عشرة ايام في جهد لان ماءها زعاق وهي اكثر المواضع ذباباً ومنها يرفع الماء لدخول الصحراء التي بعدها وهي مسيرة عشر لا ماء فيها الا في النادر . ووجدنا نحن بها ماء كثيراً في غدران ابقاها المطر . والكمأة بتلك الصحراء كثيرة. ووصلنا الى تاسرهلا وهي احساء ماء تنزل القوافل عليها ويقيمون ثلاثة ايام فيستريحون ويصلحون اسقيتهم ويملأونها بالماء ويخيطون عليها التلاليس خوف الريح ثم وصف مسيرهم في الصحراء الى ان دخلوا مدينة ايوالاتن فقال : —

ووصلنا الى مدينة ايوالاتن في غرة شهر ربيع الاول بعد سفر شهرين كاملين من سجلماسة وهي اول عمالة السودان ونائب السلطان فيها فربا حسين ومعنى فربا نائب ولما وصلناها ذهبنا الى الفربا وهو جالس على بساط في سقيف واعوانه بين يديه بايديهم الرماح والقيسي وكبراء مسوفة من ورائه ووقف التجار بين يديه وهو يكلمهم بترجمان على قربهم منه احتقاراً لهم فعند ذلك ندمت على قدومي بلادهم لسوء ادبهم واحتقارهم للابيض وقصدت دار ابن بداء وهو رجل فاضل من اهل سلا كنت كتبت له ان يكتري لي داراً ففعل ذلك وكانت اقامتي بايوالاتن نحو خمسين يوماً واكرمني اهلها واضافوني ، منهم قاضيها محمد بن عبد الله بن ينومر واخوه الفقيه المدرس يحيى . وبلدة ايوالاتن شديدة الحر وفيها يسير نخيلات يزدرعون في ظلالها البطيخ وماؤهم من احساء بها ولحم الضأن كثير فيها وثياب اهلها حسان مصرية واكثر السكان بها من مسوفة ولنسائهم الجمال الفائق وهن أعظم شأناً من الرجال

والمسوفة عجيب أمرهم فاما رجالهم فلا غيرة لديهم ولا ينتسب احدهم الى ابيه بل ينتسب الى خاله . ولا يرث الرجل إلا ابناء اخته دون بنيه وذلك شيء ما رأيته في الدنيا إلا عند كفار بلاد والمليبار من الهنود . واما هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن . واما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات . ومن اراد التزوج منهن تزوج لكنهن لا يسافرن مع الزوج ولو ارادت احداهن ذلك لمنعها أهلها . والنساء هنالك يكون لهن الاصدقاء والاصحاب من الرجال الاجانب وكذلك للرجال صواحب من النساء الاجنبيات ويدخل احدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك

دخلت يوماً على القاضي بايوالاتن بعد اذنه في الدخول فوجدت عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن فلما رأيتها ارتبت وأردت الرجوع فضحكت مني ولم يدركها خجل وقال لي القاضي لم ترجع؟ انها صاحبتي فعجبت من شأنهما فانه من الفقهاء الحجاج

ودخلت يوماً على ابي محمد يندكان المسوفي الذي قدمنا في صحبته فوجدته قاعداً على بساط وفي وسط داره سرير مظلل عليه امرأة معها رجل قاعد وهما يتحدثان فقلت له ما هذه المرأة فقال هي زوجتي فقلت وما الرجل الذي معها منها فقال هو صاحبها فقلت له اترضى بهذا وانت قد سكنت بلادنا وعرفت امور الشرع فقال لي ان مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وحسن طريقة لا تهمة فيها، ولسن كنساء

بلا دكم. فعجبت من رعونته وانصرفت عنه فلم اعد اليه بعدها . واستدعاني مرات فلم اجبه

نقول ولو دخل ابن بطوطه بيوت الاوربيين في هذا العصر لرأى فيها ما رآه في بيت هذا الرجل ونساؤهم على تمام العفة فهو مخطىء اذا بنى ارتيابه بعفة نساء ايوالاتن على مجالستهن الرجال وسبب خطاءه انه لم يعتد رؤية النساء مع الرجال على هذه الصورة كما ان هذا الرجل محمد المسوفي مخطىء في حسبانه نساء المغرب اقل عفة من غيرهن فيحتجبن . ثم قال ابن بطوطة

ولما عزمت على السفر الى مالي وبينها وبين ايوالاتن مسيرة اربعة وعشرين يوماً للمجد أكتريت دليلاً من مسوفة اذ لا حاجة الى السفر في رفقة لأمن تلك الطريق وخرجت في ثلاثة من اصحابي والطريق كثيرة الاشجار واشجارها عادية ضخمة تستظل القافلة بظل الشجرة منها وبعضها لا أغصان لها ولكن ظل جسدها يستظل به الانسان . وبعض تلك الاشجار قد استأسن داخلها واستنقع فيه ماء المطر فكأنها بئر ويشرب الناس من الماء الذي فيها ويكون في بعضها النحل والعسل فيشتاره الناس . ولقد مررت بشجرة منها فوجدت في داخلها رجلاً حائكاً قد نصب فيها مرمّته وهو ينسج فعجبت منه . وفي اشجار هذه الغابة ما يشبه شجرة الاجاص والتفاح والخوخ والمشمش وفيها اشجار تثمر شبه الفقوص فاذا طاب انفلق عن شيء شبه الدقيق فيطبخونه ويأكلونه ويباع بالاسواق . ويستخرجون من هذه الارض حبات كالفول فيقلونها ويأكلونها وطعمها كطعم الحمص المقلو وربما طحنوها وصنعوا منها شبه الاسفنج وقلوه بالغرتي . والغرتي ثمر كالاجاص شديد الحلاوة يدق عظمه فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع فمنها انهم يطبخون به ويسرجون السرج ويقلون به هذا الاسفنج ويدهنون به ويخلطونه بتراب عندهم ويسطحون به الدور كما تسطح بالجير . وهو عندهم كثير متيسر ويحمل من بلد الى بلد في قرع كبار تسع القرعة منها قدر ما تسعه القلة ببلادنا . والقرع ببلاد السودان يعظم ومنه يصنعون الجفان يقطعون القرعة نصفين فيصنعون منها جفنتين وينقشونها نقشاً حسناً . واذا سافر احدهم يتبعه عبيده وجواريه يحملون فرشه واوانيه التي يأكل ويشرب بها وهي من القرع. والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زاداً ولا اداماً ولا ديناراً ولا درهماً انما يحمل قطع الملح وحلي الزجاج الذي يسميه الناس النظم وبعض السلع العطرية

واكثر ما يعجبهم منها القرنفل والمصطكى وتاسرغنت وهو بخورهم فاذا وصل قرية جاء نساء السودان بالانلي واللبن والدجاج ودقيق النبق والارز والفوني وهو كحب الخردل يصنع منه الكسكس والعصيدة ودقيق اللوبياء فيشتري منهن ما أحب من ذلك

وبعد مسيرة عشرة ايام من ايوالاتن وصلنا الى قرية زاغري وهي كبيرة يسكنها تجار السودان ويسكن معهم جماعة من البيضان يذهبون مذهب الاباضية . ومن هذه القرية يجلب الانلي الى ايوالاتن . ثم سرنا من زاغري فوصلنا الى النهر الاعظم وهو النيل وينحدر النيل منها الى كابرة ثم الى زاغة . ولكابرة وزاغة سلطانان يؤديان الطاعة لملك مالي واهل زاغة قدماء في الاسلام لهم ديانة وطلب للعلم . ثم ينحدر النيل من زاغة الى تنبكتو ثم الى كوكو ثم الى بلدة مولي وهي آخر عمالة مالي ثم الى يوفي وهي اكبر بلاد السودان وسلطانها من اعظم سلاطينهم ولا يدخلها الابيض من الناس لانهم يقتلونه قبل الوصول اليها . ثم ينحدر منها الى بلاد النوبة وهم على دين النصرانية ثم الى دنقلة وهي اكبر بلادهم وسلطانهم يدعى بابن كنز الدين اسلم في ايام الملك الناصر ثم ينحدر الى جنادل وهي آخر عمالة السودان وأول عمالة اسوان

نقول والنهر الذي وصل اليه ابن بطوطة حينئذ هو نهر النيجر لا نهر النيل وهو يبتدأ في غرب افريقية فيجري أولاً الى الشمال الشرقي ثم ينحدر الى الجنوب بميل الى الشرق ويصب في خليج غينيا في الغرب الجنوبي من افريقية ولكن القدماء كانوا يظنون انه يسير شرقاً الى ان يلتقي بنيل مصر وانه هو اصل النيل وذلك خطأ كما لا يخفى

وعاد ابن بطوطه بعد ذلك الى وصف هذه المدن وما وجده فيها قال : —

مدينة مالي حضرة (عاصمة) ملك السودان وكان محمد بن الفقيه قد اكترى لي داراً فيها ازاء داره فتوجهت اليها وجاء صهره الفقيه المقرىء عبدالواحد بشمعة وطعام ثم جاء ابن الفقيه الي في الغد وشمس الدين بن القويس وعلي الزودي المراكشي وهو من الطلبة ولقيت القاضي عبد الرحمن وهو من السودان حاج فاضل له مكارم اخلاق ولقيت الترجمان دوغا وهو من افاضل السودان وكبارهم وكان ابن الفقيه متزوجاً بنت عم السلطان فكانت تتفقدنا بالطعام

وسلطان مالي هو منسى سليمان ومعنى منسي سلطان له قبة مرتفعة بابها بداخل

داره يقعد فيها اكثر الاوقات ولها من جهة المشور طيقان ثلاثة من الخشب مغشاة بصفائح الفضة وتحتها ثلاثة مغشاة بصفائح الذهب او هي فضة مذهبة وعليها ستور ملف فاذا كان يوم جلوسه بالقبة رفعت الستور فعلم انه يجلس فاذا جلس اخرج من شباك احدى الطاقات شرابة حرير قد ربط فيها منديل مصري مرقوم فاذا رأى الناس المنديل ضربت الاطبال والابواق . ثم يخرج من باب القصر نحو ثلثماية من العبيد في أيدي بعضهم القسي وفي ايدي بعضهم الرماح الصغار والدرق فيقف اصحاب الرماح منهم ميمنة وميسرة ويجلس أصحاب القسي كذلك ثم يؤتى بفرسين مسرجين ملجمين ومعهما كبشان يذكرون انهما ينفعان من العين وعند جلوسه يخرج ثلاثة من عبيده مسرعين فيدعون نائبه قنجا موسى وتأتي الفرارية وهم الامراء ويأتي الخطيب والفقهاء فيقعدون امام السلحدارية يمنة ويسرة في المشور ويقف دوغا الترجمان على باب المشور وعليه الثياب الفاخرة من الزردخانة وغيرها وعلى رأسه عمامة ذات حواشي لهم في تعميمها صنعة بديعة وهو متقلد سيفاً غمده من الذهب وفي رجليه الخف والمهاميز ولا يلبس احد ذلك اليوم خفاً غيره . ويكون في يده رمحان صغيران احدهما من ذهب والآخر من فضة واسنتهما من الحديد ويجلس الاجناد والولاة والفتيان والمسوفة وغيرهم خارج المشور في شارع متسع فيه اشجار وكل فراري بين يديه اصحابه بالرماح والقسي والاطبال والابواق وبوقاتهم من انياب الفيلة وآلات الطرب المصنوعة من القصب والقرع وتضرب بالسطاعة ولها صوت عجيب ولكل فراري كنانة قد علقها بين كتفيه وقوسه بيده وهو راكب فرساً واصحابه بين مشاة وركبان.ويكون بداخل المشور تحت الطيقان رجل واقف فمن اراد ان يكلم السلطان كلم دوغا ويكلم دوغا ذلك الواقف ويكلم الواقف السلطان

ويجلس السلطان ايضاً في بعض الايام بالمشور وهناك مصطبة تحت شجرة لها ثلاث درجات يسمونها البني تفرش بالحرير وتجعل المخاد عليها ويرفع الشطر وهو شبه قبة من الحرير وعليه طائر من ذهب على قدر البازي . ويخرج السلطان من باب في ركن القصر وقوسه بيده وكنانته بين كتفيه وعلى رأسه شاشية ذهب مشدودة بعصابة ذهب لها اطراف مثل السكاكين رقاق طولها ازيد من شبر واكثر لباسه جبة حمراء موبرة من الثياب الرومية التي تسمى المطنفس ويخرج بين يديه المغنون بايديهم قنابر الذهب

والفضة وخلفه نحو ثلثمائة من العبيد اصحاب السلاح ويمشي مشياً رويداً ويكثر التأني وربما وقف فاذا وصل الى البني وقف ينظر في الناس ثم يصعد برفق كما يصعد الخطيب المنبر وعند جلوسه تضرب الطبول والابواق والانقار ويخرج ثلاثة من العبيد مسرعين فيدعون النائب والفرارية فيدخلون ويجلسون ويؤتى بالفرسين والكبشين معهما ويقف دوغا على الباب وسائر الناس في الشارع تحت الاشجار

وحضرت بمالي عيدي الاضحى والفطر فخرج الناس الى المصلى وهو بمقربة من قصر السلطان وعليهم الثياب البيض الحسان وركب السلطان وعلى رأسه الطيلسان . والسودان لا يلبسون الطيلسان الا في العيد ما عدا القاضي والخطيب والفقهاء فانهم يلبسونه في سائر الايام . وكانوا يوم العيد بين يدي السلطان وهم يهللون ويكبرون وبين يديه العلامات الحمر من الحرير ونصب عند المصلى خباء فدخل السلطان اليه واصلح من شأنه ثم خرج الى المصلى فقضيت الصلاة والخطبة

ويجلس السلطان في ايام العيدين بعد العصر على البني وتأتي السلحدارية بالسلاح العجيب من تراكش الذهب والفضة والسيوف المحلاة بالذهب واغمادها منه ورماح الذهب والفضة ودبابيس البلور ويقف على رأسه اربعة من الامراء يشردون الذباب وفي ايديهم حلية من الفضة تشبه ركاب السرج ويجلس الفرارية والقاضي والخطيب على العادة ويأتي دوغا الترجمان بنسائه الاربع وجواريه وهن نحو مئة عليهن الملابس الحسان وعلى رؤوسهن عصائب الذهب والفضة فيها تفافيح ذهب وفضة وينصب لدوغا كرسي يجلس عليه ويضرب الآلة التي هي من قصب وتحتها قريعات ويغني بشعر يمدح السلطان فيه ويذكر غزواته وافعاله ويغني النساء والجواري معه ويلعبن بالقسي . ويلعب دوغا بالسيف لعباً بديعاً وعند ذلك يأمر السلطان بالاحسان له فيؤتى بصرة فيها مئتا مثقال من التبر . وفي كل يوم جمعة بعد العصر يفعل دوغا مثل هذا الترتيب الذي ذكرناه

مقتطف فبراير سنة ١٩١٦

—o:o—

٢

وحضرت مجلس السلطان في بعض الايام فاتى احد فقهائهم وكان قدم من بلاد بعيدة وقام بين يدي السلطان وتكلم كلاماً كثيراً فقام القاضي فصدقه ثم صدقهما السلطان وكان الى جانبي رجل من البيضان فقال لي اتعرف ما قالوه فقلت لا فقال ان الفقيه اخبر ان الجراد وقع ببلادهم فخرج احد صلحائهم الى موضع الجراد فهاله امرها فقال هذا جراد كثير فاجابت جرادة منها وقالت ان البلاد التي يكثر فيها الظلم يبعثنا الله لفساد زرعها . فصدقه القاضي والسلطان وقال السلطان عند ذلك للامراء اني بريء من الظلم ومن ظلم منكم عاقبته ومن علم بظلم ولم يعلمني به فذنوب ذلك الظالم في عنقه والله حسيبه وسائله. ولما قال هذا الكلام وضع الفرارية عمائمهم على رؤوسهم وتبرأوا من الظلم

وحضرت الجمعة يوماً فقام احد التجار من طلبة مسوّفة ويسمى بابي حفص فقال يا اهل المسجد اشهدكم ان منسى سليمان في دعوتي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما قال ذلك خرج اليه رجال من مقصورة السلطان فقالوا له من ظلمك من اخذ لك شيئاً . فقال ما معناه ان مشرف ايوالاتن اخذ مني ما قيمته ستمائة مثقال واراد ان يعطيني في مقابلته مائة مثقال خاصة . فبعث السلطان عنه للحين فحضر بعد ايام وصرفهما الى القاضي فثبت للتاجر حقه فاخذه وبعد ذلك عزل المشرف عن عمله

واتفق في ايام اقامتي بمالي ان السلطان غضب على زوجته الكبرى بنت عمه المدعوة قاسا ومعنى قاسا عندهم الملكة وهي شريكته في الملك على عادة السودان ويذكر اسمها مع اسمه على المنبر وسجنها عند بعض الفرارية وولى في مكانها زوجته الاخرى بنجو ولم تكن من بنات الملوك . فاكثر الناس الكلام في ذلك وانكروا فعله . ودخل بنات عمه على بنجو يهنئنها بالمملكة ولم يتربن [1] ثم ان السلطان سرح قاسا من ثقافها فدخل عليها بنات عمه يهنئنها بالسراح وتربن على العادة فشكت بنجو الى السلطان بذلك فغضب على بنات عمه فخفن منه واستجرن بالجامع فعفا عنهن واستدعاهن . وعادتهن اذا دخلن على السلطان ان يتجردن من ثيابهن ويدخلن عرايا ففعلن ذلك ورضي عنهن وصرن يأتين باب السلطان غدواً وعشياً مدة سبعة أيام وكذلك يفعل كل من عفا عنه السلطان . وصارت قاسا تركب كل يوم في جواريها وعبيدها وعلى رؤوسهم

(١) التترب رمي التراب على الرأس قال ابن بطوطه في مكان آخر ان اهالي السودان كانوا يفعلونه احتراماً لملوكهم وعظمائهم

التراب وتقف عند المشور متنقبةً لا يرى وجهها . واكثر الامراء الكلام في شأنها
فجمعهم السلطان في المشور وقال لهم دوغا على لسانه انكم قد اكثرتم الكلام في امر
قاسا وانها اذنبت ذنباً كبيراً ثم أتى بجارية من جواريها مقيدة مغلولة فقيل لها تكلمي
بما عندك فاخبرت ان قاسا بعثتها الى جاطل ابن عم السلطان الهارب عنه الى كنبري
واستدعته ليخلع السلطان عن ملكه وقالت له انا وجميع العساكر طوع امرك . فلما سمع
الامراء ذلك قالوا ان هذا ذنب كبير وهي تستحق القتل عليه . فخافت قاسا من ذلك .
واستجارت بدار الخطيب . وعادتهم ان يستجيروا بالمسجد وان لم يتمكنوا فبدار الخطيب

ولم يذكر ابن بطوطة ما جرى لهذه الملكة بعد ذلك لكنه قال ان السودان كانوا
يكرهون منسى سليمان لبخله وذكر قصة عن كرم سلف سلفه ثم استطرد الى ذكر
ما استحسنه من افعال السودان وما استقبحه منها فقال

من افعالهم الحسنة قلة الظلم فهم ابعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح احداً في شيء
منه ومنها شمول الامن في بلادهم فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب.
ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان القناطير المقنطرة ، انما
يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه . ومنها مواظبتهم للصلوات والتزامهم
لها في الجماعات وضربهم اولادهم عليها واذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الانسان الى المسجد
لم يجد اين يصلي لكثرة الزحام . ومن عادتهم ان يبعث كل انسان غلامه بسجادة
فيبسطها له بموضع يستحقه بها حتى يذهب الى المسجد . وسجاداتهم من سعف شجر
يشبه النخل ولا ثمر له . ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ولو لم يكن لاحدهم
الا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة . ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم وهم
يجعلون لاولادهم القيود اذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه فلا تفك عنهم حتى يحفظوه

ومن مساوىء افعالهم كون الخدم والجواري والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا
باديات العورات . ولقد كنت ارى في رمضان كثيراً منهن على تلك الصورة فان عادة
الفرارية ان يفطروا بدار السلطان ويأتي كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون فما
فوقهنّ من جواريه وهن عرايا . ومنها دخول النساء على السلطان عرايا غير مستترات
وتعرى بناته ولقد رأيت في ليلة سبع وعشرين من رمضان نحو مائة جارية خرجن
بالطعام من قصره عرايا ومعهن بنتان له ناهدان ليس عليهما ستر . ومنها جعلهم التراب
والرماد على رؤوسهم تأدباً ومنها ان كثيراً منهم يأكلون الجيف والكلاب والحمير

وكان دخولي الى مالي في الرابع عشر لجمادى الاولى سنة ثلاث وخمسين (وسبعمائة) وخروجي عنها في الثاني والعشرين لمحرم سنة اربع وخمسين (وسبعمائة) ورافقني تاجر يعرف بابي بكر بن يعقوب وقصدنا طريق ميمة وكان لي جمل اركبه لان الخيل غالية الاثمان يساوي احدها مائة مثقال فوصلنا الى خليج كبير يخرج من النيل (النيجر) لا يجاز الا في المراكب وذلك الموضع كثير البعوض فلا يمر احد به إلا بالليل ووصلنا الخليج ثلث الليل والليل مقمر. ولما وصلنا الخليج رأيت على ضفته ست عشرة دابة ضخمة الخلقة فعجبت منها وظننتها فيلةً لكثرتها هنالك ثم اني رأيتها دخلت في النهر فقلت لابي بكر بن يعقوب ما هذه الدواب فقال هي خيل البحر خرجت ترعى في البر. وهي اغلظ من الخيل ولها اعراف واذناب ورؤوسها كرؤوس الخيل وارجلها كارجل الفيلة. ورأيت هذه الخيل مرةً اخرى لما ركبنا النيل (النيجر) من تنبكتو الى كوكو (غوى) وهي تعوم في الماء وترفع رؤوسها وتنفخ وخاف منها اهل المركب فقربوا من البر لئلا تغرقهم. ولهم حيلة في صيدها حسنة وذلك ان لهم رماحاً مثقوبة قد جعل في ثقبها شرائط وثيقة فيضربون الفرس منها فان صادفت الضربة رجله او عنقه نفذته وجذبوه بالحبل حتى يصل الى الساحل فيقتلونه ويأكلون لحمه ومن عظامها بالساحل كثير. وكان نزولنا عند هذا الخليج بقرية كبيرة عليها حاكم من السودان حاج فاضل يسمى فربا مغا وهو ممن حج مع السلطان منسى موسى لما حج

اخبرني فربا مغا ان منسى موسى لما وصل الى هـذا الخليج كان معه قاض من البيضان يكنى بابي العباس ويعرف بالدكالي فاحسن اليه باربعة آلاف مثقال لنفقته فلما وصلوا الى ميمة شكا الى السلطان بان الاربعة آلاف مثقال سرقت من داره فاستحضر السلطان امير ميمة وتوعده بالقتل ان لم يحضر من سرقها وطلب الامير السارق فلم يجد احداً ولا سارق يكون بتلك البلاد فدخل دار القاضي واشتد على خدامه وهددهم فقالت له احدى جواريه ما ضاع له شيء وانما دفنها بيده في ذلك الموضع واشارت له الى الموضع فاخرجها الامير واتى بها السلطان وعرفه الخبر فغضب على القاضي ونفاه الى بلاد الكفار الذين يأكلون بني آدم فاقام عندهم اربع سنين ثم رده الى بلده وانما لم يأكله الكفار لبياضه لانهم يقولون ان اكل الابيض مضر لانه لم ينضج والاسود هو النضج بزعمهم

حكاية — قدمت على السلطان منسى سليمان جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بني آدم معهم اميرهم وعادتهم ان يجعلوا في آذانهم اقراطاً كباراً وتكون فتحه

القرط منها نصف شبر ويلتحفون في ملاحف الحرير وفي بلادهم يكون معدن الذهب فاكرمهم السلطان واعطاهم في الضيافة خادماً فذبحوها واكلوها ولطخوا وجوههم وايديهم بدمها واتوا السلطان شاكرين. ثم رحلنا من هذه القرية التي عند الخليج فوصلنا الى بلدة قري منتسا ومات لي بها الجمل الذي كنت اركبه فاخبرني راعيه بذلك فخرجت لانظر اليه فوجدت السودان قد اكلوه كعادتهم في اكل الجيف. فبعثت غلامين كنت استأجرتهما على خدمتي ليشتريا لي جملاً بزاغري وهي على مسيرة يومين واقام معي بعض اصحاب ابي بكر بن يعقوب وتوجه هو لينتظرنا بميمة فاقمت ستة أيام اضافني فيها بعض الحجاج بهذه البلدة حتى وصل الغلامان بالجمل. ثم رحلت الى بلدة ميمة فنزلنا على آبار بخارجها ثم سافرنا منها الى مدينة تنبكتو وبين تنبكتو وبين النيل اربعة اميال واكثر سكانها مسوّفة أهل اللثام وحاكمها يسمى فربا موسى حضرت عنده يوماً وقد قدم احد مسوّفة اميراً على جماعة فجعل عليه ثوباً وعمامة وسروالاً كلها مصبوغة واجلسه على درقة ورفعه كبراء قبيلته على رؤوسهم. وبهذه البلدة قبر الشاعر المفلق ابي اسحق الساحلي الغرناطي المعروف ببلده بالطويجن وبها قبر سراج الدين بن الكويك احد كبار التجار من اهل الاسكندرية

حكاية — كان السلطان منسى موسى لما حج نزل بروض لسراج الدين هذا ببركة الحبش خارج مصر وبها ينزل السلطان. واحتاج الى مال فتسلفه من سراج الدين وتسلف منه امراؤه ايضاً وبعث معهم سراج الدين وكيله يقتضي المال فاقام بمالي فتوجه سراج الدين بنفسه لاقتضاء ماله ومعه ابن له فلما وصل تنبكتو اضافه ابو اسحق الساحلي فكان من القدر موته تلك الليلة. فتكلم الناس في ذلك واتهموا انه سم فقال لهم ولده اني اكلت معه ذلك الطعام بعينه فلو كان فيه سم لقتلنا جميعاً لكنه انقضى اجله ووصل الولد الى مالي واقتضى ماله وانصرف الى ديار مصر

ومن تنبكتو ركبت النيل (النيجر) في مركب صغير منحوت من خشبة واحدة وكنا ننزل كل ليلة بالقرى فنشترى ما نحتاج اليه من الطعام والسمن بالملح وبالعطريات وبحلي الزجاج. ثم وصلت الى بلد أنسيت اسمه له امير فاضل حاج يسمى فربا سليمان مشهور بالشجاعة والشدة لا يتعاطى احد النزع في قوسه ولم ار في السودان اطول منه ولا اضخم جسماً. واحتجت بهذه البلدة الى شيء من الذرة فجئت اليه وذلك يوم مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه وسألني عن مقدمي وكان معه فقيه يكتب له فاخذت لوحاً كان بين يديه وكتبت فيه يا فقيه قل لهذا الامير انا نحتاج الى

شيء من الذرة للزاد والسلام . وناولت الفقيه اللوح يقرأ ما فيه سراً ويكلم الامير في ذلك بلسانه فقرأه جهراً وفهمه الامير فاخذ بيدي وادخلني الى مشوره وبه سلاح كثير من الدرق والقسي والرماح ووجدت عنده كتاب المدهش لابن الجوزي فجعلت اقرأ فيه ثم أتى بمشروب يسمى الدقنو وهو ماء فيه جريش الذرة مخلوط بيسير عسل او لبن وهم يشربونه عوض الماء لانهم اذا شربوا الماء خالصاً اضر بهم وان لم يجدوا الذرة خلطوه بالعسل واللبن . ثم أتى ببطيخ اخضر فاكلنا منه ودخل غلام خماسي فدعاه وقال لي هذا ضيافتك فاحفظه لئلا يفر فاخذته واردت الانصراف فقال أقم حتى يأتي الطعام وجاءت الينا جارية له دمشقية عربية فكلمتني بالعربي فبينما نحن في ذلك سمعنا صراخاً بداره فوجه الجارية لتعرف خبر ذلك فعادت اليه فاعلمته ان بنتاً له قد توفيت فقال اني لا احب البكاء فتعال نمشي الى البحر يعني النيل وله على ساحله ديار فأتى بالفرس فقال لي اركب فقلت لا اركبه وانت ماش فمشينا جميعاً ووصلنا الى داره على النيل واتي بالطعام فاكلنا وودعته وانصرفت ولم ار في السودان اكرم منه ولا افضل . والغلام الذي اعطانيه باق عندي الى الآن

ثم سرت الى مدينة كوكو وهي مدينة كبيرة على النيل (النيجر) من احسن مدن السودان واكبرها واخصبها فيها الارز الكثير واللبن والدجاج والسمك وبها الفقوس الصناني الذي لا نظير له وتعامل اهلها في البيع والشراء بالودع وكذلك اهل مالي واقمت بها نحو شهر واضافني بها محمد بن عمر من اهل مكناسة وكان ظريفاً مزاحاً فاضلاً وتوفي بعد خروجي عنها . واضافني بها الحاج محمد الوجدي التازي وهو ممن دخل اليمن والفقيه محمد الفيلاني امام مسجد البيضان . ثم سافرت منها برسم تكدا في البر مع قافلة كبيرة للغدامسيين دليلهم ومقدمهم الحاج وجين . ثم وصلنا الى بلاد بردامة وهي قبيلة من البربر ولا تسير القوافل الا في خفارتهم والمرأة عندهم في ذلك اعظم شأناً من الرجل وهم رحالة لا يقيمون وبيوتهم غريبة الشكل يقيمون اعواداً من الخشب ويضعون عليها الحصر وفوق ذلك اعواد مشتبكة وفوقها الجلود او ثياب القطن ونساؤهم اتم النساء جمالاً وابدعهن صوراً مع البياض الناصع والسمن . ولم ار في البلاد من يبلغ مبلغهن في السمن وطعامهن حليب البقر وجريش الذرة يشربنه مخلوطاً بالماء غير مطبوخ عند المساء والصباح ومن اراد التزوج منهن سكن بهن في اقرب البلاد اليهن ولا يتجاوز بهن كوكو ولا ايوالاتن. مقتطف مارس سنة ١٩١٦

٣

واصابني المرض في هذه البلاد لاشتداد الحر وغلبة الصفراء واجتهدنا في السير الى ان دخلنا الى مدينة تكدّا ونزلت بها في جوار شيخ المغاربة سعيد بن علي الجوزلي واضافني قاضيها ابو ابرهيم اسحق الجاناني وهو من الافاضل واضافني جعفر بن محمد المسوفي . وديار تكدّا مبنيّة بالحجارة الحمر وماؤها يجري على معادن النحاس فيتغير لونهُ وطعمهُ بذلك . ولا زرع بها إلا يسير من القمح يأكله التجار والغرباء ويباع بحساب عشرين مداً من امدادهم بمثقال ذهباً . ومدهم ثلث المد ببلادنا وتباع الذرة عندهم بحساب تسعين مداً بمثقال ذهباً . وهي كثيرة العقارب وعقاربها تقتل من كان صبيًّا لم يبلغ واما الرجال فقلما تقتلهم . وقد لدغت بها يوماً وانا بها ولداً للشيخ سعيد ابن علي عند الصبح فمات لحينهِ وحضرت جنازتهُ . ولا شغل لاهل تكدّا غير التجارة يسافرون كل عام الى مصر ويجلبون من كل ما بها من حسان الثياب وسواها . ولاهلها رفاهية وسعة حال ويتفاخرون بكثرة العبيد والخدم وكذلك اهل مالي وايوالاتن ولا يبيعون المعلمات منهن إلا نادراً وبالثمن الكثير

ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عليهِ في الارض ويأتون بهِ الى البلد فيسبكونهُ في دورهم يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم ، فاذا سبكوه نحاساً احمر صنعوا منهُ قضباناً في طول شبر ونصف بعضها رقاق وبعضها غلاظ فتباع الغلاظ منها بحساب اربع مائة قضيب بمثقال ذهباً وتباع الرقاق بحساب ستمائة وسبع مائة بمثقال وهي صرفهم يشترون برقاقها اللحم والحطب ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح ويحمل النحاس منها الى مدينة كوبر من بلاد الكفار والى زغاي والى بلاد برنو وهي على ميسرة اربعين يوماً من تكدّا واهلها مسلمون لهم ملك اسمه ادريس لا يظهر للناس ولا يكلمهم إلا من وراء حجاب . ومن هذه البلاد يؤتى بالجواري الحسان والفتيان والثياب المجسدة ويحمل النحاس ايضاً منها الى جوجوة وبلاد المورتبين وسواها

ذكر سلطان تكدا — وفي ايام اقامتي بها توجه القاضي ابو ابراهيم والخطيب محمد والمدرس ابو حفص والشيخ سعيد بن علي الى سلطان تكدّا وهو بربري يسمى

إزار وكان على مسيرة يوم منها ووقعت بينه وبين التكركري وهو من سلاطين البربر ايضاً منازعة فذهبوا الى الاصلاح بينهما فاردت ان القاه فاكتريت دليلاً وتوجهت اليهِ واعلمهُ المذكورون بقدومي فجاء اليّ راكباً فرساً دون سرج وتلك عادتهم وقد جعل عوض السرج طنفسة حمراء بديعة وعليهِ ملحفة وسراويل وعمامة كلها زرق ومعهُ اولاد اختهِ وهم الذين يرثون ملكه . فقمنا اليهِ وصافحناه وسأل عن حالي ومقدمي فأعلم بذلك وانزلني في بيت من بيوت الينا طبين وهم كالوصفان عندنا وبعث اليّ برأس غنم مشوي في السفود وقعب من حليب البقر . وكان في جوارنا بيت امهِ واختهِ فجاءتا الينا وسلمتا علينا وكانت امهُ تبعث لنا الحليب بعد العتمة وهو وقت حلبهم ويشربونهُ ذلك الوقت وبالغدو . واما الطعام فلا يأكلونهُ ولا يعرفونه . واقمت عندهم ستة ايام وفي كل يوم يبعث الينا بكبشين مشويين عند الصباح والمساء واحسن اليّ بناقة وعشرة مثاقيل من الذهب وانصرفت عنهُ وعدت الى تكدّا

ذكر وصول الامر الكريم اليّ — ولما عدت الى تكدّا وصل غلام الحاج محمد ابن سعيد السجلماسي بامر مولانا امير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين آمراً لي بالوصول الى حضرتهِ العلية فقبلتهُ وامتثلتهُ على الفور واشتريت جملين لركوبي بسبعة وثلاثين مثقالاً وثلث وقصدت السفر الى توات ورفعت زاد سبعين ليلة اذ لا يوجد الطعام فيما بين تكدّا وتوات ؛ انما يوجد اللحم واللبن والسمن يشترى بالاثواب وخرجت من تكدّا يوم الخميس الحادي عشر لشعبان سنة اربع وخمسين (وسبعماية) في رفقة كبيرة فيهم جعفر التواتي وهو من الفضلاء ومعنا الفقيه محمد بن عبد الله قاضي تكدّا وفي الرفقة نحو ستماية خادم فوصلنا الى كاهر من بلاد السلطان الكركري وهي ارض كثيرة الاعشاب يشتري بها الناس من برابرها الغنم ويقددون لحمها ويحمله اهل توات الى بلادهم . ودخلنا منها الى برية لا عمارة بها ولا ماء وهي مسيرة ثلاثة ايام ثم سرنا بعد ذلك خمسة عشر يوماً في برية لا عمارة بها الا ان بها الماء ووصلنا الى الموضع الذي يفترق بهِ طريق غات الآخذ الى ديار مصر وطريق توات وهنالك احساء ماء يجري على الحديد فاذا غسل بهِ الثوب الابيض اسودّ لونهُ وسرنا من هنالك عشرة ايام ووصلنا الى بلاد هكار وهم طائفة من البربر ملثمون لا خير عندهم فلقينا احد كبرائهم فحبس القافلة حتى غرموا له اثواباً وسواها وكان وصولنا الى بلادهم

في شهر رمضان وهم لا يغيرون فيهِ ولا يعترضون القوافل واذا وجد سرّاقها المتاع بالطريق في رمضان لم يعرضوا لهُ وكذلك جميع من بهذه الطريق من البرابر . وسرنا في بلاد هكار شهراً وهي قليلة النبات كثيرة الحجارة طريقها وعر ووصلنا يوم عيد الفطر الى بلاد برابر اهل لثام كهؤلاء فاخبرونا باخبار بلادنا واعلمونا ان اولاد خراج وابن يغمور خالفوا وسكنوا تسابيت من توات نخاف اهل القافلة من ذلك . ثم وصلنا الى بودا بضم الباء الموحدة وهي من اكبر قرى توات وارضها رمال وسباخ وتمرها كثير ليس بطيب لكن اهلها يفضلونهُ على تمر سجلماسة ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت وانما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب واكل اهلها التمر والجراد وهو كثير عندهم يختزنونهُ كما يختزن التمر ويقتاتون بهِ ويخرجون الى صيده قبل طلوع الشمس فانهُ لا يطير اذ ذاك لاجل البرد . واقمنا ببودا اياماً ثم سافرنا في قافلة ووصلنا في اواسط ذي القعدة الى مدينة سجلماسة وخرجت منها في ثاني ذي الحجة وذلك اوان البرد الشديد ونزل بالطريق ثلج كثير ولقد رأيت الطرق الصعبة والثلج الكثير ببخارى وسمرقند وخراسان وبلاد الاتراك فلم ار أصعب من طريق أم جنيبة . ووصلنا ليلة عيد الاضحى الى دار الطمع فاقمت هنالك يوم الاضحى ثم خرجت فوصلت الى حضرة فأس حضرة مولانا أمير المؤمنين ايده الله فقبلت يده الكريمة وتيمنت بمشاهدة وجهه المبارك واقمت في كنف احسانهِ بعد طول الرحلة والله تعالى يشكر ما اولانيهُ من جزيل احسانهِ وسابغ امتنانهِ ويديم أيامه ويمتع المسلمين بطول بقائهِ . وها هنا انتهت الرحلة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار وكان الفراغ من تقييدها في ثالث ذي الحجة عام ستة وخمسين وسبع مائة والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى »

انتهى ما نقلناه من رحلة ابن بطوطه الى بلاد السودان الغربي وهي آخر رحلاتهِ. ويرى الناظر فيها انها مفعمة بالفوائد عن حال سكان تلك البلاد في عصره . واول شيء ينتبه له ان سكان تلك البلاد كانوا في ذلك العصر ارقى مما صاروا اليهِ في اواخر القرن الثامن عشر واوائل التاسع عشر حينما دخلها الاوربيون . وانهم كانوا مسلمين في الغالب يكرمون رجال العلم ويأتيهم القضاة والمعلمون من المغرب الاقصى والقطر المصري والشامي فيحلون عندهم على الرحب والسعة . وان شأن المرأة كان رفيعاً عندهم مساوياً لشأن

الرجل . وقد قال ابن بطوطه ان البنات كنّ يخرجن عرايا ولعلّ الشبان كانوا كذلك وهذه هي الحال الآن في اواسط افريقية والعفة هناك ليست دون ما هي عليه في البلدان التي يلبس رجالها ونساؤها افخر الملابس واسترها للجسم . ويعجبنا ما قاله له احد التجار في ايو الآن وهو ان مصاحبة النساء للرجال عندهم على خير وحسن طريقة لا تهمة فيها . وقال هو قبيل ذلك ان السكان هناك مسلمون محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن واما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتهنّ على الصلوات

ومما يستحق الذكر ايضاً امتداد التجارة في ذلك العصر بين السودان الغربي وسائر الاقطار الافريقية والشرقية . وحبذا لو عني احد الباحثين بتفصيل هذه المواضيع . (مقتطف ابريل سنة ١٩١٦)



الرحالة لفنستون

دافيد لفنستون مبشر ورائد ايقوسي ولد في بلانتير بمقاطعة لانارك بايقوسيا في ١٩ مارس سنة ١٨١٣ ، وتوفي في افريقية في اول مايو سنة ١٨٧٣ . وكان والداه مثالاً للجد والنشاط والاجتهاد فضلاً عما امتازا به من الاخلاق الفاضلة في الوسط الذي نبتا فيه بين الأسر الدنيا في ايقوسيا

لما بلغ من العمر عشر سنوات ترك مدرسة القرية التي كان يتلقى فيها مبادئ العلم الاولية وبدأ يعمل في معمل لغزل القطن ونسجه . ولكنه كان دئباً على تحصيل العلم بنفسه غير مستعين الا بارادته القوية . ولما بلغ الثالثة بعد العشرين من عمره استطاع بما له من المواهب والكفايات ان يتلقى العلم في احدى الجامعات . فحضر دورين دارسيين في الطب والآداب اليونانية واللاتينية في جامعة اندرسن بغلاسكو ، فضلاً عن اكبابه على اللاهوت وتاريخه . وبعد ان سمع كثيراً من المحاضرات التي كان يلقيها الدكتور « واردلو » اوقف كل قواه على خدمة جمعية التبشير في لندن وكان قد التحق بها عضواً في سنة ١٨٣٨ اثناء زيارة قصيرة لعاصمة الجزائر البريطانية ، ثم نال اجازته في علمي الطب الباطني والجراحة سنة ١٨٤٠ . وكانت كل آماله مقصورة على ان يذهب الى بلاد الصين لشغف كان له بتاريخها وتقاليدها ، وامتعض كل امتعاض عند ما علم ان الجمعية قد قررت ايفاده الى افريقية، فخرج من انجلترا مسلحاً بالعلم والاطلاع مزوداً بعدة من الصفات الخلقية التي ساعدته كثيراً على المصاعب التي عاناها والعقبات التي ذللها

وسافر لفنستون من انجلترا في ٨ دسمبر سنة ١٨٤٠ ويمم شطر « بتشوانالاند » حيث كان مركز جمعية التبشير في قرية « كورومان » على بعد ٧٠٠ ميل شمالاً ، فوصل اليها في ٣١ يوليو سنة ١٨٤١ . ولقد استطاع ان يعقد والرؤساء الوطنيين صداقة كانت من اهم العوامل التي أدت به الى اتمام اعماله ومشروعاته ، بان حصل على معاونتهم له ومساعدته على تنفيذ مآربه ، حتى لقد استطاع ان يؤسس مراكز للاستكشاف تقع فيما يلي الاقطار التي انتشرت فيها المدنية الاوروبية ، وعلى الاخص في وادي « موباستا » الواقع على احد منابع نهر « اللومبوبو » وعلى بعد ٢٠٠ ميل

من قرية « كورومان ». وأكب خلال ذلك على درس اللغات والعادات الوطنية حتى يستطيع ان يرسم خطة تمكنه من ان يوجه قواهم ومجهوداتهم الضائعة من سبيل يؤدي الى تمدينهم ورفاهيتهم . فعرف بناقد بصيرته انه من الواجب ان لا يقصر جهوده على كتابة التقارير السنوية عن مدى ما بلغ اليه انتشار الفكرة التبشيرية ، بل ان يعمل من طريق ايجابي بأن يدفع الوطنيين انفسهم الى ان يكونوا رسله ولسانه في الدعوة للمدنية الحديثة والعقائد . وبذلك يكون العمل ابقى اثراً واعظم انتاجاً . وفي سنة ١٨٤٦ انتقل الى قرية « شونوان » وفي سنة ١٨٤٧ الى قرية « كولوبنج » . ثم بدأ سنة ١٨٤٩ في التقدم الى الشمال حتى وصل الى ما بعد مدار الجدي ، وفي اول اغسطس استكشف لاول مرة في التاريخ بحيرة « نجامى » . وفي السنة التالية تابع اعماله الاستكشافية ، وكان معه زوجه واولاده ، وكان قد استقدمهم من انجلترا سنة ١٨٤٤ ، فوصل الى نهر الزامبيزي ، ومنه الى مدينة الكاب في ابريل سنة ١٨٥٢

وبعد ان وصل الى اعالي نهر الزامبيزي ضرب في رحلاته الاستكشافية الى الغرب ، فوصل سنة ١٨٥٤ الى بلاد «لواندا» الواقعة على المحيط الاتلنتيكي . ثم قفل راجعاً الى نهر الزامبيزي ، واتم جولته الافريقية من احد جانبيها الى الآخر ، متبعاً مجرى هذا النهر حتى وصل الى مصبه في المحيط الهندي سنة ١٨٥٦ . وفي اثناء رحلته هذه استكشف شلالات فكتوريا ، وهي اعظم ما يوجد من نوعها في الدنيا القديمة . وأبحر من « كليمين » من بداءة سنة ١٨٥٦ الى انجلترا حيث قوبل بكل ما يستحق من مظاهر التكريم والاجلال لمن كان سبباً في فتح ابواب جديدة للعلم والاستكشاف واسباباً تعود بالرفاهية والخير العميم على النوع الانساني

وفي سنة ١٨٥٧ طبع اول كتبه المسمى « رحلات تبشيرية وابحاث في افريقية الجنوبية» . وفي هذه السنة عينها قطع علاقته بجمعية التبشير في لندن . ثم عين في سنة ١٨٥٨ قنصلاً جنرالاً لانجلترا في شواطئ افريقية الشرقية ، على ان يكون مقره في « كليمين » ، وعهد اليه فوق ذلك بان يرأس بعثاً استكشافياً ليجوب شرق افريقية واواسطها . فرجع الى نهر الزامبيزي واستكشف بحيرة « شيروا » ثم بحيرة « نياسا » في ١٦ سبتمبر سنة ١٨٥٩ . وطبع في اثناء زيارته الثانية لانجلترا (١٨٦٣—١٨٦٥) كتابه الذي وصف فيه هذه الرحلة واسماه « نهر الزامبيزي »

وفي اواخر سنة ١٨٦٥ عاد لفنستون لينظم بعثاً مهمته الاساسية استكشاف منابع النيل ، وليعمل في الوقت ذاته على محاربة تجارة الرقيق في افريقية . ففي اوائل سنة ١٨٦٦ بدأ يوغل في اواسط افريقية عن طريق « روفوما » ثم انقطعت اخباره عامين كاملين .وكانت المشكلة التي يحاول ان يحلها لفنستون هي البحث في نهر الزامبيزي وهل هو متصل بالنيل ، ام انه أحد نهيرات الكونغو ؟ . فوصل في حدود سنة ١٨٦٧ الى الشامبيزي ، وهو غدير يخترق الاقليم الواقع الى جنوبي بحيرة « تانجانيكا » في اتجاه جنوبي غربي ، وما زال يتابع مجرى هذا الغدير حتى وصل في ابريل سنة ١٨٦٧ الى مساحة كبيرة تغمرها المياه ، وعندها ينتهي مجرى الغدير . ولقد اعاقه عن التقدم عقبات كثيرة فالفياضانات المتوالية ، وما اظهر له المتجرون بالرقيق من خصومة وعداء اشترك فيه الوطنيون والاعراب على السواء ، والحاجة الى المؤونة التي كثيراً ما تأخر وصولها اليه ، وكثيراً ما نهبت خلال الطريق ، كل هذه الاشياء كانت من اكبر الحوائل التي اعاقت تقدمه زماناً ما

ولكن هذه الحوائل كلها لم تكن كافية لان تتغلب على ارادة لفنستون او ان تثني عزمه عن التقدم . فعلى الرغم منها تقدم (١٨٦٧) محوطاً بالصعاب والعقبات حتى استكشف « لوايولا » وبحيرتي « مويرو » « وبانجويلو » . ووصل الى اوجيجي على شاطىء بحيرة تانجانيكا سنة ١٨٦٩ ، وهنا امضى ردهاً من الزمان قبل ان يبدأ برحلة طويلة اراد ان يستكشف بها الاقاليم الواقعة في شمالي هذه البحيرة وغربيها

ولم تأت سنة ١٨٧١ حتى وقف لفنستون لاول مرة على شواطىء نهر الكونغو في « ينانجوس » ولكن استكشافاته الاولى كلها لم تكن كافية حتى الآن ليكون بها رأياً صحيحاً في أنّ الغدير الذي ينساب تحت قدميه هو جزء من نهر الكونغو ! فعاد ادراجه الى اوجيجي مجتازاً كثيراً من الصعاب والآلام التي تقصر دون تحملها همم الجبابرة . وفيما هو في طريقه صادف في ١٠ نوفمبر سنة ١٨٧١ حملة ارسلت لنجدته تحت رياسة الكابتن ستانلي قام بنفقاتها مستر جيمس جوردون بينت من مال جريدة النيويورك هرالد الامريكية، وقد زودت هذه الحملة الرائد الكبير بكثير مما كان في حاجة اليه كالعقاقير الطبية والميرة ، وبعد ان راد شمال بحيرة تانجانيكا بصحبة ستانلي ، افترقا في مارس سنة ١٨٧٢ وتابع لفنستون رحلته في حوض « اللوايولا لوالابا » وهو على امل ان يكشف القناع عن مشكلة نهر النيل والكونغو

وما وصل لفنستون الى هذا الحد حتى كانت المتاعب والمشاق قد انهكت قواه فادركته الوفاة في اول مايو سنة ١٨٧٣ في قرية الرئيس « تسيتامبو » احد اصدقائه على شاطىء بحيرة « بانجويلو » ففصل الوطنيون قلبه عن جسمه ودفنوه عند اصل الشجرة التي توفى الرائد الكبير تحت اغصانها وحفروا في جذع الشجرة كلمات تذكارية تشير الى المكان الذي توفي فيه لفنستون . وفي سنة ١٨٩٨ زار مستر « شارب » حاكم المقاطعة الانجليزي ذلك المكان فوجد ان الشجرة آخذة في الانحلال بسرعة ، فجمع بطريق الاكتتاب في انجلترا مبلغاً من المال صنع به اثراً تذكارياً من الغرانيت وضع في نفس المكان الذي كانت فيه تلك الشجرة . اما الشجرة نفسها فقطعت واحتفظ بالقسم الذي كتب عليه ما يشير الى موت لفنستون ، وارسل الى الجمعية الجغرافية الملكية بلندن وحفظ بها . اما جثته فارسلت الى انجلترا في ١٨ ابريل سنة ١٨٧٤ حيث دفنت في كنيسة وستمنستر مقر الملوك والعظماء

اما استكشافات هذا الرائد الكبير فانها تنم عن صبر وقوة ارادة قلما توجدان من رجل غيره ، فضلاً عما تدل عليه ابحاثه من سعة العلم وبالغ الحجة والحب العظيم لخير الانسانية . فان اعماله وابحاثه تستغرق مجهود الجغرافي في الاستكشاف ، والمؤرخ الطبيعي في بعد النظر ودقة الملاحظة، والرجل المحب العامل على خير السلالات البشرية في جهاده المستمر ضد الاتجار بالرقيق . ولا مرية في ان ابحاثه وجهوده كانت اول ما بذل من جهد الرواد في سبيل الكشف عما انطوى عليه قلب القارة السوداء منذ أقدم العصور

—o:o—

السر هنري ستانلي

اذا ذكر العصاميون الذين ارتقوا بجدهم من ادنى المراتب الى اعلاها واستحقوا ان تنشر اسماؤهم في كتاب سر النجاح ليكونوا مثالاً لطلاب المعالي فالسر هنري ستانلي الرحالة الشهير في مقدمتهم . واذا ذكر رواد افريقية الذين اغروا ممالك اوربا بتدويخها واقتسامها وامتلاكها فله الشأن الاكبر بينهم . غير ان فعله هذا تختلف قيمته من حيث سكان افريقية ، لانه ان آل امتلاك الاوربيين لها الى نفع سكانها الاصليين كما نرجو ، فيكون له اكبر فضل عليهم . وان آل الى ضرهم كما نخاف فيكون من اكبر المسهلين لانقراضهم

ولد ببلاد الانكليز نحو سنة ١٨٤٠ من اصل وضيع جداً فلا يعرف شيء بالتحقيق عن سنة ميلاده ولا عن والديهِ وكان اسمهُ جون رولندس . ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره هاجر الى اميركا ويقال انهُ ذهب اليها خادماً في احدى السفن وخدم هناك تاجراً اسمهُ ستنلي واجتهد في خدمتهِ فأحبهُ ووعد ان يتبناه فغير اسمهُ وتسمى هنري ستانلي لكن التاجر مات قبل ان يكتب وصيتهُ وتركهُ صفر اليدين لا يملك شيئاً فاقام سنتين او ثلاثاً الى ان نشبت الحرب الاهلية فانتظم في سلك الجنود واخذ اسيراً ولما انتهت الحرب جاء الى تركيا مكاتباً لاحدى الجرائد ثم لما ارسل الانكليز حملتهم على بلاد الحبشة سنة ١٨٦٧ بعثتهُ جريدة النيويورك هرلد مكاتباً لها فبعث اليها بخبر فتح مجدلة قبلما وصل الخبر الى الحكومة الانكليزية . وابدى في كل ما كتبهُ حينئذ وما كتبهُ قبل ذلك الحين وبعده من المهارة في الوصف والمقدرة على تمثيل ما يريد ذكره ما احله محلاً رفيعاً بين كتاب العصر كما ترى في الخطبة التالية

ولما عاد من بلاد الحبشة ارسلته جريدة الهرلد الى اسبانيا ليرقب الحوادث فيها وبعث اليه المستر غوردن بنت صاحبها وهو هناك يستدعيه الى باريس فلما حضر طلب منه ان يعود الى افريقية ليفتش عن لفنستون المرسل الانكليزي الذي مهد السبيل لرواد افريقية وللشركات التجارية وكانت اخباره قد انقطعت من زمن طويل وظن اصدقاؤه انه قضى نحبه . فقام ستانلي للحال واتى القطر المصري حينما فتحت ترعة السويس ثم سار الى زنجبار وضرب في افريقية فوجد لفنستون في اواخر سنة ١٨٧١ وبقي معه

اربعة اشهر يجوبان البلاد معاً وكان المرض قد انهك لفنستون فانتعشت قواه برؤية ستانلي وبما جلبهُ له من الزاد

وعاد ستانلي الى اوربا فوصل انكلترا في اواسط سنة١٨٨٢ فقوبل بالترحاب ونشر فيها كتابهُ المشهور وجعل موضوعهُ «كيف وجدت لفنستون» فراج رواجاً عظيماً جداً ولا يزال الناس يتفكهون بقراءتهِ حتى الآن . وقابلتهُ ملكة الانكليز واهدت اليهِ علبة سعوط مرصعة بالماس واهدت اليهِ الجمعية الجغرافية نيشانها الذهبي

وعادت جريدة الهرلد فارسلتهُ الى افريقية مع حملة الاشنتي ونشر بعد ذلك كتاباً جمع فيه رسائلهُ من مجدلة عاصمة الحبشة ومن كوماسي عاصمة الاشنتي . وسمع بموت لفنستون وهو راجع مع حملة الاشنتي فود ان يتمم ما لم يتممهُ لفنستون من اكتشاف مجاهل افريقية فتمت بغيتهُ . وارسلتهُ جريدة الدايلي تلغراف الانكليزية وجريدة الهرلد الاميريكية على نفقتهما لكشف تلك المجاهل ففعل ما لم يفعلهُ رائد آخر من الرواد اذ دار حول بحيرة فكتوريا نيانزا وحول بحيرة تانجانيكا واصلح خريطتيهما وكشف اكثر ما يعرف الآن مما كان مجهولاً حينئذ من قلب افريقية . والمرجح انهُ لم يكتشف احد اكتشافات جغرافية تماثل ما اكتشف ستانلي في تلك السفرة . وعاد الى اوربا سنة ١٨٧٨ لكنهُ ذهب الى افريقية اسود الشعر فرجع منها شائبهُ لكثرة ما عاناه من المشاق وما اقتحمهُ من المخاطر

وذكر في احدى رسائلهِ وهو في هذه السفرة ان نهر الكونغو يصلح لسفر السفن وان هناك باباً واسعاً للتجارة فلم يكد يصل الى اوربا حتى استدعاه ملك بلجيكا اليهِ واستعان بهِ على تعمير تلك البلاد وفتحها للتجارة ورده الى افريقية لهذه الغاية، ومن ثم انشيء ما يسمى بولاية الكونغو الحرة وافلحت تلك الولاية مدة اقامة ستانلي فيها الى اواسط سنة ١٨٨٤ ثم حلت بها العبر بعد تركه اياها

وذهب الى اميركا يخطب فيها عما لقيهُ في رحلاته فاستدعتهُ الحكومة الانكليزية وطلبت منهُ ان يذهب الى اعالي السودان لانقاذ امين باشا وكان امين باشا مديراً على مديرية خط الاستواء من قبل الحكومة المصرية وقد قاوم الدراويش جهده وكادوا يتغلبون عليهِ فوعدت الحكومة المصرية بعشرة آلاف جنيه لهذه الغاية واكتتب الانكليز بعشرة آلاف جنيه اخرى . ولما اتم ستانلي عمله وانقذ امين باشا وعاد الى القطر المصري رحبت بهِ الحكومة المصرية واولمت له وليمة فاخرة في ٢٠ يناير سنة ١٨٩٠

رأسها دولتلو رياض باشا الذي كان رئيساً للنظار حينئذ . وبعد الطعام خطب ستانلي خطبة مسهبة وصف فيها رحلته لانقاذ امين باشا قال فيها ما ترجمته

الخطبة

قد حق عليَّ وعلى رفاقي مزيد الشكر لما لقينا في هذه الديار من مظاهر الاجلال والاكرام منذ دخلنا هذا القطر الى الآن فاليكم نسدي الثناء ومنكم نبغي التكرم بالقبول

ان الحملة التي اسعدنا الحظ باتمامها على ما يرام كان السبب فيها اعتقاد الانكليز بانهم مسئولون عما باتت فيه حامية مديرية خط الاستواء من الضنك والمركز الحرج وكذلك مديرها وكيل غوردون الذي امسى وحيداً فريداً في ديار مهجورة . فان المسيو ينكر لما عاد من افريقية افرغ وطاب الاخبار والانباء على اهالي الديار المتمدينة فقال ان في قلب افريقية رجلاً لم ينفرد هناك بارادته بل طوعاً لاوامر غوردون رئيسه وانهُ محفوف بالاعداء من كل جانب وان الدراويش السائرين في جهات السودان عازمون على ان يمحو آثار سطوة مصر عن تلك الديار وهم يتأهبون لغزو المديرية واعمال السيف في حاميتها واهلها وان الرجل الذي بات وحيداً في تلك الاقطار عدم وسائط الدفاع وقاربت ذخائره النفاد . وكنت حينئذ عازماً على السفر الى اميركا فقابلني صديق قديم وجعل يكلمني عن احوال المديرية الاستوائية وما الم بها وبمديرها من النوازل ثم قال لي أتقدم على انقاذها اذا مددناك بالمال فقلت له انكم انتم الانكليز بارعون في الاقوال بطيئون في الافعال . دبروا الاموال ثم اسألوني وعلى الله الاتكال . وسافرت بعد ذلك الى اميركا حيث كنت اخطب على اهلها وما اتممت الخطبة الرابعة عشرة حتى اتتني رسالة برقية ان ارجع حالاً الى انكلترا في اول باخرة فسافرت على الفور واتيت انكلترا وقلت اني مستعد للسير فقالوا سر بعون الله وأعن امين باشا

وكان لنا اربع طرق للسير الى المديرية الاستوائية وسأبوح لكم الآن بامر اظنهُ لا يزال مستوراً وهو اني كنت من بادئ الامر مستخيراً في نفسي طريق نهر الكونغو عالماً انهُ افضل الطرق ولو كان اطولها اذ احسن الطرق لا يلزم ان يكون اقصرها فلما كاشفت اعضاء اللجنة بهِ اعترض بعضهم عليهِ فقلت لا بأس فاني وعدتكم ببذل الجهد ولا فرق عندي سرت في هذه الطريق او في غيرها وعليهِ جزمت على المسير في طريق شرقية لا غربية

وارسلت رسالة برقية الى زنجبار بان يحملوا ٢٠٠ رجل مئتي حمل ارز ويرسلوهم الى امبوبوي في اطراف اراضي الالمان . وبعد مضي بضعة ايام اوعزت اليَّ نظارة الخارجية الانكليزية بان المسير في تلك الطريق الشرقية يوجب الارتباك والقلاقل السياسية فالعدول عنها اسلم عاقبة من المسير فيها فاضطررت حينئذ ان اعدل عنها وعن سواها من الطرق الشرقية لان طريق كرغوي كانت مسدودة باعتراض قوم اوغندا فيها وطريق روندا الواقعة الى الغرب من طريق كرغوي لم تكن طريقاً تسلك لمن كان مثلنا حاملاً الذخائر والمؤن الكثيرة لاغاثة امين باشا وطريق نيسّا وبحيرة تانجانيكا وهي الرابعة لم تكن موافقة لنا لان احوال الشركة الانكليزية هناك لم تكن يومئذ على ما هي اليوم او على ما آمل ان تكون بعد بضع سنينَ بل لم يكن عندها الا سفينة واحدة وهي لا تستطيع نقل ٨٠٠ او الف انسان فلم يبق لنا الا طريق الكونغو ولما اخبرت اللجنة بذلك قالت افعل ما بدا لك فارسلت تلغرافاً ثانياً الى زنجبار ان استرجعوا مئتي حمل الارز التي ارسلتموها . فكلفنا ارسالها وارجاعها خمسة آلاف روبية ثم الحقت التلغراف بالتلغراف حتى دبروا لنا ٦٠٠ حمال لحمل المهمات والذخائر وسائر ما يلزم لاغاثة امين باشا

ورب قائل يقول وما هذه الاغاثة وكيف تكون . اقول ان اصدقائي الانكليز اخبروني صريحاً بانهم يودون بقاء امين باشا في افريقية ومحافظته على مديريته وهذا ما كان يقولهُ لي كل انكليزي ولكني اوجه انظاركم ايها السادة الكرام الى ما يلزم لامين باشا لو شاء البقاء فاولاً يلزم ان ترسل اليه ذخائر ومهمات كل سنة والا فلا يستطيع المحافظة على مركزه ثم ان عدد البنادق التي عند جنوده ١٧٥٠ او نحوها واذا اردنا ان نرسل لكل بندقية ٢٠٠ طلق فقط بلغ ما نرسلهُ ٨٠٠ حمل يلزم لها ٨٠٠ حمال عدا ٤٠٠ حمل من البارود للجنود الخطرية وعدا الخرز والقماش وغيرها مما يبتاع به الطعام للحمالين . وعليهِ يلزم الفا رجل كل سنة لنقل ٢٠٠ طلق لكل بندقية وهؤلاء الالفان يقضون سنة في الذهاب والاياب . ناهيك عن نفقاتهم ونفقات الهدايا والزاد والادوية والوف الاشياء التي تلزم لذلك بحيث تبلغ نفقات القافلة كل سنة لا أقل من ٢٠ الف جنيه . ومعلوم ان الحكومة المصرية وهبت ١٠ آلاف جنيه لانقاذ امين باشا وقالت انها لا تعطي مالاً بعد ذلك لانها بعد ما تخلت عن شمالي السودان واواسطها لم تعد تعبأ بالمحافظة على جنوبيها اذ لا حيلة لها في صيانتها ولذلك رأت

الاكثر مناسبة ان يعود امين باشا منها ويتركها كما تركت سواها على ان الحكومة المصرية والانكليز معاً تركوا الحكم في هذه المسألة لامين باشا اذا شاء البقاء بقي واذا شاء المجيء جاء . والآن اشرع في وصف رحلتنا بوجه الاختصار بعد قيامنا من زنجبار ومرورنا برأس الرجاء الصالح ووصولنا الى مصب نهر الكونغو في غربي افريقية

لما اتينا مصب نهر الكونغو قيل لي اني لا استطيع القيام من نقطة بنانا قبل ستة اسابيع ولكننا قمنا منها في اليوم التالي . ولما وصلنا الى بركة ستانلي اروني سفينة من احسن السفن التي تسافر في الكونغو الاعلى وكانت بالية من طول الزمان وقد مضى عليها اشهر وهي ترمم فقال لي الناس جميعاً انكم لا تستطيعون المسير من هنا قبل اواسط مايو فطلبت سفينة من سفن المرسلين الذين هناك فاجابوني انهم لا يقدرون ان يجيبوا طلبي .فلما اتينا شلالات ستانلي عرض عليَّ كل ما هناك من السفن فسافرنا في الحال خوفاً من ضياع الزمان وكنت قد استصحبت شيخاً نخاساً سلاَّباً نهاباً يقال له تبوتيب ولما كان لا بد لي من المرور في جانب من البلاد الخاضعة له ولم يكن مأذوناً لي بمقاتلة احد اولت لهُ الولائم واحسنت لهُ المعاملة وعرفتهُ بالقوم كأنهُ ليس من ذوي البغي والفساد فرأى في البيض ما اقنعهُ بانهم يعاملونهُ احسن معاملة اذا وفى عهوده بالصدق والاستقامة . ولما كنا في رأس الرجاء الصالح قال على مسمع مني ان البيض اناس صغار العقول فلما رأى عظم افعالهم قال لي كنت اظن ان البيض قوم مجانين فعلمت اليوم انهم ليسوا بلا عقول فقلت له وستعلم بعد ما لا تعلمهُ الآن وتحكم ان الانكليز لا يقصرون عن العرب حذقاً وادراكاً . وذهب تبوتيب معنا الى شلال ستانلي ونزل هناك بناء على وعده بان يقدم لنا ٦٠٠ حمال لحمل المهمات والذخائر فاني كنت قد احضرت معي ما يلزم لتجهيز امين باشا اذا شاء البقاء في مديرية خط الاستواء ودبرت للحالين قبل المسير حتى اذا بقي جهزتهُ بما يلزمهُ واذا لم يبق ارجعت المهمات معي ولذلك اخذت معي شيئاً كثيراً لم تكن حملتنا لتحتاج الى عشره . فعشرون صندوقاً من الذخائر تزيد عما يلزم لحملتنا حال كون ٢٠٠ صندوق لا تكفي حاجة امين باشا وقومهِ

ولما سافرت من انكلترا كنت اظن انهُ في معظم الشدة واشد الضنك وذلك كان ظن الناس جميعاً حتى اجمعت الجرائد على وجوب المبادرة لاغاثتهِ لئلا يصيبهُ ما اصاب غوردون ولما كانت السفن على الكونغو الاعلى غير كافية لنقل رجال الحملة كلهم

بما معنا من الذخائر والمهمات اضطررت ان اترك جماعة من قومنا تحت قيادة برتلوت وغيره من الضباط في محلة هناك لينتظروا وصول اللوازم التي تخلفت عنا في الكونغو الاسفل . وكانت تلك المحطة منيعة حصينة وبجانبها حقول فسيحة مزروعة ذرة تقوتهم سنين عديدة واوصيتهم انهُ متى وصلت اللوازم والمهمات يقتفون آثارنا مع تبوتيب او بدونهِ في الادغال الممتــدة امامنا فاعربوا جميعاً عن رغبتهم في اتباعنا ولذلك اصدرت لهم الاوامر اللازمة وقمت عاجلاً خوفاً على امين باشا . فسرت مع ٣٨٩ رجلاً والضباط الذين تروتهم بيننا الآن قاصدين بحيرة البرت بلا ابطاء . اما الادغال التي كانت تسد الفضاء امامنا فقد ادهشني كبرها وارهبني التفاف شجرها فجعلت اسأل الناس عنها وعما اذا كانت مأهولة او لا وعن مسافة امتدادها شرقاً فيجيبونني جميعاً الله اعلم فانا لم نسمع من عهد آبائنا واجدادنا ان لهذا الغاب نهاية فاذعنت انا وقومي لحكم الضرورة ودخلنا تلك الادغال وظللنا شهراً كاملاً نسير فيها بلا انقطاع ونحن لانرى شمساً ولا سماء لشدة التفاف الاشجار وتكاثف اظلالها ولا نرى هنا وهناك الا شعاعة من النور او ضوءاً ضعيفاً مستطيراً حتى مللنا المسير وسلمنا جميعاً بان المسير في تلك الحرجات اصعب ما قاسيناه من مشاق افريقية كلها

وبعد مسيرة ١٦٠ يوماً خرجنا منها الى العراء فانتعشت انفسنا بضوء الشمس ورؤية السماء واستنشاق لذيذ الهواء وجعلنا نعدو في المروج الخضراء كصبية بعثهم الصغر على البطر فرحوا وفرحوا من تلاعب النسيم في اطراف العشب الاخضر . وما انشرحت منا الصدور حتى اطبقت علينا قبائل قوية تتكلم لغة غريبة وهاجمتنا مهاجمة عنيفة حتى خلنا انها تريد صدنا عن كنز من أثمن الكنوز او انها اتخاذ من تلك القبائل التي تهدد امين باشا . ولكنا فزنا بعد كل مقاومة بالوصول الى اطراف تلك الاراضي المرتفعة في ١٣ ديسمبر ورأينا بحيرة البرت تحتنا بالفين وتسعمئة قدم . فانحدرنا الفين وخمس مئة قدم مساء ذلك اليوم وسرنا في صباح اليوم التالي الى قرية في الزاوية الجنوبية الغربية من البحيرة وكنا لسبب ما الم بنا من الضعف والهزال قد تركنا زورقنا الفولاذي وراءنا ولم نجد في البحيرة قارباً يسع اكثر من اثنين معاً وسألنا اهل القرية فوجدنا انهم لايعرفون امين باشا ولا سمعوا باسمهِ وانهُ لايوجد في البحيرة قارب يصلح لنقلنا فرجعنا مسافة ١٩٠ ميلاً واحضرنا زورقنا ثم عدنا الى البحيرة بعد مضي اربعة اشهر

ولما انزلنا الزورق في البحيرة ركبهُ جفسن وبعض البحرية وسافروا حذاء ساحلها الغربي ليبحثوا عن مكان امين باشا ولم يمض الا ايام يسيرة حتى انشرحت منا الصدور برؤية الباخرة الخديوية قادمة تمخر الماء قاصدة محلتنا . وبات امين باشا والمسيو كاساتي تلك الليلة عندنا ولم يطل علينا الاجتماع حتى اصلحنا ما كنا نتصوره عنهُ وعن مديريتهِ فعوضاً عن ان نرى رجلاً طويل القامة عسكري الهيئة كما كنا نتصور رأينا رجلاً قصير القامة قوي البنية — فصدق فينا قول من قال « ان الطيور على اشكالها تقع » وعلمنا ان أورطتهُ الاولى قد تمردت وعصت منذ اشهر كثيرة وان كثيراً من محطاته واقع في قبضة العصاة وان بقية الاورط من الجنود القانونية المنظمة تلتمس عذراً لشق عصا الطاعة وغير القانونية تنتظرها لتحذو حذوها . فبقينا ستة وعشرين يوما معاً وكنت في اثنائها احاول الوقوف على افكار امين باشا لاعلم ما اذا كنا نحظى بمسيره معنا الى البحر او يبقى مع قومه في افريقية فكان يجيبني على الدوام حيث يذهب قومي اذهب وحيث يبقون ابقى فسألت كاساتي عما اذا كان يشرفنا برفقته فاجاب اذا ذهب سعادة المدير ذهبت واذا بقي بقيت وسألت الضباط فاجابوا عين ذلك الجواب وبقوا عليه مدة الستة والعشرين يوماً ولم يشأ احد ان يجاوبني صريحاً عن بقائه او مجيئه معنا لان امين باشا كان يريد ان يشاور قومه في ذلك ويعلم ما يقولون قبل ان يجاوبني قطعياً ولحظت على توالي الايام انه راغب في العمل ميال الى البحث والاكتشاف لانه من المجتهدين طبعاً فكانت مراقبة الطبيعة ودراسة اسرارها تلهيه عن مصابه وتكسبه السعادة في قلب افريقية ولو كلف ان يقضي ساعاته في قهوة من قهاوي العاصمة لكان اشقى الناس حالاً واكثرهم زهداً في الحياة . واما في افريقية فكان سعيداً لاعتقاده انهُ يصنع خيراً

فلما لحظتُ ان امين باشا يبغي البقاء في افريقية وكنت راغباً في الوقوف على جوابهِ القطعي قلت له اني اعرض عليك ثلاثة امور. اولاً ان تكون مديراً على هذه الديار كما انت الآن براتب الف وخمس مئة جنيه في السنة ومال قدره إثنا عشر الف جنيه سنوياً لادارة مهامها. هذه فرصة لك فاجبني الجواب الصريح عنها. وثانياً أن آخذك الى بلاد في هذه القارة من اجمل ما اكتحلت برؤيتهِ عينك فتسكنها مطمئناً آمناً من غزوات الدراويش وهجمات الثائرين واجعلك حيث يكون لك اتصال دائم بالبحر وحيث تأتيك الذخائر والمهمات على الدوام فتنال فيها منى نفسك ويدفع لك فيها راتب

يوافق مقامك ودراهم تكفي لجنودك . نعم اني غير مفوض بان اعرض عليك هذا الامر ولكني اتكفل لك بهِ وا كون مسئولاً لديك عنه.ولا انكر ان أول واجب عليَّ هو لسمو الخديوي المعظم ولكنهُ قد امر بقيامك من هنا ومرافقتك لنا الا اذا ابيت انت ذلك وبما انك لا تريد مرافقتنا اعتقاداً منك بان قومك لا يرافقونك وانا قد اتيت هذه الديار لاخلص لك الخدمة فها انا قد عرضت عليك هذين الامرين عدا الامر الثالث وهو مرافقتنا لاقضي ما يجب عليَّ من خدمتك.فصمت ولم يجاوبني جواباً قاطعاً لسبب سر خفي لا اعلمه وكان القلق قد اشتد بي لطول انقطاع اخبار برتلوت ورفاقهِ عني وصرت ارى من الضرورة التفتيش عنهم فقلت لهُ اذا كنت لا تستطيع ان تجيبني في الحال فاني امهلك مدة غيبتي عنك لتفكر في الجواب وتجزم الامر الذي يقر عليهِ رأيك

فسرنا حتى اتينا قومنا المتأخرين فوجدنا النوازل قد ألمت بهم وضعفت احوالهم ثم عدنا الى نيانزا رابع مرة واول خبر قرع مسامعي فيها بعد وصولي اليها ان امين باشا مسجون في مديريته ولم يبق عنده خدام ولا جنود وانهُ مقيد اليدين والرجلين فتصوروا انفسكم مكاني تعلموا ما خامرني بعد ما اتيت قلب افريقية لانقاذه ولقيت هذه النوازل مجتمعة امامي فكانت غاية سعينا واجتهادنا ان نسمع بسقوط المديرية وسجن امين باشا وخسارة ضابطي بعد ما خسرت اثنين قبله ومئات آخرين من رجالي وامسيت في خطر من ان افقد كثيرين غيرهم ايضاً . فرأيت بادئ الامر ان استعلم عن احوال سجنهِ واسبابهِ ثم أنظر في طريقة انقاذه . فقيل لي ان الذين سجنوه هم جنوده وذلك لانهُ وضع نفوذه عندهم في غير موضعهِ وانهم عن قريب يطلقونهُ لكن ضابطي اخبرني ان ذلك غير صحيح وان المديرية قد سقطت سقوطاً لا تقوم لها قائمة بعد فقلت اني انتظر كل هذه الايام لاقف على جواب الاوربيين الذين هنا واعلم ما اذا كانوا يرجعون معي او يبقون في هذه الديار فان كان امين باشا قد بات اسيراً ولا يقدر ان يخبرني عمن يستلم المهمات التي جئتهُ بها او هل يقبل دعوة سمو الخديوي بالرجوع معنا فما لي الا ان اتلف هذه المهمات وآمر بالرجوع . فكتبت الى امين باشا بذلك فكان جوابهُ حضوره بنفسهِ في احوال غير منتظرة وذلك انهُ بعد ما تمرد الجنود عليهِ غزاهم الدراويش واستولوا على اربع محطات من محطاتهم وعلى كثير من ذخائرهم ومهماتهم والقوا الرعب في قلوبهم فقالوا في انفسهم خير لنا ان نسترضي الخليفة

في الخرطوم بالقاء القبض على هذه الحملة التي اتت وتسليمها كلها ليده والحصول على الكرامة والشرف عنده من ان نتبع مديرنا ونلقي نصيبنا من نصيبهِ فما قولكم لو كنا الآن عبيداً وسياساً للمهدي بعد ما اوغانا في قلب افريقية واعدين النفس بتحصيل المنى وتحقيق الاماني

ولا يخفى ان اولئك الجنود كانوا منغمسين في المكايد غمساً وروح العصيان يسري في عروقهم وان كثيرين منهم كانوا من قوم عرابي فاتفق رأيهم على ان يأتوا محلتنا ولكنهم علموا انهم اذا اتوا اليَّ وحدهم يكون اول سؤالي لهم اين مديركم واين ضابطي فلذلك رأوا انهم لا يتمكنون من مقابلتي الا اذا اطلقوا سراحهما واعتذروا لمديرهم عما فرط منهم. ثم اعترفوا باني مرسل لاغاثة مديرهم من قبل سمو الخديوي المعظم وان الاوامر التي معي رسمية صحيحة فوعدهم امين باشا بالعفو عنهم وتعريفهم بي واتوا محلتنا معهُ ليستعلموا بانفسهم عن قوتنا ويعرفوا سذاجتنا من براعتنا .

فلما وصلوا مدحهم امين باشا لسوء الحظ واطنب ولكنني كنت مرتاباً فيهم لكثرة ما بلغني عنهم ورؤية كثير مما لا يرضي منهم ولم اصدق دعاويهم واقوالهم لاسباب كثيرة غير انهم قالوا اننا اذا امهلناهم جمعوا العيال والجنود وجاءوا معنا الى مصر ليرفعوا شكرهم لسمو الخديوي على ما انعم به عليهم . وكانت ظواهر الصدق والاخلاص بادية على كلامهم وهيئتهم تدل على ندامتهم وتوبتهم بحيث لا يسع الساذج الا تصديقهم فامهلتهم بطلب امين باشا مدة ٢٠ يوماً كما اشار فرجعوا على البواخر الى وادلاي وسرقوا معهم بندقية من صنع رمنتن وهم راجعون

وصبرنا حتى مر ثلاثون يوماً ولم يأت احد ولكن اتتنا كتابات كثيرة من وادلاي بحدوث الفتن والمكايد وان الناس انقسموا حزبين احدهما ناصر لفضل ملى بك والآخر لسليم بك والحرب بينهما سجال. وكان امين باشا لا يزال مقتنعاً بصدق قومهِ فلما مر الثلاثون يوماً طلب الي ان اطيل المهلة فامهلتهم ١٤ يوماً ايضاً واجلت المسير الى ١٠ ابريل. وفي ٥ ابريل وجدنا ان الذين لجأوا الى محلتنا من اهل المديرية يحاولون سرقة بنادق اخرى في الليل ثم تبينا في اليوم التالي انهُ لا يوجد الا رجل واحد يقصد مرافقة امين باشا من ستمئة نسمة لاذوا بحمانا وكان امين باشا معتقداً بامانتهم واثقاً بوفائهم

فحينئذ جمعت القوم واخبرتهم اني استلمت زمام الامور منذ ذلك اليوم فالذي لا يطيع اوامري يقتل بالرصاص فكفوا عن الدسائس ومحاولة سرقة البنادق مدة من الزمان . وفي ١٠ ابريل قمنا من جوار بحيرة البرت بالف وخمسمئة رجل وبعد مسيرة عشرة ايام اضطررنا الى الوقوف لمرض شديد اعتراني على مسيرة ثلاثة ايام من نيانزا فاصبحت محلتنا محطاً للدسائس والمكايد وسرقة البنادق وكان النساء يهربن ويوافين الرجال في محطة قديمة لنا على نيانزا ولثقل المرض عليَّ لم استطع الا على وسوسة بعض الاوامر ولكن الضباط الذين كانوا معي كانوا من ذوي الهمة والمقدرة فسار الملازم ستيرس منهم الى نيانزا وامسك كل الذين كانوا قد فروا اليها ومن جملتهم رجل يقال له ريحان وكان اصل تلك الدسائس كلها فشكل مجلساً وحاكمهُ محاكمة طويلة ثم حكم بوجوب قتله واصر على تنفيذ الحكم فوقعت على الحكم وقتل ريحان وكان ذلك آخر الاتعاب التي تحملناها من سكان المديرية الاستوائية

وفي ٨ مايو ١٨٨٩ سرنا قاصدين الاوطان فلما اخترقنا الهضاب الواقعة غربي بحيرة البرت اكتشفت اكتشافاً عظيماً في وادي سمليك وهو نهر يجري فيه ويستمد ماءه من اثنين وستين جدولاً تنحدر عن سلسلة جبال علوها بين سبعة عشر وتسعة عشر الف قدم . واتضح لي لدى مراجعتي ما كتب عن تلك البلاد ان جغرافياً عربياً اسمهُ شياد الدين (كذا) وعصره القرن الرابع عشر للميلاد وصف هذا النهر وصفاً بديعاً ودقق فيه بما لم يبعد عن الحقيقة . قال ان خط الاستواء يقطع جبال القمر وتنحدر عن هذه الجبال سيول وجداول كثيرة غربي نهر يصب في بحيرة عظيمة ينشأ النيل الابيض منها ويجري الى بلاد مصر اه . وهذا وصف صحيح لم يزد الخطأ فيهِ عن اميال يسيرة. والغريب اننا نكتشف الآن ما كان معلوماً عند الخلفاء والبطالسة والفراعنة قبلهم وحفظ في آثارهم التي توارثها الخلف عن السلف حتى اتصلت بجغرافيي العرب في زمانهم ثم عفت آثارها وطمست اخبارها حتى عدنا فكشفناها في زماننا. وقد اسعدنا الحظ في مسيرنا اننا رددنا بعض الرواسب الملحية الى اصحابها وقد اجرينا العدالة في عملنا هذا لاعتراض تلك الرواسب في طريقنا فنلنا عليهِ ما لا يوصف من الاكرام والضيافة على الرحب والسعة

نعم ان ولائم المتمدنين فاخرة وشاهدنا هذه الوليمة التي هي من افخر ما رأيت

ولكن ما قولكم في اهل افريقية المتوحشين الذين ضافونا مجاناً ضيافة لامثيل لها فاطعموا ثمانمئة نسمة منا افخر اطايب ارضهم من لحم البقر ولحم الضأن والخضر والاثمار مدة ثمانية اسابيع متوالية ولم يقبلوا منا عوضاً عنها ولا ثمناً بها وكانوا يحسبون قبولنا لها منهم منة عليهم وفخراً لهم . وبينما نحن نستشرف بحيرة فكتوريا رأينا صليباً فعلمنا اننا وطئنا اراضي المتمدنين ثم خرج المستر مكي المبشر الانكليزي لمقابلتنا وكان اول كلمة انكليزية سمعناها ان الانكليز يفتخرون بفعالنا . ولم يحدث ما يستحق الذكر مدة سفرنا من بحيرة نيانزا الى سواحل البحر سوى انا التقينا بالالمان في اطراف بلادهم الجديدة في شرقي افريقية فاكرم ضباط الماجور وسمن ملقانا ثم متعنا وسمن باطايبه فتغيرت بملذاتها مناظرنا حتى زعم الذين رأونا على الساحل ان هيئتنا لاتدل على صدق رحلتنا . ولما وصلنا بغمويو وشاهدنا البحر حييناه تحية مشتاق اشتد به الوجد من طول الفراق وادب لنا هناك مأدبة من افخر ما أدب في تلك الاقطار وحضر المأدبة ستون او سبعون مدعواً وكانت خمورها طيبة وخطبها رنانة فلما فرغت من خطبتي قام امين باشا وشرب على صحة امبراطور المانيا ثم وقف المدعوون جميعاً وغنوا . وبينما انا احادث وسمن بعد ذلك اتانا خبرمشوم وهو ان امين باشا سقط عن ممشى القاعة على علو عشرين قدماً الى الشارع فوثبنا من مجالسنا وكثر الاختلاط ونسينا الوليمة وهرعنا الى محل الحادثة المكربة فوجدنا امين باشا محمولاً الى المستشفى فتبعناه واذا هو ملقى على سرير ومنظره يفتت الأكباد ومن بعد ما كان فرحاً مفتخراً واصوات الترحيب ترن في اذنيه أمسى محطماً على آخر رمق . فقلت لا حول ولا . ان الانسان في تفكير والله في تدبير . ولطالما اتاني في حياتي ما اراني ان قوة خفية تدبر احوال البشر وهذا من اعظم الشواهد عليها . فقد انقذنا امين باشا من مخالب المهدويين واتينا به سالماً مسافة ١٤٠٠ ميل حتى وقف بين بني وطنه مكرماً مبجلاً تولم له الولائم بعد خدمة ثلث عشرة سنة في قلب افريقية . وكانت هذه هي العاقبة انه يمسي في لحظة مجاور الاموات لعارض عرض له . نعم ان شفاءه لايزال محتملاً ولكن اناساً من الذين هم كفء للحكم يرتابون في امكان شفائه

هذه هي قصة رحلتي ايها السادة واخاف ان اكون قد اطلت عليكم الكلام وان اكن لم اقل الا اليسير فعندنا ما لا يحصى من الحوادث والنكت التى تضحك وتبكي وتسر وتحزن ولكني لا اتعرض لها لان الزمان قد فات وغيري يرغب في الكلام ثم

شكر الحكومة المصرية على ايلامها تلك الوليمة لهُ وشكر الحضور على ترحيبهم بهِ. وبقي في القاهرة حتى كتب رحلته ونشرها في انكلترا وفرنسا والمانيا والولايات المتحدة في وقت واحد وذلك في شهر يونيو سنة ١٨٩٠ وهي في مجلدين وجعل اسمها « في اظلم افريقية » كان الغرض الاكبر من رحلتهِ نشر هذا الكتاب والاكتساب بهِ

ولما عاد الى بلاد الانكليز قوبل بما لامزيد عليهِ من الاكرام ومنح رتبة دكتور في الشرائع المدنية من مدرسة اكسفرد ومدرسة كمبردج ومدرسة درهم واقترن بالسيدة دوروثي تنت في كنيسة وستمنستر كانهُ ملك من ملوك الزمان

ومنح حرية مدن انكلترا واعطي الرعوية الانكليزية بعد ان فقدها باقامتهِ في اميركا وتجنسهِ بالجنسية الاميركية . وانتخب عضواً في مجلس النواب وفرستهُ(١) الملكة فكتوريا سنة ١٨٩٩ فصار يلقب بالسر هنري ستانلي وابتاع ارضاً زراعية اقام فيها وجعل دأبهُ الاعتناء بالزراعة والاحتفاء بالذين يزورونهُ فيها من جلة القوم . وسيبقى اسمهُ مقروناً باكتشاف مجاهل افريقية وترغيب الدول الاوربية في اقتسامها وامتلاكها وكان قصير القامة اسمر اللون براق العينين فصيح المنطق شديد العزيمة

وكانت وفاتهُ في العاشر من شهر مايو من غير عقب ووردت رسائل التعزية على زوجتهِ لادي ستانلي من الملوك والعظماء والعلماء ومنها رسالة من ملك الانكليز بخطهِ قال فيها : لقد كان من نصيبي ان تعرفت بزوجك الذي امتاز على الاقران وكثيراً ما سمعتهُ يقص اخبار رحلاتهِ الكبيرة واكتشافاتهِ العظيمة والخدم الجليلة التي خدم بها العالم المتمدن . وان الشهرة الفائقة التي حازها ستحيا بعده دواماً

وصلي عليهِ في كنيسة وستمنستر في السابع عشر من الشهر وحضر الجنازة الشريف سدني غرفل نائباً عن ملك الانكليز والكونت ده لالنغ نائباً عن ملك بلجيكا وكثيرون من اشراف الانكليز وعظمائهم من مثل لورد ربرتس ولورد نيوبورت ودوق ابركرن ولورد لنداف ولورد راي ولورد غراي ورؤساء الجمعيات ونوابها . وخلاصة القول انهُ لقي من اكرام قومهِ في حياتهِ ومماتهِ ما هو حقيق بهِ وما يهون اقتحام المخاطر على طلاب المعالي (مقتطف يونيه سنة ١٩٠٤)

---

(١) استعمل كتاب العرب هذا الفعل في زمن الفروسية كما يستعمل الانكليز فعل Knight

سفدج لندر واختراق افريقية

لقد اخترقت افريقية من شرقها الى غربها في اوسع عرض منها وقضيت في ذلك ٣٦٤ يوماً في الحل والترحال واضطررت ان اعرّج مراراً واسير في طرق ملتوية فبلغت المسافة التي قطعتها ٨٥٠٠ ميل. قمت من جيبوتي في املاك فرنسا وقطعت بلاد الحبشة الى نهر باروا وزرت القبائل النازلة الى الشمال والجنوب من نهر السُبت وهو امتداد نهر باروا وكان سفري كلهُ على الخيل والبغال الى ان وصلت الى النيل على سبعين ميلاً من كوك (فشودا) جنوباً ومن ثم قطعت بحر الغزال والحراج التي تليه الى نهري مبومو واوبنغي في بلاد الكونغو الفرنسوية وزرت في طريقي ولاية الكونغو الحرة. ولما وصلت الى حيث ينحرف نهر اوبنغي الى الجنوب سرت في جهة شمالية غربية مع جماعة من رجالي نحو بحيرة شاد وعبرتها ولكنني لم اواصل السير هناك غرباً بل ارتددت شرقاً لاني اردت ان اتفحص بعض المنخفضات في صحراء الكانم وزرت في طريقي بعض القبائل النازلة شمالي بحيرة شاد وعبرت بلاد الشتاتي ودرت جنوباً الى ان وصلت الى الطرف الشمالي الشرقي من بحيرة شاد وقطعت ٨٥٠ ميلاً من الصحراء راكباً على الجمال الى ان وصلت الى النيجر بطريق سوق زندر ثم سرت بقارب ٦٨٠ ميلاً فوصلت الى مدينة تمبكتوا وواصلت السير في النيجر وعبرت نهر السنغال الى ان وصلت الى الراس الاخضر وهو ابعد نقطة من افريقية غرباً

وقد استعملت في رحلتي هذه كل انواع المطايا الخيل والبغال والحمير والثيران والجمال والقوارب الخشبية والحديدية والارمات. ولم يكن معي في وقت من الاوقات اكثر من ثلاثين دابة للحمل ولا اكثر من اربعين رجلاً. ولم اكد اقطع ثلث هذه المسافة حتى فارقني كل رجالي وذلك في اصعب الاماكن في قلب افريقية ولم يبق معي الا رجل واحد من اهالي الصومال فاحتلت انا وهو على تسيير قافلتنا وعبور الحراج بها وكانت الامطار تتدفق علينا تدفقاً واستخدمت رجالاً غير الذين تركوني ولكني لما مررت في بلاد التوارك لم يبق معي منهم سوى ثلاثة وست جمال وجن اثنان من الرجال. وكنا نقطع ٢٣ ميلاً كل يوم والعادة ان اصحاب الرحلات لا يقطعون

هناك اكثر من عشرة اميال في اليوم . واطول مدة استرحت فيها ١٢ يوماً لما بلغت النيل وعشرة أيام في تمبكتو

وكان اكثر سيرنا في بلاد وبيئة انتشرت فيها الحمى الملاريا ولما وصلت السنغال كانت الحمى الصفراء ضاربة اطنابها فيها . ولما بلغت الساحل الغربي ركبت سكة الحديد الفرنسوية ولكن اتفق ركوبي في مركبة فيها رجل فرنسوي مصاب بالحمى الصفراء فاضطررت ان اقيم في الكورنتينا . ولم يكن معي ادوية تستحق الذكر في كل سفري ولا آلة لترشيح المياه . ولا اهتممت بلذع البعوض ولا بالوسائل الطبية وكانت النتيجة اني عدت الى اوربا وانا على تمام الصحة ولم البس في هذه الرحلة خوذة تقي من الشمس ولا ثياباً تقي من المطر بل لبست ثيابي العادية التي البسها في مدينة لندن وقطعت هذه المسافة كلها وليس معي شيء من الاسلحة ولا سكين صغيرة الا ان رجالي كانوا مسلحين بالبنادق الكثيرة الطلقات ولكن قلما كنت اعطيهم خرطوشاً ولم يكن معي رجل ابيض وقد قمت وحدي بكل نفقات هذه الرحلة

هذه خلاصة رحلتي والآن اشرحها لكم باكثر تفصيل واسهب في وصف غريبة او غريبتين من الغرائب الكثيرة التي لقيتها فيها

لم يكن اختراق بلاد الحبشة من الصعاب ولكنني خفت من حدوث ما لا يحمد في سكة الحديد من جيبوتي الى دير دوى مسافة ١٩٠ كيلو متراً لكثرة اهتزازها ولما بلغت دير دوى مضيت الى مدينة هرر وقابلت رأس مكنن وهو من اقدر رجال الحبشة . ولما عدت الى دير دوى نظمت قافلتي واتجهت نحو العاصمة وسرت في بلاد تكاد تكون قفراً وزرت في طريقي كثيراً من قبائل الدناكل وهم اقوام لا بأس بهم ولكنهم كثيراً ما يقتلون الغرباء الذين يمرون في بلادهم ويمثلون بهم وكانوا قد قتلوا رجلين من العرب ورجلاً من الاحباش قبلما اخترقت بلادهم بايام قليلة . وقد خاف منهم الجنود الاحباش الذين اتوا معي لحمايتي . وبلغت اديس ابابا عاصمة الحبشة بعد سير اثنى عشر يوماً ونزلت ضيفاً على السرجون هرنجتون سفيرنا لدى الامبراطور منليك وعلى الاوربيين القلال العدد الذين هناك . ولقيت من الامبراطور كل حفاوة واكرام . واديس ابابا اشبه بمعسكر كبير منها بمدينة وقصر منليك او قصوره فيها اشبه بمعمل كبير منها بقصور الملوك فان داخل أسوارها مضرب النقود والآلات البخارية والورش المختلفة ومنليك يقضي اكثر اوقاته فيها لا على عرشه لانهُ يكره السياسة

والسرجون هرنجتون رجل مقتدر وبحنكته وحسن تدبيره بقي اسمنا مكرماً في بلاد الحبشة ولولاه لخسرنا ماكان لنا من النفوذ وخرجنا من تلك البلاد صفر اليدين . اما الآن فلا خوف على نفوذنا هناك والفضل كل الفضل لهذا الرجل . وكل من يزور بلاد الحبشة يقول ان فيها رجلين يخشى بأسهما ويحمى جانبهما وهما الامبراطور منليك والسرجون هرنجتون . والامبراطور يعتمد على السرجون ويقدر مشورته قدرها . وعندي ان كثيراً من الاصلاح الذي تم في بلاد الحبشة كان بمشورته

وكلمة الامبراطور نافذة في رعيته وهم يعبدونه عبادة كانه اله ويشاركهم في ذلك غير الاحباش من القبائل الخاضعة لهم وكلمته شريعة لهم وأمره مطاع فيهم ورجاله يتغلبون على اعدائهم بما لهم من الهيبة في النفوس لا بمهارتهم الحربية فاذا توفي منليك لم يسهل على من يخلفه أن يقبض على زمام البلاد لا سيما وأن عيون الدول الاوربية طامحة اليها من كل الجهات

ومنليك من أعدل الملوك واكرمهم وأشدهم رزانة . ولو كان أصغر سناً وساح في اوروبا لعاد منها بأمور كثيرة تأول الى اصلاح بلاده. وكل ما تحتاج اليه بلاد الحبشة حكومة منظمة وشرائع ثابتة

ولم أجد كبير صعوبة في المسير من تلك البلاد الى نهر السُبت . ولقيت في طريقي قبائل الغالا في غربي بلاد الحبشة وهم يكرهون الاحباش مع انهم خاضعون لهم . واذا مات منليك فلا يبعد أن يخلعوا طاعة الأحباش ويستظلوا بالعلم البريطاني . وهم أهل نظر يحرثون الأرض ويربون المواشي ولهم المام بالتجارة ويدينون بالاسلام

والجانب الغربي أخصب بلاد الحبشة وهو معتدل الهواء لارتفاعه ويسهل اصلاح زراعته وفيه البن البري وهو من أفخر أنواع البن والصمغ الهندي ومعادن كثيرة ويجمع التبر من مسيل نهر باروا

ويلي الأرض المرتفعة أرض منخفضة من أملاك الحبشة يديرها اناس من حكومة السودان وهناك يسكن النيمو وهم جيل من الناس طوال القامة جداً كأنهم الجبابرة

وأول نقطة فيها مأمور مصري جمبلا وهي خبيثة الهواء لا تبقي على انسان ولا حيوان رأيت فيها بعض تجار اليونان وكلهم في حالة يرثى لها من فعل الحمى الملاريا بهم ورأيت على قبر الجنرال غاتكر قطعتين من الخشب في شكل صليب وكثيراً من الشوك منعاً للضباع من نبش الجثة واكلها

ولقيت قبائل النوير جنوبي نهر السُبت وهم أقوام غريبو الاطوار لا يأتمنون أحداً ولا يأتمنهم أحد عندهم كثير من المواشي لكنهم لا يبيعون منها ولا يقايضون وثيرانهم ليست أقل شراسة منهم فكانت تهجم على دواب قافلتي حيثما رأتها ورجالهم يطلون أبدانهم بطلاء أبيض واما نساؤهم فيحافظن على لونهن الأسود ولا يلبسن الا أبسط الملابس الطبيعية . وكلهم ممتازون بطول أرجلهم ويطلون شعورهم بطلاء لزج ويجمعونها معاً في شكل مستدق وهذا الطلاء يصبغ الشعر بلون احمر . ويدل طول سوقهم على أنهم مخلوقون ليعيشوا في بلاد كثيرة المستنقعات كأنهم طيور الماء وكثيراً ما ترى الواحد منهم واقفاً على رجل واحدة كأنه مالك الحزين

وقد اضطررت أن أعبر نهر السُبت مراراً كثيرة وهو عميق سريع الجري فكنت أجد مشقة كبيرة في عبره برجالي وبغالي وكانت البغال تسبح سباحة ونحن نطلق البنادق حولها خوفاً من التماسيح وكابدنا مشقات كثيرة الى أن بلغنا التوفيقية على النيل وهي أقفر بقاع الأرض (١) وهناك حامية من الجنود السودانية

ولما دنونا من النيل دخلنا بلاد الشلوك وقد كانوا اكثر عدداً وأقوى صولة منهم الآن ولكن حملات الدراويش والمصريين والنخاسين بددت شملهم وكادت تقرضهم ويظهر من انتشار لغتهم انه كانت لهم صولة واسعة فاني رأيت الناس يتكلمونها أويفهمونها في عالية الحبشة وبلغني أن الامر كذلك في الجنوب حتى فكتوريا نيانزا. وهم فريقان أحدهما يعترف بالقرابة بينه وبين النوير ولا سيما بين الدنكا . واكثر الشلوك الآن على ضفة النيل الشمالية بين بحيرة نو ومصب السُبت وبلادهم سهل فسيح تكثر فيه الاعشاب الكبيرة وتخترقه الخيران الكثيرة والمنخفضات التي يغمرها الماء زمن فيضان النيل وليس فيها الا قليل من شجر الدوم والهجليج والدلب ويفسد هواؤها في فصل المطر

وقلما يتزوج الرجل من الشلوك بغير امرأة واحدة لغلاء مهر النساء فان مهر الزوجة لا يكون أقل من ثلاثة ثيران أو أربعة أو أربعين رأساً من الغنم أو المعزى عدا الهدايا التي يهديها الخطيب الى أهل الفتاة قبل الاتفاق على مبلغ المهر وتعد الثيران أو الغنم أو المعزى التي يتفق عليها بقطع من القش توضع على الأرض وقت الخطبة فاذا تم

(١) (المقتطف) وصلنا اول تلغراف منه من التوفيقية

الاتفاق بين الخطيب وأهل الفتاة على المهر أخبروها بذلك حتى اذا قبلت أهدى اليها الخطيب سواراً من النحاس أو العاج فتلبسه بذراعها . وقد يتزوج احدهم بفتاة ويعد أهلها بالمهر ثم يعجز عن الوفاء بوعده فتؤخذ زوجته منه . وبعض الشلوك ينزعون الثنيتين والرباعيتين من الفك الاسفل كما تفعل بعض القبائل في قلب افريقية

والبلاد حول بحر الغزال من اقبح البلدان وقد اتفق اني مررت فيها من مشرع الرق الى واو في اشد شهور السنة حراً وجفافاً قبل فصل المطر وكثيراً ما كنت اعجز عن استقاء الماء الكافي لما معي من الدواب من الآبار التي هناك

والدنكا أقارب الشلوك جاء اسمهم على ما اظن من دنجو الذي يقال في تقاليد الشلوك انهُ كان أخاً لجوا كنجو وهما اول من ظهر من قومهما في تلك البلاد فاختصم الاخوان وعبر دنجو النيل وسكن على ضفتهِ اليمنى ومنهُ جاءت قبائل الدنكا

ولما قطعت بلاد بحر الغزال ووصلت الى ديم زبير سرت في الحراج الاستوائية متجهاً الى الجنوب ومررت على كثير من القبائل في اطراف بحر الغزال . اما قبائل النيام نيام فليس هذا اسمهم بل هو لقب ضعة يلقبهم بهِ غيرهم واما هم فيسمون انفسهم اسنده من سنده اي تحت .وقد رأيت بعضهم وهم مشوهو الخلقة بطونهم كبيرة ورؤوسهم مستطيلة بلهٌ خبثاء لا يؤمن شرهم لكني وجدت في لغاتهم اموراً تدل على انهم منحطون من اصل مرتق وهذه الامور قد تكون عرضية ولكن سواء كانت عرضية او غير عرضية فهي مما لم ار لهُ مثيلاً في الايطالية والفرنسوية والالمانية والاسبانية والبرتغاليــة والانكليزية فاذا اراد الواحد منهم ان يضيف اليه شيئاً غير حي خارجاً عنهُ استعمل ضمير المتكلم المضاف اليهِ كما تقول بيتي ورمحي ولكن اذا اراد ان يضيف اليهِ شيئاً متعلقاً بهِ مثل ابيه ويده لم يقل كما نقول نحن ابي ويدي بل اضافهُ الى ضمير مثل الضمير المرفوع عندنا كأنهُ يقول اب انا يد انا للدلالة على ان المضاف من اهله او من نفسهِ . وبعض الاسماء عندهم مستعار من الحوادث الطبيعية او من عالم النبات فمعنى اسم اللحية عندهم مطر الذقن ومعنى اسم الراحة ورقة الذراع ومعنى اسم الظفر قشر الاصبع واسم القدم ورقة الساق ويسمون النجوم بما معنـاه اعداء الشمس . وللواحد والاثنين والثلاثة الى الخمسة اسماء مفردة واما الستة فاسمها واحد من اليد الاخرى والسبعة اثنان من اليد الاخرى والثمانية ثلاثة من اليـد الاخرى والاحد عشر واحد من القدم والسـتة عشر واحد من القدم الاخرى والحادي والعشرون

رجل واصبع والحادي والاربعون رجلان واصبع والحادي والستون ثلاثة رجال واصبع وهلم جراً

وكان غرضي الوصول الى مملكة زميو وهي اكبر الممالك في اواسط افريقية فقطعت الحراج لهذه الغاية وتركني حينئذ كل الرجال الذين كانوا معي ما عدا واحداً من اهالي الصومال فسقنا القافلة وحدنا وكان فصل المطر فمات اكثر الدواب التي معي وكان الحر شديداً يزهق النفوس والارض مستنقعاً متصلاً والاشجار تلطم الاحمال على ظهور الدواب فتحلها او توقعها ونضطر الى ربطها مراراً في اليوم والامطار تنصب علينا كافواه القرب والاشواك والادغال تنشب في اقدامنا واصبنا كلانا بالحمى ومضى علينا شهر ونحن على هذه الصورة نقاسي اشد المشاق الى ان بلغنا نهر مبومو وكان في قافلتي ثلاثون دابة بين بغال وحمير فلم يبق منها سوى اربعة حمير فاسترحت هناك يومين استرجعت فيها قوتي وعدت الى مواصلة المسير

وعلى نهر مبومو ونهر اوبنغي قبائل كثيرة اكثرها من اكلة لحوم البشر والنهران يفصلان بلاد الكونغو الحرة عن الكونغو الفرنسوية وما رأيتهُ من بلاد الكونغو الحرة يدل على حسن الادارة فيها واهاليها على تمام الرضى وقد اصلحت طرق البلاد وزراعتها وما يشاع على ضد ذلك غير منطبق على الحقيقة . والموظفون الايطاليون في حكومة الكونغو باذلون اقصى جهدهم في اسعاد السكان والسكان يحبونهم ويكرمونهم

وقد قطعت مراراً الطريق الذي مر بهِ الكولونل مرشان ورأيت الخريطة التي رسمها منطبقة غاية الانطباق على البلاد وهي في غاية الضبط والاحكام

وقمت من اوبنغي باربعين حمالاً وسرت نحو بحيرة شاد وكان الفصل لا يزال ممطراً واضطررنا ان نقطع انهراً كبيرة ونمر على كثير من القبائل الغريبة الاطوار وفي جملتهم قبيلة المنجيا وقبيلة السنجا ونساؤها يثقبن شفاههن السفلى ويدخلن في الثقب عوداً او عظماً او قطعة مستطيلة من البلور او يعلقن في الشفة العليا حلقةً كبيرة جداً حتى تطول الشفة بها وتتدلى وقد يعلقن حلقة بكل شفة من الشفتين

وزرت بلاد الالمان في الكمرون ولقيت حسن الضيافة من الموظفين الالمانيين ووجدت انهم يحسنون الاعتناء بالسكان وان البلاد آخذة في الارتقاء بعنايتهم

وقد قيل ان ماء بحيرة شاد آخذ في النبوض ومن المحتمل انها تجف تماماً لكثرة التبخر منها ولان الانهر التي تصب فيها تحمل اليها كثيراً من الطمي فيرسب فيها

ويختلط بالنباتات التي تنبت وتيبس فيها فيعلو قاعها رريداً رويداً . ولا شبهة ان هذه البحيرة كانت في العصور الغابرة اوسع مما هي عليه الآ ن.وقد حفر الملازم فريدنبرج بئراً على بعد من البحيرة فوجد ترابها طبقات مترادفة من الرمال والمواد النباتية البالية وهي تدل على ان البحيرة كانت تغمر المكان الذي كانت قد حفرت فيه البئر وتبين كيف ترسب المواد النباتية والرمال بعضها فوق بعض

وسرت في نهر النيجر بقارب من الحديد فقضيت ٢٨ يوماً حتى وصلت الى تمبكتو ولم يسر القارب في مسيل النيجر نفسهِ بل في الارض التي طغى عليها ماؤه . ولا تسل عما لقينا من المشاق في طريقنا من القصب والحلفا ولا ما بلينا بهِ من البعوض. وكثيراً ما كنا نجد الجنادل في طريقنا والماء يجري بينها سريعاً مزبداً فنضطر ان نعود ادراجنا . واتفق مرة ان وصلنا الى شلال من هذه الشلالات نخرج الرجال من القارب وربطوه بالحبال من الجانبين لكي يمنعوه من الانقلاب وبقيت انا وحدي فيهِ والدفة في يدي وكانت امتعتنا فيهِ لكن المياه رفعته وقذفت بهِ فوقع الرجال الممسكون بالحبال في الماء وكاد بعضهم يغرق ودفع القارب الى اسفل وامتلأ ماء لكنني نجوت من الغرق وانقذنا القارب والامتعة

اما مدينة تمبكتو فمبنية على جانبي كثيبين من الرمال ممتدين شرقاً وغرباً فيها خمسة آلاف من السكان المقيمين واربعة آلاف من التجار الذين يترددون عليها اكثرهم من طرابلس الغرب ومراكش وغدنون وتدوف وطوات واهاليها يتكلمون بكثير من اللغات الافريقية

واسهب الخطيب في وصف معادن البلاد ونباتاتها ومدح الموظفين الفرنسويين على ما لقيهُ من كرمهم وقال ان العلماء منهم باذلون جهدهم في درس طبائع البلاد ومصادر ثروتها والاساليب التي تستثمر بها والضباط الذين يقودون جنود السنغال ماهرون في كل شيء، فتراهم يمسحون البلاد ويبنون البيوت ويحفرون الترع ويعلمون الاهالي كل ما يحتاجون اليهِ لمعيشتهم ورجال الادارة منهم من اكثر الرجال حنكة وامهرهم في اساليب السياسة . وختم بالشكر للورد كرومر والسردار ولوكيلي فرنسا وبلجيكا السياسيين في مصر وللكبتن اون لانهم كلهم ساعدوه بما سهل عليهِ اختراق افريقية

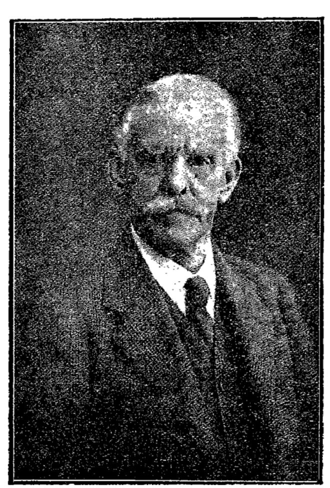
(مقتطف اكتوبر سنة ١٩٠٨)

الرحالة جورج شوينفورث

George Schweinfurth

نعت الاخبار البرقية من برلين الاستاذ شوينفورث توفي في ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٢٥ بالغاً من العمر ٨٩ سنة وكان واحداً من اوائل المستكشفين في افريقية بين سنتي ١٨٦٣ و١٨٨٨ وقد تخصص في المسائل المتعلقة بالنيل والكونغو ورأس الجمعية الجغرافية المصرية سنة ١٨٧٢ — روتر

هذا نص البرقية التي نعته للعالم وقد اخطأ روتر في تعيين تأسيس الجمعية الجغرافية سنة ١٨٧٢ لان امر التأسيس الذي اصدره المغفور له اسماعيل باشا الخديوي الاسبق تاريخه ١٩ مايو سنة ١٨٧٥ وفي المادة الرابعة منه تعيين الاستاذ شوينفورث بالاسم رئيساً لها وتاريخ الجمعية الجغرافية عند تأسيسها مرتبط بتاريخ اول رئيس لها والى القراء موجزاً من ترجمة حياته



الرحالة جورج شوينفورث

ولد في ريغا في ٢٩ دسمبر سنة ١٨٣٦ وكان والده تاجراً بها ثم انتقل الى هايدلبرج حيث تربى التربية المدرسية واتم علومه العالية في جامعة برلين حيث تخرج دكتوراً في العلوم الطبيعية وكان يميل اليها بكليته منذ نعومة اظفاره واختص بدرس علم النبات وعلم الآثار المتحجرة (الباليتنولوجيا) وكان علماء اوربا في ذلك الحين يتبارون في استكشاف مجاهل افريقية فمال اليها وكان احدهم العالم بارنيم

الالماني قد جمع مجموعة نباتات من منطقة النيل الابيض واحضرها معهُ الى برلين وتوفي قبل ان يعين انواعها فعهد الى شوينفورث بالاشتغال في ترتيبها فلم يرَ بداً من الشخوص الى حيث منابتها ليقف بنفسهِ على اصولها وسير نموها الطبيعي ومن هنا تولد فيهِ الميل الى الاسفار لتطبيق العلم وجاء الى القطر المصري سنة ١٨٦٣ وشرع في جمع مجموعة من نباتات الوجه البحري . وتنقل بين شواطئ البحر والصحراء الشرقية باحثاً منقباً حتى وصل الى بلاد الحبشة وقفل راجعاً الى الخرطوم حيث مكث سنتين ثم عاد الى وطنهِ ، ومعهُ مجموعة اخرى من النباتات وبدأ من ذلك الحين يبحث عن انواع المجموعتين حتى تكاملت معلوماته

كانت هذه رحلتهُ الاولى التي استأنفها في ١٨٦٨ صاعداً من الخرطوم الى بلاد النيام نيام (ازانده) عن طريق النيل وزار قبائل المبوتون وكانت مجهولة الى ذلك الحين وكشف في بلاد منغبتو نهر ول في مارس سنة ١٨٧٠ وعرف ان هذا النهر ليس من روافد النيل وذلك قبل ان يثبت انهُ من روافد الكونغو. فشوينفورث كان بعد السر صمويل باكر الثاني الذي تكللت مساعيهِ بالنجاح وزاده تشجيعاً جائزة مالية من همبولدت كان خصصها لينفق منها على تقدم العلوم والاستكشاف وهي التي كان ينفق منها في رحلاتهِ التي استمرت ثلاث سنوات ورجع سنة ١٨٧١ فدوّن اخباره في الكتاب الاول الضخم الذي طبع بالمانيا وعنوانهُ « في قلب افريقية » فتلقتهُ اوربا بالترحاب وترجم الى الفرنسية والانكليزية والايطالية وقرظتهُ الجرائد والمجلات ونشرت صور رحلتهِ كما انهُ ترجم ايضاً الى اللغة التركية وطبع بالاستانة سنة ١٢٩٦ هـ

ولم يكن شوينفورث عالماً نباتياً فحسب بل كان رساماً ماهراً فاخذ المناظر ودوّن ذكرياتهِ برسوم ظهرت في كتابهِ وساعدتهُ على وضع الخرائط في الاقطار التي رادها ووصفها اما في مؤلفاتهِ او مقالاتهِ ومراسلاتهِ الكثيرة في المجلات العلمية

ولما طبقت شهرتهُ الآفاق استلفت انظار الخديوي اسمعيل الى تأسيس الجمعية الجغرافية وبعد عشرين عاماً من تأسيسها له توفي الخديوي الى رحمة الله بالاستانة فنقلت رفاتهُ لتدفن في مسجد الرفاعي بالقاهرة فاقامت الجمعية حفلة تأبين لمؤسسها في ١٥ مارس سنة ١٨٩٥ وكان رئيسها المرحوم الدكتور اباتا باشا فتقدم هذا في الجلسة طالباً من اول رئيس ان يترأسها خصيصاً لهذه الذكرى فافتتحها بخطاب فرنسي جاء في آخره «اني اتمنى امنية واحدة وهي ان الجيل الحاضر يجب عليهِ ان يقيم للخديوي

الاكبر اثراً يليق بهِ في قلب القاهرة يكون باحد ميادينها العمومية في وسط اعمالهِ ومنشآتهِ اعترافاً بفضله الجم رحمة الله عليهِ »

وفي سنة ١٩١١ فكر اعضاء الجمعية المصريون ومريدوه في اقامة حفلة تكريم له وتم ذلك في دسمبر سنة ١٩١٣ وقدموا له « التقليد المسطور على رق منشور » او الشهادة الفخرية مؤرخاً محرم سنة ١٣٣٢ ﻫ موقعاً عليها من المعجبين بهِ فشكر لابناء مصر فضلهم متمنياً لمصر السعادة وكانت مصر قد قبلت الانضمام الى عضوية مجلس المباحث الدولي سنة ١٩١٨ تحت رعاية الاتحاد الجغرافي الدولي فلم يشترك الالمان والروس والاتراك من دول الاعداء في المؤتمر الجغرافي الذي اقيم في القاهرة في اوائل ابريل سنة ١٩٢٥

ولعل الاستاذ شوينفورث كان اولى الناس بالحضور لسببين الاول انهُ لم يبق غيره حياً من المؤسسين وانهُ الرئيس الاول للجمعية فله الحق في مشاهدة يوبيل غرس يمينهِ وجهوده وكان قد وجه سؤال في المقطم عن حقيقة امتناع القائمين بامور المؤتمر فعلق مستنداً الى ما جاء في الاجبين ديتش زيتونج ان الالمان قد يرفضون الحضور اذا دعوا بعد ما جرى مع ان العلم ليس له وطن والعلم فوق السياسة والدين ويقال ان عدم حضور شوينفورث اثر في نفسهِ إذ لمصر كامن الحب في فؤاده وقد اتخذها وطناً ثانياً

وآخر مؤلف ظهر له وهو مقيم في مصر كتاب مفيد عنوانهُ الاسماء العربية للنباتات التي تزرع في مصر واليمن طبع ببرلين سنة ١٩١٢ بالالمانية

وبلغ سن الثمانين سنة ١٩١٦ فاقيمت له حفلة تكريم ببرلين وحصرت آثار قلمهِ في جدول فاذا بها قد بلغت من سنة ١٨٥٨ الى ذلك الحين ٤٢٨ عدداً ما بين كتاب ومقال ومحاضرة ومراسلة لجريدة او مجلة علمية وهو عدد كبير ومع ذلك استمر في اشغاله العلمية الى وقت وفاتهِ اي بعد تسع سنوات وله اثناءها مآثر معدودة فاعيد طبع كتابهِ « في قلب افريقية » سنة ١٩١٨ في حجم ضخم مصدراً برسمه الذي ننقل عنهُ صورتهُ. وفي سنة ١٩٢٢ جمع بعض مقالاتهِ عن شواطئ البحر الاحمر من مارس لاغسطس سنة ١٨٦٦ وظهر له مؤلف آخر عنوانهُ في الطرق المجهولة بمصر — وقد صدرها بترجمة كتبها بنفسهِ Autobiographie — تشمل الرحلة من الاقصر الى سواكن واستكشافاتهِ وتصعيده جبال القصير، واقدم الاديرة المسيحية انبا انطونيوس وانبا

بولا واقدم سد للمياه من عهد الاهرام وهو في وادي عزاوى بحلوان ، ومدينة رومانية في الصحراء وقنطرة من حجر في جبل كاوديانوس المعروف الآن بجبل فتيرة من حجر الجرانيت ذي اللون السنجابي ووصف قصر روماني وحمام وكتابات ومقابر قبياتي البلميين والتجا من اسلاف الاحباش والطرق الحديثة الموصلة الى اقدم المعادن واماكنها بمصر وهذا الكتاب محلى بالرسوم مع صورة له لابساً الطربوش سنة ١٨٦٤ واخرى للدكتور كارل كاونزجر بطربوش ايضاً لانهما كانا في خدمة الحكومة المصرية

وفي آخر ١٩٢٤ ظهر كتاب عنوانهُ نباتات الحدائق في مصر (الفرعونية) وهو بحث اثري مصري لمؤلفهِ لودج كابر في اجزاء وقد ساعده الاستاذ شوينفورث في اخراجهِ وكتب لهُ مقدمة مفيدة

توفيق اسكاروس

(مقتطف نوفمبر سنة ١٩٢٥)

٢

قرأت في المقتطف جزء نوفمبر الماضي ترجمة هذا الرحالة الشهير الاستاذ النباتي المحقق جورج شوينفورث الذي توفي في الايام الاخيرة مناهزاً التسعين من العمر

ولما كنت قد عرفت هذا الرجل عرفة شخصية منذ بضع سنوات احببت ان اضم الى هذه الترجمة الكلمات الآتية

سنة ١٩١٨ وهي آخر سني الحرب العامة كنت ببرلين بمأمورية تتعلق بازالة بعض الخلافات بين الدولة العثمانية والدولة الالمانية . فاقمت اشهراً الى ان انتهت الحرب بما انتهت بهِ . وفي اثناء اقامتي ببرلين عرفت اناساً كثيرين من رجال الالمان ولا سيما العلماء والادباء والصحفيين والاخباريين . ومن جملة هؤلاء رجل من يهود المانية اسمهُ « روتايت » كان محرراً في جريدة « الفوسيشتي تسايتونغ » التي صاحبها جورج برنار وهو من معارفي ايضاً . وكان روتايت هذا يتردد الى اخواننا المهاجرين المصريين الذين كانوا هناك الاستاذ العلامة الشيخ عبد العزيز جاويش والاستاذ عبد الملك حمزة ورفاقهما فتعرفت بهِ عندهم . ودعانا مرة الى الشاي فوجدت في تلك الدعوة رهطاً من اهل الفضل منهم سيدة اديبة المانية قالت لي عند ما قدموني لمعرفتها : أي نعم انا اعرف بلادكم ولي خلطة تامة بعائلة ثريا بك . فقلت لها : وأي ثريا بك ؟ فقالت لي : ثريا بك افلا تعرفهُ ؟ فانهُ من بلادكم . فخطر ببالي مثل « فاطمة في سوق الغزل » وقلت لها : اتبدرين لو سألتك قائلاً : الا تعرفين الهرماكس من المانية ؟ فقولك ثريا بك في

المملكة العثمانية كما لو قلنا الهرماكس او الهركوتراد في المانية . وبعد الاستيضاح علمنا انها تريد ثريا بك الارناؤوطي اخا فريد باشا الصدر الاعظم وانها تعرف البانية وتحسب ان البانية وسورية وازمير والاستانة ومصر ومكة وربما الهند وفارس كلها بلاد واحدة بينها من الفروق ما بين برلين ومونيخ مثلا . وجرى معي من هذا القبيل ان كونتاً او على قول العرب كنداً المانياً اقترح علي هدية تباك من الشرق واخبرني انهُ تعود التدخين بالنارجيلة في بلادنا . فظننت انهُ وجد مرة في طرابلس الشام او في بيروت فقلت له : وفي أي بلدة من بلادنا كنت ؟ قال لي : كنت في الهرسك وهناك تعلمت شرب النارجيلة . مع ان الهرسك هي في الواقع أقرب الى المانية مما هي الى سورية. ولكن الاوربي ايما وجد المسلم عد المكان شرقاً . هذه عقلية القوم استطردت الى ذكرها لانها مما يجب على الشرقيين علمهُ . ونعود الى موضوعنا وهو انني تعرفت عند روتايت بالاستاذ النباتي الكبير شوينفورث ورأيتهُ شيخاً ماجناً لااقدر ان اقول شقي مائل او لعاب سائل بالتمام ولكنهُ كان يختلج دائماً ويتكلم بنغمة من قد شبع من السنين وكان مع هذا حافظاً قواه العقلية. ومما اتذكره عنهُ انهُ لم يعمل الرحلة في باطن افريقية فحسب بل ساح في بلاد اليمن وحقق هناك نباتات وتعاشيب كانت مجهولة . وقال لي روتايت امامهُ ان تآليفه في النبات مدرسية وانها لاتدرس في المانية فقط بل هي مترجمة الى الانكليزية والافرنسية وغيرها وانها تدرس في لندن وباريز كما تدرس في المانية . وكان في سكوت الاستاذ شوينفورث على كلام روتايت هذا علامة التصديق . فغبطت هذا الرجل على هذه الشهرة العظيمة وهذا الاختصاء الذي جعل كتبهُ تدرس في بلاد الاجانب الراقية وهو لايزال حياً . وذلك اشبه بالامام الغزالي الذي عند ما جاء الى دمشق واعتكف في صومعة من الجامع الاموي متنكراً كان يمر بحلقات الدروس ويسمع باذنه : قال الامام الغزالي . قال الامام الغزالي . وما احد يعلم انهُ هو الامام الغزالي . انا اقول هذا منتهى السعادة في الدنيا أو على الاقل منتهى سعادة العالم في العالم

***

ومما اتذكره من آثار جلستنا مع البروفسور شوينفورث او شفينفورث انهُ كان يخلع جلباب شيخوخته وتأخذه هزة الطرب كالشباب عند ما يتحدث بدخول الالمان الى ريغا . وكان الالمان قد استولوا في ذلك الوقت على بلاد البلطيك كلها ومن جملتها

ريغا مسقط رأس الاستاذ فكان يقول لي : الآن اموت مستريحاً لان ريغا دخلت في حوزة المانية . فكنت اقضي العجب من كون شيخ بلغ هذه الدرجة من السن يطرب هذا الطرب كلهُ كأنهُ شاب ابن ١٦ سنة لاخذ ابناء جلدتهِ البلدة التي ولد فيها . ولكن الوطنية امر عظيم . ولا شيء اعلق بقلب الانسان من حب الارض التي أول ما مس جلده ترابها . ولما زرت موسكو سنة ١٩٢١ ذهبت بحراً الى بلدة « ريفال » عاصمة « استونية » وركبنا من ريفال بقطار الحديد الى بتروغراد الى موسكو وقفلت من موسكو براً عن طريق « ليتونية » بالقطار فكنت ارى البلاد روسية الوسم حتى دخلت ريغا وشاهدت ما شاهدت من انتظامها ونظافتها وسعة شوارعها ورونق فنادقها وحسن حدائقها فخلت اني في قلب المانية . ومع ان اهل ريغا ليس اكثرهم من الجنس الالماني فان اللغة الالمانية فيها هي الغالبة وكل شيء هناك مسحتهُ المانية . وعندها تذكرت شغف الاستاذ شوينفورث باندماج ريغا في الوحدة الجرمانية

على اني احسب عمر الاستاذ المشار اليه اكثر مما ورد في الجرائد فان كانت لم تخني ذاكرتي اقول ان الذي سمعتهُ من روتايت عن عمره كان ٨٦ او ٨٧ سنة وهذا سنة ١٩١٨ فيكون عمره يوم ذهب الى ربهِ ٩٣ سنة بالاقل . ولو لم يكن كذلك لما كان سكت على قول روتايت عن عمره وكان بادر الى تصحيحهِ او كان قال لهُ : بالغت . نعم ان الرجال اسمح في هذا الموضوع من النساء وبعض السيدات يضمرن اشد الحقد لمن يقول الحقيقة عن عمرهن فضلا عمن يزيد فيهِ ،شاهدت سيدة في احدى مدن سويسرا اغرت الحكومة بسيدة أخرى وكانت سبب طردها من تلك المدينة فسألتها : ما سبب تلك العداوة ؟ فقالت لي وصلت الامور معها الى ان زعمت ان عمري ٤٠ سنة مع ان عمري ٢٨ . فلا شك ان الرجال ايضاً لا يريدون ان يعدوا شيوخاً فانين ولا يوجد احد يحب ان يزاد في عمره او اذا زيد لهُ فيهِ سكت عن الاعتراض . وحسبك ان سيدنا احمد بن حنبل رضي الله عنهُ سئل فيما اتذكر عن عمره فظهر الامتعاض في وجههِ وقال للسائل : لاتسأل عما لا يعنيك

نعم انا كنت اعتقد ان الاستاذ شوينفورث مناهز الرابعة والتسعين وهيئتهُ يوم شاهدتهُ واختلاج شفتيهِ واضطراب جسمهِ وعدم تبين جميع الفاظهِ كل ذلك كان يخبر عن التسعين او ما قاربها لكنني علمت بعد ذلك انهُ لم يتجاوز التاسعة والثمانين

مقتطف يناير سنة ١٩٢٦ — شكيب ارسلان

٣
استطراد

(المقتطف) نشكر الامير الجليل على ما اتحف المقتطف بهِ . وبعد فقد ذكرت مجلة ناتشر شوينفورث في السابع من نوفمبر فقالت ما ترجمتهُ

جورج اوغسط شوينفورث ولد في ريغا من والدين المانيين في ٢٩ دسمبر سنة ١٨٣٦وتوفي في برلين في ٢٠سبتمبر سنة ١٩٢٥ وقدكان من علماء الطبيعة الذين امتازوا برحلاتهم ومستكشفاتهم فى الجانب الشرقي من اواسط افريقية . نشأ نباتياً مدرباً فاختير وهو في السابعة والعشرين من عمره لكي يرتب مجاميع النباتات التي احضرها بارنم وهرتمن من السودان . واقام من سنة ١٨٦٣ الى ١٨٦٦ يبحث فى نباتات مصر والبلاد المجاورة لها من الاسكندرية الى الخرطوم واسناد البحر الاحمر ومن جبال الحبشة من البحر الازرق ثم الى بحر الغزال . وهذه الرحلة التي دامت ثلاث سنوات كانت اكثر الرحلات الافريقية ثمرة . فقدكان غرضهُ الاول فيها البحث فى نباتات البلاد لكنهُ لم يقتصر على ذلك بل بحث ايضاً في حيواناتها وجبالها واوضح ما يتعلق بانهارها مما كان امره غامضاً فانهُ عبر النيل واتجه غرباً فكشف نهر ول[1] وحسب انهُ يصب فى بحيرة شاد ونال باكتشافهِ هذا وسام مؤسس الجمعية الجغرافية الملكية ببلاد الانكليز . ودرس احوال السكان وهو أول من وصف قبائل الدوير والدنكا والبنجو والازندا او النيام نيام آكلي لحوم البشر وقد كشف ايضاً اقزام الاكا ، فاثبت وجود الاقزام في قلب افريقية بعد ان كان وجودهم في معرض الشك

اما في علم الحيوان فاهم ما كشفهُ نوع متنقل من الشمبانزي كشفهُ في بلاد الازندا ووجود الشمبانزي في وادي النيل لم يكن معروفاً هناك . وكشف ايضاً الببغاء الرمادي وغيره في تلك الجهات . اما في علم النبات فكان عمله واسع النطاق فانهُ كشف ان الحراج الكبيرة التي في قلب افريقية تمتد شرقاً ووصف انتساق اشجارها وصفاً شعرياً وشبهها بالاعمدة في الهياكل المصرية ونشر ذلك في كتاب سماه قلب افريقية، طبع اولاً سنة ١٨٧٣ مزداناً بكثير من الصور التي رسمها بيده لانهُ كان رساماً ماهراً كما كان كاتباً

(١) نهر كبير في قلب افريقية يخرج من بلاد المنبتو ويجري غرباً الى الدرجة ١٩ من الطول الشرقي يميل جنوباً ويصب في نهر الكونغو وقد ظن شوينفورث لما كشفه انه يتصل بنهر شاري ويصب في بحيرة شاد فأخطأ في ظنه

بليغاً فوق ما اشتهر بهِ من شدة الانتباه والملاحظة . واذا اعتبرنا ما في هذا الكتاب من بلاغة الانشاء والاستيعاب في وصف البلاد وسكانها وما فيها من نبات وحيوان واضفنا الى ذلك ان الزمن الذي كان فيهِ كانت النخاسة في اوجها وتطلب العاج على اشده فوجدنا كتابهُ « قلب افريقية » قلما فاقهُ كتاب آخر من كتب روّاد افريقية

بعد ذلك لم يعد الى قلب افريقية بل رحل رحلات اخرى الى جهات اخرى فمن سنة ١٨٧٣ الى سنة ١٨٧٤ كان في صحراء ليبيا مع رولفس وبين سنة ١٨٧٦ و١٨٨٨ ذهب مراراً الى الجنوب الغربي من جزيرة العرب وكان في غضون ذلك يقيم في القاهرة واسس فيها الجمعية الجغرافية سنة ١٨٧٥ تحت رعاية الخديوي اسمعيل وكان يبحث في نبات الجانب الاسفل من وادي النيل وجيولوجيتهِ . وسنة ١٨٨٦ جعل اقامتهُ في برلين ولم يغادرها الا حينما كان يذهب الى ارتريا بين سنة ١٨٩١ و١٨٩٤ . وطبع طبعة جديدة من كتابهِ في قلب افريقية سنة ١٩١٨ بعد ان اضاف اليهِ اضافات كثيرة . ومجموعتاه النباتية والجيولوجية معروضتان الآن في متحف برلين انتهى

***

اما نحن فقد لقينا شوينفورث مرة في بيت الدكتور غرانت بك بالقاهرة وكانت مسألة وادي الريان وجعله خزاناً شاغلة الافكار وكان كوب هويتهوس يحاول اقناعنا بصحة مشروعهِ حتى يؤيده المقطم والمهندس برون من وزارة الاشغال يحاول اقناعنا بفساده فسألنا شوينفورث عن رأيه في ذلك من باب جيولوجي فقال انهُ لا يشير بجعل وادي الريان خزاناً لانهُ يحتمل ان تكون في الحاجز الذي بينهُ وبين الفيوم شقوق او نقط ضعيفة فاذا زاد ضغط الماء في الوادي تحلب الى الفيوم واغرقها . ومنذ عهد قريب كنا نكلم سري باشا [وزير الاشغال في هذا الموضوع فرأيناه يرى ما رآه شوينفورث . اما نحن فبلغنا ان كوب هويتهوس والسر وليم ولككس يقولان ان في وادي الريان آثار زراعة فاذا كان الامر كذلك فالماء كان فيهِ ولم يغرق الفيوم حينئذ فجعله خزاناً اسلم عاقبة من جعل الخزانات في اعالي النيل ومفتاحها ليس في يد مصر . والذي فهمناه من سري باشا انهُ يحسب الفاصل الذي بين وادي الريان والفيوم غير كاف لمقاومة ضغط الماء اذا ملئ وادي الريان وهذا لم يقل بهِ شوينفورث ولا السر وليم ولككس ولذلك فالمسألة تستحق البحث ثانية حتى اذا وجدت آثار زراعة في وادي الريان كما قال كوب هويتهوس اتقي كل محذور .

مقتطف يناير سنة ١٩٢٦

رحلة مسز فوربس الى كفرة

حاول الفيلسوف افلاطون ان يؤجل الكلام على مقام المرأة في الهيئة الاجتماعية خوفاً من ان يكون رأيهُ فيها سبباً لسخط الرأي العام عليهِ . لكن تلميذه كاوكن اضرَّ على مناقشتهِ في موضوع المرأة الاجتماعي فكانت النتيجة ان افلاطون قال بعد الجدال الطويل قولهُ المشهور الذي لا تطمع المرأة بمثلهِ في هذا العصر حتى من اشد الناس غيرةً عليها وتحمساً في الدفاع عن حقوقها . فقد قال بلسان استاذه سقراط « ليس من عمل ما في نظام الهيئة الاجتماعية تختص بهِ المرأة كامرأة او يختص بهِ الرجل كرجل لان الطبيعة ساوت بين الرجل والمرأة فيما منحتهما من النعم والمواهب ولذلك يحق للمرأة ان تقوم بكل عمل يقوم بهِ الرجل » وكأنهُ خشي ان يؤخذ عليهِ اطلاقهُ هذا فاستدرك قائلاً « رغم كون المرأة اضعف جسماً من الرجل »

لكن امرأة القرن العشرين قد ابطلت استدراك افلاطون هذا بما تظهرهُ من الهمة والبأس اللذين لا تتحملها الا اشد الاجسام قوةً وصلابةً . فالنساء في اليابان اخذن يحتكرن الغوص في اعماق البحار لاستخراج صدف اللؤلوء . وما هذا الا أحد الشواهد على المقام الذي اخذت المرأة تحتلهُ في الهيئة الاجتماعية ناقضة نسبة الضعف اليها ، معلنةً باعمالها انهُ قد حان الوقت لنقول مع افلاطون «يحق للمرأة ان تقوم بكل عمل يقوم بهِ الرجل »

***

في لندن اليوم سيدة نالت من الشهرة على حداثة سنها مقاماً في نفوس مواطنيها لم تنلهُ سيدة اخرى في عمرها ولا في نوع العمل الذي قامت بهِ . هذه السيدة هي روزيتا فوربس التي زارت القاهرة منذ عهد قريب ويعرفها كثيرون من قراء المقتطف فقد صحت عزيمتها على التوغل في مجاهل افريقية التي لم يصلها رجل ابيض قبلها . فقامت بما انتدبت لهُ خير قيام واخترقت صحراء ليبيا ووصلت الى كفرة وعادت الى قومها بما رأت ودرست وعرفت من مواقع البلاد الجغرافي وحالها الاقتصادي وعادات سكانها وتقاليدهم . فاكبرت انكلترا شجاعتها واقدامها وامتلأت اعمدة الجرائد والمجلات بحديث رحلتها ونالت حظوة الاجتماع الخصوصي بجلالة الملك والملكة فاطلعتهما على

خلاصة رحلتها وما اكتشفتهُ وما رسمتهُ من الخرائط وصوّرتهُ من صور البلاد وسكانها مما جعلها في المقام الارفع بين سيدات القرن العشرين

مسز فوربس هذه في عنفوان صباها وهي على جانب عظيم من الذكاء والجمال الذي قد يستهوي اعقل النساء للانصراف الى عيشة الراحة والكسل والسكون في عاصمة كبيرة كمدينة لندن حيث يحيط بها اناس يكرمونها ويجلونها . لكنها تركت قلب لندن لتضرب في قلب افريقية . وزد على ذلك انها كاتبة من الطراز الاول ، وقد اشتهرت بما كتبتهُ في مباحث مختلفة وبما نشرتهُ اخيراً في جريدة التيمس وفي الالستريتد لندن نيوز

ان كاتب هذه السطور عرف هذه السيدة ورافقها في رحلة رحلتها في صحراء تدمر في العام الماضي فرأى من شجاعتها ونشاطها وعلو همتها ما يستحيل ان ينسب الى المرأة ان لم تكن مساوية للرجل في جميع القوى . وقد رأى ان ذكاءها الفطري شبيه بذكاء الشرقيات فانها تجيد الانشاء والالقاء بالافرنسية والالمانية والايطالية والاسبانيولية كما تجيد لغتها الانكليزية وتتكلم العربية ايضاً . وقد قلت لها يوماً ان ذكاءها شرقي اكثر منهُ غربي فاجابتني على الفور « ان امي اسبانية وقد يتصل نسبها باحد امراء العرب الذين كانوا في الاندلس » وقصت عليَّ في زيارتها الاخيرة لمصر حديث رحلتها الى كفرة وما قاست من المشاق فرأيت ان الخصهُ لقراء المقتطف بما يأتي

في اواخر اكتوبر الماضي قامت من لندن الى بنغازي وفي العشرين من نوفمبر ودعت بنغازي وسارت بمن معها الى جدابيا وهي على مسافة اسبوع من بنغازي فاستراحت فيها من وعثاء السفر الى ان نشطت الى رحلة طويلة في قفر بلقع فقامت بقافلتها وسارت عشرة ايام متوالية الى ان وصلت الى اوجلة . وتأخر بعض قافلتها في الطريق فانتظرت هناك هنيهة الى ان وصلت القافلة كلها فتابعت السير من اوجلة الى جالو ومن جالو الى بئر ابي الطفل وهناك آخر مكان في الصحراء يجد فيه الانسان ماء

وكان امامها بين ابي الطفل وكفرة مسافة اثني عشرة يوماً لا يجد فيها السائر ماء ولا اثراً من آثار الانسان بل رمال عفراء قضي عليها ان تقاسي فيها اشد المشاق والاهوال

تأهبت قافلتها للسير من ابي الطفل وحملت ما تستطيع حمله من الماء وسارت هي في مقدمتها ووجهتها واحة تساربو فتاهت القافلة في الصحراء وسدّت في وجهها سبل النجاة

للصحراء ادواء خاصة بها منها ان الدليل اذا تاه اعتراهُ الذهول واستولى عليهِ اليأس . وقد قالت لي مسز فوربس ان هذا الداء ينتشر في الصحراء كما تنتشر الانفلونزا في انكلترا والملاريا في الشرق . فاذا اصاب الدليل ارتمى على الارض وجعل يصيح « دماغي طاحت » يريد بذلك ان يقول لصاحب القافلة انني ضللت الطريق وتعذر عليّ وجوده فلم يبق لك الا ان تسير بقافلتك كيف شئت وكانت مسز فوربس تتبع الدليل وهو يوغل في الصحراء الى ان وقف امامها وانطرح على الارض وجعل يصيح قائلاً « دماغي طاحت ، دماغي طاحت » . ولو اكتفى بما اصابهُ لهان الامر لكنهُ خيل اليهِ ان ضلالهُ في الصحراء عار عليهِ فعن له ان يسير بالقافلة على غير هدى الى ان تهلك ويختفي اثرها فلا يبقى منها من يخبر بما فعل

وضاقت الحيل بمسز فوربس فرأت ان تتكل على نفسها فاتجهت شرقاً معتمدة في معرفة الجهة على الابرة المغنطيسية فقادها الحظ بعد عناء كثير وجهد جهيد الى بئر مطوية لا ماء فيها تدعى بئر العطش وهي بئر قديمة تراكمت عليها الرمال فطمرتها . ثم تابعت سيرها شرقاً وقد اخذ التعب منها كل مأخذ ونفد الماء الذي معها رغم التقتير الشديد في شربهِ واكلت الهوام جسمها . وبينما هي تفكر فيما يحل بها وبالذين معها اذا لم يجدوا ماء يروي عطشهم اذا برجال القافلة يصيحون مولولين ان علف الجمال نفد كلهُ . والجمل اذا استطاع السير في الصحراء بلا ماء لا يستطيعهُ جائعاً . فرأت ان الوسيلة الوحيدة لاطعام الجمال ان تنزع رحالها وتخرج ما فيها من القش والتبن وتطعمها اياه ففعلت . وقويت الجمال على متابعة السير نوعاً . ومرت ثلاثة ايام والماء يقل والعطش يزيد الى ان كادت حبال الامل تنقطع وحينئذ اوصلها القدر الى بئر الحراش وفيها ماء فسرّي عنها ونزلت القافلة هناك واستراحت وفتح الله على الدليل فتذكر الطريق وشفي من داء الصحراء . وكانت جبال واحة بوزيما قد لاحت في الافق فاخذت القافلة ما تستطيع حملهُ من الماء وسارت مسز فوربس والدليل امامها ووجهتها واحة بوزيما فبلغتها بعد مسيرة يومين لكن السكان قابلوها بالعداء اولاً فرأت ان

تأخذهم بالمعروف واولمت لهم وليمة فكسرت من حدتهم وسمحوا لها ان تجول في واحتهم فاكتشفت قلاعاً ومعاقل قديمة بناها برابرة التابو من سكان البلاد الاصليين . والسكان هناك يلبسون جلود الحيوانات وطعامهم التمر والجراد ونساؤهم يعلقن حجارة صغيرة في انوفهن بدل الخزامة واذا مات الواحد منهم دفن في بيته

ثم سارت بقافلتها من واحة بوزيما الى واحة الهواري ومات في الطريق اربعة من جمالها من شدة التعب والعطش . وشاهدت في طريقها كثيراً من العظام البشرية واجسام اناس ضلوا الطريق فماتوا من العطش وبقيت اجسامهم حيث وقعت

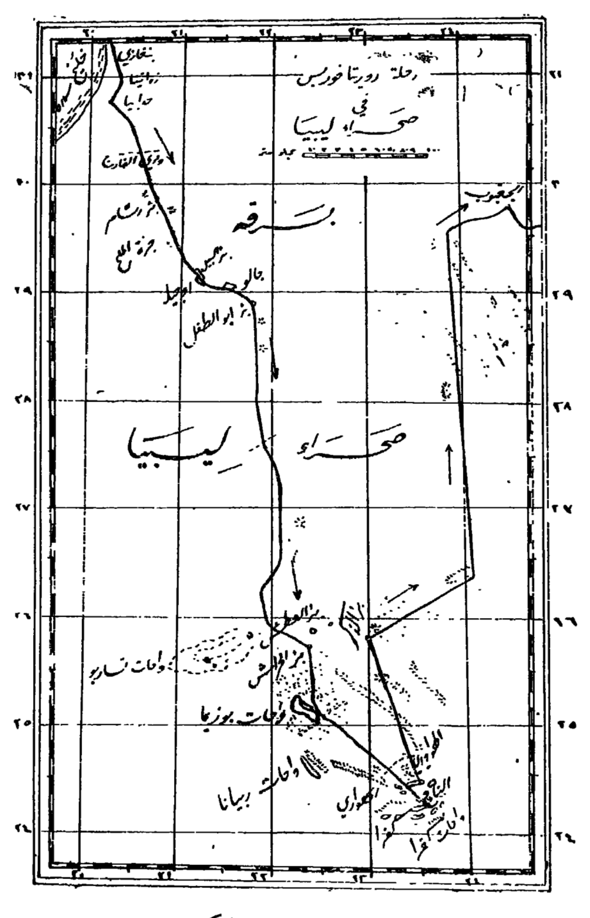
ولما وصلت الى واحة الهواري وجدت ان اهلها بدو من قبيلة الزوي فاجتمع مشايخها واجمعوا على منعها من دخول بلادهم لانهم يكرهون الاجانب مسيحيين كانوا او مسلمين ولم يكتفوا بذلك بل قبضوا عليها وعلى من معها ولم يخلوا سبيلهم الا بعد ان ارسلت رسولاً الى حاكم كفرة فجاء الامر منهُ باطلاقهم مع انهُ كان معها كتاب من السيد السنوسي يأمر فيهِ ان تكرم وتحترم حيث حلت وان يكون جميع ما تنفقهُ على حسابهِ

وسارت من واحة الهواري الى ان وصلت الى مدينة التاج وفيها قبة المهدي والد السيد السنوسي الحالي . والتاج كعبة السنوسيين وفيها اهم زواياهم وهي في واحة كفرة وعلى مقربة من مدينة كفرة نفسها فاقامت فيها سبعة ايام

وسكان كفرة الاصليون زنوج من قبيلة التبويين القدماء وقد غزاهم عرب الزوي من الشمال فاستولوا على بلادهم.وكانت مسز فوربس وهي هناك تزور السكان في بيوتهم ورأت انهُ يصيبهم نوع من الحمى فكانت تداويهم بما معها من الكينا . وشاع بين نساء كفرة انها تشفي ايضاً من داء العقم فتهافتن عليها ولم تستطع ان تصرفهن عن اعتقادهن هذا فجعلت تعطيهن ما معها من اقراص اللبن المعقم دواء للعقم

وعادت من كفرة في طريق بئر الذكر ومنها الى جغبوب مسافة اثنى عشرة يوماً في قفر لاماء فيهِ . ومن جغبوب الى واحة سيوى ومنها الى الاسكندرية فالقاهرة حيث اقامت بضعة اسابيع قابلت فيها كثيرين من رجال الحكومة والاعيان وفي التاسع عشر من ابريل ابحرت الى انكلترا حيث قوبلت باحتفاء لامثيل له

وقد بلغت المسافة التي قطعتها في ذهابها الى كفرة خمسماية ميل منها ٥٠٠ كيلو متر في قفر لاماء فيه واثبتت برحلتها هذه الامور الآتية وهي : —

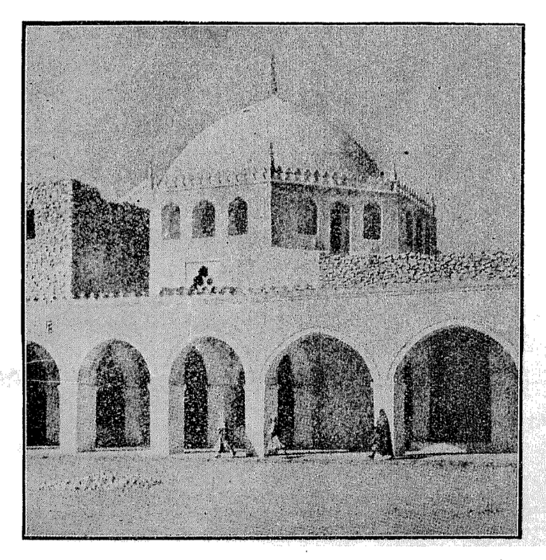


رحلة مسز فوربس الى الكفرة

الرواد صفحة ١٥٤



حسنين بك على جواده العربي بركة ورجال القافلة مسلحون



قبة الجامع في واح الجغبوب تثوي تحتها رفات السنوسي الكبير

اولاً — ان واحة كفرة واقعة الى الجنوب الشرقي من المكان الذي ترسم فيهِ في الخرائط المعروفة

ثانياً — ان واحات ربيانا الى الجنوب من واحة بوزيما وكان اهل الجغرافية يحسبونها الى الجنوب الشرقي

ثالثاً — انها اكتشفت الآبار العديدة بين جالو وبوزيما وحددت مواقعها حتى لا يضل المسافر الى كفرة بعد الآن

رابعاً — اصلحت اغلاط الرحالة رولفس الالماني وهو الاوربي الوحيد الذي وصل الى كفرة وذلك منذ اربعين سنة

خامساً — اكتشفت طريقاً جديداً من كفرة الى جغبوب

ومتى نشرت مسز فوربس تفصيل رحلتها اعود الى تفصيل ما اجملتهُ هنا نقلاً عنها

والعالم المتمدين يأبى ان يرى امامهُ اماكن مجهولة وشعوباً لا يعرف عنها شيئاً فهو يبحث وينقب ويتجشم المشاق والمخاطر لكي يكتشف المجاهل ويعلم المجهولات.

توفيق مفرّج مقتطف يوليو سنة ١٩٢١

٢

اطلعنا على مقالة في هذا الموضوع في مجلة ناتشر العلمية بقلم ارثر سلفا هويت وصف فيها الرحلة من باب علمي قال ما خلاصتها

ان رحلة مسز روزيتا فوربس الى واحة كفرة في قلب صحراء ليبيا كشفت القناع عن امور كنا نجهلها وجاءتنا باخبار عن مكان في تلك الصحراء لم يصل اليهِ احد من اهل الرحلات بعد ان قصدهُ جرارد رولفس سنة ١٨٧٩

فان رولفس هذا حاول مرتين الوصول الى كفرة ففي النوبة الاولى اضطر ان يرتد على عقبهِ من اوجيلة وجالو مع انهُ كان ذاهباً بفرمان عالٍ من السلطان عبد الحميد ، لان النخاسين (الجلابة) رفضوا ان يعطوه دليلاً الا بامر من السنوسي . وفي النوبة الثانية وصل الى كفرة ولكنهُ أُسر هناك ولم ينج الا بشق النفس . ومرت اربعون سنة ولم يستطع اوروبي ان يفعل ما عجز عنهُ هذا الرجل الى ان قامت مسز فوربس فوصلت الى كفرة وعادت منها سليمة مكرمة . ومن اسباب نجاحها تنير

الاحوال السياسية من ايام رولفس الى الآن لاسيما وان مسز فوربس دخلت صحراء افريقية وقبما تم الاتفاق بين ايطاليا والسيد السنوسي رئيس الطريقة السنوسية

قامت من بنغازي مع بعض الرفاق وسارت جنوباً ثمانين ميلاً الى جدابيا حيث ابتدأ السير في الصحراء فعلاً ونزلت هناك على السيد رضا اخي السيد ادريس شيخ الطريقة السنوسية ولكن فتن عليها بعض الذين اساؤوا الظن بها فاضطرت ان تلبس ثياب بدوية وتهرب ليلاً من غير دليل هي وواحد الرفاق ثم تبعهما رجلان امينان من السنوسيين وسار الاربعة يومين في الصحراء الى ان التقوا بجنديين من السودانيين فصاروا ستةً وكادوا يموتون جوعاً لو لم يلتقوا بقافلة ساروا معها مرحلة بعد مرحلة الى ان وصلوا الى واحة اوجيلة . وكان السيد رضا قد اتبعها بقافلة تعني بامرها وارسل معها كتاباً الى قائمقام جالو يوصيه بها فصاروا معها تسعة خدم من الزنوج وجاريتان ودليل وثلاثة من البدو و١٨ جملاً ولكن هذه الجمال لا تكفي لركب مثل هذا في تلك الصحراء لاسيما وانها لم تكن في حالة صالحة للضرب في القفار ولذلك لاقى هذا الركب اشد المشاق وزادت مشاقهم لان دليلهم ضل الطريق فتأخروا واقتضى لهم تسعة ايام حتى وصلوا الى بئر الحراش حيث وجدوا ماء ثم يومان حتى وصلوا الى بوزيما فاقاموا فيها ثلاث ليال ليستريحوا من وعثاء السفر وقضوا اربعة ايام يمرون بين كثبان الرمال الى ان وصلوا الى واحة هواري في ضواحي واحة كفرة

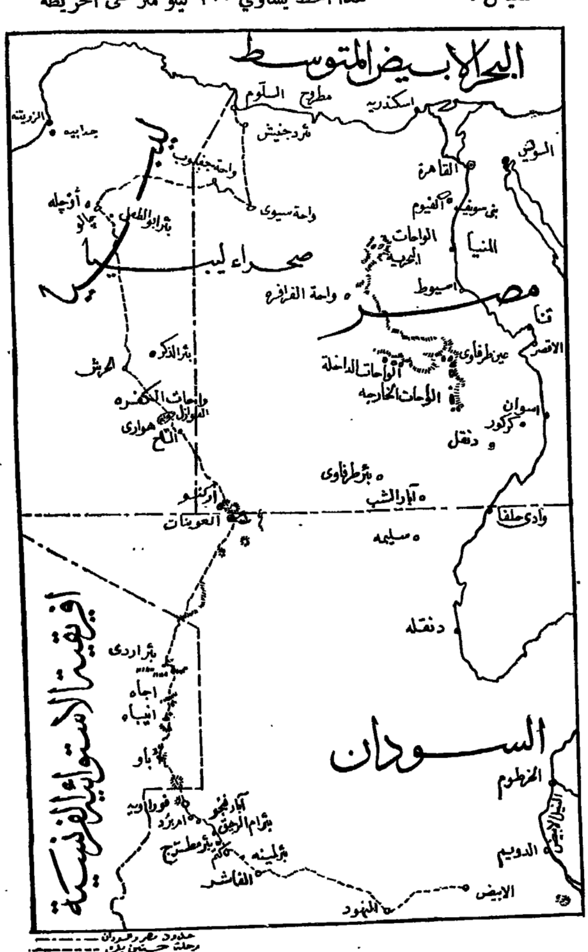
والظاهر ان السنوسيين الآن فريقان يختلفان الاول انصار السيد احمد السنوسي الذي كان له الشأن في الحملة على مصر والثاني انصار السيد ادريس الشيخ الحالي . والفريق الاول يسيء الظن بالفريق الثاني ويعمل على مقاومة مريديه ولذلك كانت مسز فوربس ورفاقها في خطر دائم من رجال الفريق الاول

فلما وصلت الى التاج مقام السيد السنوسي فحص قائمقام الكفرة السيد صالح البسكري جوازاتها وجوازات رفاقها واحسن ملتقاهم وانزل مسز فوربس في دار السيد ادريس فاقامت فيها تسعة ايام متحجبة كامرأة عربية وزارت قبة السيد المهدي ابن مؤسس الطريقة السنوسية وخليفته . ولم يرق ما فعلتهُ في عيون خمسة عشر من شيوخ القبائل هناك لان نساء العرب عامة ونساء التاج خاصة لم يعتدن الخروج من منازلهن والجولان كما كانت مسز فوربس تفعل لكن القائمقام حماها منهم فجالت في البلاد المجاورة وشاهدت ما فيها

ولما حان ميعاد رجوعها ارادت ان ترجع بطريق آخر غير الطريق الذي ذهبت فيهِ لعلها تكتشف طريقاً يسهل مرور التجار فيهِ بين مصر وتلك الانحاء . ثم اتضح لها ان الطريق الذي سارت فيهِ في رجوعها هو من الطرق التي فتحها السيد السنوسي وكان اتباعهُ يسيرون فيها فيجدون في آخر كل مرحلة مكاناً ينزلونهُ وماءً يشربونهُ فبعثت امامها بعض رفاقها في طريق جالو وجدابيا وبقي معها اربعة رجال وتسعة جمال فوصلوا بعد اربعة ايام الى بئر الذكر وكانت قد اهملت منذ اربع سنوات فردمت فاضطروا ان يحتفروها ثانية ثم ساروا اثني عشر يوماً في قفر بلقع لم يجدوا فيهِ ماء الى ان وصلوا الى الجغبوب وكانوا يسيرون ١٣ ساعة كل يوم يقطعون فيها ٣٠ ميلاً . ولما وصلوا الى الجغبوب أنزلت مسز فوربس في زاويتها في بيت الاخوان وفي ١٣ فبراير قامت من هناك قاصدة واحة سيوى . وجاءت من سيوى الى الاسكندرية باتوموبيل .

مقتطف يوليو سنة ١٩٢١

مقياس : ——— هذا الخط يساوي ٢٠٠ كيلو متر على الخريطة



خريطة رحلة حسنين بك من السلوم الى الابيض

اول رائد مصري حديث

الرحالة احمد حسنين بك

[قرأنا المقالة التي نشرتها المجلة الجغرافيــة الوطنية (الاميركية) من قلم الرائد المصري الهمام احمد حسنين بك والخطبة النفيسة التي تلاها في الجمعية الجغرافية الملكية ببلاد الانكليز ونشرت في اعمالها فترجمنا منها الملخص التالي وابقينا الكلام فيهِ بصيغة المتكلم والحقنا بهِ خلاصة ما كتبتهُ المجلتان في هذا الصدد]

ان رحلتي التي قطعت بها صحراء ليبيا من السلّوم على شاطىء البحر المتوسط الى الابيض قاعدة كردفان بالسودان (انظر الخريطة) رحلتها في النصف الاول من سنة ١٩٢٣ . وقد بدا فيّ الشوق الى هذه الرحلة سنة ١٩١٦ فان الكولونل تلبت وكان ضابطاً ممتازاً في الجيش المصري وقد استقال منهُ عاد الى الخدمة حالما استعرت نار الحرب العالمية فذهبت معهُ موفداً الى السيد ادريس السنوسي في الزويتنة . وكان من اغراض هذه البعثة الاتفاق معهُ كزعيم للسنوسية على منع البدو من مهاجمة تخوم مصر الغربية وكنت قد تعرفت بهِ في مصر وهو راجع من الحج سنة ١٩١٥ لانهُ كان صديقاً لأبي . فاخبرتهُ حينئذ عن رغبتي في زيارة الكفرة التي لم يصل اليها من الاجانب الا رجل واحد وهو الرحالة الالماني رولفس وذلك سنة ١٨٧٩ . فابدى سروره من رغبتي هذه وطلب مني ان اخبره حينما انوي الرحلة ووعدني بكل مساعدة . ثم زرتهُ ثانية سنة ١٩١٧ وقلت له انني لا ازال مصمماً على الذهاب الى الكفرة وسأفعل حالما تضع الحرب اوزارها . فزاد في ترغيبي وكرر وعده لي وكان معي حينئذ المستر فرنسيس رود وهو من اصدقائي الذين صادقتهم في كلية بليول بجامعة اكسفورد فبحثنا في امر الرحلة واتفقنا على ان نقوم بها كلانا

ولما انقضت الحرب اتتني مسز روزيتا فوربس (وهي الآن مسز مكغراث) بكتاب من المستر رود طالبةً ان ترافقنا في تلك الرحلة . فجعلنا نرسم خطة سفرنا ولكن لما حان وقت السفر حدث ما منع المستر رود من مرافقتنا فرحلنا انا ومسز فوربس وحدنا . قمنا من جدابيه في نوفمبر سنة ١٩٢٠ ومعنا قافلة اعدها لنا السيد

ادريس وبلغنا الكفرة في ١٤ يناير سنة ١٩٢١ . ثم رجعنا الى الجغبوب مارين بيئر الذكر ومنها الى واحة سيوه فالاسكندرية

ورحلتي هذه الى الكفرة زادت رغبتي في الارتحال فانني رأيت حينئذ ان وراء الكفرة قفراً مترامياً لم تطأه رجل مستكشف وبلغتني اخبار عن واحات مجهولة لا يعلم عنها شيء الا بالاحاديث المتسلسلة . واحات مجهولة هذا مما يشحذ الهمم ويزيد الشوق الى ارتياد المجاهل !

فرجعت الى مصر عازماً على العودة وان لا اقنع بالوصول الى الكفرة بل احث الركاب الى ما وراءها حتى ابلغ بلاد السودان واعود من هنالك بطريق الخرطوم. وهناك امر آخر زاد رغبتي في السفر وهو اننا في الرحلة الاولى لم يكن معنا من الآلات العلمية الا بارومتر انرويد وبوصلة مضبوطة وذلك لم يكن في الامكان الوصول الى ارصاد علمية وغاية ما وصلنا اليه معلومات عن الطريق دونتها بما كان لديّ من الوسائل الضئيلة ولذلك عزمت ان اتجهز في الرحلة التالية بما يلزم من الآلات لمسح البلاد التي نمر فيها لعلي اتمكن من ان اضيف شيئاً الى ما يعرف عن صحراء ليبيا جغرافياً وطبوغرافياً

فرسمت الخطة التي كنت عازماً على اتباعها ورفعتها الى جلالة مولاي الملك فؤاد الاول فقابل جلالته مشروعي بالاستحسان والتنشيط التام وامر ان اعطى اجازة طويلة . ولولا تعطفهُ وتشجيعهُ لما تكلل مشروعي بالنجاح الذي تكلل بهِ

بلغت السلوم في الحادي والعشرين من دسمبر سنة ١٩٢٢ وقبلتي الجغبوب مقام السنوسية العلمي ومدفن السنوسي الكبير وهي على ١٣٠ ميلاً من السلوم جنوباً . وقبلما غادرت السلوم بلغني ان الجمالة الذين استأجرتهم ليذهبوا معي الى الجغبوب اتفقوا على نهب ما معي في الطريق فغيرت خطة سفري واستأجرت جمالة آخرين ليذهبوا معي الى سيوه ناوياً ان اذهب الى الجغبوب منها . وقامت قافلتي من السلوم في الثاني من يناير سنة ١٩٢٣ ولحقت بها بعد يومين . ومن السلوم الى سيوه تسعة ايام وكنت اهتم في اثناء الطريق بتغطية الصناديق التي فيها الآلات العلمية حتى تظهر كأنها من الامتعة العادية التي يحملها البدو في رحلاتهم . ورأيت في اليوم الخامس ظبياً يرعى على مقربة من الطريق فقصدتهُ وللحال سمعت ضجة من رجالي كأنهم ينهونني عن اللحاق بهِ فلم افهم ما غرضهم من ذلك لا سيما واني اعلم شدة قرمهم الى اللحم وحسبت انهم خافوا ان

اضل الطريق . وبعد قليل تمكنت من اطلاق بندقيتي على الظبي فوقع صريعاً فحملتهُ وعدت بهِ الى القافلة فاسرع الجمالة الى لقائي فرحين متهللين . ثم علمت ان من تقاليدهم ان ما يصيب القافلة من نجاح او فشل يتوقف على الطلقة الاولى التي تطلق من بندقية بعد الشروع في السير فاذا اصابت فالرحلة ناجحة واذا اخطأت فالفشل نصيبها فاوجسوا شراً من تعرضي للظبي لئلا اخطئهُ فيحل بهم ما يحذرونهُ ولو علمت ذلك قبلاً لما كنت اقل منهم حذراً ولا بقيت اطلاق بندقيتي الى ان نبلغ الفاشر في ختام الرحلة

واستأجرت جمالة آخرين من سيوه للذهاب الى الجغبوب وهي على اربعة ايام من سيوه فالتقينا في منتصف الطريق بالسيد ادريس السنوسي آتياً الى مصر فاعطاني مكاتيب توصية الى ابن عمه السيد محمد العابد في الكفرة والى وكلائهِ في الجغبوب وجالو والكفرة . ولمعرفتي القديمة بالسيد ادريس الشأن الاكبر في نجاح هذه الرحلة والرحلة التي سبقتها الى الكفرة سنة ١٩٢١ . ولما ودعتهُ دعا لي ولرجالي بالتوفيق فاصر رجالي على السير في الطريق الذي جاء فيهِ تبركاً ولو كان اطول من غيره فوافقتهم على ذلك

ولما بلغنا الجغبوب رحب بنا السيد حسين وكيل السيد ادريس وسائر الاخوان [وهنا استطرد حسين بك الى ذكر السنوسية وتاريخها ثم قال]

لم استطع ان اغادر الجغبوب الا بعد اكثر من شهر لما وجدتهُ من الصعوبة في استئجار الجمال فاقمت فيها ٣٤ يوماً كانت ايام سكينة وسرور وغادرتها والسعد في خدمتي حسب رأي اهل البادية لان يوم مغادرتها كان يوم زوبعة رملية (هبوب) . ولعلهم جروا في اعتقادهم هذا على قول من قال اذا لم يكن لك ما تريد فأرد ما يكون . والمسافة من الجغبوب الى جالو سبعة ايام لكننا اضطررنا ان نقطعها في اثني عشر يوماً بسبب تلك الزوبعة . يطلع النهار والسماء صافية الاديم لا دليل على زوبعة ولا على ريح والصحراء منبسطة امامنا كانها تبسم لنا فتسير القافلة متهادية ثم يهب نسيم عليل ينعش النفوس وبعد قليل يزيد جرأة فنلتفت واذا وجه الصحراء قد تغير كأن اناييب من البخار انتشرت افواهها تحتهُ وشرعت تقذف بخارها فيثب الرمل بهِ ويدور على نفسهِ ويصعد في الهواء كأن في الارض قوة دافعة تدفع رملها وتدفع ما فيهِ من الحصى فتصيب الارجل والافخاذ . وتعلو اعاصير الرمال وتلطم الوجوه والرؤوس . ويطبق الجو حتى لا نرى من القافلة الا اقرب جمالها الينا ثم لا تلبث الريح ان تصير رمالاً وحصباء تعمي العيون وتلطم الرؤوس والابدان والسعيد من هبت تلك الريح في ظهره

لا في وجههِ لان الرمل ينخس الوجوه كالابر ولا يستطيع المسافر ان يغمض عينيهِ لان الضلال في تلك الفدافد شرٌّ من الزوبعة

لكن العاصفة لم تكن متصلة الاوصال بل كان فيها فواصل كأنها هبات تأتي ثلاثاً او رباعاً وبينها فترات تطول بضع ثوانٍ فاذا بدأت الهبة ادار المرء وجههُ وبسط كوفيتهُ امامهُ ليقيهُ منها واذا جاءت الفترة ابعد الكوفية وتنفس والتفت ليرى طريقهُ واستعد للهبة التالية كأن وحشاً هائلاً من الوحوش الخرافية كان يتنفس فيقذف الرمل في وجوه الناس او كأن اصابع جبار مرّت على أوتار مشدودة « فحنت كأنها مرزاة ثكلى ترن وتعول »

واذا لقي المرء زوبعة رملية (هبوباً) فلا سبيل لهُ الا ان يواصل السير لانهُ اذا اعترضها شيء ثابت عموداً كان او جملاً او انساناً تراكم رملها حولهُ وصار بهِ كثيباً فاذا كان السير في الزوبعة الرملية اليماً فالوقوف فيها موتاً زؤاماً

وقد يطول امد الزوبعة خمس ساعات او ستاً وحينئذ لا بد للقافلة من متابعة السير بتأن وحذر لئلا تضل الطريق واذا بلغت اشدها مشيت الجمال مشياً وئيداً عالمة ان في الوقوف عن السير الموت المحتوم بدليل انها تقف عن السير وتبرك حالما يقع المطر

ومن شأن الزوبعة انها تسفي الرمل وتدخله في كل خروب رحلك فيصل الى الثياب والزاد والآلات والادوات وتشعر بهِ وتتنفسهُ وتأكلهُ وتشربهُ وتكرههُ وتمتاظ منهُ وادق اجزائهِ يدخل مسام بدنك فتشعر بحكة مؤلمة

بعد ما جزنا بئر ابو سلامه وهي على مرحلة من الجغبوب سرنا في ارض فيها بقايا اشجار متحجرة فكنا نرى منها من وقت الى آخر قطعاً منصوبة في الصحراء اعلاماً للسابلة كأنها اجزاء شجر ماثلة نقلتها الطبيعة من عالم النبات الى عالم الجماد واذا سقط واحد منها فالعرف العام بين البدو يقضي بنصبها ثانية لاهتداء القوافل

بلغنا جالو في الخامس من شهر مارس وهي اهم الواحات هناك لجودة تمرها ولانها محطة قوافل التجار الآتية من ودّاي ودارفور بطريق الكفرة ومعها ريش النعام والجلود من ودّاي ودارفور تأتي بها الى جالو لتنقل منها الى مصر شرقاً او بنغازي شمالاً

واكثر التجار من قبيلة المجابرة وهم كبار التجار في صحراء ليبيا ويفتخر الواحد

منهم ان اباه مات على الباسور (رحل البعير) كما يفتخر ابن الجندي بان اباهُ قضى في حومة الوغى

والقوافل تتهيأ وتصلح ما فيها من خلل وهي في جالو استعداداً للسير الى الكفرة ففي رحلتي الاولى اليها سنة ١٩٢١ اهتم السيد ادريس بتدبير لوازم السفر كرماً منهُ فكان لذلك شأن كبير في نفوس البدو فاضعف ما فيهم من شكوك ومنعهم من التعرض لنا بسوء اما الآن فاضطررت ان ادبر امر الجمال وكانت كثيرة لكثرة ما معنا من الامتعة ولاسيما الآلات العلمية التي عليها يتوقف نجاح الرحلة . والرحلة السابقة كانت في الفصل المناسب من السنة اما هذه فاخرتني العوائق عن جعلها في ذلك الفصل

اقمت في جالو عشرة ايام استعد لقطع قفر لاماء فيهِ وقبول الدعوات لولائم وجوه جالو وايلام الولائم لهم . واهم من ذلك الارصاد التي رصدتها هناك فرصدت الشمس والنجوم لمعرفة مكان الواحة بالتدقيق ودونت درجات البارومتر والترمومتر لمعرفة الارتفاع وكان رولفس قد وجد سنة ١٨٧٩ ان ارتفاع جالو مثل ارتفاع سطح البحر فثبت لي من المقابلة بالارصاد التي رصدتها في سيوه ان جالو صارت الآن أعلى مما كانت في زمن رولفس ستين متراً ورأيت تعليل ذلك ميسوراً بما تسفيه الرمال فاني وجدتها قائمة حول جذوع الاشجار والى جانب الجدران تكاد تدفنها حتى اضطر بعض السكان ان ينقلوا بيوتهم الى اماكن مرتفعة فان البيت الذي كنت فيه حيث دوّنت قراءات البارومتر كان يعلو فوق بيوت القرية ١٥ متراً الى ٢٠

وكنت الزم الحذر التام في ارصادي لان البدو يسيئون الظن اذا رأوا آلة كثيرة الاجزاء كالثيودوليت وشأنهم ان يقولوا حينئذ انني اقصد تخطيط البلاد لاجل التغلب عليها وفتحها . واول مرة رآني شيخ من شيوخهم استعمل الثيودوليت سألني في ذلك فاجبتهُ على الفور جواباً فاقنعهُ وهو اني ابحث عما تتبين بهِ بداءة شهر رمضان

وكان معي رجل اسمهُ عبد الله كنت اعتمد عليهِ في اخفاء اعمالي العلمية عن الذين يوجسون منها شراً وكان هـذا الرجل آية في تسكين الخواطر . كنت مرة استعمل الثيودوليت وانا في جالو فقيل لنا ما انتم فاعلون فاجابهُ عبد الله اننا نصور البلد فقال الرجل وكيف تصورونها وانتم بعاد عنها فاجابهُ عبـد الله ان الآلة تجذب الصورة فتطير اليها . فقال الرجل كيف تجذب الآلة الصـورة فقال عبد الله اسأل المغنطيس كيف يجذب الحديد . فسكت الرجل كانهُ الخم

وفي الخامس عشر من مارس شرعنا في السير ووجهتنا الكفرة وكان في القافلة ٣٩ جملاً و٢١ رجلاً وفرس وكلب وكان الحر شديداً والقفر امامنا كبساط لا حد لهُ رمال فيها حصباء مبعثرة هنا وهناك . فسرنا قاصدين آبار الظيغن آملين ان نصل اليها في ثمانية ايام او تسعة . ورأينا في طريقنا عصائب من الطيور قاطعة شمالاً وهي معياة من العطش فقدمنا لها الماء فجعلت تجثم على ايدينا وهي تحسوه

مرت الايام في هذا القفر على هذه الصورة ننهض بعيد الفجر لان البرد اشد من ان تكفي دثرنا لتدفئة اجسامنا ويكون واحد قد اضرم النار فابادر اليها وانا ملتف بجردي وكوفيتي تغطي اذني والتفت الى ما حولي فاذا كل واحد ملتف بجرده كل وما تصل اليه يده من الثياب واذا كان الماء كافياً اغلي الشاي وادير كؤوسهُ على الرجال فيشربونهُ ويشردون في اعمالهم . يذهب رجلان لاطعام الجمال تمراً يابساً فتقضمهُ هو ونواه ويتذاكر الجمالة احياناً في امر حمولتها اذا رأوا منها ما يستدعي ذلك اما بالتخفيف عن واحد والتثقيل على آخر او بتغيير حزمها . ويقوض بعضهم الخيام وهي ثلاث تنصب في زوايا مثلث والجمال في وسطهِ . وانا اكون قد التفت الى البارومتر والترمومتر ودونت درجاتها في يوميتي العلمية ووضعت شرائط جديدة في آلات التصوير الشمسي . واصوات الرجال خافتة لان الكوفيات حول افواههم . ويكون الطعام قد تهيأ فنفطر عصيدة أو ارزاً وما من احد يحجم من اكلة الصباح وهو في القفر كما يحجم وهو في المدن . وتتبع العصيدة بثلاث كؤوس من الشاي تشرب حسواً . اذا اردت ان يعمل رجالك عملهم في القفر بهمة ونشاط اطعمهم الى الشبع واسقهم الشاي ودعهم يشربونهُ على هينتهم ابخل عليهم او استعجلهم فيصيبك منهم الضرر بدل النفع

بعد الاكل يشعر كل احد بالدفء فتتحمل الجمال والتفت انا الى الدليل فيرسم لي خطاً على الرمل يقول اننا نسير فيهِ فاتحقق جهتهُ بالحك وهو ينظر اليَّ حاسباً ما افعله سخافة لا تنفع ولكنها لا تضر . والغالب ان لا داعي لهذا التحقيق لان هذا الدليل واسمهُ ابو حسن لا يخطىء السير كأنهُ حمام الزاجل ولا يتردد الا في الظهيرة قائلاً « انهُ متى كانت الشمس عاليــة وخيالي بين قدمي يدور رأسي » ويضل احياناً بين غروب الشمس وطلوع النجوم وقد رأيت دليلاً مرةً حاد عن الطريق تسعين درجة في ذلك الوقت . (مقتطف يونيو سنة ١٩٢٥)

٢

قبل ان نباشر السير يدفئ الرجال اياديهم وارجلهم على النار ويحتذون نعالهم ثم يسيرون خلف جمالهم وهم يغنون ويكون وهج الشمس قد اشتد فيجعل كل احد يبعد عن اذنيهِ وعنقهِ ما لفها بهِ اتقاء البرد ثم يخلع جرده ايضاً الا اذا هبت الريح شمالية . ويتبارى الرجال في النكت والجري وامارات البشر على وجوههم . وينقسمون اثنين اثنين او ثلاثة ثلاثة يتحدثون في امورهم الخاصة والعامة . وانا اسير امام الجمال او وراءها من وقت الى آخر لكي اتحقق اننا غير مخطئين في اتجاهنا ولكي اشعر بلذة الانفراد . ووقت الغداء لا نحط الرحال لان الجمال لا تأكل الا مرتين في اليوم فاذا كنا قد خرجنا من واحٍ وخبزنا طري تناول كل منا رغيفاً او نصف رغيف فاكله وهو ماشٍ مع قليل من التمر . وبعد ذلك يجف الخبز ثم ينفد فنكتفي بالتمر لانهُ معنا دائماً

وقد كان معي جمل على رحلهِ حوائجي حتى اذا اضناني التعب اصعد اليهِ واستلقي فيهِ فاطلق عليهِ احد رجالي اسم « الكلوب » . استفقدوني ذات يوم وقت الغداء وسأل بعضهم عبد الله ان كنت قد اخذت حصتي من الخبز والتمر فقال ان البك يتغدى اليوم في « الكلوب » ولا يصعب على المرء ان يقيل في الهودج ولكن السير وراء الجمال سهل لان معدل سيرها ميلان ونصف ميل في الساعة والركوب حينئذ اصعب من المشي

وبعد الظهر يشتد الحر ويبطىء سير الجمال والرجال . ونحو المساء يبرد الهواء فتسرع الجمال ولا سيما قبلما نحط الرحال ويحدوها الرجال فتزيد سرعة

وحالما تغرب الشمس ادنو من الدليل واسألهُ عن الجهات والبوصلة في يدي مخافة ان نضل بين غروب الشمس وظهور النجوم . وحينما يرخي الليل سدوله نضيء مصباحاً يسير بهِ الدليل امام القافلة . والظاهر ان الجمال تسر برؤية المصباح امامها فتنشط لاتباعهِ

اذا كانت الامور ميسرة كلها مشينا اثنتي عشرة ساعة الى ثلاث عشرة والا اكتفينا باقل من ذلك وفي نهاية المرحلة آمر بالوقوف فتبرك الجمال حالاً لترفع الاحمال عنها . ولا بدَّ من اتخاذ الحيطة التامة حينئذ لان الرجال يكونون متعبين فلا يعنون بانزال الاحمال وما فيها من الآلات الدقيقة . واذا خيف من اشتداد الريح ليلاً وضعت الاحمال بعضها فوق بعض لتكون سداً في وجه الريح وتنصب الخيام في مثلث

وتضرم النار ويغلى الشاي وحينئذ نعرف قيمتهُ . والبدو يحضرونهُ باغلاء حفنة منهُ وحفنة من السكر في نحو رطلين من الماء فيكون لهُ فعل عجيب في انعاش المتعب من السفر وانهاض قوتهِ . ويسرع الرجال في تقديم العلف الى جمالهم وتحضير العشاء وتناوله ثم يستلقون وينامون اما انا فاقابل بين الساعات الست التي معي وادير ها واكتب على الصور الفوتوغرافية التي صورتها والرواميز الجيولوجية التي جمعتها واغير الشرائط في آلة التصوير للسيما واكتب يوميتي

بلغنا بئر الظيغن في السادس والعشرين من مارس واقمنا يوماً هناك بسبب الهبوب . والراسخ في الاذهان ان الصحارى ثابتة على حال واحدة على كرور الازمان ولكن ليس الامر كذلك . فلما سار رولفس الى الكفرة سنة ١٨٧٩ قال انهُ وجد في طريقهِ بالسماع من العرب بقعة خضراء واسعة اما الآن فليس هناك الا قليل من النخل في بئر الحرش وكثير من الحطب . وما قاله رولفس يؤيده ابو حليقة من الكفرة فقد قال لي أنهُ لما كان صغيراً كان ابوه يأخذه معهُ الى الكفرة حينما يذهب لجلب التمر منها وكانت تلك المسافة تقطع في خمس ليال وثلاثة ايام وحينما يبلغون الظيغن تجد دوابهم عشباً ترعاه . فما ذكره رولفس صحيح ولكن تغيرت الحال في خمسة واربعين سنة وسبب ذلك فيما يظهر نضب المياه الارضية فصار ماكان نابتاً هناك حطباً يابساً

ان سيرنا من بئر ابي الطفل الى الظيغن اثبت لنا خطأ ما يقدره الانسان في قطع الصحارى فاننا اتخذنا الحيطة من كل وجه ومع ذلك نفد وقودنا ومات جمل من جمالنا ورزح جملان آخران ونفد علف الجمال فجعلنا نطعمها من الظيغن الى الكفرة من خوص النخل الذي قطعناه من الظيغن وهو علف لا يغذي

ورصدت الشمس في الظيغن بالثيودوليت مراراً فثبت لي بالحساب ان الظيغن ابعد الى جهة شرق الشمال الشرقي ١٠٠ كيلو متر مما قالهُ رولفس . وكان قولهُ مبنياً على ما قالهُ لهُ الادلة وهو في تسربو لا على ارصاد فلكية ووجدت ان ارتفاع الظيغن ٣١٠ امتار فوق سطح البحر

ومن الظيغن الى هواري اربعة مراحل وهي ابعد واحات الكفرة شمالاً وقد لقينا في منتصف الطريق اشد الزوابع الرملية التي صادفتها في حياتي . عصفت الرياح فجأة بعد نصف الليل بثلاث ساعات ونصف ساعة ولم يكن الا قليل حتى قوّضت خيامنا ووقعت خيمتي على رأسي وجعلت الرياح تسفي الرمال عليها وتزيد ثقلها ثقلاً حتى كدت

اختنق ولكنني مسكت باحد الاوتاد ورفعت بهِ بعض الخيمة عن وجهي وبقيت على هذه الحال ساعتين وكان الرمل يدخل من فروج الخيمة ويصل اليَّ كرصاص البنادق وذاقت الجمالة والجمال من الشدة امرها . ووجدت في الصباح ان اكثر آلاتي قد تهشم وانكسر خرنومتري الصغير ولو اصاب عمود الخيمة خرنومتري الكبير لكسره ولكانت النتائج العلمية من رحلتي غير ما هي الآن . وهذا العمود لم يخطئه الا جزءاً صغيراً من البوصة . ومن ثم يظهر ما للصدف من اليد في نجاح الروّاد . استرحنا يوماً في هواري بعد العاصفة ثم استأنفنا السير الى الكفرة

في الوصول الى الكفرة شيء يستوقف النظر مشينا اليها في ارض متموجة تنطوي امام السائر كالسجل يحيط بها نجد قليل الارتفاع يتكون منه افقها . وبينما المرء سائر ينكشف هذا النجد امامهُ عن مبان لايكاد يفرق بينها وبين الصخور والرمال لشدة الشبه بين الفريقين شكلاً ولوناً . هذه مدينة التاج مقر البيت السنوسي في الكفرة . حينما دخلناها رأينا الارض وراءنا تغيب عن نظرنا فجأة ويقوم مقامها وادي الكفرة . وهو غور قطره الاطول اربعون كيلو متراً والاقصر عشرون ترصعهُ اشجار النخيل وتنتظم فيهِ من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ست محلات وهي بويما وبوما وجوف والزردق وطلالب وطلاب . والى جانب جوف بحيرة واسعة يترقرق ماؤها الازرق فيبهج النظر . وهذا الماء الغزير وفي وسط قفر اجرد نعمة لم تكمل لانهُ ملح ولقد وجدنا في الاغتسال فيهِ لذة لم نجدها في بحر ولا في نهر ولا في حمام

لما دخلنا التاج لاقانا الاصدقاء بمزيد الترحاب . كان السيد محمد العابد ابن عم السيد ادريس رئيس السنوسيين في كفرة مريضاً بالنقرس فاستقبلنا السيد صالح البسكري والقائمقام والسيد محمود الجداوي ووكيل السيد ادريس وكثيرون من الاخوان وحيونا باسم السيد العابد وساروا بنا الى دار السيد ادريس وقد نزلت فيها في رحلتي الاولى الى الكفرة منذ سنتين فشعرت الآن كأنني في بيتي ولم اكد استريح من وعثاء السفر حتى جاءني عبد من قبل السيد العابد ليذهب بي اليهِ للعشاء وهو نفس العبد الذي مشى بي منذ سنتين فسرنا في الطريق الذي سرنا فيهِ اولا الى البيت الذي دخلناه حينئذ فخيل اليَّ ان الزمان انتفى من الوجود او رجع بنا القهقرى

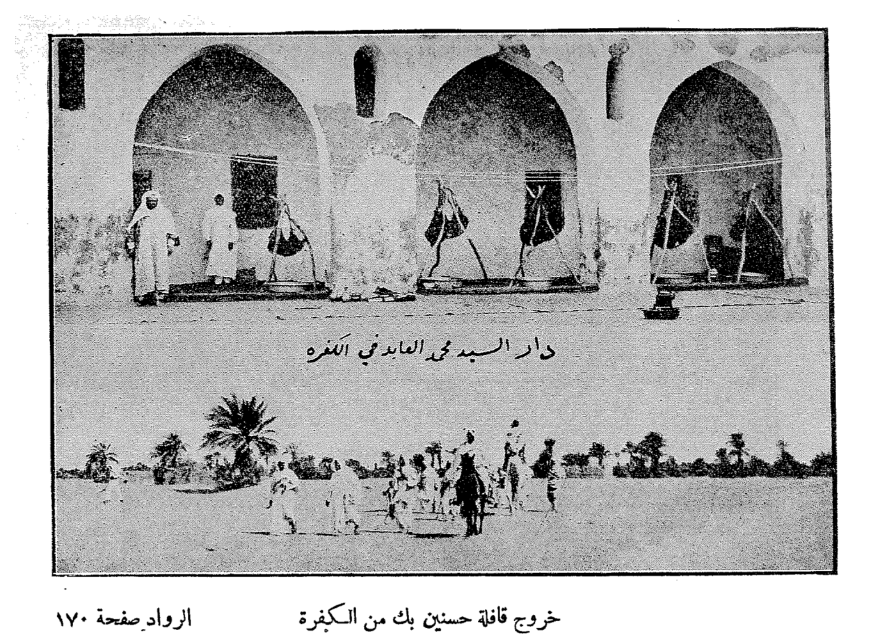
بيت العابد لغز من الالغاز سراديب وراءها الغرف التي يسكن فيها اهله وخدمهُ . وصلنا بها الى غرفة دخلتها قبلاً ارضها مغطاة بالبسط الفاخر والوسائد المطرزة وعلى

جدرانها الساعات الدقاقة والبارومترات والترمومترات التي يفاخر فيها مضيفي . اما الساعات وهي اثنتا عشرة على الاقل من اقدار مختلفة فلا انتظام في سيرها واذا دقت لم تدق معاً بل بعضها بعد بعض فتذكرني بساعات الكنائس والابراج في اكسفورد حينما كنت اسمعها وهي على ابعاد مختلفة فيأتي صوت الواحدة بعد صوت الاخرى .
وجاء السيد صالح البسكرى ليسليني ويعتذر عن السيد العابد ثم جيء بالطعام وهو مما تشتاقه الآلهة او البشر الذين قضوا وقتاً طويلا في القفر الاجرد . رز مفلفل وحمل حنيذ وخضراوات مطبوخة وخبز سميذ ولبن رائب وحلوى بدوية ثم القهوة ولبن ممزوج برب اللوز وثلاث كؤوس من الشاي مطيبة بالعنبر وماء الورد والنعناع

استرحت يوماً ثم جلت في وادي الكفرة فزرت القرى والزاوية وهي اقدم مدارس السنوسي واول بناء بني في الكفرة . وزرت السوق التي تقام كل اسبوع يرى الانسان فيها اشياء متباينة معروضة معاً فيرى مثلا خرطوش البنادق وتاريخهُ منذ ثلاثين سنة والى جانبه مربى الطماطم الايطالي وارداً من بنغازي واقمشة بيضاء وزرقاء واردة من مصر والجلود والعاج وريش النعام من وداي . الا ان بضائع الجنوب هذه قلّ بيعها الآن في الكفرة فلا تباع الا اذا جاء بها التجار قاصدين مصر او طرابلس الغرب فمنعوا من مواصلة السير لسبب من الاسباب

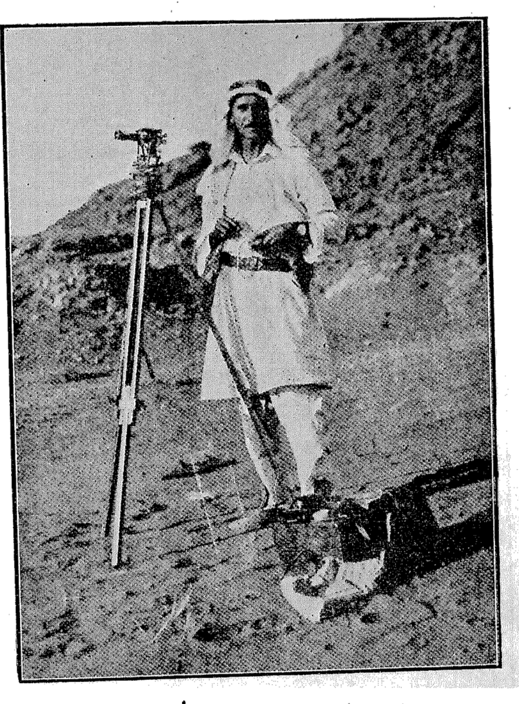
وقد كان عصر الكفرة التجاري قبل استرجاع السودان فانها كانت حينئذ سوق وداي ودارفور ترد المتاجر اليها وتنقل منها شمالا . والآن يصل اليها ما يمنع مروره او اصداره من السودان مثل عاج أناث الافيال والاسنان التي وزن الواحد منها اقل من ١٤ رطلا . واكثر رؤساء الزوايا الكبيرة يأتون الكفرة للزراعة فيزرعون فيها الشعير والذرة اما السنوسيين فيزرعون العنب والموز والبطيخ ونحو ذلك من الخضراوات التي يجدها المرء فاكهة منعشة بعد الضرب في الصحراء ويزرعون ايضاً النعناع والورد ويستخرجون روحيها لانهما لازمان في تكميل شروط الضيافة . وعندهم قليل من شجر الزيتون فيعصرون الزيت منهُ . ولكن طعام البدو الذي هو قوام معيشتهم التمر ولذلك ترى النخل كثيراً في وادي الكفرة . والتمر هو الشيء الوحيد الذي يصدر من تلك الواحات . اما سائر الحاجيات والكماليات فترد الى الكفرة من الخارج كالشاي والسكر والرز والدقيق والاقمشة

والمساكن هناك بسيطة تبنى بالحجارة وتبيض من الداخل وتوضع فيها مقاعد تغطى



خروج قافلة حسنين بك من الكفرة

الرواد صفحة ١٧٠



الرحالة احمد حسنين بك وامامهُ الثيودوليت

بالبسط اليدوية والمساند . واذا كان صاحب البيت غنياً وجدت فيه غرفة للاستقبال ارضها مغطاة بالبسط العجمية ومساند الحرير وقد يكون فيها غراموفون وصفائح عليها اغاني عربية مصرية

والاعمال اليدوية يعملها العبيد غالباً وقد غلا سعرهم حديثاً لقلة ورودهم من وادّاي . لما ذهبت الى برقة سنة ١٩١٦ عرضت عليَّ فتاة من الرقيق بمائة وعشرين فرنكا اما الآن فثمن مثلها من ٣٠ جنيهاً الى ٤٠ . والذكر ارخص من الانثى . واذا استولد رجل امة من عبيده فولدت صبياً اصبحت حرة بولادته فاذا كان الرجل شيخ قبيلة وكان هذا الصبي بكره صار شيخ قبيلته بعده ولو كان اسود لان لاشأن للون في اعتبارهم . ويتأنق العبيد في لبسهم كاسيادهم . ولعلي كاجا عبد السيد ادريس المنزلة العليا عنده والناس يحترمونهُ اكثر مما يحترمون كثيرين من الاحرار . ويباح للعبد ان يشتري امة . سألت علي كاجا كم ثمن العبيد الآن فقال شاكياً قد غلا سعرهم كثيراً فبالامس اشتريت جارية باربعين جنيهاً . قال ذلك كأنهُ لم يكن عبداً في زمانهِ

اقمت في الكفرة نحو ثلاثة اسابيع في ضيافة السيد العابد وغيره من الاعيان . وخلاصة مباحثي العلمية في هذه المرة ان الكفرة ابعد اربعين كيلومتراً الى جنوب الجنوب الشرقي مما اثبتهُ رولفس من ارصاد ستكر ووجدت ارتفاعها كما حققهُ رولفس اي ان ارتفاع بوما في اسفل الوادي ٤٠٠ متر وارتفاع التاج ٤٧٥ متراً

وبُعيد وصولي الى الكفرة سمعت اخباراً اضطرتني الى تغيير خطة رحلتي فقد كنت عازماً ان اذهب بطريق القوافل من الكفرة الى واداي وهو طريق لم يسلكه احد قبلي من غير اهل البلاد ولكن بلغني ان كشافة فرنسوية قدمت من وادّاي الى منتصف الطريق بين وادّاي والكفرة وسمعت اخباراً مبهمة عن الواحتين المفقودتين وقيل لي انهما الى الشرق من طريق وادّاي ولم ارهما رسماً في خريطة من الخرائط فغيرت خطة سفري وعولت على الذهاب الى السودان لعلي اكتشف هاتين الواحتين في طريقي فاكون قد عملت عملاً يذكر . وتغيير الخطة سهل فكراً ولكنهُ صعب عملاً فان ابا حليقه صاحب الجمال التي استأجرتها من جالو ليذهب معي الى وادّاي ابى ان يذهب بطريق عوينات قائلاً انهُ لا يخاطر بنفسهِ وابى ان يدع رجاله وجماله تذهب معي واتاني بسليمان ابي مطارى وهو تاجر غني ليصرفني عن هذا الطريق فقال لي ان اخاه محمداً سار منذ ثماني سنوات في هذا الطريق فهلك هو والقافلة قتلوا على نحو

دارفور مع انهم لم يسيروا في الطريق الذي انا عازم على السير فيهِ بل في طريق اسلم واسهل من طريق عوينات الى مريجا . اما الطريق الذي انوي الذهاب فيه فيمر في بلاد لم تطأها رجل بدوي والدفه (قفر لا ماء فيهِ) بين عوينات واردي طويلة كثيرة المخاطر فالقافلة التي تضرب فيها يرحمها الله فان جمالها تقع كما تقع العصافير في ريح السموم واذا سلمنا في الطريق فمن يعلم كيف يستقبلنا سكان البلاد التي نصل اليها فيجب ان لا اخاطر بنفسي ولا ادع الطريق السليم طريق القوافل الى واجنجا وأبشه . فشكرتهُ على نصحهِ وانا واثق انني لست عاملاً بهِ . ثم بحثت في هذا الموضوع بعد يومين مع ابي حليقه فلم يقنعني ولا اقنعته واخيراً لما رأى اصراري على الذهاب بطريق عوينات وان السيد العابد يوافقني على ذلك رضي ان يؤجرني بعض جماله باجرة الجمال كلها وان يدبر رجالاً يذهبون معي فاتفقنا وانا لا اعلم ما خبئ لي في لوح القدر ولكن حب كشف المجاهل تملكني فسلمت نفسي للتقادير

في الثامن عشر من ابريل صارت قافلتنا على اهبة السفر فاتى كثيرون من الاخوان ورؤساء البدو لتوديعي وودع رجالي اصدقاؤهم وهم يحسبون انهُ الوداع الاخير ويقولون اذهبوا بحفظ الله (المقدَّر مقدر) وعسى الله ان يأخذ بيدكم ويكون معكم . قالوا ذلك قول من يرى التهلكة امام عينيهِ ويدعو للنجاة منها

قطعنا الحيد الجنوبي فوق الكفرة فانبسطت امامنا الارض صحراء ناعمة الرمل دقيقة الحصى . وفي العشرين من ابريل قطعنا حزوناً كثيرة الحجارة ورأينا سنونة في الصباح وباشقاً في الاصيل . الليالي شديدة البرد والحر وسط النهار يزهق النفوس فصرنا نسير بعيد نصف الليل ونستريح حينما يشتد الحر . وفي الثاني والعشرين من ابريل وصلنا الى كثبان من الرمال ارتفاع الكثيب منها ثلاثة امتار الى عشرة امتار مغطاة بحجارة سوداء ثم رأينا عن يسارنا سلسلة من التلال تمتد من الشمال الى الجنوب الغربي فتقطع طريقنا فصعدنا فيها واذا امامنا نجد سرنا فيهِ النهار كلهُ واسمهُ وادي المحاريج ورأينا هناك قشوراً من بيض النعام واتاني رجل من رجالي بفرخيْ نسر فامرتهُ ان يردهما الى عشهما

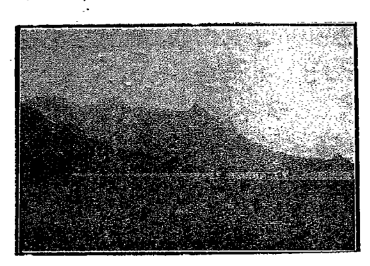
وفي الثالث والعشرين من ابريل وصلنا الى كثبان من الرمل المنهار عسرة المرتقى وجزنا غور فوراو ورأينا جبال اركنو ممتدة امامنا

مر بنا ثمانية ايام لم نم في اليوم منها اكثر من اربع ساعات وحالما كنا نشرع في

السير كنت ارى رجالي يغمضون عيونهم وينامون على الرمال ولو نصف ساعة والجمال تابعة الدليل ومصباحهُ الضئيل اما انا فقلقي على الآتي كان يحرمني من النوم معهم

ولقد كابدنا مشقة كبيرة في قطع كثبان الرمال القائمة امامنا ولم نكد نتم قطعها حتى قابلتنا الجبال كأنها من قلاع العصور الوسطى وقد كاد ضباب الصباح يحجبها عن عيوننا وبعد دقائق قليلة حولت الشمس ذلك الضباب الاغبر الى شعاع وردي. وفي الرابع والعشرين من ابريل قطعنا ٣٧ كيلومتراً فبلغنا جبل اركنو

اركنو جبل من الحجر المحبب (الغرانيت) يعلو خمسماية متر عن سطح الصحراء المجاورة لهُ وهو قنن مخروطية متصلة من اسفلها. بلغناه من طرفهِ الغربي وسرنا حول هذا الطرف فوصلنا الى مدخل وادٍ فيهِ متجه شرقاً وقرب مدخلهِ شجرة وحيدة من



جبل اركنو

نوع يسمى هناك شجر الاركنو وقد اطلق اسمهُ على الالواح التي هناك فنصبنا خيامنا الى جانب هذه الشجرة وارسلنا الجمال الى الوادي لتشرب وتأتينا بالماء وكنا في حاجة شديدة اليهِ. وللحال اتانا اناس سود من سكان تلك البلاد فأحسنا ملتقاهم ودعوتهم للاكل مع رجالي. الجبل قاحل لا ينتظر ان يكون فيهِ وادٍ خصب مسكون والواقع ان هؤلاء الناس لا يقيمون فيهِ السنة كلها بل يأتونهُ بجمالهم في فصل الربيع لترتع فيهِ ثلاثة اشهر ويتركونها فيهِ وحدها بعد ان يسدوا مدخل الوادي بالصخور

وواحة اركنو هي اولى الواحتين المفقودتين اللتين سمعت اخبارهما وكان من نصيبي ان اكون الاول في رسمها. وقد يصير لهذا الوادي شأن حربي في المستقبل لانهُ واقع في ملتقى تخم مصر الغربي بتخمها الجنوبي. مقتطف يوليو سنة ١٩٢٥

٣

وفي ٢٨ من ابريل بدأنا سرانا لان للسرى ليلاً مزية على السير نهاراً يرى المسافر الوقت ينقضي سريعاً الا اذا كان قد اضناهُ التعب ويرى لهُ من النجوم رفيقاً انيساً يسليهِ اذا كان من عاشقي الطبيعة . وكنا نرى جبال عوينات في الافق قائمة امامنا فنطمئن اليها لان السآمة تزول اذا كان امام المرء غرض محدود يسعى اليهِ بدلاً من ان يسير في عرض القفر على غير هدى لا يرى امامهُ الا ابعاداً شاسعة لا حدَّ لها . ولما دنونا من تلك الجبال ظهرت الشمس فوقها وافاضت على قننها من اشعتها الذهبية فالقت على الارض ظلاً ظليلاً كنا نراهُ يتقلص ويقصر رويداً رويداً بدنونا من الجبال فنصبنا خيامنا عند الزاوية الشمالية الغربية وهناك شعب في طرفهِ عين ماء والجبل قائم على جانبيهِ كشاهق تسند قدميهِ حجارة كبيرة وصغيرة فعلت بها انياب الدهر فازالت زواياها وسحلتها سحلاً . والعين ليست ينبوعاً جارياً بل قِلتٌ في الصخر تتجمع فيهِ مياه المطر

وقمنا في الصباح وصعّدنا في الجبل الى العين الكبرى وهي غزيرة المياه طيبتها تحيط بها قصباء دقيقة القصب . وفي اخريات النهار امعنا في الواحة حتى اذا كان منتصف الليل دخلنا وادياً تحيط بهِ التلال عن يسارنا والجبل عن يميننا . والوادي ناعم الرمل كثير الحجارة السير فيهِ شاق على الجمال . ووقفنا عند الفجر صلينا الصبح وشربنا الشاي حتى اذا كانت الساعة السابعة دخلنا وادياً واسعاً بين جبلين شاهقين ارضهُ منبسطة كالكف وفيهِ عشب واشجار من السنط والجم اذا مرثت اوراقها بيدك شممت لها رائحة كرائحة النعناع . وهناك كثير من نبات الحنظل وهو عريض الورق لهُ ثمر اصفر مستدير كالليمون الكبير الحجم يغلي السكان بزرهُ حتى تزول مرارتهُ ثم يسحنونهُ مع التمر والجراد في هواوين من الخشب ومنهُ اكثر طعامهم

ونصبنا خيامنا الساعة العاشرة ونمنا ثم قمنا واكلنا وسرت انا لاشاهد آثار الانسان في العصور الخالية فاذا هناك رسوم حيوانات منقوشة في الصخر تجد فيها رسم الاسد والزرافة والنعامة وانواع الغزال ورسوماً كالبقر . والنقش غائرٌ في الصخر من ربع بوصة الى نصف بوصة . ولم اقف على تاريخ لهذه النقوش . ومما الفت نظري بنوع خاص امران الاول ان الزرافة لا تقطن تلك البلاد الآن ولا توجد في قفر مثل هذا

القفر ان ليس بين هذه الرسوم رسم الجمل مع انهُ يستحيل على المرء ان يصل الى هناك الا اذا كان الجمل مطيتهُ . فهل كان الذين نقشوا هذه الصور يعرفون النعامة ولا يعرفون الجمل مع ان الجمل أدخل الى افريقية من اسيا نحو سنة ٥٠٠ قبل المسيح . ولم ارَ هناك من انواع الصيد الا الغزال والضأن الجبلي ونوعاً صغيراً من الثعلب رمادي اللون

عدنا الى خيامنا صباح الثاني من مايو فوجدنا الشيخ هري في انتظارنا ويلقب بملك العوينات مع ان سكانها ١٥٠ نفساً . وقد اتفقت معهُ لكي يرافقنا الى اردي كدليل وقمنا من هناك مساء الاحد في السادس من مايو وسرنا في ارض منبسطة وهي رمال تغطيها الحصى وهنا وهناك شيء من الحشيش فكانت جمالنا تتقوت بهِ فقطعنا ٥٤ كيلومتراً في ١٢ ساعة

وفي التاسع من مايو كنا سائرين فشعرت نحو الساعة الثامنة ليلاً ان الريح تهب في وجهي وكان الجو مطيفاً بالغيوم فالتفت الى الحك (البوصلة) واذا نحن سائرون الى جهة الشمال الشرقي بدل الجنوب الغربي فاتضح لي ان دليلنا سكّر اضاع رأسهُ . وهنا مشكل تجب مداواتهُ بالحكمة لئلا يفقد الدليل ثقتهُ بنفسهِ . وزاد الطين بلة ان ثارت زوبعة رملية اطفأت المصباح الذي يسير بهِ امامنا فاختلط الحابل بالنابل واشتدّ عصف الرياح وادرك كل أحداتنا ضللنا السبيل فصممت على السير مسترشداً بالحك واضأنا المصباح وسرت في المقدمة والحك في يدي وبعد ساعات قليلة هدأت العاصفة فاذا نحن بين كثبان من الرمال

وفي العاشر من مايو بلغنا الجرد وهي مرتفعات من الرمال جوانبها تكاد تكون قائمة تسير الجمال عليها فتغوص فيها الى الركب . وفي الثاني عشر منهُ شرعنا في السير الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر وقطعنا سبعين كيلو متراً دفعة واحدة ثم حططنا رحالنا قبيل الساعة العاشرة صباحاً وارسلنا الجمال الى التلال المجاورة لترعى فيها

وفي الرابع عشر صار همنا الاكبر الوصول الى اردي لان ماءنا كاد ينفد وكلت جمالنا من التعب ورأى اثنان من رجالنا اثار وَرل فاقتفياهُ الى حجره وبحثا عنهُ وامسكاهُ وهو لا يعض ولكن ذنبهُ كالسوط فيضرب بهِ . والبدو والزنوج يستعملون دهنهُ دواءً لداء المفاصل ويقولون ان رأسهُ عوذة تقي من السحر. وهنا كثرت الاودية

وهي كثيرة الكلاءِ والحشيش دليلاً على اننا دنونا من اردي ولكننا لم نر تلالها الحمراء الاصباح السادس عشر من مايو . وأجمع رأينا على النزول في وادي اردي نفسهِ لا فوقهُ لكي نكون على مقربة من الماء مخافة من طارق يفاجئنا ونحن بعاد عنهُ فصعدنا حيداً الى ان بلغنا اعلاهُ فاشرفنا منهُ على وادي اردي وهو ضيق طولهُ ٨ كيلومترات وعرضهُ نحو ١٠٠ متر تحيط بهِ صخور شاهقة حمراء اللون فابتهجنا برؤية ما فيهِ من الاشجار الغبياء والمروج الخضراء . وهذا الوادي غير نافذ وفيهِ بئر تغطيها الصخور وهي بركة كنصف دائرة طولها ستة امتار وعرضها ثلاثة ومن رأيي ان ماءها خليط من ماء المطر ومن ماء نابع في الارض . والوادي جميل بما فيهِ من الخضرة وما يحيط بهِ من الصخور الحمراء القائمة حولهُ كالجدران

وهنا حذّرنا دليلانا من السفر ليلاً لكثرة ما في البلاد من التلال والوهاد فقمنا في السابع عشر من مايو الساعة الخامسة والدقيقة الثلاثين صباحاً ولما خرجنا من الوادي رأيت الفرق الكبير بينها وبين اودية اركنو والعوينات فان ارض الاودية هناك على ارتفاع الارض حول الجبل واما هنا فالوادي اعمق من السهل الذي حول الجبل . ولما خرجنا منهُ جزنا في ارض جبلية صخورها سوداء وحمراء وقبلما انقضت مرحلتنا رأينا تلال اجاه في الافق وبلغنا وادي اجاه في العشرين من الشهر ولم نر في وادٍ حتى الآن ما رأيناهُ فيهِ من كثرة الاشجار والنباتات . والبئر فيهِ مثل بئر اردي ولكن الجمال والقطعان عبثت بمائها فافسدتهُ . والطيور كثيرة هنا تطرب الاذن باصواتها . واردنا ان نبتاع بعض الخرفان من السكان فابوا حاسبين ذلك عاراً عليهم لكنهم اهدوا الينا ثلاثة خرفان ضيافة وابوا ان يأخذوا ثمنها فاهدينا اليهم مقاطيع من البفت الازرق فسرّوا بها

واستأنفنا السير في ٢١ مايو قبل غياب النجوم واذا امامنا ثلاثة غزلان فتبعها ثلاثة من رجالنا واطلق حامد بندقيتهُ على واحد منها فاخطأه لكنهُ اقسم بالله انهُ اصابهُ ورأى الدم يفور من بدنهِ . ولما جلسنا الظهر للغداء جرح واحد يده وهو يقطع بضعة من الخروف الذي شويناه لغدائنا فسألتهُ من اين هذا الدم فاجاب آخر هذا من غزال حامد فقهقه الرجال مسرورين . وبعد الغداء كنت ادير ساعاتي واكتب قراءات البارومتر والترمومترين اللذين يدل احدهما على اعلى درجات الحرارة والآخر

على اوطأها واذا بحامد يعدو الينا وهو يقول انهُ رأى سرباً من النعام فامسكنا بنادقنا استعداداً لها فمرت بنا وهي نحو ثلاثين او اربعين نعامة فاطلق الرجال بنادقهم عليها وهي لا تزال بعيدة وعدا حامد وامسك بعنق واحدة منها فضربتهُ برجلها في خاصرتهِ وافلتت فعاد الينا ويده على جنبهِ فسألتهُ هل آذتك فقال كلا فقلت لماذا لم تأت بها اذاً فقال لانني وجدتها انثى

وقمنا الساعة الخامسة وسرنا في الوادي ساعة من الزمان ثم صعدنا في الآكام فلما بلغنا اعلاها رأينا ذلك الوادي تحتنا كبساط من الزبرجد ترصعهُ الاشجار والانجم وبقع الرمل الوردي وتحيط بهِ صخور وتلال حمراء . ونسيم المساء يتخللهُ هديل القماري وغابت الشمس حينئذ فاكتسى الجو حلة من الارجوان لا ينساها من يراها

بلغنا اينباه في ٢٣ مايو والماء هناك عذب قراح وعليـهِ جماعة من قبيلة البديات ومعهم كثير من الغنم وبعض الخيول فخرجوا لاستقبالنا فصافحتهم وصببت على اياديهم قليلاً من الروائح العطرية فأتونا بالخرفان ضيافةً وجاءنا نساؤهم بالسمن والجلود ليبعنها منا لان البيع والشراء في ايدي النساء . وبينما كنت ارصد في المساء رأى الرجال التيودوليت والمصباح الكهربائي فاوجسوا شراً ودخل احد شيوخهم خيمتي ورآني افتح صندوق آلة من آلاتي فاغلقتهُ لما رأيتهُ ولكنني انتبهت الى ما في عملي هذا من الخطأ لانني رأيت امارات الشر في وجههِ كانهُ حسب ان الصندوق مملوء ذهباً . ولما خرج من خيمتي ناديت اثنين من رجالي وامرتهما على مسمع منه ان يبتدئا دورهما في حراسة المعسكر ثم اخبرته ان لا يدع احداً من النساء او الاولاد يدنو منا لئلا يطلق رجالي الرصاص عليه خطأً . قلت ذلك لاريه اننا على حذر فاصاب قولي المرمى

وسرنا من هناك الى ان بلغنا وادياً كبيراً اسمه كوني مينا ممتداً من الشرق الى الغرب تغطيه اشجار كبيرة وكان فيهِ جماعة من قبيلة الجرعان ووصل اليهِ ونحن هناك تاجر قادم من وادّاي ومعه بقر وغنم وهو ذاهب بها الى الفاشر . وسرنا في ٢٦ مايو مقتفين آثار الغنم والجمال الى ان بلغنا وادياً كبيراً جداً فيهِ كثير من الاشجار الظليلة اسمه كب تركو وكنا نحسب اننا نصل الى باو صباح السابع والعشرين حسب قول الدليل هري ولكن انقضى النهار ودخل الليل ولم نصل لان هذا الدليل اخطأ في تقديره . وكان ماؤنا قد نفد كله ما عدا قربة واحدة . فتابعنا السير الى الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والاربعين فوصلنا الى ارض صخرية يتعذر السير فيها في ضوء القمر

وكنا على حافة وادٍ ادّعى هري انه وادي باو لكنني لم اصدقه ولم اسمح للرجال ان يشربوا ماء القربة الا حينما نبلغ مكاناً فيهِ ماء فنمنا تلك الليلة من غير عشاء لكي لا نشرب

وكان النزول الى الوادي عسراً جداً لكن كان لا بد منه فنزلنا الى ان رأينا في الوادي غنماً وكوخاً فاذنت للرجال ان يشربوا ماء القربة واقبل نفر من الجرعان والبديات للقائنا ونساؤهم حسان المنظر يشتملن بثيابهن اشتمالاً ويضفرن شعورهن ويتحلين بحلى من الفضة والعاج وفي اعناقهن عقود من الخرز والكهرمان والبنات يكتفين بوزرة يسترن بها عوراتهن والرجال عراة في الغالب وهم مجدولو العضل يحمل الواحد منهم حربتين او ثلاثاً وسيفاً وسكيناً يرشق بها خصمهُ رشقاً . واما شيوخهم فيرتدون اردية بيضاء ويعتمون. اعطينا النساء من المكرونة فلم يأكلنها بل نظمنها عقوداً تقلدن بها وللحال دار الاخذ والعطاء بينهن فتبادلن هذه العقود بالسمن والجلود

وقمنا من هناك في الثلاثين من مايو وانبسطت الارض امامنا وقلّت الاودية والاشجار الكبيرة ورأينا آثار الاسد . وبلغنا وادي هور في اول يونيو وهو كنصف دائرة وفيهِ اشجار كبيرة وارض زراعية كارض مصر . والارض بعده قليلة الشجر ولكنها كثيرة العشب . ومررنا امام تلة تسمى تاميرا على رأسها شجرة يابسة وهي الحد الفاصل بين وادّاي والسودان

ونهضنا في الثاني من يونيو باكراً لكي نصل الى فوروية ذلك اليوم فمررنا في الساعة الخامسة صباحاً امام حجر كمرارا وكان على عشرة كيلو مترات عن يميننا وبعد ساعة مررنا امام حجر اردو وهو تل ارتفاعهُ نحو ٨٠ متراً وطوله ٢٠٠ متر . والحجر بلغة السودان الاكمة الصغيرة . ثم نزلنا الى وادي فوروية وهو اكبر وادٍ وآهل وادٍ مررنا بهِ في رحلتنا حتى الآن وسكانهُ من الزغاوى وقليل من البديات . وكنا ننتظر ان نجد طعاماً في هذا الوادي فلم نجد وكان سكرنا قد نفد منذ ثلاثة اسابيع فكنا نحلي الشاي بدقيق التمر . ونفد ايضاً ما معنا من الدقيق والرز ولم يبق معنا الا المكرونة فعافتها نفوسنا . فكتبت الى سفيل باشا حاكم دارفور في الفاشر ليرسل الينا طعاماً وثياباً لرجالي لان ثيابهم صارت اخلاقاً وارسلت الكتاب مع رسول استأجرتهُ بعد عناء كثير

اقمنا في فوروية ثلاثة ايام وكانت السماء تمطر كل يوم واكثر رجالي من اكل اللحم ولكنهُ لم يغنهم من الشاي والسكر

وفي ٦ يونيو سرنا في طريق مطروق جنوباً وكنا نمر في طريقنا بقرى صغيرة بيوتها اكواخ من القش و بلغنا ام بورو في اليوم التالي فنزلنا قرب البئر ونهضنا في الصباح باكراً على صوت النعم والبقر آتية لتشرب وبعد ساعة قامت سوق الى جانب خيامنا لاننا كنا قد نصبناها ملاصقة لشجرة كبيرة وهي في وسط مكان السوق ولا يحضر السوق الا النساء فهن يبعن ويشترين بالسمن والجلد والحصر والذرة والقطن والملح يتبادلنها مبادلة والرجال مقيلون كسالى

والمرحلة التالية كانت خمسة ايام الى كُتُم قطعنا فيها ١٢٩ كيلومتراً والطريق مطروق وكنا نقوم في الصباح وننزل العصر. وفي البلاد تلال كثيرة تغطيها الاشجار والحشيش وبينها بقاع حرق هشيمها استعداداً لزرعها

وفي صباح اليوم الرابع جاءني رجل يقول انهُ رأى عن بعد عسكرياً راكباً جملاً (هجاناً) وبعد قليل وصل هذا العسكري ومعهُ كتاب من المستر تشارلس دبوي حاكم دارفور بالنيابة لان سقيل باشا كان قد استعفى ومعهُ شيء من الرز والدقيق والشاي والسكر والسكاير وقد كان سرورنا بالسكاير على اشده لان ما كان معي منها نفدكلهُ بعد خروجنا من اردي . ولما بلغنا بيت الحكومة في مرابغ جعل رجالي يغنون ويطربون واقاموا قالب السكر في وسط ساحة وجعلوا يرقصون حولهُ والعسكري ينظر اليهم مدهوشاً حاسباً انهم جنوا ولا يعرف الشوق الى السكر الا من حرمهُ اياماً متوالية

وصممت على ان نسرع السير لان مؤونتنا كادت تنفد كلها فبلغنا ضواحي كُتُم في الرابع عشر من الشهر وشاهدنا حينئذ كوكبة من الخيالة تدنو منا فقابلناها بالهتاف وكان ابهج شيء في نظري رؤية الجنود السودانيين بملابسهم العسكرية وكان في الكوكبة معاونان وعشرة جنود وقاضٍ وكاتب وبعض وجوه كُتُم فصافحتهم كلهم وسرنا تحت لوائهم ولما دنونا من المركز خرج النساء للقائنا لابسات البياض يقرعن الدفوف وينشدن الاناشيد فدخلنا المركز واقمنا فيهِ وحولهُ وعادت النساء الينا وهن يغنين ويرقصن فسر رجالي واستأذنوني في اطلاق بنادقهم عند اقدام البنات فاذنت لهم فخاف البنات اولاً لانهن لم يألفن ذلك ولكنهن ادركن المراد حالاً واستأنفن الغناء والرقص والزغردة فزال كل ما كنا نشعر بهِ من وعثاء السفر

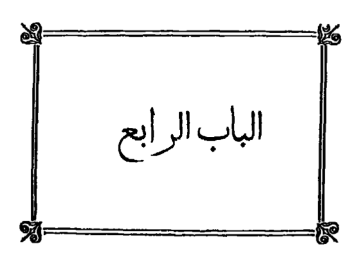
اقمنا يومين في ضيافة المعاونين لان المستر اركل المفتش كان في الفاشر . وقمنا في السابع عشر من يونيو فوصلنا الى الفاشر بعد يومين كانا من ايام السرور والبهجة لاننا شعرنا اننا رجعنا الى العمران الذي كنا نشتاق اليهِ . ولما صرنا على ثلاث ساعات من الفاشر نزلنا لكي نستعد لدخولها فحلقت وكان المستر دبوي قد بعث الينا مقداراً من البفت الابيض الى كتم فالتحف بهِ زجالي ثم استأنفنا السير واذا بكوكبة من الفرسان آتية للقائنا فصر جوادي اذنيهِ وعدا اليهم وخرج المستر دبوي على جواده للقائنا فتصافحنا مصافحة الاصدقاء ورحب بنا الضباط كلهم من انكليز ومصريين واضافنا المستر دبوي في بيتهِ . وهناك مركز للتلغراف اللاسلكي فاستعلم مديره لي عن وقت غرينتش (بانكلترا) فاذا خرونومتري لم يفقد الا ٢٣ دقيقة و٢٣ ثانية في ثمانية اشهر أي أقل من ست ثوان كل يوم . واقمت عشرة ايام في ضيافة المستر دبوي والضباط واعيان المدينة فانهم لم يتركوا وسيلة لاكرامنا . وسرنا من هناك الى الابيض وركبت منها الى الخرطوم فالقاهرة فبلغتها في اول اغسطس سنة ١٩٢٣

***

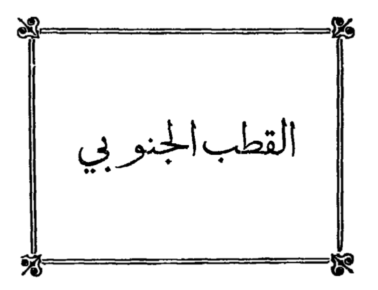
ولا يسعني ان اختم هذه الخطبة من غير ان ابدي جزيل شكري للسردار السر لي ستاك باشا حاكم السودان العام وللمستر دبوي مدير دارفور بالنيابة وللمستر كرايج مدير كردفان ولكل الضباط والموظفين والاعيان في حكومة السودان على ما لقيت منهم من العناية وحسن الضيافة انتهى

(مقتطف اغسطس سنة ١٩٢٥)





الباب الرابع



القطب الجنوبي

الكبتن سكوت ورفاقه

كان لما اصاب الكبتن سكوت ورفاقهُ الذين رافقوه الى القطب الجنوبي وقع شديد في كل انحاء العالم . وصل هذا المكتشف الشهير الى القطب، وقد ثبت ذلك مما ذكره عن العلامات والآثار التي تركها امندسن هناك، ثم لقي حتفهُ هو ورفاقهُ في رجوعهم . ولم يكن بينهم و بين المركز العمومي الذي كانوا قد اعدوه للالتجاء اليهِ الا ١٥٥ ميلاً حين فاجأتهم العواصف واقامت في وجههم ما لا يذلل من العقبات

انقطعت اخبار سكوت ورفاقهِ من اوائل سنة ١٩١٢ ولم يعرف عنهم شيء بعد ذلك حتى وصلت باخرتهم ترّانوفا الى جزيرة زيلاندا الجديدة وكانت قد اقلعت من لندن في اول يونيو سنة ١٩١٠ وذلك اول عهدها بخوض البحار الشاسعة وفيها بعثة سكوت وهي تامة العدة مجهزة بكل ما يلزم لها ومما زاد في اتقان معداتها وابلاغ ترتيبها حد الكمال خبرة سكوت السابقة في مغالبة المصاعب ومعاونة غيره ممن سافروا الى الاصقاع الجنوبية وعرفوا بالاختبار ما يحتاج اليهِ المكتشف فيها . واجتمع حوله من الاعوان والعلماء ما لم يجتمع حول غيره من جميع الذين اقتحموا بلاد الجليد

وصلت بهم الباخرة الى خليج مكمردو بعد ان قاسوا اهوال البحر في شدة هيجانهِ واضطراب امواجهِ فانقسموا هناك الى ثلاث فرق نزلت الفرقة الاولى الى البر لاقامة مركز عمومي على رأس ايفنس وكان سكوت فيها ونزلت الثانية في غرب الخليج وحاولت الثالثة النزول الى الارض المسماة ببلاد الملك ادورد السابع فلم تتمكن من ذلك لكثرة الجليد فنزلت في رأس اداري

وكابد رجال الفرقة الثالثة شدائد كثيرة فان العواصف دهمتهم من أول الامر فقضوا فصل الشتاء في كوخ من الثلج يقتاتون بلحم الفقم وقليل من الزاد الذي بقي معهم فدب فيهم المرض ولم يصلوا الى المركز العمومي الا في اوائل شهر نوفمبر الماضي

ولما عادت الباخرة باخبارهم وما جرى لهم حتى شهر يناير من سنة ١٩١٢ علم الناس ان العلماء بينهم يبذلون اقصى جهدهم ليقوموا حق القيام بما انتدبوا لهُ حتى ان الدكتور ولسن اقتحم مخاطر جمة فقضى اشهر يونيو ويوليو واغسطس (وهي اشهر الشتاء هناك) في رأس كروزير يدرس اطوار الطائر المعروف بطريق الامبراطور

وطبائعهُ في افراخهِ وتربيتهِ لصغاره في فصل الشتاء . وكان الموكلون برصد المظاهر الجوية وحركات الرياح وضغط الهواء واختلاف درجة الحرارة وامواج المد والجزر وجاذبية الارض ومغنطيسيتها ، مواظبين على اعمالهم يرقبون التغيرات ويضبطونها بدقة وعناية . ومثل ذلك يقال في الموكلين بالابحاث الجيولوجية والبيولوجية وغيرها من اغراض الرحلة

وكان آخرون يهيئون معدات التقدم نحو القطب ويقيمون المستودعات في الطريق واخذ سكوت في التقدم الى القطب في الثاني من شهر نوفمبر سنة ١٩١١ ولكنهُ عاد فتأخر شهراً بسبب موت نصف الدواب التي كانت معهم . واتى الكوماندر ايفنس بآخر اخبارهم في السنة الماضية بعد ان تركهم وهم على ١٥٠ ميلاً من القطب وكانت امورهم حسنة في ذلك الوقت

ولم يعرف عنهم شيء بعد ذلك الا ما وجد في اوراق سكوت الذي اعتنى بتدوين كل الحوادث بالضبط والتدقيق رغما عما كان يحيق بهِ من المخاطر . ومما يدل على ثباتهِ وبعد نظره انهُ لما رأى أن لامناص من الهلاك جلس يكتب تفاصيل النوازل التي حلت بهم كما سيجيء

وقد وصل الى القطب في الثامن عشر من يناير سنة ١٩١٢ وكان معهُ الدكتور ولسن والكبتن اوتس والملازم بورز والضابط ادغرايفنس . وقاسوا كثيراً من الشدائد في عبور نهر الجليد المسمى بيردمور فاصيب ايفنس بارتجاج الدماغ وقضى نحبهُ هناك. ثم اشتد الصقيع والريح فمرض الكبتن اوتس واعوزهم الوقود .وفي السادس عشر من شهر مارس رأى اوتس ان الموت مدركهُ لامحالة وانهُ اصبح عبئاً على رفاقهِ فتخلف عنهم ليلقى حتفهُ . وواصل سكوت وولسن وبورز السير لكن الزمهرير اشتد عليهم وهم على احد عشر ميلاً من احد المستودعات فتعذر عليهم التقدم ولم يكن لديهم من الزاد الا ما يقوتهم يومين . وكتب سكوت رسالتهُ الاخيرة هناك وكان قد انقضى عليهم اربعة ايام وهم في ذلك المكان . وقد خرج البعض في ذلك الوقت نفسهِ من المركز العمومي للقائهم واعانتهم ويظهر انهم اقتربوا منهم كثيراً الا انهم لم يعثروا عليهم . ولم يُهتدَ الى جثث سكوت ورفيقهِ الا في شهر نوفمبر الماضي بعد ان انقضى فصل الشتاء

هذه نهاية رجل من اكبر المكتشفين وقد كان كبير النفس يثير في رفاقهِ روح النخوة والثبات في قضاء الواجبات ويعلمهم بمثاله قدر اتعاب الرجال قدرها ويكتسب

محبتهم له وتعلقهم بهِ حتى ان الذين رافقوه في رحلتهِ الاولى الى القطب سنة ١٩٠١ كالدكتور ولسن لم يحجموا عن اقتحام المخاطر معهُ مرة ثانية . وقد قال فيهِ الدكتور شاركو « انهُ فاتح الطريق الى القطب » . وحرص سكوت على التدقيق في التقارير وما اظهرتهُ رحلتهُ الاولى وبقايا رحلتهِ الثانية من الحقائق والفوائد العلمية كافٍ لان ينفي عنهُ كل تهمة توجه اليهِ من انهُ كان يقصد باعمالهِ اكتساب الشهرة والصيت

كانت ولادتهُ في مدينة ديفونبورت ببلاد الانكليز سنة ١٨٦٨ ودخل مدرسة عسكرية سنة ١٨٨١ ثم دخل في سلك البحارة في الاسطول الانكليزي وتقلب في المناصب حتى رقي الى رتبة كوماندر سنة ١٩٠٠ . ولما رجع من رحلتهِ الاولى سنة ١٩٠٤ رقي الى رتبة كبتن ومنح لقب كوماندر من رتبة فكتوريا الملكية ونال بضعة نياشين منها النيشان الملكي ونيشان خاص من الجمعية الجغرافية الملكية

والدكتور ولسن من متخرجي جامعة كمبردج وكان في الرحلة الاولى مصوراً وموكلاً بالبحث في الحيوانات الفقارية وفي الرحلة الثانية رئيس القسم العلمي

اما الرسالة المشار اليها آنفاً فقد وجدت في خيمة سكوت الى جانب جثتهِ وهذا تعريبها

ان فشلنا لم يكن لاننا اخطأْنا في تدبير امورنا بل لانهُ نزلت بنا نوازل لم تكن منتظرة

فاولاً — اننا فقدنا دواب النقل في مارس سنة ١٩١١ فاضطررت ان اؤخر سفرنا وان اقلل المؤونة التي اخذناها معنا

وثانياً — اشتد البرد وثارت العواصف كل مدة السفر ولاسيما حينما كنا عند الدرجة ٨٣

وثالثاً — وجدنا الثلج رخفاً ليناً فابطأَ سيرنا عليهِ

وقد قاومنا هذه العوائق بهمة ونشاط وتغلبنا عليها ولكنها قللت مؤونتنا ولولا مصيبة اخرى حلت بنا لوصلنا الى القطب ورجعنا منهُ ومعنا زاد كاف لاننا كنا قد استعددنا لهذه الطوارىء . اما المصيبة فهي مرض الرجل الذي كنا نحسبهُ اقوى منا كلنا واصبرنا على المشاق وهو ادغر ايفنس . وكان امامنا نهر الجليد المسمى بيردمور وعبوره قليل الصعوبة في الصحو ولكننا لم تصح يوماً واحداً في رجوعنا ومعنا رجل مريض نضطر الى حمله فانهُ وقع واصيب بارتجاج الدماغ ثم مات بعد ان هد حيلنا

وتركنا وفصل الزوابع قد ادركنا . ولكن ذلك كلهُ لم يكن شيئاً مذكوراً في جنب ما وجدناه مخبوءاً لنا . فما من مخلوق كان يظن اننا نصادف البرد الذي صادفناه في هذا الفصل من السنة، فقد كانت درجتهُ ٢٠ الى ٣٠ تحت الصفر بين عرض ٨٥ و٨٦ ولكننا لما رجعنا الى العرض ٨٢ وفي مكان اوطأ من الاول ١٠٠٠٠ قدم رأيناه ٣٠ تحت الصفر نهاراً و٤٧ تحت الصفر ليلاً والريح تعصف في وجوهنا صرصراً مستمراً

وبين من ذلك ان ما اصابنا انما سببهُ هذا البرد الشديد الذي جاءنا بغتة على غير انتظار وفي غير ميعاده وغير مكانهِ فلم يكن في الحسبان . ولا اظن ان احداً من بني الانسان اصابهُ ما اصابنا في مثل هذا الشهر . وكان في الامكان ان ننجو لو لم يمرض رجل آخر منا وهو الكبتن اوتس وينفد الوقود من مستودعنا وتعترض الزوابع بيننا وبين المستودع التالي وهو منا على احد عشر ميلاً فقط حيث كنا نرجو ان نجد كل ما نحتاج اليهِ

حقّـا لقد جازت ملمات الزمان حدودها واستنزفت آفاتهُ مجهودها

صرنا على احد عشر ميلاً من المستودع الذي ودعنا فيهِ طعامنا ووقودنا وليس معنا سوى طعام يومين ووقود لتسخين طعام يوم واحد فاقمنا في هذه الخيمة اربعة ايام لا نستطيع الخروج من شدة العاصفة ونحن على غاية الضعف وانا لا اكاد استطيع الكتابة . واذا قصرتُ نظري على نفسي فانا لست نادماً لان هذه الرحلة برهنت على ان الانكليز لا يزالون يستسهلون تجشم المشاق والتعاون في الضراء ومقابلة الموت الزؤام بالصبر الجميل كما كانوا في سالف عهدهم

لقد ركبنا الاخطار عن طيب نفس فجاءت التقادير على غير ما انتظرنا فلا نشكو من احد ولا نلوم احداً بل نسلم انفسنا للاقدار عازمين ان نبذل جهدنا الى النهاية

ولكن ان كنا قد خاطرنا بانفسنا لاجل شرف وطننا فاننا نتوقع من ابناء الوطن ان يعتنوا بالذين تركناهم وراءنا وليس لهم ملجأٌ سوانا

واذا فسّح لنا في الاجل فعندي كلام كثير في وصف شجاعة رفاقي وصبرهم وتحملهم المشاق — كلام يثير النخوة في صدر كل ابناء وطني . ولكن هذه السطور وجثثنا الهامدة ستخبر خبرنا ويقيني تام ان بلاداً عظيمةً غنية مثل بلادنا تعني بالذين تركناهم في بيوتنا . ر . سكوت (مقتطف مارس سنة ١٩١٣)

امندسن

لقد كان من نصيب اهل نروج الساكنين في اقصى الشمال ان يكون مكتشف القطب الجنوبي منهم فقد ثبت الآن ان الرحالة امندسن النروجي الذي سار بسفينتهِ الفرام قاصداً الوصول الى القطب الجنوبي وصل اليهِ في ١٤ دسمبر سنة ١٩١١ وقد بعث الى جريدة الديلي كرونكل الانكليزية بوصف اكتشافهِ للقطب الجنوبي فنشرتهُ في ٨ مارس وخلاصتهُ انهُ شرع في سفره نحو القطب في ١٠ فبراير سنة ١٩١١ فوصل الى حيث قضى فصل الشتاء القطبي وكان متوسط درجة الحرارة ٢٦ تحت الصفر بميزان سنتغراد واوطأ ما بلغتهُ ٥٩ درجة تحت الصفر . وابتدأ فصل الربيع في اواسط اكتوبر فعاد الى السير جنوباً فوصل الى الدرجة ٨٣ في ٩ نوفمبر والى الدرجة ٨٥ في ١٤ نوفمبر . وفي ١٧ نوفمبر وصل الى ارض مرتفعة فجعل يصعد فيها هو ورجالهُ حتى بلغوا ما ارتفاعهُ ١٠٧٥٠ قدماً في ٦ دسمبر وكان ذلك حيث العرض ٨٧ درجة و١٤ دقيقة وفي ٩ دسمبر بلغوا الدرجة ٨٨ والدقيقة ٣٩ من العرض الجنوبي اي بقي بينهم وبين القطب درجة و٢١ دقيقة . وفي ١٢ دسمبر بلغوا الدرجة ٨٩ والدقيقة ٣٠ وفي ١٣ دسمبر بلغوا الدرجة ٨٩ والدقيقة ٤٥ وفي ١٤ دسمبر بلغوا القطب نفسهُ وكانت درجة الحرارة حينئذ ٢٣ تحت الصفر . والقطب في سهل مرتفع فسيح جدًّا. وفي اليوم التالي كانت السماء صافيةً فرصدوا ارصاداً فلكية كثيرة من الساعة ٦ قبل الظهر الى الساعة ٧ بعدهُ فوجدوا انهم كانوا حيث العرض ٨٩ درجة و٥٥ دقيقة فساروا جنوباً مسافة ٩ كيلومترات حتى يكونوا قد مشوا على القطب حتماً

وقد كانت المسافة من آخر مكان شتوا فيهِ الى القطب ١٤٠٠ كيلومتر وعليهِ فقد كان متوسط ما قطعوهُ في اليوم ٢٥ كيلومتراً

***

فصّل الكبتن امندسن نتائج رحلتهِ الى القطب الجنوبي في اجتماع الجمعية الجغرافية الملكية ببلاد الانكليز في ١٥ نوفمبر فقال ان رجاله اتموا وضع المؤونة في طريقهم في ١١ ابريل سنة ١٩١١ فاحسنوا في اختيار الاماكن التي وضعوها فيها لانهُ لم يجد اقل

مشقة في سفره من حيث الطعام والشراب لا في ذهابه ولا في ايابه. ولم يكتفوا بذلك بل وضعوا اشارات على جانبي الطريق حتى اذا انحرف امندسن ورجاله عن موضع الطعام ترشدهم تلك العلامات اليه . واتفق ان الهواء كان موافقاً لهم لم تصبهم الانواء الا مرتين وكانت درجة الحرارة ٥٦ تحت الصفر بميزان فارنهيت مدة خمسة اشهر وبلغت في ١٣ اغسطس ٧٤ تحت الصفر ولم يعتدل الهواء الا بعد العشرين من اكتوبر. ورأوا عند الدرجة ٨٣ من العرض الجنوبي جبالاً عالية ارتفاعها من ١٠٠٠٠ قدم الى ١٥٠٠٠ قدم الى الجنوب الغربي منهم . وبلغوا الحد بين الارض والجليد الدائم في ١٧ نوفمبر حيث العرض ٨٥ درجة جنوباً والطول ١٦٥ غرباً ولم يجدوا كبير مشقة في الصعود الى سهل الجليد الذي حول القطب . وارفع مكان بلغوه كان ارتفاعهُ عن سطح البحر ١٠٧٥٠ قدماً ومن ثم بقي الجليد منبسطاً على ارتفاع واحد تقريباً الى الدرجة ٨٨ والدقيقة ٢٥ ثم انخفض رويداً رويداً وكان المسير سهلاً والهواء معتدلاً . وظهر بالرصد في ١٤ و١٥ دسمبر انهم بلغوا عرض ٨٩ درجة و٥٥ دقيقة وفي ١٦ دسمبر نقلوا مخيمهم الى موقع القطب تماماً اي الى الدرجة ٩٠ واقام اربعة رجال حينئذ يرصدون مدة اربع وعشرين ساعة وسموا تلك البقعة باسم الملك هاكون السابع ملك نروج

واهم اكتشاف جغرافي في هذه الرحلة اكتشاف سلسلة الجبال العالية المشار اليها آنفاً فسميت جبال الملكة مود باسم ملكة نروج .

(مقتطف اريل ودسمبر سنة ١٩١٢)



السر ارنست شكلتن

لبعض الناس غرام شديد باقتحام المخاطر واكتشاف المجاهل مدفوعين بحب الاكتشاف او بحب الشهرة او بحب الكسب او بذلك كلهِ ومما رغبوا في الوصول اليهِ مهما تجشموا في سبيله من المشاق القطب الشمالي والقطب الجنوبي اي طرفي محور الكرة الارضية . اما القطب الشمالي فاول من قصدهُ وحفظت اخبارهُ السر جون فرنكلين الذي سار نحوهُ سنة ١٨٤٥ قاصداً ان يكتشف طريقاً بحرياً الى اسيا من الشمال الغربي وقضي عليهِ وعلى رجاله بعد سنتين او ثلاث ووجدت آثارهم واخبارهم في رجمة هناك وظهر منها انهم وصلوا في سيرهم الى مكان يبعد ١٣٢٢ ميلاً عن القطب الشمالي

وتوالت البعوث بعد فرنكلين وكل بعثة تحاول ان تبعد اكثر مما ابعدت سابقتها كما ترى في هذا الجدول

السر جون فرنكلين	سنة ١٨٤٧	وصل الى	١٣٢٢	ميلاً	عن القطب
مستر لاي سمث	« ١٨٧٣	« «	٥٩٢	«	« «
الكبتن نيرس	« ١٨٧٦	« «	٤٥٨	«	« «
اللفتنت لكوود من بعثة غريلي	« ١٨٨٤	« «	٤٥٥	«	« «
الدكتور نسن	« ١٨٩٥	« «	٢٦٠	«	« «
الكبتن كاني من بعثة ابروزي	« ١٩٠٠	« «	٢٣٩	«	« «
الكومندور بيري	« ١٩٠٦	« «	٢٠٣	اميال	« «

اما القطب الجنوبي فاهم البعثات التي قصدتهُ ست وهي

بعثة القبطان كوك قصدتهُ	سنة ١٧٧٤	ووصلت الى	١٢٠٠ ميل	عنهُ
« ودل	« ١٨٢٣	« «	١٠٥٠ ميلاً	«
« روص	« ١٨٥١	« «	٠٨٥٠	« «
« سكوت	« ١٩٠٢	« «	٠٤٥٠	« «
« شكلتن	« ١٩٠٩	« «	٠١١١	« «

فبعثت شكلتن وصلت الى ابعد ما وصلت اليهِ البعثات القطبية شمالاً وجنوباً . ويفتخر الانكليز بانهم سبقوا الاميركيين في هذا المضمار لان بيري الذي وصل الى ٢٠٣

اميال من القطب الشمالي اميركي. وقد ذكرنا رحلة سكوت وما لقيهُ في الاصقاع الجنوبية في المجلد التاسع والعشرين من المقتطف. وها نحن واصفون الآن رحلة شكلتن وما لقيهُ فيها مأخوذاً من الانباء التلغرافية التي بعث بها الى انكلترا من جزيرة زيلندا الجديدة

والملازم شكلتن من اعوان الكبتن سكوت الذي قصد القطب الجنوبي بسفينة الدسكفري وابعد معهُ أكثر مما ابعد احد قبله حتى صاروا على ٤٥٠ ميلا من القطب وذلك في آخر سنة ١٩٠٢ فقد قال انهُ احد الثلاثة الذين نصبوا العلم الانكليزي في ٣٠ دسمبر سنة ١٩٠٢ حيث العرض ٨٢ درجة و ١٦ ½ دقيقة. وبدت منهُ حينئذ دلائل الهمة والنشاط والصبر على المشاق والمقدرة على ادارة الناس بجأش رابط. وقد حدثتهُ نفسهُ بالذهاب مرة ثانية لاكتشاف القطب الجنوبي ومعرفة احوال البلاد التي تحيط بهِ فاقلع من بلاد الانكليز في ٣٠ يوليو سنة ١٩٠٧ على سفينة بخارية من سفن الصيد اسمها النمرود بعد ان اعدت لهذه الغاية وجهزت بكل ما يلزم لهذا السفر الشاق

والنمرود من اصغر السفن التي تشق الاوقيانوس عمرها ٤١ سنة وقد ظهر بالاختبار انها من اقدر السفن على احتمال ضغط الجليد اذا احاط بها وضغط عليها. محمولها ٢٢٧ طناً وطولها ١٣٦ قدماً وعرضها ٢٧ قدماً وكثيراً ما كانت تحمل ١٦٠ نفساً من البحارة والركاب. اما الآن فلم يذهب فيها سوى ٣٢ نفساً ولذلك وضعت فيها كل لوازم الراحة لهم ولسفرهم على الجليد بالمزالق والاوتوموبيلات واخذوا معهم خيولا صغيرة من خيول منشوريا المعتادة زمهرير البرد وكلاباً من نسل الكلاب التي تبعت البعثات السابقة لاكتشاف القطب. وقبل ان اقلعت نزل اليها ملك الانكليز وتفحص ما فيها من امتعة البعثة ومؤونتها ولما رأى انها كلها على ما يرام قال للملازم شكلتن لم يبق لي الا ان ارجو لك سفراً سعيداً وعوداً حميداً في مهمتك المسيرة. لما سافر الكبتن سكوت في سفينة الدسكفري اهديت اليهِ نيشان فكتوريا واني اهدي اليك الآن نيشاناً مثله تفاؤلاً بفوزك في البحث العلمي الذي شرعت فيهِ. ثم سلمتهُ الملكة علماً لينصبهُ في ابعد مكان يصل اليهِ فنصبهُ على نحو مئة ميل من القطب كما تقدم. وما كاد يصل الى زيلندا الجديدة في عودتهِ من السفر حتى بعث الى جريدة الديلي ميل تلغرافاً مسهباً نقتطف منهُ الفقرات التالية

قام النمرود بنا من رأس رويد في ٢٩ اكتوبر سنة ١٩٠٨ وابعد ما بلغناه الدرجة ٨٨ والدقيقة ٢٣ من العرض الجنوبي والدرجة ١٦٢ من الطول الشرقي. وكان السفر

شاقًا جداً فقطعنا في اول الأمر جبالاً كثيرة ثم وصلنا الى سهل عال يبلغ ارتفاعهُ عن سطح البحر عشرة آلاف قدم واكتشفنا سلاسل كثيرة من الجبال وقطعنا ١٧٠٨ اميال في ١٢٠ يوماً واكتشفنا اكثر من ١٠٠ قمّة جديدة من قمم الجبال وكانت المؤونة كافية والخيول المنشورية على ما يرام وقد اكتشفنا اكتشافات مهمة في علم الحيوان واكتشفنا ايضاً القطب المغنطيسي الجنوبي عند الدرجة ٧٢ والدقيقة ٢٥ من العرض والدرجة ١٤٥ من الطول وكان الشتاء معتدل البرد وبلغت اوطأ درجات الحرارة ٤٠ بميزان فارنهيت تحت الصفر . والاكتشافات الجيولوجية التي اكتشفناها مهمة كالاكتشافات في علم الحيوان وقد اشتدَّ ضغط الجليد على النمرود لكنهُ احتمله . وصعدنا على قمة بركان اريبوس وهو ابعد البراكين جنوباً وارتفاعهُ ١٣٠٠٠ قدم وهذه اول مرة صعد انسان الى قمتهِ .قصده الملازم ادمس الجيولوجي ورفاقهُ في ٥ مارس سنة ١٩٠٨ فصعدوا بالمزالق الى ما ارتفاعهُ ٥٠٠ قدم عن سطح البحر ثم حملوا زادهم وامتعتهم وتركوا مزالقهم وصعدوا حتى بلغوا ما ارتفاعهُ ٩٥٠٠ قدم فوق سطح البحر وكانت الحرارة هناك على ٥٠ تحت درجة الجليد . وحينئذ عصفت عاصفة ثلج منعتهم عن السير ثلاثين ساعة متوالية ولما سكنت عاودوا التصعيد فبلغوا فوهة البركان القديمة وارتفاعها ١١٠٠٠ قدم عن سطح البحر فتفحصوها جيداً ورأوا منافس الدخان القديمة والفوهة مملوءة الآن بالحجارة المتبلورة وحجارة الخفان والكبريت وهرأ البرد قدميّ السر فيليب بروكهرست فاضطرَّ ان يقطع ابهامهُ . وبلغوا فوهة البركان العامل في ١٠ مارس ومحيطها نصف ميل وعمقها ٨٠٠ قدم وكانت تنفث البخار والغازات الكبريتية فتعلو فوقها الفي قدم

وشرع الدكتور مرتش في رصد الحوادث الجوية من اوائل السنة . والاستاذ داقد في رصد مجاري الهواء العليا من عبثها بغيوم البخار الصاعدة من البركان وواصلا الرصد الى آخرها

ووجد الدكتور مري كثيراً من الاحياء الميكروسكوبية في بحيرات عذبة قرب رأس رويد ويجلد الماء حولها سنة بعد سنة فتعيش فيهِ من غير ان يؤذيها وظهر بالامتحان انها تتحمل البرد الشديد والحر الشديد وتعيش في الماء العذب وفي الماء الاجاج.ورأينا طائر البنغوين المطوّق اما النباتات التي وجدناها فاكثرها من انواع الفطر والاشنان والطحالب والاعشاب البحرية. وكان الشفق القطبي كثير الظهور ساطع النور كل مدة

الشتاء واكثر ظهوره في الافق الشرقي وغالبهُ من السجفي ويكون احياناً من النوع الثابت واحياناً من النوع المتحرك وكثيراً ماكانت مجاري النور تسير في عرض السماء بسرعة فائقة . واشتد ثوران بركان اريبوس في شهر يونيو

ومضيت انا وارميتاج ودافد بالمزالق في ١٢ اغسطس لفحص حاجز الجليد فوجدنا درجة الحرارة ٨٩ تحت درجة الجليد فوضعنا المؤونة في طريقنا على ١٢٤ ميلاً من مشتى الدسكفري ثم عدنا الى اقتحام الحاجز وسرنا بالاوتوموبيل على بحر من الجليد في ٢٩ اكتوبر وكنا اربعة ،ادمس ومرشل وولد وانا وتبعنا خمسة لمساعدتنا بحمل الزاد وغادرنا نقطة هت في ٣ نوفمبر ومعنا زاد يكفينا ثلاثة اشهر فعاقنا عاصف الثلج ٥ ايام وعاد الذين تبعونا في ٧ نوفمبر . وكاد المستر ادمس يقتل لانهُ سقط في شق كبير في الجليد هو وفرس من الافراس لكننا تمكنا من انقاذه . وفي ١٣ نوفمبر بلغنا مكان المؤونة التي وضعناها في سبتمبر الماضي حيث العرض ٧٩ درجة و٣٦ دقيقة فاخذنا منها زاداً لنا وعلفاً لخيلنا وجعلنا نقتصد في طعامنا وسرنا جنوباً على حروف واكام من الجليد الصلب يتخللها اماكن مغطاة بالثلج فكانت الخيل تغرق فيهِ الى بطونها . ولما وصلنا الى الدرجة ٨١ والدقيقة ٤ قتلنا فرساً من الافراس وابقينا هناك وديعة من لحمهِ ومن البسكوت والزيت اللذين كانا معنا واخذنا بقية اللحم اداماً

وفي ٢٦ نوفمبر وصلنا الى ابعد ما وصلت اليهِ بعثة الدسكفري فرأينا سطح الجليد ليناً جداً يعسر السير عليهِ واصيبت الخيل بالبهر من بريق الجليد فقتلنا فرساً منها وابقينا جانباً من زادنا ومن لحمهِ حيث العرض ٨٢ درجة و٤٥ دقيقة ثم قتلنا فرساً ثالثاً في ٣٠ نوفمبر واستمر بنا السير جنوباً وجنوباً بشرق فدنونا من سلسلة عالية من الجبال متجهة الى الجنوب الشرقي . وفي الثاني من دسمبر اكتشفنا نهراً من الجليد (اي جليداً جارياً جرياً بطيئاً) طوله ١٢٠ ميلاً وعرضهُ نحو ٤٠ ميلاً فحاولنا الصعود عليهِ في ٥ دسمبر وكانت فيهِ شقوق كبيرة حتى لم نستطع مرة ان نقطع اكثر من ٦٠٠ يرد في اليوم وفي ٧ دسمبر سقط فرس من خيلنا في شق من هذه الشقوق واختفى لكننا انقذنا المستر ولد الذي كان معهُ

وتقشعت الغيوم في ٨ دسمبر فاكتشفنا سلاسل جديدة من الجبال متجهة الى الجنوب والجنوب الغربي وكنا مرتبطين بعضنا ببعض بسيور وحبال متينة حتى اذا وقع واحد منا في شق ينقذه الباقون لانهُ يكون معلقاً بهم فوقعنا مراراً ونجونا . واستمرت

الحال كذلك من ٦ دسمبر الى ١٨ منهُ حتى بلغنا ما ارتفاعهُ ٦٨٠٠ قدم عن سطح البحر . وابقينا كل ما معنا حيث العرض ٨٥ درجة و١٠ دقائق ولم نأخذ غير الزاد والآلات العلمية وخيمتين وقللنا طعامنا

وفي ٢٦ دسمبر بلغنا سهلاً علوه ٩٠٠٠ قدم ثم ارتفع رويداً رويداً حتى صار علوه ١٠٥٠٠ قدم وتوالت علينا زوابع الثلج هناك وكانت الحرارة بين ٣٧ و٧٠ تحت درجة الجليد

ولما رأيت ان قوى رفاقي قد خارت من قلة الطعام وخفة الهواء وشدة البرد عزمت على ان نضع جانباً من زادنا هناك ونتقدم الى حد ما يصل اليهِ جهدنا فاخذنا خيمة واحدة وغرسنا اعمدة الخيمة الثانية في طريقنا لترشدنا في رجوعنا وسرنا في ٤ ينابر واشتد عصف الثلج في وجوهنا واستمر ستين ساعة من غير انقطاع وكانت درجة الحرارة على ٧٢ تحت درجة الجليد وسرعة الريح سبعين ميلاً في الساعة حتى كان من المستحيل علينا ان نتقدم خطوة واحدة . وكاد البرد يهرأنا ونحن نيام في اكياسنا. وفي التاسع من يناير استأنفنا السير فبلغنا الدرجة ٨٨ والدقيقة ٢٣ من العرض الجنوبي والدرجة ١٦٢ من الطول الشرقي وهي ابعد نقطة وصل اليها انسان حتى الآن فنصبنا هناك العلم الانكليزي الذي سلمتنا اياه الملكة ولم نر على مدى بصرنا جبلاً ولا اكمة بل رأينا سهلاً منبسطاً الى القطب. ثم عدنا ادراجنا ولم نجد الاعمدة التي نصبناها لان العاصفة اقتلعتها . ولكننا رأينا آثار اقدامنا فارتشدنا بها وكانت العاصفة تهب من ورائنا فساعدتنا على السير وكنا نقطع ٢٠ الى ٢٩ ميلاً كل يوم ورأينا العاصفة قد ازالت الثلج عن نهر الجليد فصار شديد الزلق وفرغ زادنا في ٢٦ يناير ولم نستطع ان نقطع سوى ١٦ ميلاً في ٢٢ ساعة وبلغنا مكاناً من امكنة الزاد الذى وضعناه في طريقنا عصر السابع والعشرين من يناير

واصيب ولد بالدوسنطاريا من اكل لحم الخيل ولم يجيء ٤ فبراير حتى أصبنا كلنا بالدوسنطاريا ودامت معنا ثمانية ايام ولكن ريح الجنوب كانت تساعدنا على الرجوع وكنا كلما وصلنا الى مكان من الاماكن التي ودعنا فيها الزاد يكون الزاد الذي معنا قد نفد كلهُ . وانتكس مرشل وعاودتهُ الدوسنطاريا فتركتهُ في الطريق وتركت معهُ ادمس واسرعت انا وولد الى السفينة ثم عدت اليهما في اول مارس ومعي رجال لانقاذهما

وبلغت المسافة التي قطعناها ذهاباً واياباً ١٧٠٨ اميال والمدة في السير والانتظار ١٢٦ يوماً . وقد جمعنا مجموعاً جيولوجياً كبيراً . ووجدنا طبقات الفحم الحجري في الصخور الكلسية ورصدنا الاحداث الجوية رصداً كاملاً واكتشفنا ثمانياً من سلاسل الجبال واكثر من مئة جبل وصورنا كثيراً من انهر الجليد

والقطب الجنوبي واقع في سهل يعلو عن سطح البحر عشرة آلاف قدم أو احد عشر الفاً . وعلو سلاسل الجبال التي اكتشفناها يختلف بين ٣٠٠٠ قدم و١٢٠٠٠ قدم . والعاصفة التي لقيناها عند الدرجة ٨٨ تدل انهُ ان كان حول القطب سكون فهو في فسحة ضيقة او هو ليس عند القطب الجغرافي . انتهى

ونحن ننشر هنا الخلاصة التالية ملخصة من مجلة ناتشر

امتازت بعثة شكلتن على كل البعثات التي تقدمتها في انها ركبت المزالق فبلغت بها الدرجة ٨٨ والدقيقة ٢٣ من العرض الجنوبي فلم يبق بينها وبين القطب سوى ١١١ ميلاً فعرفت حالة تلك الاصقاع تماماً حتى القطب الجنوبي . واكتشفت فرقة منها القطب المغنطيسي الجنوبي واثبتت ان تلك الاصقاع برٌ متصل ولو علاه الجليد

وقد وصلت البعثة على السفينة نمرود الى مضيق مكمردو قرب جبل اريبوس في اوائل سنة ١٩٠٨ وصعدت على ذلك الجبل وهو بركان عامل يقذف الدخان والغازات من جوفهِ ارتفاعهُ عن سطح البحر ١٣١٢٠ قدماً ووجدت انه كان له فوهة قديمة تعلو ١١٠٠٠ قدم عن سطح البحر . وشتت هناك في كنف الجبل وانتظرت فصل الصيف حتى تتقدم في سيرها جنوباً نحو القطب ووجدت ان الاوتوموبيل خير وسائل النقل والانتقال على بحار الجليد . وافترقت هناك الى ثلاث فرق ، فرقة سارت على المزالق تجرها الخيول الصغيرة القد بقيادة شكلتن نفسهِ قاصدة القطب الجنوبي وفرقة بقيت فى تلك الجهات تبحث فى طبائع البلاد واحوالها الجوية وفرقة ضربت شمالاً وغرباً تفتش عن القطب المغنطيسي الجنوبي

اما الفرقة الاولى فشرعت في سيرها في ٣ نوفمبر الماضي فلم تسر طويلاً حتى اعترضتها عاصفة شديدة من الثلج اوقفتها اربعة ايام . ثم استأنفت السير الى ان وصلت الى بلاد مرتفعة يغطيها الجليد ويعسر التصعيد فيها لشدة شخوصها فلم تستطع أن تتقدم فيها اكثر من ستين متراً في اليوم . وصفا الجو في الثامن من دسمبر فشاهدت الجبال تمتد جنوباً وشرقاً واستمرت في سيرها فصعدت ٦٨٠٠ قدم في اثني عشر يوماً اي قطعت ارضاً جبلية

بلغ ارتفاعها ٦٨٠٠ قدم فكأنها كانت تقطع في اليوم ما ارتفاعهُ ٥٦٦ قدماً وتركت اثقالها هناك حيث العرض ٨٥ درجة و١٠ دقائق واخذت معها ما يقوتها بالتقتير وجعلت تمشي جنوباً وعواصف الثلج تعصف في وجهها والارض تزيد ارتفاعاً فبلغت ما ارتفاعهُ ١٠٥٠٠ قدم في ثمانية ايام واشتدّ عاصف الثلج حينئذ فمنعها عن السير ثلاثة ايام وكانت درجة البرد على ٤٠ تحت الصفر ، وفي التاسع من يناير صفا الجو نوعاً فتقدمت في سيرها حتى بلغت الدرجة ٨٨ والدقيقة ٢٣ من العرض الجنوبي و١٦٢ درجة من الطول الشرقي وهو ابعد ما وصلت اليهِ فلم يبقَ بينها وبين القطب سوى درجة و٣٧ دقيقة او نحو ١١١ ميلاً والارض من هناك ، الى ابعد ما تراهُ العين في جهة القطب نجد مرتفع ولكن لا جبل فيهِ . ثم عادت ادراجها لانهُ لم يبق معها طعام يقوتها ان تقدمت اكثر من ذلك ولان المرض والتعب انهك قوى رجالها وقد لقيت من المشاق في ايابها اشد مما لقيت في ذهابها لان قلة الطعام اضعفت رجالها ولكن الرياح الجنوبية ساعدتها على الاسراع في السير فقطعت ١٧٠٨ اميال في ١٢٦ يوماً ووصلت الى رأس هت في ٤ مارس

والفرقة الثالثة التي ذهبت تفتش عن القطب المغنطيسي سارت على المزالق شمالاً وغرباً وكانت الرياح الجنوبية الشديدة تساعدها تارةً وتعاكسها اخرى وكانت درجة البرد على ١٨ تحت الصفر فاهتدت الى القطب الجنوبي في السادس عشر من شهر يناير وهو حيث العرض ٧٢ درجة و٢٥ دقيقة والطول ١٥٤ درجة وقطعت في هذا السفر ٢٦٠ ميلاً ولما ارادت الرجوع رأت ان الجليد الذي سارت عليهِ في ذهابها قد تمزق وتفرق الا ان السفينة نمرود فتشت عنها فوجدتها في ٤ فبراير وانقذتها من الهلكة

والامور التي علمتها هذه البعثة وارسلتها بالتلغراف هي هذه

اولاً — ان القطب الجنوبي واقع في ارض عالية يبلغ ارتفاعها عشرة آلاف قدم او احد عشر الف قدم عن سطح البحر وحول تلك الارض سلاسل من الجبال يبلغ ارتفاعها من ثلاثة آلاف قدم الى اثنتي عشر الف قدم

ثانياً — ان الرياح الجنوبية تعصف هناك دواماً حتى قرب القطب في الاماكن التي سارت فيها تلك البعثة فان كان هناك رياح مضادة لها تهب نحو القطب فهي على الجهة المقابلة من القطب فى الاوقيانوس الاتلنتيكي ولذلك فالارض العالية المغطاة بالجليد تمتد حول القطب الجنوبي الى بعد شاسع

مقتطف مايو سنة ١٩٠٩

رحلته الاخيرة ووفاته

رجل مقدام من اشهر روّاد القطب الجنوبي . توفي ذاهباً اليهِ في جيورجيا الجنوبية وهي جزيرة قفراء حيث العرض نحو ٥٥ درجة جنوباً والطول نحو ٣٧ درجة غرباً . ولقد لقي في رحلاتهِ السابقة مخاطر كثيرة فنجا منها ولكن لما حمَّ القضاء تغلب عليهِ اصغر الاحياء

ولد في إرلندا سنة ١٨٧٤ وكان ابوه طبيباً فانتقل بهِ الى مدينة لندن وهو فتى واراده ان يتخذ الطب حرفةً له لكنهُ ابى لميل شديد فيهِ الى ركوب البحار واقتحام الاخطار . فسافر الى اميركا الجنوبية وغيرها من البلاد وانتظم في سلك البحارة الملكية . وبلغهُ أن الحكومة عازمة على ارسال بعثة لارتياد القطب الجنوبي فطلب ان ينضم الى رجالها فرفض طلبهُ فلج في الطلب حتى قبل واقلعت السفينة في اغسطس سنة ١٩٠١ فجعل يتطوع للاشتراك في كل الاعمال ولو لم تكن مما يطلب منهُ. فاشترك في الابحاث الكيماوية والجغرافية وطالع ما كتبهُ روّاد الاصقاع القطبية

ثم لما عزم سكوت على الذهاب الى القطب الجنوبي ذهب معهُ ووصلت هذه البعثة الى الدرجة ٨٢ والدقيقة ١٧ جنوباً وعادت ادراجها

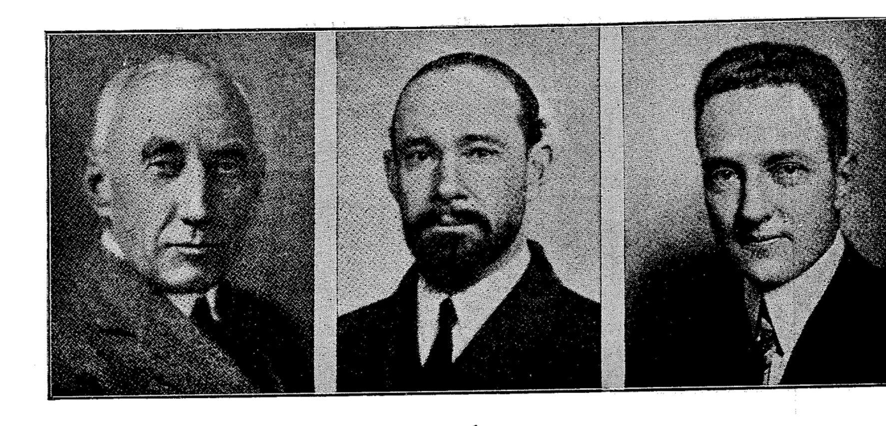
وتولى بعد رجوعهِ اعمالاً مختلفة ولكن ميله الى السفر واقتحام المخاطر تغلب عليهِ فاستدان من اصدقائهِ مالاً ابتاع بهِ سفينة وجهزها بكل ما دله اختباره انهُ لازم لها ثم اقلع قاصداً القطب ، ولكن حالت الحوائل بينهُ وبين الغرض الذي قصد اليهِ واضطر ان يرتد عنهُ وهو على نحو درجة ونصف منهُ ، لكنهُ جمع هو ورجاله من الفوائد ما يعد في الدرجة الاولى بين الحقائق العلمية وانهالت عليهِ الاوسمة من الجمعيات الجغرافية فجعل يخطب في الاندية عما شاهده في رحلتهِ الى ان جمع مبلغاً من المال اوفى بهِ الدين الذي استدانهُ

ومضى بعده امندسن وسكوت فبلغا القطب الجنوبي كما يعلم قراء المقتطف فعزم شكلتون ان يقصده من الجهة المقابلة للجهة التي سارا فيها واستدان ما يكفي من المال وسار بسفينتين لكنهُ لم يوفق . وقد شرحنا سفرتهُ هذه في المجلد التاسع والاربعين من المقتطف صفحة ١٠١ حيث قلنا ما خلاصتهُ : —



الرحالة السر ارنست شكلتون

انظر الروّاد صفحة ١٩٦



برد — ولكنز — امندصن

الروّاد صفحة ٢٥٢

« في خريف سنة ١٩١٤ شخص السر ارنست شكلتون الرحالة الانكليزي المعروف في جماعة من رجاله لاجتياز البلاد المسماة قارة القطب الجنوبي من طرف الى طرف . وكان يرجو عند سفره ان يكمل رحلتهُ في بضعة اشهر ولكن الطبيعة عاندتهُ فاخطأ حسابهُ فيما قدر لرحلتهِ من المدة . فانهُ خرج في ٦ دسمبر سنة ١٩١٤ في سفينة اسمها « اندبورنس » من جزيرة جيورجيا الجنوبية وسار جنوباً بشرق ثم بغرب حتى اكتشف مكاناً على ساحل القارة المذكورة سماه ساحل كايرد طوله مئتا ميل ثم انقلب شمالاً لما لم يعد يستطيع السفر جنوباً. وكانت نقطة انقلابهِ تبعد ٦٥٠ ميلاً عن القطب الجنوبي . وانكسرت السفينة في اثناء الطريق فنزل هو ورجاله في جزيرة الفيل في منتصف ابريل وهناك ترك ٢٢ رجلاً من رجاله وترك لهم زاداً يكفيهم الى آخر مايو وركب هو واربعة آخرون قارباً من قوارب السفينة عائداً الى جزيرة جيورجيا التي سافروا منها فبلغوها سالمين في ١٠ مايو ثم قصدوا بونس ايرس في اميركا الجنوبية فبلغوها في ٣١ مايو . ولما بلغ الجزيرة المذكورة ارسل قسماً من الزاد الى رجاله الذين تركهم في جزيرة الفيل

وكان اول ما فعل بعد وصوله الى بونس ايرس انه سعى في تخليص رفاقه من جزيرة الفيل وساعدته الحكومة الانكليزية على ذلك فقصد هذه الجزيرة بنفسهِ ولكنه لم يستطع بلوغها لتكاثف الجمد فاشتد القلق في انكلترا على رجاله الذين تركهم فيها ولكنه لم ييأس بل ما زال يحاول الوصول الى الجزيرة المرة اثر المرة حتى فاز بأربهِ في المرة الرابعة فبلغها في ٣ سبتمبر فاستعلم عن رفاقهِ فعلم انهم سالمون فارسل تلغرافاً مقتضباً الى جريدة الدايلي كرونكل يقول فيهِ ما ترجمته « الجميع سالمون . الجميع بعافية » . ثم عاد برجاله الى انكلترا . وقد ارسل تلغرافاً الى الملك يخبره بنجاتهم فاجابه الملك بتلغراف قال فيهِ : «يسرني من صميم الفؤاد انك انجيت رفاقك الاثنين والعشرين فاهنئك . بنتيجة مساعيك الحسان في انقاذهم وبان النجاح كلل سعيك وآمل ان تعود بهم سالمين الى منازلهم عن قريب »

وقد رأينا مناظر رحلتهِ هذه معروضة بالسما في باريس وكنا قد رأينا قبلها مناظر رحلة سكوت وهذه وتلك من ابدع ما رأتهُ عين انسان . اما سفرته الاخيرة التي قضى فيها فلم يكن يقصد منها البلوغ الى القطب بل مجرد الابحاث والمكتشفات العلمية فوافاه القدر المحتوم على غير انتظار . . . . مقتطف مارس سنة ١٩٢٢

الاصقاع المتجمدة الجنوبية

ذكرنا غير مرة ان السفينة الانكليزية المسماة دسكفري اي الاكتشاف قصدت القطب الجنوبي لاكتشاف ما حوله فجمد البحر حولها ومنعها عن السير ولقي من فيها اشد المشاق قبل ان بلغتهم سفينة الصباح وانقذتهم . وقد كتب احد ضباطها وهو العالم شكلتون مقالة في مجلة بيرصن وصف فيها تلك الاصقاع وما لقوه فيها فاقتطفنا منها ما يلي لما فيهِ من الفكاهة والفائدة قال :

ان الاصقاع الجنوبية ابرد من الشمالية لان المياه الحارة تجري من خليج المكسيك شمالاً وتلطف بردها فلا يبلغ الحد الذي يبلغهُ في الجنوبية . ولكن في الاصقاع الجنوبية من الغرائب ما تتعلق بهِ النفوس فترى الذين ذهبوا اليها مرة يودون الذهاب مرة اخرى رغماً عما يقاسونهُ من شدة البرد وقلة الطعام والبعد عن الاصدقاء والخلان

وقد بنيت سفينتنا لكي تحتمل ضغط الجليد على جانبيها ولا تنكسر ولكي لا يتطرق البرد الشديد الى من فيها ولذلك لم نخش الوصول الى البحر المتجمد بل فرضنا جائزة لمن يشاهد الجمد اولاً ولما قال واحد انهُ شاهده في ظهر البحر هرعنا كلنا الى ظهر السفينة لنشاهد ما شاهده ولم يكن سوى كسر صغيرة طافية على وجه الماء ولكن لم يمض ذلك النهار حتى مخرت السفينة في الجليد ولم نعد نرى حولنا الا بساطاً ابيض يرصعهُ حيوان الفقمة وطائر البنغوين . اما الحيوان فلم يعبأ بنا واما الطائر فكان يمشي الينا الخيزلى وهو يصرخ مستغرباً اعتداءنا على حماه كانهُ شيوخ لبسوا رداء اسود تحتهُ صدار ابيض

وكان الجليد رخفاً غير متماسك الاجزاء فمخرت سفينتنا فيهِ خمسة ايام متوالية وحينئذ وصلنا الى بر القطب الجنوبي وهو جبال شاهقة يغطيها الثلج تعلو عن البحر عشرة آلاف الى خمسة عشر الف قدم . تناطح السحاب وتعلو فوقهُ وتصب في البحر انهاراً من الجليد تتكسر وتجري فيهِ كقطع الغمام . وكنا نتشوّف الى النزول على هذا البر لمشاهدة ما فيهِ من انواع النبات والحيوان فلم نجد فيهِ سوى قليل من الطحالب والاشنان وانواعاً قليلة من الطيور وحيوان الفقمة المشار اليهِ آنفاً . واما البلاد القطبية الشمالية التي من هذا العرض فانهُ يوجد فيها ثمانية عشر نوعاً من النباتات المزهرة

وكثير من انواع الحيوان كالفقمة والدب والارنب والثعلب والسنجاب والقطا القطبي

وتكبر الفقمة هنا حتى يبلغ وزنها الف رطل ومنها كان اكثر طعامنا وهي كثيرة الدهن ودهنها زنخ تعافهُ النفس ولكن الجوع كافر فكنا اذا فرغ طعامنا ونحن في المزالق نرحب بكل قطعة من هذا الدهن وننسى خبث طعمهِ

وتزحف الفقمة على الجليد زحفاً بطيئاً ولا تخشى من الانسان لانها لم ترهُ قبلاً ولا عرفت انهُ افتك انواع الحيوان . اما طائر البنغوين فكان يثور في وجه من يدنو منهُ لانا شاهدناه في زمن التفريخ وتدعوهُ سليقتهُ حينئذ الى الدفاع عن فراخهِ وهو يبني ادحيهُ من حجارة صغيرة يلتقطها من الشاطىء وقد لا يبني ادحياً بل يضع بيضهُ على الصخر ويحضنهُ كذلك ويزقُّ فراخه هكذا : ينزل الى البحر ويصطاد منه بعض السراطين ونحوها ويبتلعها ثم يفتح فاهُ والفراخ تدخل رءوسها في حلقهِ وتأكل ما تجدهُ فيهِ . ويسطو عليهِ الطائر البحري المعروف بالزعَّاق ويختلس فراخهُ ولذلك يعيش بعضه مع بعض اسراباً لكي يتعاون ويدافع عنها

هذا ما كنا نراهُ في فصل الصيف حين وصلنا الى هناك والصيف ستة اسابيع لا غير من منتصف دسمبر الى آخر يناير فقضيناهُ في التجوال حول البر . ولما وصلنا الى جبل اربوس الذي اكتشفهُ السر جمس روس منذ ستين سنة وجدنا الدخان فوق قنتهِ لانه بركان مشتعل تعلو قنتهُ عن البحر ١٢٥٠٠ قدم ولكننا لم نر النار تخرج منهُ الا مرةً واحدة وكنا نرقبهُ كل يوم لنعلم جهة الريح من اتجاه دخانهِ . وعزمنا ان نشتي في سفحهِ ولو كنا نعلم ان ناره لا تخفف صبارة البرد

وكنا في الصيف لابسين ثيابنا العادية ثم اشتد البرد رويداً رويداً وبلغ درجة الصفر بميزان فارنهيت وانحط الى ما تحته فلبسنا احذية من الفرو وجعل الجليد يزداد سمكاً في اوائل فبراير ولم تعد سفينتنا تستطيع السير فيهِ لانه متماسك صلب لا كجليد الصيف المتخلخل فالقينا مرساتها ونحن نعلم اننا قادمون على ليل طويل يدوم مئة واثنين وعشرين يوماً فاعددنا كل ما يمكننا اعداده ليسهل علينا احتمال ذلك الليل الطويل

ولما تراكم الجليد حول السفينة ومنعها من الحركة ربطنا حبالاً بها ومددناها في كل جهة حتى نهتدي بها اليها لانه اذا عصفت العواصف في ذلك الليل البهيم لا يعود الانسان يرى شيئاً فيضل السبيل

اتفق ان اثنين من رجالنا اضاعا الحبل مرة ولم يكونا قد ابعدا عنه الا قليلا فبقيا ساعتين يفتشان عنه قبل ان اهتديا اليهِ ووصلا الينا وقد هرأ البرد وجهيهما اعني بذلك ان البرد يقلص الاوعية الشعرية ويطرد الدم منها فيبيض اللحم ويموت مالم يبادر المرء الى فركه لارجاع الدم اليهِ

والليل القطبي منقطع النظير لا يعلمهُ الا من مرّ عليهِ . افرض انك في قفر قاحل لا نبات فيهِ ولا حيوان ولا علامة من علامات الحياة وذلك القفر جليد بحت وانت مقيم فيهِ مع رفاقك منقطعين عن الناس تمام الانقطاع لا يصل اليكم منهم شيء ولا يصل شيء اليهم منكم وقضي عليك ان تقيم هناك شهراً بعد شهر بعد آخر اربعة اشهر متوالية في ظلام دامس والريح تهب باردة حتى اذا كشفت وجهك او يدك هرأهما البرد ولا شيء يسليك الا حديث اصحابك . اذا تصورت ذلك امكنك ان تتصوّر حال من يشتي في الاصقاع القطبية ويمر عليهِ ليلها البهيم . اما نحن فلم نضجر لاننا كنا على تمام الصفاء وكنا قد اعددنا اشياء كثيرة لتسليتنا ولما ابتدأ فصل الشتاء لبسنا ثياب الفرو وثوباً صفيقاً فوقها مما يمنع دخول الهواء فصار يسهل علينا الخروج ولو في اشد العواصف

وهبطت درجة الحرارة رويداً رويداً حتى صارت ٤٠ تحت الصفر بميزان فارنهيت ولكن شعور الانسان واحد سواء كان البرد على ٣٠ تحت الصفر او على ستين تحت الصفر لا يرى الفرق بين الدرجتين الا اذا نظر الى ميزان الحرارة . وكنت اشعر احياناً بلسع في وجهي كلسع الزنابير فاعلم ان البرد هرأه فاجعل أفركه بيدي الى ان اعيد الحرارة والدورة الدموية اليهِ ولم نكن نستطيع ان نكشف ايدينا اكثر من دقيقتين او ثلاث.اما وجوهنا فكنا نلتزم ان نبقيها مكشوفة حول افواهنا والا اجتمع البخار منها على اجفاننا وجلد هناك . وقد تهب الريح في وجه المرء فيجلد نفسهُ على وجههِ ولا بد لهُ حينئذ من ان يدور من وجه الريح وينزع كفهُ من يده ويفرك وجههُ شديداً والا هرأه البرد والا الصق اجفانهُ واعماه . واضطررنا ان نحلق لحانا وشواربنا لان بخار النفس كان يجتمع عليها ويجلد ولم نكن نستطيع ان نلمس شيئاً معدنياً لان بردها كان يهرأ اليد . واتفق ان كلباً رأى اناء من الصفيح مما يوضع فيهِ الطعام فمد لسانهُ ولحسهُ فلصق لسانهُ بهِ

ولما ابتدأ فصل الشتاء خرج البعض منا في المزالق فلقوا عاصفة شديدة كانت تعصف

الثلج في وجوههم وحاولوا الوصول الى اكمة يستذرون بها فلم يستطيعوا وشعروا ان البرد اخذ يهرأ وجوههم وكان معهم خيمتان فنصبوها حالاً ولجأوا اليهما ولو تأخروا خمس دقائق لقضي عليهم لانه لا يبقى فيهم قوة لنصب الخيمة

وكانت هذه العواصف من اشد البلايا علينا لاسيما وانها كانت تثور من غير انذار حتى لا نكاد نجد الوقت الكافي لنصب الخيام والالتجاء اليها وكان العاصف يدوم احياناً يومين او ثلاثة فلا نتجاسر على الخروج الا لاخذ الارصاد الجوية

وكان لا بدّ لنا من الخروج في المزالق لمعرفة تلك الاصقاع وما فيها وهو الغرض الذي ذهبنا لاجله فكنا نخرج بها والكلاب والخيام وهذه الخيام صغيرة تسع الخيمة منها ثلاثة رجال وكانوناً يشعلونهُ ويسخنون عليهِ طعامهم وقد يضطرون ان يقيموا فيها يومين او ثلاثة او اكثر لا يستطيعون الخروج منها ثم اذا ارادوا الخروج وجدوا الثلج قد طمرها

والكلاب التي كانت معنا من كلاب سيبيريا المعتادة البرد وكانت ثلاثة وعشرين فقط لاننا لم نحسب اننا ننزل على البر وحبذا لو اخذنا معنا ستين او سبعين كلباً فكنا اذاً وصلنا الى القطب الجنوبي على ما اظن . وولد عندنا تسعة اجراء في فصل الشتاء ولكنها لم تقو مثل امهاتها

واصطدنا كثيراً من طائر البنغوين الملكي وهو نادر ووجدنا بيضة من بيضهِ وهي الوحيدة وهذا الطائر لا يبني عشاً ولكن للانثى شيء ككيس من الريش حول رجليها فتضع بيضها فيهِ وتربي هناك فراخها فلا يهرأها البرد واذا سقط فرخ من امهِ اسرعت الطيور كلها اليهِ لتنتشله فتمزقهُ ارباً في الغالب من حنانها عليهِ

ولما القى الشتاء عصاه لم نعد نجد ان نبعد عن السفينة لكننا كنا نخرج منها احياناً الى اكمة قريبة منها ونصعد عليها وننزل ترويضاً لاجسامنا او نقطع الثلج ونأتي بهِ الى السفينة لنذوبهُ ماء ونفطر الساعة الثامنة صباحاً ثم نتعاطى اعمالنا المختلفة بعضنا يجرف الثلج عن السفينة وبعضنا يرفأ الغطاء الذي يغطيها او يصبر جلود الطيور والفقائم او يسبر غور البحر او يصطاد الحيوانات البحرية . وقد اصطاد العالم البيولوجي الذي كان معنا خمس مئة صنف من الحيوانات البحرية الجديدة من انواع السراطين وعناكب البحر والمحار مما يعيش في البحر او يسبح فيهِ وكان اذا اراد ان ينظف عظام فقمة

من لحمها يضعها في شبكة حيث يصل اليها ماء البحر تحت الجليد فتأتي السراطين ونحوها من الحشرات البحرية وتأكل اللحم عن العظم وتنظفهُ في يومين

وكان معنا اجزاء كوخ كبير اقمناه على الشاطىء حتى نقيم فيهِ اذا انكسرت السفينة فجعلناه ملعباً كنا نمثل فيهِ بعض الالعاب الهزلية وانشأنا جريدة شهرية سميناها تيمس القطب الجنوبي كنا نشترك في كتابتها وزرعنا قليلا من الرشاد والجرجير في غرفة المرضى فنبتا واطعمناهما لفريق منا كان قد ذهب على المزالق وعاد الينا . وكان في هذه الغرفة موقدان لتدفئتها وكنا نقيم فيها غالباً لان حرارتها كانت دائماً على الدرجة ٥٥ بميزان فارنهيت ولم تنقطع عن رصد الحوادث الجوية كل ساعتين لا نهاراً ولا ليلا

***

كانت سفينتنا على ما نبتغي راحة ودفئاً ونوراً وبهجة وسكوناً ولكن اذا فتحنا بابها وصعدنا الى ظهرها فهناك ليل بهيم وعصف الرياح يصم الاذان والزمهرير يجلد بهِ الدم في العروق والجمد في الهواء يدخل العيون فيعميها ويسد الافواه فيقطع الانفاس

غير ان هذه الاحوال لم تدم فان العواصف كانت تهجع احياناً ويشرق البدر ويفيض نوره على ما حولنا من السهول والهضاب فيكسوها حلة من البهاء ويظهر في طرف الافق ضوء مستطير يدل على ان الشمس لم تزل في الوجود ولو كانت محجوبة عن الابصار . وجبل النار العظيم قائم في ذلك السهل الفسيح يشمخ بانفهِ الى السماء والدخان مسردق فوق هامتهِ كغمامة قوراء — وقد كنا ثمانية واربعين رجلا ولم يكن غيرنا في تلك البلاد . وها فقرة مما كنت اكتبهُ في يوميتي

« الثلاثاء في ١٩ يونيو سنة ١٩٠٢ صعدت الى قنة الكاس انا وولسن وكان الثلج يسقط والريح تعصف والظلمة دامسة والترمومتر على ٤٦ تحت الصفر . جلد البرد انف ولسن ثم اصطدنا فقمتين وخروج الفقاقم الى البر نادر في هذا الوقت وذهب هدصن الى غرفة المائدة ومعهُ العناكب والسراطين التي اصطادها لكي يشرح طبائعها للرفاق وكل منا يشرح لهم في دوره بعض الامور العلمية مرة في الاسبوع . وقد رفعت درجة الحرارة في غرفة الجلوس فوق الستين فذاب الجليد في غرفتي وبلل ثيابي »

ولما عادت الشمس في الثاني والعشرين من شهر اغسطس خرجنا من السفينة كلنا لاستقبالها ولا يعلم ما يشعر بهِ المرء من البهجة حين رؤية الشمس الا اذا حجبت عن

بصره شهوراً متوالية . فنظرنا الى السماء كلنا كأن فيها عنصر الحياة وتلقفنا اشعة شمسها كما يتلقف العطاش بارد الماء حتى الغيوم رقصت طرباً وتوشت حواشيها بالوان قوس السحاب . ولما توارت الشمس في الحجاب وانبسط الشفق وراءها ظهر فيهِ الهلال كالعرجون القديم

ودنا حينئذ زمن المزالق فجعلنا نمرن الكلاب على جرها ونعد الخيام والمؤن وكان لابد لنا من ان نزن كل شيء وزناً دقيقاً لان المرء لايستطيع ان يجر اكثر من زاد ستة اسابيع واذا اردنا ان تطول مدة سفرنا اكثر من ذلك فلا بد من تقليل طعامنا

ولما شرعنا في السير كان الترمومتر على ٥٧ تحت الصفر أي ان البرد كان على اشده فلم نسر تسعة ايام حتى اضطررنا ان نعود ادراجنا من شدة البرد ولم نكن نخلع ثيابنا بل كنا ننام فيها الا جواربنا فاننا كنا نخلعها ليلا والا جلدت اقدامنا لان الاقدام تدفأ بانحصارها ضمن احذية الفرو فتترطب ثم تبرد وتجلد

وكنا ننام في اكياس صفقية لايدخلها الهواء كان ثقل الكيس منها اولاً ١٤ رطلاً ولكنها ثقلت رويداً رويداً بما تجمع عليها من ابخرة انفاسنا فبلغ ثقل الكيس منها لما رجعنا ٢٨ رطلا . وكنا في الصباح نلف الكيس لنحمله وفي المساء ننشره وندخل فيهِ فتذيب حرارة ابداننا بعض الجليد اللاصق بهِ او المتخلل نسيجهُ فيصير داخلهُ رطباً ونعلق جواربنا خارجاً عسى ان تتبخر الرطوبة منها فنجدها في الصباح مجلودة فنضع اقدامنا فيها رغماً عنا ويمضي على الواحد منا ثلاثة ارباع الساعة قبلما يتمكن من لبس جواربهِ وحذاءهِ . فكنا ننهض الساعة الخامسة صباحاً فنقضي ساعتين في رفع اثقالنا قبل الشروع في السير ولم نكن نشعر براحة الا حين نعود الى اكياسنا في الليل التالي وندخن قليلا من التبغ اما ونحن سائرون جنوباً فلم نستطع ان نحمل التبغ معنا ، فحرمنا تلك اللذة ثلاثة اشهر متوالية وبلغنا حينئذ الدرجة ١٧ و٨٢ من العرض الجنوبي فابعدنا مئتي ميل عن ابعد ما وصل اليهِ غيرنا جنوباً ولم نخلع ثيابنا الا مرة واحدة وكنا حينئذ ثلاثة انا والدكتور ولسن والقبطان سكوت وقضينا في ذلك السفر ٩٤ يوماً وكنا نسير في اليوم ١٥ ميلا فلا نتقدم اكثر من خمسة اميال لان كلابنا مات اكثرها فكنا نضطر ان نتقدم خمسة اميال بنصف مزالقنا ثم نعود ادراجنا

ونجر النصف الثاني ودمنا على ذلك شهراً من الزمان الى ان بلغنا مرتفعاً من الارض حيث نستطيع ان نبقي بعض امتعتنا ولا نضل عنها فابقينا هناك كل ما يمكننا الاستغناء عنه وسرنا ببقية الامتعة والكلاب سيراً حثيثاً وجعلنا نقتر على انفسنا في الطعام فلا نأكل الا قليلا من السكر واللحم المقدد والبسكوت ولم يعد معنا ما نطعم الكلاب فكنا نذبح الكلب منها ونطعم رفاقه لحمه فعاش بعضها على بعض . وبلغ النصب منا ان صرنا لانستطيع في المساء رفع اقدامنا ودخول الخيمة ما لم نرفعها بايدينا . وصرنا نحلم بالطعام لشدة ما عرانا من الجوع وكثيراً ما كنت احلم ان امامي قطائف بحلوى وامد يدي اليها فتختفي من امامي . وكان واحد من رفيقيّ يحلم انه يأكل دائماً لكن الطعام لا يشبعه فيبقى جائعاً . ومرت الايام ونحن نقدم في سيرنا رويداً رويداً الى الحادي والثلاثين من دسمبر فبلغنا ابعد نقطة وصلنا اليها ونشرنا هناك العلم البريطاني

وها خلاصة ما كتبته في يوميتي في ٢٥ دسمبر يوم عيد الميلاد سنة ١٩٠٢

اليوم من اجمل الايام واقلها برداً واصفاها سماء ولقد اسرعنا في سيرنا بعد ان خففنا اثقالنا فصرنا نقطع عشرة اميال في اليوم . افطرنا على قليل من اللحم والبسكوت ومربى كبوش العليق وقد اتينا بهِ معنا من السفينة لهذه الغاية . اكل كل منا ملعقة منهُ ثم صوّرت رفيقيّ والعلم البريطاني فوق رأسيهما . ومشينا بعد ذلك اربع ساعات وجلسنا للغداء وسخنا طعامنا قبل اكلهِ وكان دوري في الطبخ . ومشينا ثلاث ساعات ونصبنا خيمتنا للمبيت وسخنت طعام العشاء وكان عشاء فاخراً فيهِ الكوكوى والبلم بدن وعزمنا ان لا نبعد اكثر مما نصل اليهِ في الثامن والعشرين من الشهر لان علامات مرض الاسكربوط كانت قد بدت فينا

« لكننا واصلنا السير حتى الحادي والثلاثين من الشهر ووقفنا حيث وصلنا وعن يميننا جبل شاهق يناطح السحاب ارتفاعهُ اربعة عشر الف قدم والجنوب والشرق منا سهل منبسط من الجليد لاحد له غير الافق والى الشمال شمس مشرقة يتدفق النور منها وهي تدور حولنا يوماً بعد يوم من غير ان تغرب . وقد نفد اكثر طعامنا وبدت علامات الاسكربوط فينا ولم يبق من كلابنا الا القليل وصار بعدنا عن السفينة نحو ٣٠٠ ميل فاضطررنا ان نعود ادراجنا رغماً عن انوفنا فحولنا وجوهنا نحو الشمال وسرنا القهقرى على ما بنا من التعب والضعف .

« ثم اعترانا البهر فان نور الشمس كان ينعكس عن الثلج ويعمي بصرنا والذي يصاب بذلك يضطر ان يربط عينيهِ ويسير متلمساً حتى اذا انقضى سير النهار لم يجد في المساء غير قليل من الطعام لا يشبع جائعاً وهاك فقرة مما كتبتهُ ونحن راجعون

« ١٠ يناير مضى عليَّ يومان لم استطع ان اكتب فيهما كلمة لانني كنت مصاباً بالبهر. ذبحنا « كد » البارحة ومات « بوس » (اسما كلبين) سرنا خمسة اميال ونصف ميل قبل الظهر وثلاثة اميال ونصف ميل بعده . عصفت الريح ومعها ثلج رطب فذاب الثلج في خيمتنا وقضينا الليل كأننا في بركة ماء ولم يبق معنا الا ثلاثة كلاب »

« ١١ يناير لا تزال الريح تهب ومعها ثلج ناعم رطب . سرنا ثمانية اميال ولم يبق معنا الا كلبان »

ووصلنا الى حيث تركنا امتعتنا فخمانا الطعام وتركنا كل ما سواه واصابني نزف دم هناك فلم اعد اعي على شيء ولولا رفيقاي لقضي عليَّ فانهما جرَّا المزالق وحدهما وكانا يعاونانني على السير مع ما بهما من الضعف وبلغنا سفينتنا في الثالث من شهر فبراير فوجدنا هناك السفينة المسماة بالصباح وكانت قد ارسلت للتفتيش عنا وانقاذنا . وذهب رفاقنا فرقاً فرقاً للبحث والاستقصاء فلقي اكثرهم من المشاق اكثر مما لقينا انتهى

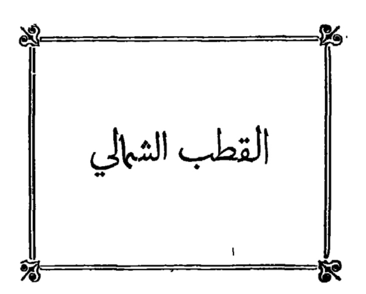
وخلاصة ما يقال عن سفر هذه السفينة ان جماعة من الانكليز — محبي الاكتشاف الراغبين في مصلحة وطنهم ورفع شأنهِ واحراز قصب السبق له في كل مفخرة — اكتتبوا بمال لارساله الى ابعد ما وصل اليهِ الناس جنوباً لاجل المكتشفات العلمية ولرفع العلم البريطاني على ما يمكن ان يكتشف من الاراضي فعاونتهم الحكومة الانكليزية بخمسة واربعين الف جنيه واقلعت السفينة من بلاد الانكليز في السادس من شهر اغسطس سنة ١٩٠١ بقيادة القبطان سكوت بعد ان زارها الملك والملكة فبلغت زيلندا الجديدة في اوائل دسمبر وغادرتها ليلة عيد الميلاد وكان فيها حينئذ ١١ ضابطاً و٣٧ بحاراً و٢٣ كلباً من كلاب المنطقة الشمالية لجر المزالق فسارت اولاً ١٠٠٠ ميل الى الجنوب ووجدت الثلج هناك فخاضت فيهِ ٥٠٠ ميل وبلغت شاطىء البر الجنوبي في ٩ يناير سنة ١٩٠٢ والظاهر ان حول القطب الجنوبي براً واسعاً اوسع من استراليا . والقطب الجنوبي في مركزه فلما بلغتهُ سارت بازاء شاطئهِ الشمالي ثم عادت الى لحف جبل اريس حيث شتت وهو بركان كبير يبعد عن زيلندا الجديدة نحو الفي ميل جنوباً واطبق الليل

عليها من ابريل الى اغسطس وجلد البحر حولها مسافة مئات من الاميال وبقي كذلك نحو عشرة شهور فانقطعت اخبارها

وفي اوائل نوفمبر قام القبطان سكوت والدكتور ولسن والملازم شكلتون واخذوا الكلاب كلها معهم وساروا جنوباً وجرى لهم ما اشير اليهِ في الفصل السابق ولما رجعوا وجدوا ان السفينة التي بعثت بها الجمعية الجغرافية الملكية وهي المسماة بالمورننج (الصباح) قد جاءت لمعونتهم فاوصلت اليهم كثيراً من الزاد وكذلك وصلت اليهم سفينة أخرى اسمها ترّانوفا وبعد عناء شديد انفك الجليد من حول سفينة الدسكفري وعادت الى انكلترا بمن فيها من الرجال وما جمعوه من الآثار الطبيعية وما كتبوه من الارصاد الجوية والفلكية وكان لرجوعها شأن كبير في اوروبا وقد جاءتنا شركة روتر التلغرافية بتلغراف في اول ابريل من مدينة لتلتون تقول فيهِ « وصلت السفن الثلاث المرسلة الى جهات القطب الجنوبي (وهي دسكفري ومورننج وترّانوفا) وقد ادركت الاخيرتان الاولى في فبراير فوجدتا كل من فيها بخير وقضى علماؤها والرواد فيها فصل الشتاء سنة ١٩٠٣ في ابحاثهم العلمية ثم جاء الربيع وكلهم في الصحة والاعتدال. وقد تحققوا ان بلاد فكتوريا لند تمتد الى الداخل على ارتفاع تسعة آلاف قدم فاستدلوا من ذلك على وجود بر واسع مرتفع حول القطب الجنوبي » هذا شأن الاوروبيين يبذلون النفس والنفيس في البحث والاستقصاء لكي تتسع معارفهم ويكون لهم السبق في كل شيء

(مقتطف مايو سنة ١٩٠٤)

—o:o—


القطب الشمالي

الدكتور نِنسن والرحلة القطبية

دفعت جريدة الدايلي كرونكل الانكليزية الى الدكتور ننسن الرحالة الشهير اربعة آلاف جنيه على ثلاث رسائل مختصرة وصف بها سياحتهُ في الانحاء القطبية . فتشوف كثيرون من القراء الى مطالعة هذه الرسائل والاطلاع على ما فيها من الغرائب فرأينا ان نوافيهم بترجمتها وابقينا الكلام بلسان الدكتور ننسن مع ايجازنا فيهِ واضفنا اليهِ صوراً تتم بها الفائدة . قال : لم اكد انظر في الاسلوب الذي يجري عليهِ روّاد الانحاء القطبية حتى تبين لي انهُ ليس افضل الاساليبَ الموصلة الى المراد . وكان المعروف ان الجليد الذي يغطي البحر حول القطبة الشمالية يتقدم من الشمال الى الجنوب رويداً رويداً فيمنع سير السفن او يكسرها واذا سار الناس عليهِ بالمزالق بقوا في مكانهم او رجعوا الى الوراء لان سير الجليد جنوباً يساوي سير المزالق عليهِ شمالا او يزيد عليهِ . اما انا فانتبهت الى امر لم ينتبهُ اليهِ غيري وهو ان بعض الاشياء مما كان في السفينة « جنت » التي غرقت في الشمال الشرقي من جزائر سيبيريا الجديدة وجدت على الشاطئ الجنوبي الغربي من جزيرة غرينلندا فقلت في نفسي ان هذه الاشياء لم تبلغ شاطئ غرينلندا الا لانها جرت من نفسها على سطح الجليد ومرت على القطبة الشمالية في طريقها وعليهِ فاذا التصقت سفينة ببحر الجليد الذي يغطي الجهات الشمالية الشرقية وسلمت نفسها لرحمتهِ فهو يجري بها من نفسهِ كما جرى بتلك الاشياء من سيبيريا الجديدة الى غرينلندا . وجاهرت برأيي هذا في الجمعية الجغرافية الملكية بخطبة القيتها فيها في نوفمبر (ت ٢) سنة ١٨٩٢ بانياً كلامي على الامور الثلاثة الآتية وهي

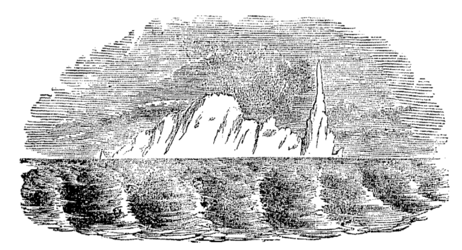
(١) وجود قطع من الخشب على شاطئ غرينلندا واردة من سيبيريا

(٢) وجود بعض عصي الاسكيمو على شاطئ غرينلندا وهي مما يرميهِ الاسكيمو للصيد في بلاد الاسكا

(٣) عظم جبال الجليد التي تجري عند شاطئ غرينلندا الشرقي فان جرمها يدل على انها جرت مسافة طويلة في بحر مغطى بالجليد (كما ترى في الشكل الاول على الصفحة التالية وهو صورة قطعة كبيرة من الجليد جارية في البحر كالجبل الكبير)

ووجدت على الجليد الذي يجري في البحر الشرقي غرينلندا غباراً ثبت بالبحث

فيهِ ميكروسكوبياً انهُ من غبار سيبيريا وهذا يدل دلالة واضحة على انهُ جرى من نفسهِ من شواطئ سيبيريا الى شرقي غرينلندا . وقلت في ختام تلك الخطبة انهُ يتبين من هذه الادلة ان في الاقطار القطبية تياراً يجري من البحر شمالي سيبيريا وبوغاز بهرنغ الى البحر الذي بين سبتسبرجن وغرينلندا ماراً بارض رنس جوزف ولذلك فمن شاء دخول تلك الاقطار المجهولة فعليهِ ان يسلم نفسهُ للجليد بقرب جزائر سيبيريا الجديدة فيجري الجليد بهِ عفواً في تلك الاقطار غير سائل اجراً ولا شكوراً



الشكل الاول

(تظهر هذه الاماكن للقارئ من النظر الى الشكل الثاني على الصفحة التالية وهو خريطة القطبة الشمالية والبحار والجزائر والبلدان التي حولها الى حد الدائرة الشمالية . وقد رسمنا فيهِ طريق ننسن في ذهابهِ وايابهِ كما سيجيء)

ولم اقل حينئذ ان هذا السبيل يوصل الى القطبة الشمالية نفسها بل انهُ يوصل الى انحائها المجهولة وهي الغرض المقصود بالذات

واتضح لي حينئذ انهُ يمكننا ان ننال هذا الغرض باسلوب من اسلوبين الاول بناء سفينة متينة جداً تحتمل ضغط الجليد فنذهب بها الى حيث الجليد يجري من نفسهِ كما تقدم ونقيم فيها ونسلمها الى رحمتهِ فيجري بها رويداً رويداً الى ان يمر بالاقطار الشمالية المجهولة . والاسلوب الثاني ان نسير في قوارب صغيرة الى حيث الجليد يجري من نفسهِ وننصب خيامنا عليهِ ونقيم فيها وهو يجري بنا وبها فيعبر الاقطار المجهولة . واخترت الاسلوب الاول ولكنني اخذت الاهبة للاسلوب الثاني ايضاً اذا تغلب ضغط الجليد على سفينتنا فكسرها . وبذلت الجهد حتى تكون السفينة مما يحتمل كل ضغط

مهما كان شديداً واهتديت الى رجل نروجي من صانعي السفن بنى لي سفينة لم يبن امتن منها قط بالنسبة الى جرمها وهي سفينة الفرام التي دخلت بي الاقطار القطبيـة وعادت منها سالمة (وهنا اطنب في وصف هذه السفينة وكمال معداتها وقال انهُ لولا اتقانها ما بلغ تلك الاقطار . واسهب في اعتراض الناس عليـهِ ومنهم الجنرال غريلي الرحالة الاميركي الشهير . ثم قال)

إلا ان ذلك كلهُ لم يثن من عزمي . وكان مجلس النواب النروجي قد وهبني المال الذي طلبتهُ لهذه الرحلة لكن هذا المال نفد في بناء السفينة فمنحني مبلغاً آخر من المال عن طيب نفس

وفي الرابع والعشرين من شهر يونيو (حزيران) سـنة ١٨٩٣ سارت السفينة على اهبة السفر وفي الحادي والعشرين من شهر يوليو (تموز) بلغنا مرفأ ڤردو وهو اقصى مرافىء نروج الشمالية (كما ترى في الشكل الثاني) فقمنا منهُ وسرنا شرقاً واخذنا في طريقنا ٣٤ كلباً من كلاب المزالق السيبيرية وظللنا نسير الى ان دخلنا بحر كارا الكثير المخاطر فلقيناه مغطى بالجليد ولـكن لم يتعذر علينا وجود طريق فيهِ بجانب الشاطىء فسرنا الى ان ضيق الجليد علينـا الخناق ومنعنا عن السير . وكان ذلك في السادس من شهر اغسطس (آب) فنزلنا على الشاطىء وقضينا الوقت في البحث عن نباتات البلاد وبنية ارضها وضافنا هناك اثنان من السكان وهما آخر من شاهدناه من نوع الانسان

وفي الثاني عشر من اغسطس انفتح الجليد في طريقنا فسرنا الهوينا وكانت العواصف تهب في وجوهنا من الشمال الشرقي فتعيق سيرنا ودامت على ذلك اياماً واسابيع الى ان بلغنا مينا دكسن وكنا عازمين ان نبقي رسائلنا هناك لـكي يعود بهـا الرحالة وغنس الانكليزي الى اهلنا لـكن الفرصة كانت اثمن من ان نضيعها بالنزول الى البر فواصانا السير واكتشفنا جزائر كثيرة امام شاطىء سيبيريا لم تكن معروفة ورأينا ذلك الشاطىء يختلف عما يرسم في الخرائط عادةً وهو كثير الاجوان والخلجان والصخور والجزائر . ظاهره يدل على ان انهر الجليد تجري فيهِ وان بلاد سيبيريا كانت مغطاة ببحر من الجليد منذ عهد غير بعيد

وفي العشرين من اغسطس نزلنا على بعض الجزائر واصطدنا دببن وبعض الاياثل

ولما اردنا استئناف المسير عصفت الانواء فصدَّتنا اربعة ايام وحاولنا حينئذٍ ان نسير شمالاً فصدتنا الجزائر والجليد المتراكم فعدنا ادراجنا وعزمنا ان نشتي في تلك الانحاء لـكن العواصف كسّرت الجليد وفتحت لنا طريقاً فيهِ فعاودنا السير في السادس من سبتمبر (ايلول) وكنا حينئذ في بوغاز تامير وهو أضيق مما يرسم في الخرائط . وسرنا نحو راس تشليوسكن فبلغناهُ في ٧ سبتمبر وحينئذٍ ضيَّق علينا الجليد الخناق فوقفت السفينة ونزلتُ الى البر فرأيتهُ سهولاً فسيحة فيها كثير من حجارة الغرانيت الـكبيرة مما جرت انهر الجليد بهِ في غابر الزمان ثم طرحتهُ في طريقها حينما ذابت

وفي التاسع من سبتمبر انحل قيد الجليد فسرنا شمالاً ولـكننا لم نبعد كثيراً حتى اعترضتنا جبال الجليد فصدتنا عن السير . وفي الخامس عشر منهُ وصلنا الى امام نهر اولنك فوجدنا ستة وعشرين كلباً من كلاب المزالق في انتظارنا وكان البارون تول قد اعدها لنا لان كلاب شرقي سيبيريا اقدر على الجري واحتمال المشاق من كلاب غربيها . ولم اجسر ان ادنو من الشاطىء لان البحر رقارق فخفت ان تجنح السفينة بنا فنضطر ان نقيم السنة كلها هناك فسرنا سيراً حثيثاً حتى مررنا امام جزائر سيبيريا الجديدة

وكان البارون تول قد اعد لنا المعدات اللازمة في تلك الجزائر حتى اذا اضطررنا ان نترك السفينة نجد من المؤونة ووسائط السفر ما يسهل علينا العودة الى بلادنا لـكنني لم انزل الى البر لاراها وبقينا سائرين الى العشرين من سبتمبر وحينئذٍ قام الجليد في وجهنا كالسور المنيع

وفي الثاني والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٩٢ لصقت سفينتنا بجبل من الجليد والتحمت بهِ وكنا حينئذ عند الدرجة الثامنة والسبعين والدقيقة الخمسين من العرض الشمالي والدرجة ١٣٣ والدقيقة ٣٧ من الطول الشرقي وللحال احاط بنا الجليد من كل ناحية فسلمنا نفسنا لهُ فجرى بنا شمالاً في اول الامر ثم عصفت الرياح الشمالية فردتنا جنوباً حتى خفنا ان تحبط كل مساعينا وظللنا على مثل ذلك الى الثامن من نوفمبر وحينئذ عاد الجليد يجري بالسفينة الى الجهة الشمالية الغربية كما قدرت في اول هذه الرحلة واشتد ضغطهُ على السفينة في اوائل اكتوبر ودام فصل الشتاء كلهُ وكان يزيد وينقص مرتين كل يوم بحسب المد والجزر ولذلك اشتد فعلهُ ايام مد الربيع وكنا نسمع لوقوعهِ على السفينة إصواتاً قاصفة ترتعد لها فرائصنا ولولا متانتها الفائقة الحد لسحقها سحقاً ولكنهُ لم يؤثر فيها اقل تأثير . وكثيراً ما كان صوت صدمهِ لها يشتد

ويتوالى حتى يصم آذاننا ويمنعنا من سماع بعضنا بعضاً . ثم القناه ولم نعـد نعبأ بهِ اذ ثبت لنا اننا في حصن حصين وحرز حريز . وكانت السفينة فوق ذلك محكمة الاوصال فلم نشعر فيها بالبرد الشديد

(ترى في الشكل الثالث على الصفحة التالية صورة سفينة يحيط بها الجليد وهي واقفة لا تستطيع حراكا)

وهبطت الحرارة بغتة وظلّ البرد شـديداً كل فصل الشتاء والزمهرير حتى ان الزيبق جمد في الترمومتر اسابيع كثيرة . وبلغ البرد الدرجـة الثالثة والستين تحت الصفر لكن ثيابنا كانت سميكة مغطاة بنسيج لا تخرقهُ الرياح فلم نـكن نشعر بالبرد ولو مشينا في الهواء ولم نضطر ان نشعل النار في غرف السفينة حتى شهر يناير (ك ٢)

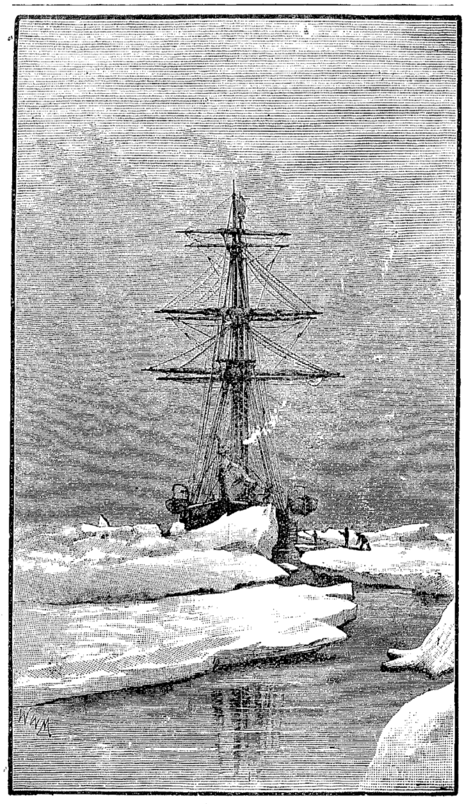
كانت صحة رجالنا على ما يرام واجمع رأينا على ان الاصقاع القطبية موافقه للصحة لمن كان في سفينة مثـل سفينتنا . وكان في السفينة دولاب تديره الرياح فتتحول قوة حركتها الى كهربائية تنير ليلنا الطويل فاذا هجعت الريح كنا نستصبح بالزيت

مرت الايام ونحن على ما يرام من الالفة والوئام ولـكل منا عمل يعمل بهِ خوفاً من السآمة والضجر . وكان عنـدنا كتب كثيرة للمطالعة وآلات موسيقية . والذين كانوا يهتمون بالمسائل العلمية مناكان شغلهم اكثر من طاقتهم في المراقبات الجوية والمغنطيسية والفلكية والنباتية والحيوانية والفسيولوجية والطبية وما اشبه

ووجدنا ان عمق البحر عند شواطىء سيبيريا قليل جداً ليس اكثر من تسعين قامة ثم يزيد بغتة بالتقدم شمالا فيبلغ ١٦٠٠ الى ١٩٠٠ قامة . وهذا مخالف لما ظنهُ البعض من ان البحر رقارق في الانحاء القطبية . ولم نجد في ما كنا نستخرجهُ من قاع البحر شيئاً من المواد الحيوانية دلالة على ان الاحياء لاتقيم في تلك الاعمـاق . والماء تحت الجليد ليس شديد البرودة بل هو حار نوعاً وملوحتـهُ شديدة ولعلهُ جار الى هناك مع تيار الخليج الآتي من خليج المكسيك فانحرارته تبلغ درجة فوق درجة الجليد ولكن تحت هذا الماء الحار ماء ابرد منهُ وهو مع ذلك احر مما يظن

ولم يكن جريان الجليد بالسفينة منتظماً في جهتهِ ولا في سرعتهِ وكثيراً ما كنا نعود ادراجنا ثم نتقدم ثانية كما يظهر من الخريطة السابقة ولكن مجمل سيرنا كان الى الغرب الشمالي في الشتاء والربيع ثم كنا نقف مكاننا صيفاً لان الرياح الشماليـة كانت تصدنا عن السير

وفي الثالث عشر من شهر يونيو بلغنا الدرجة الحادية والثمانين والدقيقة الثانية والخمسين من العرض ثم صدتنا الرياح الشمالية الغربية واعادتنا على اعقابنا وبقينا ذلك



الشكل الثالث

الصيف كلهُ في تقهقر حتى الحادي والعشرين من اكتوبر فبلغنا الدرجة الثانية والثمانين

من العرض ولم تنته سنة ١٨٩٤ حتى بلغنا الدرجة الثالثة والثمانين والدقيقة الرابعة والعشرين

وفي الرابع من يناير (ك ٢) سنة ١٨٩٥ بلغ ضغط الجليد على سفينتنا مبلغاً لم يبلغهُ قبلاً فان سمكه صار حينئذ ثلاثين قدماً فشدّ عليها شدّاً عنيفاً وكانت قطعهُ ترد تباعاً ويلطم بعضها بعضاً فتراكمت حول السفينة حتى كادت تغطيها وانقطع املنا من نجاتها لاننا قلنا إما ان تنكسر واما ان يطمرها الجليد . فنزلنا منها وانزلنا كل ما نحتاج اليهِ من الاطعمة والآنية والوقود والخيام والمزالق ونصبنا خيامنا على الجليد واقمنا فيها . لكن السفينة قويت على ذلك الضغط الشديد وتملصت من الجليد المحيط بها وعلت فوقهُ ولم يكسر لوح من الواحها ولا ضلع من اضلاعها فعدنا اليها واخذت تجري بنا في الجهة الشمالية الشرقية

وتبيَّن لي حينئذ انها ستصل من نفسها الى اقصى ما يمكنها البلوغ اليهِ شمالي ارض فرنس جوزف (جزائر في اقصى الشمال) . ثم تبلغ البحر شمالي سبتسبرجن في اوائل الصيف المقبل (انظر الشكل الثاني) واردت ان اعرف احوال الاماكن التي شمالي طريقنا ولا يكون ذلك الا بواسطة المزالق ومعلوم انهُ اذا ابعد احد منا عن السفينة تعذر عليهِ ان يجدها ثانية في تلك الاصقاع فلم يسلم ضميري ان اكلف احداً بهذه المهمة فاخذتها على نفسي واخترت من رفاقي واحداً فقط وهو الملازم جنسن واخبرتهُ بما عزمت عليهِ فقبل ان يذهب معي عن طيب نفس فسلمت قيادة السفينة لرجل من رجالها اعتقد كفاءتهُ واثقاً انهُ يعود بها وبمن فيها سللين . ومضى فصل الشتاء وانا اتهيأ لمغادرة السفينة وصنعت مزالق متينة لتجرها الكلاب ولو كان الجليد كثير الحزون وبنيت قاربين طول كلّ منهما ١٢ قدماً وهو يسع رجلاً وما يلزم له من المؤونة اربعة اشهر صنعتهما من القنا الهندي وغطيتها بالمشمع وبلغ وزن كل منهما ٤٠ ليبرة فقط . وكانت المؤونة لحماً وسمكاً مقددين وخبزاً وزبدة

كان غرضي ان اغادر السفينة حالما يشرق فجر النهار القطبي في السادس والعشرين من فبراير نزلت منها بست مزالق و٢٨ كلباً والقاربين والمؤونة اللازمة لي ولجنسن وللكلاب وسرنا اربعة ايام متوالية فوجدنا ان كلابنا لا تستطيع جر ما معنا لان سطح الجليد غير مستو بل كثير الحزون فعزمنا على العودة الى السفينة لتخفيف احمالنا وفيما

نحن عائدون اشرقت الشمس فوق الافق وكان ذلك في الثالث من شهر مارس (اذار) فاذا نحن بابدع منظر شاهدناه منذ دخولنا الاصقاع القطبية بعد ليلها الطويل ووجدنا بالرصد اننا بلغنا الدرجة الرابعة والثمانين والدقيقة الرابعة من العرض الشمالي

فلما وصلنا الى السفينة خففنا احمالنا فلم نبق منها الا زاداً يكفينا مئة يوم ويكفي كلابنا ثلاثين يوماً وقمنا في الرابع عشر من شهر مارس (اذار) وودعنا رفاقنا واخذنا معنا ثلاثة مزالق فقط والقاربين والكلاب الثمانية والعشرين . وفي الثاني والعشرين من مارس بلغنا الدرجة الخامسة والثمانين والدقيقة العاشرة من العرض . وكنا كلما مر يوم يسهل سيرنا بخفة زادنا ولكن كانت العوائق كثيرة من الانواء والزوابع وقطع الجليد المتراكمة في طريقنا فكنا كلما وصلنا الى حاجز منها نضطر ان نحمل المزالق على اكتافنا ونقطع الحاجز بها ولا نتخلص من عائق حتى يصادفنا آخر وكأن قطع الجليد جيوش من الكماة في حرب وصدام تجتمع وتفترق حولنا ويلطم بعضها بعضاً باصوات مزعجة

وفي السابع من ابريل (نيسان) بلغنا الدرجة السادسة والثمانين والدقيقة الرابعة عشرة من العرض الشمالي ولكن سطح الجليد كان يزداد حزوناً حتى يئست من مواصلة السير عليه فخرجت اسعى وحدي بعد ان لبست خفيّ الطويلين وصعدت على اعلى مرتفع وجدتهُ واستطلعت ما حولي من البلاد فلم ار ارضاً ولا ما يدل على ارض بل ظهر لي ان الرياح تسوق الجليد كيفما شاءت فلا يعيقهُ شيء . وارجح انهُ لا توجد ارض بقرب القطبية الشمالية من هذه الجهة ولو فرضنا وجودها من الجهة الاخرى

وبقيت حرارة الهواء على الدرجة ٤٠ تحت الصفر ثلاثة اسابيع متوالية وارتفعت في غرة ابريل الى الدرجة الثامنة تحت الصفر ثم عادت فهبطت الى الدرجة السادسة والثلاثين وكنا قد تركنا ثيابنا الدافئة (وهي من فراء الذئاب) في السفينة تخفيفاً للحمل فقرصنا البرد وكان عرقنا يصير جليداً في ثيابنا كل صباح فتيبس علينا وتصير كدروع الحديد حتى اذا دخلنا الكيس الذي ننام فيهِ نبقى ساعة قبلما يذوب الجليد من ثيابنا وتمضي نصف ساعة اخرى قبلما تدب فينا الحرارة . وحالما نخرج من الكيس في الصباح تجلد ثيابنا ثانيةً . وبلغت الحرارة في شهر مارس الدرجة التاسعة والاربعين تحت الصفر

وفي الثامن من ابريل يئسنا من التقدم نحو القطب الشمالية فدرنا نحو جزائر فرنس جوزف . وقد لقيا في عودتهما من المخاطر ما يشيب الولدان

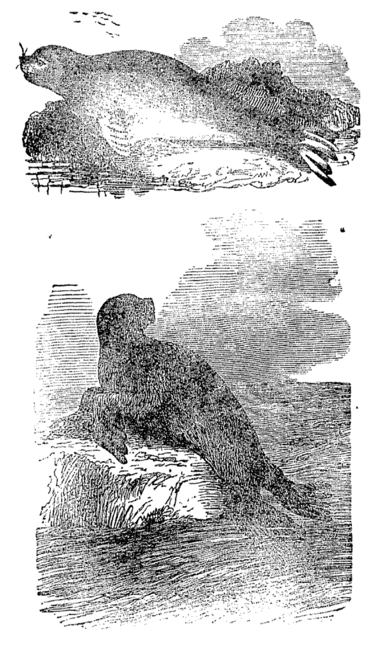
***

وفي الثامن من ابريل حوّلنا وجهنا نحو الجنوب نحو ارض فرنس جوزف لكي نعود الى الوطن . وكان كل منا يدير ساعتهُ كل ليلة قبلما يدخل كيسهُ الذي ينام فيهِ. وفي الثاني عشر من ابريل واصلنا السير بالسرى ستاً وثلاثين ساعة ولما اردنا النوم نظرنا الى ساعتينا فاذا هما واقفتان فندمنا على ما فرط منا ولات ساعة مندم . وقمت في الصباح ارقب الشمس وادرت ساعتي بحسبها واردت ان اصحح الوقت برصد القمر فوجدت اني تركت الزيج في السفينة سهواً

ولما بلغنا الدرجة الخامسة والثمانين وذلك في الخامس والعشرين من ابريل رأينا على الجليد آثار ثعابين من ثعالب تلك البلاد فاستنتجنا اننا قريبون من البر ولكننا نظرنا حوالينا فلم نر براً ولا ما يدل عليهِ ولم يكن سطح الجليد متصلاً بل كانت فيهِ ثغر كثيرة واخاديد كبيرة مغطاة بقشرة رقيقة من الجليد فلا يمكننا الوثوب من فوقها ولا الدوس عليها فكنا نضطر ان ندور حولها وكثيراً ما كنا ندور اميالاً كثيرة ثم نعود طريقنا الاول فيمضي نصف يوم من غير ان نتقدم خطوة . وكثرت هذه الاخاديد بتقدمنا جنوباً فعاقت سيرنا وكاد زادنا ينفد فاخذنا نقتل الكلاب التي معنا واحداً بعد الآخر ونطعم لحمها لرفاقها . وقد عافت الكلاب اولاً أكل اخواتها ولكن الجوع كافر فألفت ما نفرت منهُ وبلغ منها القرم والجوع اخيراً ان صارت اذا قتلنا واحداً منها لا تدع دمهُ يصل الى الارض . وهزلت ابدانها رويداً رويداً لقلة الطعام حتى لم تعد تستطيع السير ولم يبق لنا مناص من قتلها

وزادت الاخاديد في شهر يونيو (حزيران) حتى كاد السير يتعذر علينا وقل زادنا فصرنا نتبلغ بهِ تبلغاً . وكنت احسب اننا سنصيب ارضاً شمالي ارض فرنس جوزف وهي التي ذكرت في خريطة بير وسميت ارض بترمن ولكن مضت الايام والشهور ونحن نسير في طلب هذه الارض لعلنا نجد فيها صيداً نصطاده فلم نعثر عليها . واخيراً رأينا حيواناً كبيراً من نوع الفقمة (ترى صورتهُ على الصفحة التالية) فطابت نفوسنا برؤيتهِ وعالجناه برصاصة اصابت منهُ مقتلاً فعزمنا ان نلقي هناك عصانا فنتغذى بلحم

هذا الحيوان وننتظر الى ان يذوب الجليد . وكان ذلك في الثاني والعشرين من شهر يونيو (حزيران) . وبعد قليل التقينا بثلاثة ادباب فقتلناها وكثر علينا اللحم وعلى كلبينا الباقيين في قيد الحياة فأكلنا وشبعنا وطابت نفوسنا



ترى في هذا الشكل صورة فقمتين العليا منهما من النوع الغرينلندي والسفلى من النوع الاوقيانوسي والفقمة كثيرة في الانحاء الشمالية وتوجد ايضاً في الاوقيانوس الاتلنتيكي وفي البحر المتوسط

وفي الثاني والعشرين من شهر يوليو (تموز) سهل علينا السير على الجليد ولكن اصابتنا مصيبة كادت تقضي على رفيقي وذلك اننا وصلنا الى خليج واسع فاردنا ان نعبره بقاربينا وفيما انا مشتغل بانزال قاربي سمعت صرخة شديدة فالتفت واذا رفيقي

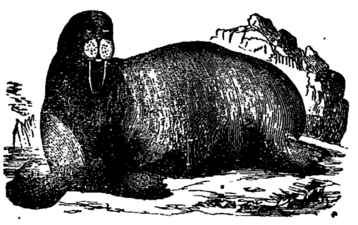
جونسن مطروح على ظهره وفوقهُ دب كبير وهو ماسك بخناق الدب وكانت بندقيتي على ظهر القارب فحاولت نزعها منهُ فوقع القارب في الماء وناداني جونسن قائلاً « اسرع اليّ والا هلكت » فلما سمعت ذلك اظلم الضياء في عينيّ فجذبت القارب جذبة عنيفة رفعتهُ بها من الماء واخرجت البندقية منهُ باسرع من لمح البصر واطلقتها على الدب ولانشغال بالي اطلقت الحديدة اليمنى وكانت محشوة خردقاً (رشاً) لا رصاصاً ولكنها اصابت منهُ مقتلاً فوقع يختبط بدمائهِ فاحتملناه طعاماً

وكثر الماء المكشوف حينئذ ولم يعد الجليد الذي عليهِ طبقة متصلة بل صار قطعاً متفرقة فاضطررنا ان نثب من قطعة الى اخرى ونحن في خطر الانقلاب كل لحظة ودمنا على ذلك اسبوعين كاملين

وفي السادس من اغسطس اصبنا ارضاً وذلك عند الدرجة الحادية والثمانين والدقيقة الثامنة والثلاثين وهي اربع جزر مغطاة بأنهر الجليد وامامها بحر مكشوف لا جليد عليهِ غير قطع كبيرة متفرقة فانزلنا قاربينا فيهِ وكان لم يزل معنا كلبان فقتلناهما لكي نريحهما من الموت جوعاً وسرنا نشق عباب ذلك البحر ورأينا هناك كثيراً من طيور الماء الوردية الصدر وهي اجمل ما يشاهد في تلك الاصقاع . وقد شوهد هذا الطائر قبلاً ولكن لم يعلم احد وطنهُ ولا من أين يأتي ولا إلى أين يذهب فثبت لنا حينئذٍ ان وطنه في تلك الجزائر وفيها يعشش ويفرخ ومنها يقطع الى غيرها ويعود اليها

ثم تكاثف الضباب فمنعنا عن رؤية ما امامنا . وانقشع بعد ايام فاذا نحن بارض فسيحة او سلسلة من الجزائر الى الغرب والجنوب منا فاستغربنا ذلك لاننا لم نجد لتلك الارض اثراً في خريطة پير فاستنتجت انني مخطىء في تقدير الطول او ان الجليد سار بنا مسافة طويلة جداً ونحن لا ندري وحسبت اننا اذا جددنا السير الى جهة الجنوب والجنوب الغربي وصلنا الى جزيرة سبتسبرجن فنجد فيها بعض سفن النروجيين الذين يصطادون الفظ فنركبها ونعود معهم الى الوطن . فبذلنا جهدنا تارة بالتجذيف في الماء حيث نجد الماء صالحاً لقاربينا وطوراً بجرهما على الجليد الى ان كان اليوم الثامن عشر من شهر اغسطس فعصفت الرياح بغتة وقذفت قطع الجليد نحو الشاطىء وحبستنا فيهِ اسبوعاً من الزمان وانحل قيدنا يومين ثم عاد الجليد فتراكم حولنا ومنعنا من السير

ورأينا حينئذ ان فصل الشتاء صار على الابواب ولا فائدة من الوصول الى جزيرة سبتسبرجن لو وصلنا اليها لان السفن تكون قد غادرتها فعزمنا ان نشتي حيث كنا ولا نضيع الوقت في السفر فيدهمنا الشتاء بقره ولياله الطويل قبل ان نصطاد ما يكفينا طعاماً فيهِ . فنزلنا على البر واخذنا من ساعتنا نصيد الفظ ونستخرج دهنه لكي نوقده في فصل الشتاء . والفظ حيوان كبير (ترى صورته على هذه الصفحة) يتعذر على رجلين ان يحملاه او يجراه فصرنا نرميهِ بالرصاص ونقتله ثم نجلس عليهِ ونسلخ جلده ونستخرج دهنه فتشربت ثيابنا من دهنهِ ولم تعد تصلح لوقايتنا من البرد ولم يكن عندنا غيرها . وكانت الادباب كثيرة فاصطدنا بعضها فصار عندنا من اللحم والجلود ما يكفينا . ثم اخذنا نبني كوخاً نأوي اليهِ ووجدنا حجارة بنيناه منها ومن الطحلب والجليد ووجدنا خشبة القاها البحر على الشاطىء فوضعناها فوق الحجارة وبسطنا



صورة الفظ

جلود الفظ فوقها واثقلناها بالحجارة وصنعنا للكوخ مدخنة من الجليد ليصعد الدخان منها ويتجدد الهواء فلا نموت اختناقاً . وكان طعامنا لحم الادباب ووقودنا دهن الفظ . وخطنا كيساً كبيراً من جلود الادباب كنا ننام فيهِ معاً وفرشنا تحتنا كثيراً من جلودها وكان معنا مصابيح كنا نملأها بدهن الفظ ونشعلها دواماً فتنير كوخنا وتسخن هواءه . وكان معنا قدر من الالومينيوم كنا نطبخ فيهِ طعامنا من لحم الادباب فنأكله مسلوقاً في الصباح ومقلواً في المساء. وكان الجانب الاكبر من كوخنا تحت الارض ولذلك ولان مصابيحنا كانت موقدة دائماً لم يزد البرد في اسفله عن درجة الجليد واما جدرانه فكانت باردة جداً يكسوها الجليد فينعكس نور المصابيح عنها ويخال لنا اننا في قصر مرصع باللآلىء لولا ما بنا من القرّ والقذر . وكان طول الكوخ عشرة اقدام وعرضه

ستاً وعلوه نحو قامة حتى نكاد نرفع رؤوسنا فيهِ .ولم يكن لنا شغل نشتغل بهِ فكنا نأكل وننام ونأكل يوماً بعد يوم واسبوعاً بعد آخر . واذا سكنت العواصف خرجنا من كوخنا ومشينا ساعة من الزمان لترويض ابداننا . وانقطع مجيء الادباب من نوفمبر (ت ٢) الى مارس (اذار) ولكن الثعالب بقيت تتردد علينا وتجلس على سطح كوخنا تقرض ما عليهِ من اللحم المقدد ونحن نسمع صوتها فنحلم ان الجرذان تقرض الطعام في منازلنا . وهي من النوع الابيض والنوع الاسود ولكننا لم نصطد شيئاً منها لان رصاصنا كان اثمن من ان نضيعهُ في صيدها . والدب اصغر حيوان رأينا ان نسخى عليهِ برصاصة . ومضى الشتاء ونحن في احسن صحة ولو كان معنا كتب ودقيق وسكر لعشنا عيشة الملوك

ثم دخل الربيع واشرقت الشمس وأتت الطيور . ولما رأيت اول عصابة منها شعرت كأن حياة جديدة دبّت في عروقي ووردت عصابات كثيرة بعدها فانتعشت نفسي برؤياها . ورأيت الافق في الجهة الجنوبية الشرقية اسود فقلت لا بد ان يكون ذلك انعكاساً عن بحر يسهل السير في مائهِ والجري مع جليده فاخذنا نستعدُّ للسفر

وكانت ثيابنا قد تمزقت وتراكم عليها الدهن والوسخ فخطنا ثوبين من الاحرمة التي معنا . وحاولنا غسل قمصاننا فلم نجد الى تنظيفها سبيلاً . ولم اشعر قط بالحاجة الى الصابون كما شعرت حينئذ . فجعلنا نفركها بدم الادباب والطحلب فلم تنظف وجربنا اساليب اخرى فلم تجد نفعاً واخيراً جعلنا نسلقها سلقاً ونكشط الوسخ عنها بالسكاكين فنظفت قليلاً فلبسناها ونحن نحسب ان لبس الثياب النظيفة سيكون اول نعمة ننالها في بلادنا اذا بلغناها سالمين . وصنعنا كيساً جديداً من جلود الادباب لننام فيهِ.وكان معنا خيمة من الحرير فمزقتها عواصف الخريف واضطررنا ان نخيط خيمة غيرها من شراع مزلقتينا .

وفي التاسع عشر من شهر مايو (ايار) شرعنا في السفر جنوباً وبلغنا البحر بعد خمسة ايام لكن العواصف منعتنا من النزول فيهِ حتى الثالث من شهر يونيو (حزيران) وكان الجليد يغطيهِ فسرنا عليهِ بالمزلقتين بعد ان نشرنا عليهما شراعاً وفي الثاني عشر من الشهر بلغنا طرف الجليد المتصل ورأينا الماء مبسوطاً امامنا كالمرآة فقرنا القاربين معاً ونشرنا عليهما شراع المزلقتين وسرنا سيراً حثيثاً بجانب الشاطيء . ونزلنا ذات

يوم على البر بعد ان ربطنا القاربين بقطعة ناشزة من الجليد ولم نبعد عنهما حتى انحل رباطهما وساقتهما الرياح الى قلب البحر وكان فيهما زادنا وبنادقنا ورصاصنا وبارودنا وكل ما نملكه في تلك البلاد المنقطعة فوقفنا ننظر اليهما كمن اصيب بجنة ولكن لم يكن الا لحظة حتى ثاب اليَّ عقلي فطرحت نفسي في الماء وجعلت اسبح وراءهما بكل جهدي لكن القاربين كانا اسرع مني لان شراعهما كان منشوراً وكانت الريح تسوقهما . وخدرت اعضائي من برد الماء حتى صار يعسر عليَّ استعمالها . لكن في الانسان قوة مذخورة الى حين الشدة فدبّت في بدني حينئذ من حيث لا ادري فوثبت الى القاربين كأني طائر ولم يكن الا برهة يسيرة حتى بلغتهما وصعدت عليهما وعدت بهما سالماً

والظاهر ان الحيوانات التي كنا نكثر من صيدها كالدب والفظ حقدت علينا وعزمت ان تثأر لاخواتها منا فجاءنا فظ منها في اليوم التالي وطعن جانب القارب بنابهِ الطويل فخرقهُ ودخل الماء من الخرق بسرعة حتى كدنا نغرق فدفعناه الى البر ونزلنا منهُ فنجونا ونجيناه من الغرق ولكن تبلل كل ما فيهِ من الاحرمة والصور الفوتوغرافية

وفي اليوم التالي قمت باكراً وصعدت على اكمة لكي اشاهد البـلاد التي حولنا فسمعت اصوات طيور البحر وهي كثيرة تصم الاذان وسمعت بينها صوتاً يخالفها وهو صوت نباح كلب سمعتهُ واضحاً حتى لم اشك فيهِ ولكنهُ ضاع بين اصوات الطيور فحسبت انهُ وهم . ثم عصفت الريح من تلك الجهة فسمعت الصوت ثانية. سمعتهُ واضحاً جداً فلم يبق في نفسي ريب انهُ صوت كلب واننا على مقربة من الناس فهرعت الى جونسن وايقظته قائلاً انني اسمع نباح كلب فلم يفهم ما قلت . فاكلت بلغة وشددت حذائي الطويل واسرعت الى الشاطىء واذا انا بالمستر جكسن (الذي نجاهما) ومن يصف ما طفح على قلبي من السرور حينئذ

***

لقينا عند جكسن ورفاقهِ من حسن الضيافة ما لم تر مثلهُ تلك الاقطار وكانوا بانتظار سفينة مزمعة ان تأتي اليهم بالمؤن فالحوا علينا لكي نقيم معهم الى حين مجيئها فنعود فيها فلم نر بدًّا من اجابة طلبهم والتنعم برفاه الحضارة بعد شظف العيش . فاغتسلنا بماء سخن ولبسنا ثياباً نظيفة واكلنا من شهي الطعام وشربنا من فاخر المدام

واقبلنا على الكتب والجرائد اقبال الجياع على القصاع فانتقلنا في لحظة من الزمان من دار الوحشة حيث لا انيس غير الدباب والثعالب الى بين اقوام كرام حاطونا بكل اسباب الانس والرفاهة كأنهم ارادوا ان يجلوا عن قلوبنا صدأ الوحشة ويعفوا منها آثار المحن

فاقمنا معهم نبحث في البلاد بحثاً علميًّا ونرسم الخرائط حسبما جمعنا من المراقبات



صورة ننسن خارجاً من كوخه وهو لابس ثوباً حريرياً صفيقاً فوق الفراء

ونحن في انتظار السفينة ولما ابطأت علينا اسقط في يدنا وخفنا ان نضطر الى البقاء في تلك الجزيرة شتاءً آخر وزاد قلقي لانني خفت ان تعود سفينتنا الى الوطن قبلنا فيحسبنا اهلنا في عداد الهالكين ويشتد حزنهم علينا

ثم جاءت السفينة وسرّ من فيها بنا سروراً عظيماً وانزلوا ما معهم من المؤونة الى البر في اسبوع من الزمان واخذونا معهم واكرموا مثوانا اكراماً لا ننساه مدى

الدهر . وكان الجليد كثيراً في طريقنا ولكن ربَّان السفينة تمكن بمهارتهِ من تجنبهِ فلم يعق سيرنا وبلغنا بلاد نروج في ستة ايام . واول شيء اهتممنا بهِ بعد وصولنا استقصاء اخبار الفرام ومن فيها فقيل لنا انهُ لم يسمع احد عنها شيئاً . وارسلت رسالة برقية الى ملك نروج ورجال حكومتهِ اخبرهم اننا تركنا الفرام آمنة هي ومن فيها .

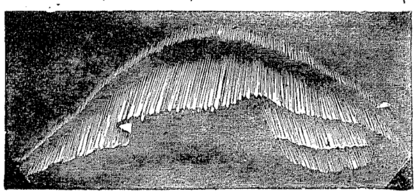


صورة جونسن لابساً ثوباً من جلود الذئاب

ويقيننا انها تعود الى الوطن سالمةً وكان ذلك في الثالث عشر من اغسطس وفي الحادي والعشرين منهُ ورد عليَّ تلغراف ان الفرام عادت بمن فيها الى المرفأ الامين

ولما تركت الفرام على ما تقدم اوصيت ربانها واسمه سفردرب ان يدعها تسير غرباً حسبما يجري بها الجليد وان يحرص على حياة من فيها من البحارة اتم الحرص ويعود

بهم سالمين باسلم الطرق وقلت له ايضاً اني لا اعلم متى ينحل قيد الجليد من حول السفينة ولكن فيها من المؤونة ما يكفيك ويكفي رجالك بضع سنوات فلا خوف عليكم من الجوع ولكن اذا طالت المدة كثيراً لسبب غير منتظر وخفتم من نفاد المؤونة او اذا ساءت صحة البحارة او رأيت انت او هم ان لا بدّ لكم من تركها فاتركوها وامضوا الى ارض فرنس جوزف او الى سبتسبرجن فاننا نفتش عنكم هنالك اولاً بعد رجوعنا وحينما تصلون الى تلك الاراضي اقيموا رجماً من الحجارة وضعوا في اعلاها كتابةً بما فعلتم وبما انتم عازمون عليهِ واقيموا شمالي كل رجمة رجمة اخرى صغيرة على اربعة امتار منها فنعلم انكم انتم اقمتموها ونبحث عما تركتم لنا من الاخبار فيها حتى نقتفي اثركم . ولا بدّ من ان تصنعوا كل ما يلزم لكم من القوارب والمزالق واحذية الثلج لكي يسهل عليكم السفر برّاً وبحراً وخذوا معكم ما يلزم لكم من المؤونة وما تستطيعون



صورة الشفق القطبي وقد تجمدت حواشيه السفلى كاهداب الثوب

حمله منها . ولا بد من ان تكونوا متأهبين لترك السفينة في لحظة من الزمان اذا حدث فيها حادث فجائي كأن حرقت او انكسرت . اي يجب ان تضعوا تجاهكم على الجليد ما يكفي من المؤونة وتنقلوه امامكم بانتقال السفينة بكم من مكان الى آخر حتى اذا غادرتموها فجأة تجدون امامكم ما يسد رمقكم ويكفيكم في سفركم . ولا بد من ان توضع سائر المواد على السفينة بحيث يمكن اخراجها منها الى البر في لحظة من الزمان . واذا تركتم السفينة فلا بد من ان تأخذوا معكم البنادق والرصاص والبارود وكل الكتابات والمراقبات العلمية والصور الفوتوغرافية

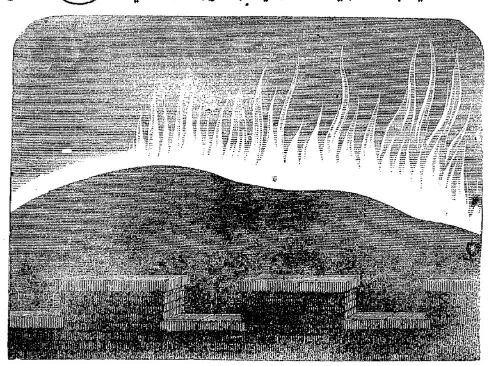
(واسهب الدكتور نسن في ذكر الوصايا التي اوصاهم بها قبل خروجهِ من السفينة فاجتزينا عنها بما تقدم)

فلما تركنا الفرام اخذ الربان سفردرب ورجاله يعدون القوارب والمزالق

والاحذيةوالكلاب والعدد ويمتحنونها فاستعدوا اتم استعدادلتركها اذا دعت الضرورة

وفي اواخر مارس (اذار) اخذ الجليد الملتصق بها يتشقق وينفصل عنها ولكن جانباً منه بقي متصلاً بها حتى آخر شهر يوليو (تموز) وحاول رجالها ان ينسفوه بالبارود ففتح البارود فيهِ ثغوراً صغيرة ولكنه لم يخلصها منه وكان سفردرب واقفاً عليه يتكلم مع بعض رجاله وينظر في امرٍ يستخدمه لتخليص السفينة واذا بها قد انفصلت عن الجليد بغتة واندفعت في الماء بصوت يصم الآذان وعلا الزبد حتى حجب وجه السماء . ولكن زمان حريتها لم يطل لان الجليد عاد فقبض عليها وضيق الخناق

ولما كانت في قبضة الجليد كان يسير بها غرباً وزاد سيره من اواخر ابريل



صورة الشفق القطبي والسنته النارية ممتدة الى الاعلى

(نيسان) الى اواسط يوليو (تموز) وحينئذ عصفت الرياح الجنوبية الغربية وصدتها عن السير بل ارجعتها على عقبها . ثم تراكم الجليد حولها وجعل يجري بها كل مدة الخريف والشتاء وظلت ملتصقة بهِ حتى اواسط الصيف التالي ولو لم تفلت منه حينئذ لسار بها الى غرينلندا شمالي اميركا

وكانت في كل المدة التي سار بها الجليد عرضة لضغط شديد وزاد الضغط في شهر يونيو الماضي حتى كان الجليد يرفعها فتصبح على ظهره ولولا عرض قاعها ودقة موازنتها لقلبت على احد جانبيها . وكانت تعلو وتسفل مرتين كل يوم لكن الضغط الشديد لم يضر بها لمتانة بنائها

ولم يشتد البرد في الشتائين الاخيرين اكثر مما اشتد في الشتاء الاول فثبت لنا انه يكون على اشده شمالي سيبيريا . وكانت الحرارة في فصل الصيف على درجة الجليد غالباً واحياناً قليلة كانت ترتفع عنها بضع درجات وبلغت مرةً واحدة ثماني درجات بميزان فارنهيت فوق درجة الجليد وكان الضباب قليلاً لقلة البخار في الهواء والمطر نادر جدًّا

وكثر ظهور الشفق القطبي كل مدة سفرنا وسفر الفرام وقلما مضى يوم لم تظهر فيهِ هذه الظاهرة البديعة بالسنتها النارية والوانها الساطعة وبهائها الفائق الوصف . ولكننا لم نسمع منها صوتاً ولا رأيناها قريبة من الافق

وكانت كهربائية الهواء تشتد احياناً كثيرة وكنا نجمع جانباً منه في انابيب صغيرة ونسدها سدًّا محكماً لنمتحنها بعد عودتنا

وبلغ عمق الماء ١٨٠٠ قامة الى ١٩٠٠ قامة وظل كذلك الى ان قربت الفرام من سبتسبرجن وبقي الماء السطحي ابرد من الماء الذي تحته

وظلت صحة النوتية على ما يرام ولم يصب احد منهم بالاسكربوط فثبت لنا ان العناية بالطعام والشراب تمنع هذا الداء منعاً تامًّا

ولما رأى البحارة في الصيف الماضي انه يمكنهم ان يتخلصوا من الجليد و يسيروا جنوباً جعلوا يبذلون الوسع في هذا السبيل واعتمدوا على نسفهِ بقطن البارود . وحدث مرةً ان الربان سفردرب ورجلاً من رجالهِ لغما الجليد ووضعا فيهِ البارود وأشعلا الفتيل وحاولا الهرب فخسف بهما حيث كانا واقفين ووقعا في الماء وكانت حافة الجليد عالية حولهما فلم يستطيعا الصعود عليهِ فتصور لهما الموت بعد ان دافعاه ثلاث سنوات لأن النار كانت تمتد في الفتيل وعن قليل تصل الى البارود بقربهما لكن العناية ساعدتهما على الامساك بقطعة من الجليد فصعدا عليها وفازا بالنجاة قبل اشتعال البارود

وفي التاسع عشر من يوليو (تموز) انفك قيد السفينة من الجليد بعد عناء شديد فسارت الهوينا بين قطعهِ المتراكمة والبخار يحثها والرجاء يسوقها والحكمة تقودها فقطعت في شهر من الزمان مئة وخمسين ميلاً اكثرها مغطًى بقطع الجليد الكبيرة التي لا ترى العين نهايتها لاتساع سطحها

وفي الثالث عشر من اغسطس بلغت البحر الخالي من الجليد وهو نفس اليوم الذي بلغنا فيهِ البر وما لبثت طويلاً حتى التقت بسفينة اخرى فحيّتها وسألتها عنا فاجابتها انّا لم نصل الى نروج فقطع الذين فيها كل امل من نجاتنا وكانوا الى ذلك الحين يحسبون انّا تنجو ونسبقهم فعزموا ان يعودوا ويفتشوا عنا لكنهم قالوا لنصل الى نروج اولاً عسى ان يكون فيها خبر آخر

وفي الليلة العشرين من اغسطس القت الفرام مرساها واسرع ربانها الى البر وأتى بيت التلغراف وقرع الابواب والكوى ولا سامع ولا مجيب واخيراً نهض مأمور التلغراف مغضباً وقال له ما شأنك في هذه الساعة من الليل . قال « انا سفردرب ربان الفرام» فلما سمع الرجل هذا الكلام اقفل الكوة وقال قابلني من الباب وللحال وضع رداءه على كتفيهِ وقابله وقال له من فوره قد عاد نتسن وجونسن فلما سمع سفردرب هذه البشرى كرّ راجعاً وجعل ينادي رفاقه في السفينة ويبشرهم برجوعنا سالمين فاطلقت السفينة مدفعين علامة السرور واعلاناً بعودة الوفد النروجي الى بلاده سالماً انتهى مقتطف يناير وفبراير ومارس سنة ١٨٩٧



رحلة دوق ابروزي

كثيراً ما تجشم اهل السياحة المشاق واقتحموا الاخطار وعرضوا انفسهم للموت الزؤام لاجل الوصول الى القطب الشمالي. ولهم من ذلك غرضان الواحد علمي والآخر تجاري . اما الغرض العلمي فمداره الوقوف على احوال تلك الاصقاع الجرداء التي كستها الثلوج فلم تبق فيها من انواع الحيوان غير ذوات الفراء الكثيف او الدهن الكثير حتى تجد من كسائها الطبيعي واقياً يقيها صبارّة القر. واما الغرض التجاري فاكتشاف طريق يصل بين شمالي اوربا واقاصي المشرق حتى ترسل المتاجر فيه بدلاً من ارسالها في طريق السويس او حول افريقية . والى الآن لم يبلغوا هذا الغرض ولن يبلغوه لانهم لم يجدوا بحراً خالياً من الجليد حول القطب كما ظنوا لكنهم بلغوا كل ما راموه علمياً اي انهم عرفوا اكثر الظواهر الجوية والحوادث الطبيعية التي في الاقطار القطبية

واشهر الرحلات الحديثة التي قصد بها البلوغ الى القطب الشمالي رحلة باير الذي تمكن هو ورجاله سنة ١٨٧٤ من الوصول الى الدرجة ٨٢ من العرض الشمالي اي بقي بينهم وبين القطب ثماني درجات او نحو ٤٥٠ ميلاً . وسنة ١٨٧٦ وصل ماركهام الى الدرجة ٨٣ والدقيقة ٢٥ . وسنة ١٨٩٥ وصل ننسن الى الدرجة ٨٦ والدقيقة ١٤ . وقد وصل رجال دوق ابروزي هذا العام الى الدرجة ٨٦ والدقيقة ٣٣ فلم يبق بينهم وبين القطب الشمالي سوى ثلاث درجات و٢٧ دقيقة اي نحو مئتي ميل . وهاك تفصيل هذه الرحلة ملخصاً مما كتبهُ الدكتور اولندو ملاغودي في مجلة الستراند الانكليزية

كان للسفينة ستلا بولاري (اي نجمة القطب وهي التي سار فيها دوق ابروزي) وداع حافل يوم ابحرت من مرفأ كرستيانا عاصمة بلاد نروج في الثاني من شهر يونيو سنة ١٨٩٩ قاصدةً اقاصي الشمال ، ابحرت واعلام المدينة تخفق لها ومدافعها تدوي لوداعها والجماهير الكثيرة تدعو لها بالسفر الميمون والعود القريب . وكان بين المودعين الدكتور ننسن الرحالة الشهير فوقف يزف الى الراحلين نصائح الخبير المجرب ويقوي عزائمهم ويشجعهم على اقتحام الاهوال وكان يكلمهم كمن هو واثق بنجاح رحلتهم وعودهم سالمين غانمين

اما الخطة التي كان دوق ابروزي ينوي اتباعها فلم يكن احد يعرفها غير رجاله وقد اسرّوها لكي لا تصل الى اصحاب الصحف السيارة فيكثر اللغط فيها والايهام بها .

وكان معه عشرة من الايطاليين وعشرة من النروجيين الا ان اعتماده كان على الايطاليين ولم يأخذ النروجيين معه الا لاعتيادهم السفر في البحار الشمالية . وهو ابن دوق اوستا الذي تولى عرش اسبانيا من سنة ١٨٧٠ الى سنة ١٨٧٥ وابن عم ملك ايطاليا الحالي. طويل القامة نحيل الجسم قليل الكلام له ولع شديد باقتحام المخاطر اذا كان من اقتحامها نفع ما ولاسيما اذا كان النفع علمياً . يلقبه اخوه بالعضو العلمي في آل سافوى. درس في مدرسة ليفورنو الحربية ولما اتم دروسه طاف في البلدان يدرس اخلاق اهلها وعاداتهم واكثر من الصعود الى قمم الجبال العالية الى ان صعد الى قمة جبل مار الياس في اقاصي اميركا الشمالية بعد ان تعذر على غيره البلوغ اليها كما ذكر في الصفحة ٧٩٤ من المجلد الحادي والعشرين من المقتطف

والسفينة من سفن الصيد استعملها ننسن في رحلته الاولى الى غرينلندا وقد مضى عليها سبع عشرة سنة تمخر في البحار لصيد الحيتان الشمالية فابتاعها دوق ابروزي ووكل اصلاحها الى رجل ماهر ببناء السفن فاصلحها وقوّاها على احتمال ضغط الجليد وسميت نجمة القطب . طولها ١٥٠ قدماً وعرضها ٣١ قدماً وعمقها ١٦ قدماً ومحمولها ٤٩٥ طناً وفيها سوار عالية وشراع واسع وآلة بخارية صغيرة تسير بها خمسة اميال في الساعة ولكنها لا تستعمل الا عند الحاجة الشديدة اذ لا سعة فيها للفحم الكثير . وبني على ظهرها بيت كبير يسع ١٢٠ كلباً من الكلاب التي تجر المزالق على الجليد وغرف واسعة للضباط . وقد جمع فيها دوق ابروزي كل ما يحتاج اليهِ من الزاد والادوات واخذ الاطعمة والخمور من ايطاليا والآلات من المانيا والثياب المشمعة من انكلترا والفراء من روسيا ورأى كل شيء بنفسهِ حتى اذا رآه ننسن يفعل ذلك قال هذا شأن من يفلح في امره ولا يكل اعماله الى غيره . وكان الزاد كثيراً يكفي من في السفينة اكثر من ثلاثة أعوام وهو وسائر المواد في الف وخمس مئة صندوق والصناديق صغيرة حتى يستسهل الرجل حمل الواحد منها. وهي اربعة انواع حسب المواد التي فيها تمتاز بما عليها من الخطوط فصناديق الزاد خطوطها سوداء وفي كل صندوق منها شيء من كل انواع الزاد كالخبز واللحم والخضر والاشربة حتى اذا ضاع بعضها لا يكون فيهِ ماليس في غيره . وقس على ذلك صناديق الثياب وصناديق الادوات وصناديق الالعاب . والغرض من الالعاب كالشطرنج والنرد ونحوهما تسلية البحارة في الشتاء حتى لا يملوا ولا يسأموا

وكان غرض ننسن في رحلتهِ الاخيرة ان يصل الى القطب الشمالي بسفينتهِ معتمداً

على مجرى الجليد الذي اكتشفه وحسب انه يجري بسفينتهِ من سيبيريا الى غرينلندا فتمر على القطب الشمالي . فجرى الجليد بها كما قدّر لكنه لم يمرّ بها على القطب الشمالي بل بقيت بعيدة عنهُ فاضطرّ ان يركب المزالق ويسير الى القطب على الجليد فبلغ الدرجة ٨٦ والدقيقة ١٤ من العرض الشمالي كما تقدّم . اما دوق ابروزي فلم يعتمد على مجرى الجليد بل عزم ان يصل الى القطب في المزالق واخذ السفينة معه ليصل بها الى ابعد ارض يسهل عليهِ الوصول اليها فيتركها هناك ويرسل منها بعثات الواحدة بعد الاخرى ويبعث معها زاداً تضعه في الطريق فكل بعثة تمهّد السبيل للتي بعدها وتضع لها الزاد في طريقها الى ان تصل البعثة الاخيرة الى القطب . وتدرس كل بعثة احوال البلاد التي تصل اليها حتى يكون اختبارها مرشداً للبعثة التي تليها

وقامت نجمة القطب في الثاني عشر من شهر يونيو كما تقدم وبلغت مدينة اركنجل على سواحل روسيا في غرة يوليو ومن هناك اخذت المئة والعشرين كلباً المعدّة لهذه الرحلة وكان الغراندوق فلادمير الروسي قد جاء الى اركنجل ليودع دوق ابروزي فودعه واقلعت السفينة من هناك في ١١ يوليو فبلغت رأس فلورا في جزيرة فرنس جوزف بعد عشرة ايام ووجدت هناك كوخاً بنتهُ بعثة جكسن الرحالة وكتبت عليهِ ان كل المكاتيب التي توضع فيهِ تعود بها سفينة الصيد كابلاّ الى اوربا حينما تمرّ من هناك في اواسط اغسطس . فوضع الدوق في ذلك الكوخ زاداً يكفي رجالهُ ثمانية اشهر حتى اذا اضطروا ان يعودوا من ذلك الطريق وجدوا فيهِ طعاماً لهم ثم سار بسفينتهِ قاصداً دخول الخليج القطبي الانكليزي وبعد عناء شديد خرقت السفينة الجليد وسمكهُ خمسة وسبعون سنتيمتراً ووصلت الى بحر لاجليد فيهِ . والتقت هناك بسفينة الصيد كابلا وفيها «ولمن» الرحالة الاميركي وقد كسرت ساقه وفقد البعض من رفاقه . وبعث من في نجمة القطب مكاتيبهم مع الكابلا وفي جملتها كتاب من دليل اسمه بتيغاس يقول فيهِ «تمرّ بنا الايام والاسابيع سراعاً والبرد معتدل فقلما يهبط الترمومتر تحت الصفر وامس اشرقت الشمس ببهائها فعكس الجليد من اشعتها ما يبهر الابصار. وقد قويت سفينتنا على مقاومة هجمات الجليد وهي تمخر فيهِ وتشقهُ ولو كان ثخنه اربعة اقدام واذا كان ثخنه اكثر من ذلك وعجزت عن شقهِ اطلقنا لها البخار فتثب فوقه وتكسره كسراً مسافة اربعين متراً او خمسين ولا يفارق الدوق مرقب السفينة وقد لا ينزل لتناول الطعام ولا يدع فرصة للتقدم الاِ غنمها ونحن نسرّ بذلك لانه على قدر تقدمنا هذا العام يقل تعبنا في العام المقبل »

وظلت نجمة القطب سائرة الى ان بلغت الدرجة ٨٢ والدقيقة ٥ من العرض ولم تبلغ سفينة اخرى هذا المدى في البحر وقد جازته سفينة ننسن لكنها سارت محمولة بالجليد. ثم عادت نجمة القطب من هناك لانها لم تجد مرفأً تقيم فيهِ الى ان وصلت الى حيث الدرجة ٨١ والدقيقة ٤٧ وهناك توالت عليها الكوارث فاجتمع الجليد حولها وتكاثف وضغط عليها ضغطاً شديداً حتى كاد يسحقها ثم وقعت عليها قطعة كبيرة منه فكسرت جانبها وللحال جعل الماء يدخل من الكسر حتى حسب من فيها انها غارقة لا محالة ثم تحرَّك الجليد فادارها واما لها على الجانب الآخر فنجت من الغرق ولكنها لم تعُد تسكن واضطر الدوق ورجالهُ ان يغادروها ويفقدوا كل ما اعدوهُ فيها من وسائل الراحة والدفء ويخيموا على الجليد في ذلك الزمهرير. وكان معهم خيمتان فنصبوها وغطوها بشراع السفينة ووضعوا بينها موقداً يطبخون عليهِ ويستدفئون منه وكان مع كلٍّ منهم دثار من جلد الذئب الطويل الصوف فلم يقرهم البرد مع انه كان قارصاً جدًّا ولاسيما في الليلة الاولى فجلد بهِ كل شيء حتى الجزم. وبنوا للكلاب زريبة من الخشب تقيها عصف الرياح. ومضى فصل الشتاء والضباط يبحثون عن مجاري الاوقيانوس والقطب المغنطيسي والنور القطبي وتكوُّن الجليد وامتدادهِ وحرارة الهواء والبحر وسمك طبقة الارض وطبائع الحيوانات القطبية ونحو ذلك من المباحث العلمية. وداموا متمتعين بالصحة التامة الى يوم عيد الميلاد وحينئذٍ مضى الدوق وثانيه ليمتحنا المزالق فقرها البرد وهرأ ايديهما فابيضت اولا ثم اسودت حتى ظن الطبيب ان لا بد من قطع احدى يدي الدوق ثم رأى انه يمكن الاكتفاء بقطع اصبعين من اصابعهِ فقطعهما ومن ثم انحرفت صحته ولم تعد الى حالها الاولى واضطر ان يلازم خيمته اربعة اشهر متوالية لكنه اعد بعثات المزالق في غضونها وحاول اولا ارسالها في آخر فبراير فلم تستطع الذهاب لان البرد كان شديداً جداً فقد بلغ الى ٥٢ درجة تحت الصفر بميزان سنتغراد فماتت الكلاب من شدتهِ واضطر الرجال ان يعودوا في اليوم الثاني

ثم ارسل بعثة اخرى في ١١ مارس وفيها ثلاثة عشر رجلا وثلاث عشرة مزلقة و١٠٨ كلاب فوجدت من المشاق في طريقها ما لا يوصف وكانت تضطر احيانا كثيرة ان تقطع جبال الثلج بالفؤوس لكي تسير بينها. ورأى رئيسها ان الزاد الذي اخذته معها قد لا يكفيها لكثرة ما كان يأكله رجالها فاعاد ثلاثة منهم في ٢١ مارس ومعهم زاد يكفيهم عشرة ايام فانقطع خبرهم من ذلك الحين ولم يسمع عنهم شيء حتى الآن.

وفي الحادي والثلاثين من مارس ارجع ستة آخرين ومعهم زاد يكفيهم خمسة وعشرين يوماً فوصلوا الى المخيم سالمين . وبقي هو وثلاثة من الايطاليين سائرين في طريقهم والجليد كثير العراقيب متراكم القطع الى ان بلغوا الدرجة ٨٥ من العرض ومن ثم صارت حقول الجليد منبسطة فسارت مزالقهم عليها سيراً حثيثاً وقلّ زادهم كثيراً فاقتصروا على اكل لحم الكلاب لكن عزائمهم لم تضعف لانهم كانوا عازمين ان يبلغوا الدرجة ٨٧ حتى يقال انهم فاقوا كل من تقدم من قصّاد القطب الشمالي

وفي الرابع والعشرين من ابريل وصلوا الى الدرجة ٨٤ والدقيقة ٣٣ من العرض والدرجة ٦٥ من الطول ورأوا هناك انه لم يبق لهم سبيل للتقدم لانهُ لم يبق معهم زاد فاضطروا ان يعودوا ادراجهم فاقتضى ذهابهم خمسة واربعين يوماً وايابهم تسعة وخمسين يوماً ولم يجدوا ارضاً في طريقهم وكان الجليد يغطي البحر كله في ذهابهم واما في ايابهم فوجدوه قد تقطع وصار جزائر طافية في البحر فصاروا يضطرون ان يثبوا من جزيرة الى اخرى او يقفوا على الجزيرة ويدفعوها حتى تسير بهم كالقارب الى ان تصل الى غيرها . وتخطوا رفاقهم في رجوعهم واوغلوا جنوباً نحو ٤٤ دقيقة ثم عادوا ادراجهم لما اكتشفوا خطأهم ووصلوا سالمين ولكن على آخر رمق لانهم اضاعوا مزالقهم كلها ولم يبق معهم من الكلاب الا سبعة

وبذل النجارون جهدهم في اصلاح السفينة فوجدوا انها لا تستطيع البقاء هناك شتاء آخر. وفي الثامن من اغسطس انفك عنها قيد الجليد فقام الدوق ورجاله وتركوا جانباً كبيراً من الزاد هناك للرجال الذين ضلوا الطريق يكفيهم سنتين اذا عثروا عليهِ وعادوا بالسفينة الى الخليج الانكليزي فوصلوه في يوم واحد لكنهم وجدوه مسدوداً بالجليد فبقيت السفينة تجاهد ستة عشر يوماً واشرفت على الغرق مراراً كثيرة واخيراً وصلوا الى بحر لا يغطيهِ الجليد وفي اليوم الاخير من اغسطس وصلوا الى رأس فلورا فوجدوا فيهِ رسائل البريد وقد تركتها لهم سفينة الصيد كابلا في ١٢ يوليو الماضي وفيها كتاب من الملك همبرت ملك ايطاليا . ولما اطلع الدوق عليهِ كان عمه قد قضى قتيلا . ووصلت السفينة الى كرستيانا وحياها الرحالة ننسن وقال مخاطباً دوق ابروزي « لقد احييتم تاريخ ماركو بولو وخريستوفورس كولمبوس واوغلتم في الشمال يا ابناء الجنوب اكثر مما اوغل ابناء الشمال » . هذا ما يفعله ابناء الملوك في اوربا لخدمة العلم والتجارة فكيف لا ترتقي بلادهم وتسود غيرها . مقتطف دسمبر سنة ١٩٠٠

كوك ومهارة صحفي

من رجال العصر الذين نبغوا من بين اهل الصحافة الانكليزية السر فيليب جبس Sir Philip Gibbs ومن الرجال الذين تمكنوا من غش العلماء والساسة ورجال الصحافة الدكتور كوك الذي ادعى انه ضرب في الاصقاع الشمالية حتى وصل الى القطب الشمالي وقد كشف الاول غش الثاني وفصل ذلك الآن تفصيلاً وافياً في مجلة لندن فاقتطفنا منه ما يأتي لما فيه من الغرابة والفكاهة عسى ان يستفيد منه مخبرو الصحف بنوع خاص قال : —

استدعاني المستر بريس محرر الاخبار في جريدة الديلي كرونكل وقال لي ان رجلاً يسمى الدكتور كوك اكتشف القطب الشمالي وينتظر ان يصل الى كوبنهاغن غداً وقد سبقك كثيرون من مخبري الجرائد اليها فانظر لعلك تستطيع ان تقابله وتكتب لنا شيئاً عنه . فتنهدت حسب عادتي وذهبت الى الصراف وتناولت منه مبلغاً كافياً من النقود وسافرت الى كوبنهاغن بطريق البحر الشمالي وجعلت اكرر اسم كوك لئلا انساه ولم اكن اعلم شيئاً عن هذا الرجل ولا عن القطب الشمالي ولا عن الذين حاولوا اكتشافه . وبلغني ان اربعين من مخبري الجرائد سبقوني فترجح لي اني اصل متأخراً وعلى كل حال لا اعلم ماذا اسأل هذا الرجل لو لقيته

وصلت الى كوبنهاغن مساء وقد اخذ مني التعب والصداع كل مأخذ وظننت ان افضل شيء يريحني حينئذ فنجان من القهوة وكنت اعرف الالمانية فناديت مركبة واخبرت سائقها بمرادي فاخذني الى قهوة صغيرة مزدحمة بالرجال والنساء ودخان التبغ مسردق فيها . فجلست الى مائدة وتناولت جريدة دنماركية واذا فيها اسم الدكتور كوك بحروف كبيرة وانا اجهل هذه اللغة وجاءني خادم القهوة حينئذ فأريته الاسم واذا هو يعرف الانكليزية فسألته هل وصل كوك الى كوبنهاغن فقال كلا وقد كان المنتظر ان يصل ظهر اليوم ولكن الضباب اخر سفينته فلا تصل الا غداً صباحاً والدنمارك كلها منتظرة قدومه . فسرى عني بعض الشيء والتفت لارى هل هناك احد من مخبري الصحف الذين اعرفهم فلم ار احداً وبعد قليل رأيت حركة في الجمع المحتشد فالتفت واذا انا بسيدة جميلة المنظر حول عنقها فرو ابيض وعلى رأسها

قبعة من الفرو ومعها سيدة اخرى ورجل طويل القامة . فدنا مني الخادم حينئذ وقال لي أرأيت هذه السيدة الحسناء هذه مدام راسموسن . فكانه ذكر لي اسم رجل صيني لانني لم اكن اعلم من هو راسموسن . ولحظ ذلك مني فاستدرك وقال امرأة كنود راسموسن الرائد المشهور الذي جاء بالكلاب للدكتور كوك لكي يسافر بها الى القطب الشمالي وهو من اعز اصدقائهِ

فرأيت حينئذ ان سعدي اخرني عن سائر مخبري الجرائد واوصلني الى تلك القهوة وبعث الي بذلك الخادم . فزدت جرأة ودنوت من تلك السيدة وقلت لها بكل تأدب اني آتٍ من قبل جريدة في مدينة لندن لكي ارى الدكتور كوك واحادثه وقد علمت انه صديق حميم لحضرة زوجك فهل تدلينني اين هو الآن ؟

وكانت هذه السيدة فوق جمالها الفتان على غاية الادب والظرف ولها المام بالفرنسوية والالمانية والانكليزية . والرجل الذي كان معها واسمه بطرس فروكن من روّاد الاصقاع القطبية وهو يحسن لغات كثيرة فسهل علينا التخاطب والتفاهم . ووافقتني السيدة على ان زوجها صديق لكوك وقالت انهُ كان آخر من رآه حينما سافر قاصداً ارتياد القطب الشمالي ولذلك قصدت هي ان تكون الاولى بين الذين سيستقبلونه وكان هناك رفاص على اهبة السفر لملاقاة الدكتور كوك في سفينتهِ وكانت هي عازمة أن تذهب فيهِ ولكن خيم الضباب فافسد الخطة التي كانت منوية ولا يستطيع الرفاص ان يسافر قبل الصباح

فقلت لها اذا كنتم تودون السفر فعلا فلماذا لا نذهب ألآن الى السينور Elsinore فنبيت فيها ونركب الرفاص عند الفجر وانا اذهب في رفقتكم اذا سمحتم

فضحكت وقالت ولكن لقد سافر آخر قطر يقوم من هنا الليلة

فقلت لها لماذا لا نذهب باتوموبيل ؟

فقالت ان سير الاتوموبيلات ممنوع ليلاً الا الى مسافة قليلة عن كوبنهاغن والسائق الذي يخالف القانون يغرّم او يحبس . فناديت خادم القهوة وقلت له عليّ باتوموبيل . وفي اقل من دقيقة رأيت السائق امامي وقبعته في يده فقلت له والخادم يترجم بيننا نحن اربعة واريد ان توصلنا الى السينور الليلة . فانغض رأسه وقال انه لا يستطيع لئلا يغرم غرامة كبيرة

فقلت له كم الغرامة ؟ وانا اقول في نفسي لو طلب مني خمسين جنيهاً لدفعتها له

حالا (من مال الديلي كرونكل حتما) ولكنهُ قال ان الاجرة والغرامة خمسة جنيهات

فالتفت الى مسز راسموسن وبطرس فروكن والسيدة الاخرى ودعوتهم الى الذهاب في ضيافتي

فاغربوا في الضحك وبعد اللتيا والتي قبلوا الدعوة . واتفقنا على ان نسافر الساعة العاشرة ليلا اذ تكون السكك قد خلت من السابلة وحينئذ نستطيع ان نسير من غير ان تنار مصابيح الاتوموبيل فلا يرانا البوليس . وكانت الساعة التاسعة حينئذ فتعشينا وكان اكثر الحديث عن الدكتور كوك ثم ركبنا الاتوموبيل وانا لا اكاد اصدق ما ارى اذ امامي سيدة بديعة الجمال زوجها صديق حميم للدكتور كوك الذي لم اسمع باسمهِ الا امس والى جانبي رجل من روّاد الاصقاع القطبية

وصلنا السينور من غير مشقة مع ان البرد كان قارصاً ودخلنا فندقاً شربنا فيهِ مشروباً سخناً ورأت مسز راسموسن ربان الرفاص الذي كان عازماً ان يلاقي الدكتور كوك وطلبت ان نذهب فيهِ كلنا وبعد حديث طويل معه عادت اليَّ وهي تضحك وتقول لقد ابى ان يأخذنا معه لان الرفاص مملوء من الركاب ولكنه رضي ان يأخذك انت وحدك لانك (جورنالجي) انكليزي . فاسفت جد الاسف لانني جعلتهم يتكبدون مشقة السفر ليلا على غير طائل اما هم فاظهروا الغاية القصوى من مكارم الاخلاق فانهم هم الذين اخبروا ربان الرفاص انني آت من انكلترا لهذا الغرض حتى اقنعوه لكي يأخذني معه ثم ودعوني داعين لي بالتوفيق

سرنا عند الفجر ولم يكن الا قليل حتى رأينا سفينة الدكتور كوك واسمها (هنس اجيد) ماخرة تتهادى فحاذيناها بالرفاص وصعدنا اليها واذا انا برجل بهي الطلعة ملامحه اسكتلندية يحيط بهِ اناس شعورهم مسدولة فاستنتجت انه الدكتور كوك ولم يكن معنا في الرفاص من مخبري الجرائد غير اثنين دنماركيين فتقدمت انا الى الدكتور كوك وصافحته وهنأته وعرفته بنفسي وقلت له انني مخبر جريدة انكليزية . فامسك بيدي وقال تعال وافطر معي واجلسني على المائدة الى جانبهِ وكان عليها كثيرون من الرجال والنساء بملابس غريبة واكثرهم من الرسالات الدينية . وجعلت اتفرس في وجه الدكتور كوك فرأيته شديد الانفعال يكثر من الضحك والكلام ولكنهُ يتجنب التفرس في وجه احد فراق لي منظره واحببته وحسبته بسيطاً مخلصاً . وكنت كلما سألته عن سفرتهِ لايجيبني جوابا صريحاً . ولما اكثرت

لحاجتي ولحاجة المخبرين الدنماركيين عليهِ ادخلنا الى غرفتهِ وتكلم معنا ساعة وكان الملم ذينك المخبرين بالانكليزية قليلا فاقتصر على الكلام معي ولم يخامرني حينئذ اقل ريب ان كل ما قاله لي كان صحيحاً ولما كنت اجهل كل شيء عن الاصقاع القطبية وارتيادها سألته مسائل كثيرة لعلي اقف على شيء من الحقائق واردت ان اكفيهِ مؤونة الكتابة والتبييض فطلبت منه ان يريني يوميته فنظر اليَّ نظر المستريب الغاضب وقال انهُ لم يكتب يومية وان اوراقه وضعت في يخت لرجل اسمه هوتني ليأخذها الى نيويورك

فقلت له متى يصل الى هناك ؟

فقال : في السنة المقبلة

فقلت : ولكن لا بد من ان تكون قد ابقيت معك الاوراق الجوهرية

فقال : لا اوراق معي واظهر الغيظ

فقلت : لعلك تريني ارصادك الفلكية (وانا مسرور لان هذه الكلمة خطرت ببالي)

فقال الم اقل لك اني لم آت بشيء من اوراقي . قال ذلك بغيظ شديد اوقع في نفسي شيئاً من الريب . ثم قال لقد صدقتم ما رواه ننسن وامندسن وسفردرب فلماذا لا تصدقونني

كنت قد صدقته اما الآن فرأيت في وجههِ وكلامهِ ما رابني لانه بان لي كمن ارتكب جريمة وهو يخشى كشفها . ولكنني اردت ان اكون على بينة تامة من امره فقلت له انه لا يُعقل انهُ يأتي الى اوربا كمكتشف اكتشافاً عجز عنهُ كل الروّاد قبله وليس في يده وثيقة تثبت دعواه . ولما رأيته زاد غيظاً مني وانا لا بد لي من ان اتناول شيئاً منه ابعث به الى جريدتي تركت الالحاح عليه في هذا الموضوع وجعلت اسأله عما لقيه من المصاعب والمخاطر وعن ثقل المزالق التي كان يسير فيها على الجليد وعدد ما كان معه من الكلاب لجرها . فقص علينا اخباراً كثيرة فيها كثير من المتناقضات فكتبت اكثر ما رواه وكان يقف احياناً كمن يراجع نفسه ويلفق قصة تلفيقاً او يحاور الدفاع عن نفسهِ . فاستنتجت من ذلك على انه كاذب وانه لم يصل الى القطب الشمالي كما ادعى ومراده ان يخدع الناس ولكن لم تكن عندي بينة على ذلك

ولما وصلنا كوبنهاغن رأينا ان المدينة كلها خرجت لاستقباله وكان المرفأ مكتظاً بالسفن من كل نوع من اليخوت الكبيرة الى الزوارق الصغيرة وارتفعت من الذين فيها اصوات الترحيب والتهليل وعزفت آلات الطرب بنشيد مطلعه « جاءنا الجبار بالفوز العظيم »

كل هذا والدكتور كوك في قمرته لم يخرج منها الى ان جاء رجل دنماركي طويل القامة اسمه نورمن هنسن وهو من الشعراء والروّاد . وقد وقف امامي فيما بعد موقف العداء لانني كذبت دعوى كوك

وخرج الدكتور كوك حينئذ من قمرته ممتقعاً . لم ار مجرماً سطرت جريمته على وجهه مثل هذا الرجل ولا سيما لما دنا منه ولي عهد الدنمارك ليحييه باسمها ويهنئه باكتشافه المجيد . وهي أول مرة رأيته فيها قد ارتبك وحصر عن الكلام

ولما نزلنا الى البر تعذر عليَّ اختراق الجمع المحتشد وكاد الدكتور كوك يختنق من تألبهم عليه وبلغني ان وليم ستد صاحب مجلة المجلات هرع اليه واعتنقه وطلب من رجال الصحافة الذين كانوا هناك ان يحيطوا به كحرس له لئلا يقضى عليه . ولما بلغت آخر الجمع لقيت أول رجل من رجال الصحافة الانكليزية وهو الفونس كورلندر وكان صديقاً لي ولما علم انني كنت مع كوك في سفينته وحادثته ساعتين نظر الي نظر المتوسل كانه يريد ان اخبره ببعض ما سمعت ولكنني تملصت منه بالتي هي احسن وركبت اول مركبة لقيتها وهربت بها وانا شاعر ان في جيبي اعظم قصة من قصص العصر

ذهبت الى فندق صغير في طرف المدينة بعيداً عن الناس وكتبت ما يملأ سبعة اعمدة من الديلي كرونكل ذكرت فيها القصة التي رواها لي كوك بتمامها وانتقدتها متهكماً عليه ومبيناً ارتيابي في صدقه . ولما سلمت مقالي لعامل التلغراف ادركت اني خطوت خطوة ستؤدي بي اما الى فوز مجيد واما الى قضاء مبرم

لما كنت اكتب مقالي هذا كان امام الدكتور كوك اربعون من رجال الصحافة وكبيرهم المستر ستد يلقي عليه المسائل وهو يجيب عنها . وما منهم الا راجعه بكلمة او ابدى اقل ارتياب في دعواه واخيراً وقف ستد نائباً عنهم وهنأه باكتشافه القطب الشمالي معجباً بهمته وصائغاً له قلائد المدح

ولحسن الاتفاق كنت إنا الوحيد الذي ارتاب في هذه الدعوى وبين مواقع

الريب فيها . وكنت واثقاً بصحة ما استنتجته ولكن هل استطيع ان اؤيد استنتاجي بادلة قاطعة تقنع الجمهور . هذا الامر شغل بالي فبت شديد القلق وعلمت في اليوم التالي ان رسالتي نشرت كلها لان التلغرافات اتت بفقرات منها نشرتها جرائد الدنمارك فقام لها الناس وقعدوا . وواليت الكتابة في هذا الموضوع وانا اجيء بالحجة تلو الحجة تأييداً لرأيي . فجعل الناس يتظاهرون بعدائي ونشرت جرائد الدنمارك صورة هزلية لي على اقبح ما يكون ولقبتني « بجيبس الكذاب » لكنها اعتذرت عن ذلك فيما بعد . ولا داعي لتفصيل كل الادلة التي اقمتها على كوك والاشراك التي نصبتها حول قدميه . فقد ادعى انه اخبر سڤردرب الرائد الدنماركي المشهور بتفاصيل رحلته الى انهُ اكتشف القطب الشمالي وان سڤردرب جاهر بأن هذه التفاصيل صحيحة وهي تدل على ان كوك وصل الى القطب حقيقة . فذهبت الى سڤردرب وسألته عن صحة ما نسبه كوك اليه فقال لي ان كوكاً لم يذكر له دليلاً واحداً عن صحة دعواه

وادعى كوك انه كتب رحلته وارصاده الفلكية واعطاها لجامعة كوبنهاغن . وادعت الجرائد الدنماركية ان علماء الفلك وعلماء الجغرافية في تلك الجامعة فحصوها فوجدوها صحيحة واقتنعوا ان كوك وصل الى القطب الشمالي فعلاً . فقابلت رئيس الجامعة فقال لي ان كوك لم يعط الجامعة شيئاً مكتتباً ولم يقدم لها دليلاً واحداً على صحة دعواه

وعرضت ما كتبته من كلام كوك على فروكن وغيره من روّاد الاصقاع الشمالية من حيث المسافات وثقل المزالق ومقدار الزاد الذي كانت الكلاب تجره فاكدوا لي ان كل ما قاله لي ضرب من المحال . ثم عارضت اقواله لي باقواله لسائر مخبري الجرائد وبينت ما فيها من المتناقضات . وكنت اشتغل بذلك نهاراً وليلاً عن طيبة نفس لاعتقادي ان الحق في جانبي ولكن اعترضتني امور كادت تخور منها عزيمتي فقد نشرت الجرائد كلها ان رئيس جامعة كوبنهاغن انكر انه حادثني في هذا الموضوع او انه مرتاب في ادلة كوك . فبعثت الديلي كرونكل الي تلغرافاً تطلب ايضاح ذلك . وكان مكاتب الديلي كرونكل في كوبنهاغن قد جاءني بجرائدها وفيها هذا الانكار المنسوب الى رئيس الجامعة . فوقع ذلك علي كصاعقة من السماء . وجاءني المستر ستد حينئذ ووضع يده على كتفي وكان لا يزال من المعجبين بكوك وقال لي « لقد قضيت على نفسك ايها الشاب وذلك ليس بكبير الاهمية ولكنك قضيت

ايضاً على الديلي كرونكل ولها عندي مقام رفيع » وكان قد قرأ ما كتبته جرائد الدنمارك . فقلت له : اني شاب ولا شأن لي اذا قوبلت بك وانا الآن لاجيء الى شهامتك لكي تذهب معي الى رئيس الجامعة ومرادي ان اطرح عليه بعض المسائل فتكون شاهداً على ما يقول

فقال : لبيك لبيك ونأخذ معنا شاهدين آخرين واحداً من العدول وآخر من الذين نشروا الانكار . الاول الكونت دسدن الفرنسوي مكاتب جريدة من امهات الجرائد الفرنسوية والثاني وكيل شركة من الشركات التلغرافية وهو الذي اذاع انكار رئيس الجامعة

فذهبنا كلنا وقابلنا رئيس الجامعة فلم يشأ اولا ان يفوه بكلمة في مسألة كوك لا سلباً ولا ايجاباً لكن المستر ستد قال له ان المسألة هامة جداً وعليها تتوقف نجاة هذا الشاب من العار والدمار . وحاول ممثل شركة التلغرافات ان يحول بين الرئيس والمستر ستد ويمنعه من انكار ما نسب اليه وجعل يتكلم بالالمانية بسرعة حتى يتعذر علي فهم كثير من كلامه . ولكن الكونت الفرنسوي نصرني عليه وامره ان يتكلم بالانكليزية او بالفرنسوية حتى نفهم كلنا ما يقول وايده المستر ستد في ذلك . وكررت علي الرئيس المسائل التي سألته اياها في مقابلتي الاولى له وكتبتها على ورقة وتلوتها عليه وهي هل عرض كوك على الجامعة صورة مكتتبة من اسفاره ؟ وهل قدم لها شيئاً من ارصاده الفلكية ؟ وهل قدم لها دليلا على انهُ بلغ القطب ؟

فتلكأ الرئيس طويلاً ثم اجاب بالنفي عن كل مسألة من هذه المسائل الثلاث ولكنهُ كان مضطرباً . ثم علمت ان الجامعة ورئيسها الاعظم وهو الملك كانا قد شاركا كوك في دعواه بمنحهِ رتبة شرف اعترافاً بوصوله الى القطب . فصار مركز هذا الرئيس حرجاً جداً بل شديد الخطر عليهِ . فلما لفظ كلة « لا » الاخيرة تنفست الصعداء وطلبت منهُ ان يوقع على المسائل وعلى ما اجاب بهِ . فابى ذلك أولاً وبعد الالحاح وقعها لكنهُ استدرك قائلاً ان هذا ليس للنشر . فقلت اذاً لا فائدة من توقيعك وايدني المستر ستد والكونت فسلم بالنشر وللحال ودعتهُ وعدوت وانا اخاف ان يقبض احد عليَّ ليأخذ الورقة مني . ونشرت المسائل واجوبتها في الديلي كرونكل وفي مئات من الجرائد

لكن المصائب لا تأتي فرادى فقد كنت اتناول الغداء ذات يوم مع مسز راسموسن

وبطرس فروكن المذكورين آنفاً فأرتني مسز راسموسن كتاباً اتاها من زوجها وكان صديقاً حميماً لكوك كما تقدم وقالت لي ان هذا الكتاب يهمك اكثر مما يهم اي انسان كان فاقرأهُ فقلت لها اني آسف جداً لانني اجهل اللغة الدنماركية فاشارت الى فقرة فيهِ وقالت لي اني اسمح لك بنسخ هذه الفقرة . فقطعت ورقة من دفتري واعطيتها لبطرس فروكن فنسخها وترجمها لي اسكار هنسن الى الانكليزية وكتب الترجمة تحت الاصل . وفيها ان كنود راسموسن زوجها يقول انهُ « ثبت لهُ الآن ان كوك غشاش كذاب » . كلام مثل هذا من رجل شريف شهير مثل راسموسن لهُ اعظم شأن في نظري وفي نظر كل احد فاستأذنت مسز راسموسن في نشر هذه الفقرة في رسالة ابعث بها الى جريدتي . فاذنت لي ونقلتها عنها جرائد الدنمارك فتحدث بها كل احد . وفي مساء اليوم التالي لقيني صحفي دنماركي واراني جريدة وقال لي ارأيت هذا . واذا فيها انكار صريح من مسز راسموسن انها ارتني كتاباً من زوجها او ان زوجها كتب اليها شيئاً من ذلك . فوقفت حائراً في امري لا اصدق ما ارى بعيني ثم جعلت افتش عن بطرس فروكن ومسز راسموسن فلم اعثر عليهما وتعذرت عليّ رؤية مسز راسموسن بعد ذلك لانها أُمرت بمغادرة كوبنهاغن . فعدت الى غرفتي وجعلت افتش عن الورقة التي كتب عليها بطرس فروكن الاصل الدنماركي والترجمة الانكليزية فلم اجدها بين اوراقي واخيراً وجدتها تحت سريري وكأني وجدت اثمن كنز

ثم ان اسكار هنسن شهد شهادة رسمية بعد ان اقسم اليمين انهُ رأى الاصل الدنماركي وترجمهُ الى الانكليزية كما نشرتهُ انا وحلف وكيل شركة التلغرافات ان الخط خط بطرس فروكن . وكتبت انا ادعو مسز راسموسن لتعرض كتاب زوجها على لجنة من ستة أشخاص تختار هي ثلاثة منهم واختار انا ثلاثة فاذا قالت اللجنة ان الفقرة لا وجود لها في الكتاب فانا ادفع مبلغ كذا (وعينت مبلغاً كبيراً) لفقراء الدانمارك فلم تلبي طلبي وصدق الناس قولي ولم يعبأوا بقولها

وبقي المستر ستد مصدقاً دعوى كوك الى ان نزعت جامعة كوبنهاغن الرتبة التي منحتها اياه فكتب ستد اليّ حينئذٍ يقول انت الرابح وانا الخاسر . ويلي ذلك كلام يدل على كرم اخلاقهِ ولا شبهة ان هذه الحادثة من اغرب الحوادث وقد خدمني السعد فيها اعظم خدمة مقتطف مايو سنة ١٩٢٣

الكومندر پيري

مكتشف القطب الشمالي

وُلد في بلدة كرسون بولاية پنسلڤانيا من اعمال الولايات المتحدة الاميركية يوم ٦ مايو سنة ١٨٥٦ وتخرج في كلية بوْدوين سنة ١٨٧٧ . ثم تلقى العلوم الهندسية فنال شهادة مهندس سنة ١٨٨١ وانتظم في سلك البحرية الاميركية برتبة ملازم . وعين سنة ١٨٨٤ معاوناً للمهندس الذي عُهد اليهِ في مسح بحيرة نيكارغوا باميركا الوسطى ثم خلفهُ اصيلاً في هذا المنصب سنتي ١٨٨٧ و١٨٨٨

على ان دافع المغامرة والاقدام وحب الاكتشاف الذي يدفع كبار الروّاد الى تجشم المخاطر والمشاق في سبيل رحلة يقومون بها في مجهل من مجاهل الارض كان يدفع الملازم پيري الى جلائل الاعمال . فاستأذن وزارة البحرية سنة ١٨٨٦ في ان يقضي اجازتهُ السنوية في رحلة الى خليج بلسكو في جزيرة جرينلند (الارض الخضراء) فاذنت لهُ في ذلك وكان من اثر هذه الرحلة في نفسهِ ما حملهُ فيما بعد على ان يرحل رحلات عديدة الى الاصقاع المتجمدة الشمالية حتى بلغ القطب سنة ١٩٠٩ فتوجت بذلك اعمالهُ بتاج من الفخار لانهُ كان اول من بلغ القطب الشمالي في التاريخ على ما يعلم

وفي سنة ١٨٩١ أعدّت معدّات رحلة الى الاصقاع الشمالية تشرف عليها اكادمية العلوم الطبيعية بفلادلفيا وجعل پيري زعيمها فرافقتهُ زوجتهُ فيها فكانت بذلك الامرأة الاولى من الجنس الابيض التي رافقت بعثة من البعثات التي رادت الاصقاع المتجمدة الشمالية

قضت هذه البعثة الشتاء في خليج الجلفيد في الشمال الغربي من جزيرة الارض الخضراء وفي اوائل الربيع اصطحب پيري شابّا نرويجيّا يدعى استريب فاجتازا الجزيرة من شمالها الغربي الى شمالها الشرقي ذهاباً واياباً فثبت لهما ثبوتاً ينفي كل ريب ان جرينلند جزيرة . وفي اثناء ذلك بحث رجال البعثة المتخلفون في خليج الجلفيد مباحث علمية دقيقة تتعلق بقبيلة من قبائل الاسكيمو وهي اقرب القبائل الى القطب الشمالي

وفي سنة ١٨٩٣ اعدّ پيري رحلة اخرى رافقتهُ فيها زوجتهُ التي ولدت فتاة في مشتى البعثة بخليج انجلفيلد وفي سنة ١٨٩٤ رحل رحلة صيفية قصيرة الى خليج ملفيل فكشف ثلاث نيازك كان الاسكيمو يصنعون من قطعها آلاتهم وادواتهم الحديدية . وسنة ١٨٩٨ نشر كتاباً عنوانهُ « الى الشمال على الجليد » ذكر فيهِ اكثر ما عرفهُ في رحلاتهِ السابقة لتاريخ نشر الكتاب . وكان المستر لارين جب ونادي پيري القطبي يمدانهِ بالاموال اللازمة لرحلاتهِ المختلفة

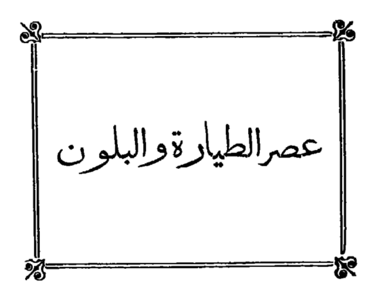
وتلا ذلك رحلتان اثبت في اولاهما حدود جزيرة جرينلند الشمالية وان وراء هذه الحدود محيطاً زاخراً حول القطب . وفي الثانية بلغ الدرجة ٨٤ والدقيقة ١٧ والثانية ٢٧ من العرض الشمالي وهو ابعدُ ما وصل اليهِ المكتشفون شمالاً . ولدى عودته من هذه الرحلة انتخب رئيساً للجمعية الجغرافية الاميركية ورقي الى رتبة كومندر في البحرية الاميركية . وفي سنة ١٩٠٣ ذهب الى انكلترا في بعثة بحرية فاهدت اليهِ الجمعية الجغرافية الاسكتلندية وسام لفنستون الذهبي

وبعد رجوعهِ من انكلترا اخذ يعد المعدات لرحلة قطبية جديدة وبنيت لذلك سفينة خاصة اطلق عليها اسم « روزفلت » وهو رئيس الولايات المتحدة حينئذ فاقلع من نيويورك في ١٦ يناير سنة ١٩٠٥ ومعهُ مؤونة تكفي لرجال البعثة سنتين . وقضى الشتاء على الشاطئ الشمالي من جزيرة الزمير وهي الى الغرب من جزيرة جرينلند وفي ٢١ فبراير استقل هو ورجالهُ المزالج قاصدين القطب فاعاق سيرهم وجود شقوق كبيرة في الجليد بين الدرجتين ٨٤ و٨٥ من العرض الشمالي . ولما تقدموا قليلاً الى الشمال ثارت في وجههم عاصفة شديدة فتشقق الجليد وتهدمت المخازن التي كانوا قد اقاموها في الطريق لحفظ المؤونة وانقطعت عليهم سبل العودة الى حين وشعروا ان الجليد الذي يسيرون عليهِ يتجه بهم شرقاً . ولكن في ٢١ ابريل سنة ١٩٠٦ بلغوا الدرجة ٨٧ والدقيقة ٦ من العرض الشمالي وهو اقصى ما بلغهُ انسان شمالاً . وكان السفر قد انهكهم فحاولوا العودة صابرين على كثير من المكاره والمشاق فوصلوا الى شواطئ جرينلند الشمالية ومن هناك اتصلوا بسفينتهم . وبعد راحة اسبوع سافر پيري بالمزالج في البلادِ الواقعة على الشاطئ الشمالي من جزيرة الزمير وتعرف ببلاد غرانت (غرانتلاند) ثم عادت البعثة الى اميركا فوصلت الى بلدة حيرون بلبرادور

في ١٣ اكتوبر سنة ١٩٠٦ بعدما اشرفت سفينتهم على التحطم والغرق وسنة ١٩٠٧ نشر پيري اخبار هذه الرحلة في كتاب دعاهُ « على مقربة من القطب »

وفي سنة ١٩٠٨ رحل پيري على السفينة « روزفلت » الرحلة التي توجت اعماله بتاج الفخار الخالد الذي يجزى بهِ اهل العزيمة والاقدام فاقلع من بلاد ايتاه بلبرادور في ١٨ اغسطس سنة ١٩٠٨ فقضى الشتاء في « غرانتلاند » واتجه شمالاً في مارس سنة ١٩٠٩ . وكان معهُ ستة رجال قسمت فرقاً تسير كل فريق منها على حدة تتقدم الفرقة الاخرى ثم تتبعها هذه . ولما اخذت المؤن تقل جعل يعيد رجالهُ على اعقابهم واحداً واحداً خوفاً من ان يموتوا جوعاً ولما بلغ الدرجة ٨٧ والدقيقة ٤٨ من العرض الشمالي كان معه الـكبتن بارتلت وهذا عاد على اعقابهِ لما وصلوا الى هـذه الدرجة من العرض . فسار پيري يصحبهُ خادمهُ الاسود واربعة من رجال الاسكيمو لا تثنيهم المصاعب والمشاق حتى بلغوا القطب في ٦ ابريل سنة ١٩٠٩ . فلبثوا هناك نحو ثلاثين ساعة رصدوا بعض الارصاد ودوَّنوا بعض الملاحظات وسبروا غور البحر على بضعة اميال من القطب . وعادوا سالمين لم يصب احد منهم بمكروه الا احد رجال الاسكيمو الذي غرق




عصر الطيارة والبلون

رحلة امندسن الاولى بالطيارة

الى القطب الشمالي

تحيط باسماء الروّاد الذين يرودون مجاهل الارض ، ويضربون في اصقاعها غير المأهولة ، هالة من المجد لا يفوز بها كثيرون من العلماء الذين قد يكونون اكبر من الروّاد شأناً وارفع مقاماً في نظر العلم . على ان الصبر الذي يظهره الروّاد في مغالبة المصاعب والشجاعة التي يعرضون اليها نفوسهم الى اقتحام المخاطر والاهوال ، تضرب على وتر حسّاس في النفس فينظر اليهم الناس نظرة الاكبار والاعجاب ويجعلونهم في مصاف الابطال . لذلك قلق الناس حين انقضت مدة طويلة ولم يرجع امندسن وصحبهُ من رحلتهم الهوائية الى القطب الشمالي ثم تهللوا حين وردت الانباء انهم سالمون وما وصلوا الى اوسلو عاصمة نروج حتى خرج سكان المدينة يهتفون ويهزجون لرجوع بطلهم ورفاقهِ واهدى اليه ملك نروج وساماً ذهبيًّا لم ينلهُ من الاحياء سوى اثنين واهدى الى رفاقه وسام القديس اولاف وهو من اوسمة الشرف والفخار عندهم

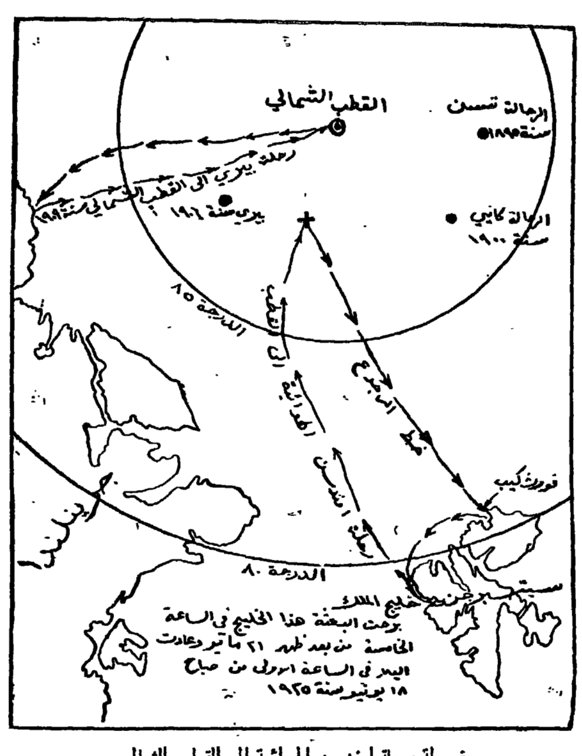
وكان رجال الرحلة ستة احدهم اميركي وهو المستر لنكن الزورث Ellsworth الذي قام بنفقات الرحلة (وقد مات والده في ٣ يونيو الماضي) وخمسة من النروجيين هم الكبتن روالد امندسن Roald Amundsen والملازم بالمان ريزر لارسن Rüser Larsen والمستر كارل فوخت Feucht والملازم ليف ديترخسن Dietrichson والملازم اوسكار امدال Omdal الذي رافق امندسن حين حاول ان يطير الى القطب الشمالي من الاسكا سنة ١٩٢٣

وكان معهم طيارتان من نوع الطيارات المائية ماركة دورنيه في كل منهما آلتان من ماركة رولز رويس الشهيرة . وقد اطلعنا في جريدة التيمس الاسبوعية على وصف مسهب لهذه الرحلة بقلم امندسن نفسه فاقتطفنا منها ما يأتي قال :

انتظرنا اليوم الحادي والعشرين من شهر مايو بفارغ صبر لانه كان اليوم الذي ضربناه للبدء في ارتياد مجاهل الاصقاع المتجمدة الشمالية بالطيارات

تناولنا طعام الغداء كالعادة ثم اعددنا احمال الطيارتين وجهزنا امتعتنا فكتب كلٌّ منا اسمه وعنوانه على صندوقه حتى ترسل الامتعة الى نروج اذا لم نرجع

واجتمع كثيرون من رفاقنا ومن سكان نيوايلزند حول الطيارتين ليحيونا تحيات



خريطة رحلة امندسن الهوائية الى القطب الشمالي

الوداع فادار ريزر لارسن وديترخسن آلات الطيارتين في الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة عشرة مساء وتركوها تدور ثلاثة ارباع الساعة حتى تسخن ثم صعدنا في الهواء في بدء الساعة الخامسة وكل من الطيارتين تحمل نحو ثلاثة اطنان

وما سرنا طويلا حتى لقينا ضباباً كثيفاً يمتد الى ابعد ما يصل اليه البصر فاقتربت الطيارتان احداهما من الاخرى وارتفعتا اولا الى علو ١٨٠٠ قدم ثم الى علو ٣٠٠٠ قدم ومضينا في سيرنا فوق الضباب . كانت الحرارة حينئذ على عشر درجات تحت الصفر بميزان سنتغراد والضباب كغشاء كثيف يحجب عنا وجه الارض على اننا كنا نرى فروجاً صغيرة فيه بين آونة واخرى فكنت انظر من خلالها الى الارض فأرى جليداً حديث التجمد يختلف عن انهر الجليد القديم التي على شاطىء غرينلندا الشرقي

طرنا فوق الضباب نحو ساعتين فوصلنا في نهايتهما الى منطقة صافية الاديم تشرق عليها الشمس فتنعكس اشعتها عن سطح الثلوج ناصعة البياض فيرتد الطرف عنها كليلا . وارجح اننا كنا حينئذ على الدرجة ٨٣ من العرض الشمالي وبصرنا يمتد فوق دائرة قطرها نحو ١٢٠ ميلا

ثم هبت علينا ريح شمالية شرقية فخفضنا سرعتنا وهبطنا قليلاً لعل الريح تكون الطف هبوباً قرب سطح الارض ، وبقينا على ارتفاع يتراوح بين الف قدم والف وخمسمائة قدم لكي نتمكن من البحث عن مكان يصلح لنزول الطيارات اذا حدث ما يوقفنا عن الطيران او ما يضطرنا الى النزول لكننا لم نر بقعة واحدة بين جدران الجليد المتجمد على جانب كاف من الاتساع لنزول الطيارتين . وكان في الفروج بين هذه الجدران الجليدية نواتىء من الثلج المتجمد تجعل نزول الطيارة متعذراً . فادركنا ان ما املناه من وجود مساحات فسيحة لنزول الطيارات كان برقاً خلباً وللحال عرفنا ان الرحلة صارت محفوفة بالخطر اذا عجزت الطيارات عن الطيران . لكن ثقتنا بآلات رولزر رويس كانت كبيرة فلم يتطرق الخوف الى نفوسنا

وسرنا على هذا النمط بضع ساعات من غير ان نقف على اثر لليابسة . ودلت ارصادنا في الساعة العاشرة اننا كنا طائرين في اتجاه غربي ورجحنا ان سبب ذلك ريح شمالية شرقية لذلك غيرنا اتجاهنا وسرنا شرقاً من غير ان نرى مكاناً صالحاً لنزول الطيارات . وكنا من آن الى آخر نمر فوق ممر جليدي بين ركام الجليد اقصر من ان يكون كافياً لنزول الطيارتين

وفي الساعة الاولى من صباح ٢٢ مايو اخبرنا فوخت الميكانيكي في الطيارة التي كنتُ رائدها ، اننا حرقنا نصف ما كان معنا من البنزين فقررنا ان نحط على الجليد لنحقق مركزنا الذي لم نتمكن من تحقيقه بالضبط ونحن محلقون في الهواء . فهبطنا الى علو ٣٠٠ قدم فوق سطح الارض او فوق سطح البحر لاننا لم نعثر على يابسة هناك . وكان تحتنا بقعة من الجليد حسبتها اصلح من غيرها لنزول الطيارتين فطرنا فوقها على ارتفاع ٣٠ قدماً وفيما كان السائق يدير الطيارة ليقطعها عرضاً ظهر عطل في احدى الآلتين التي تطير بقوتهما الطيارة . وكان حملها اكبر من ان تقوى آلة واحدة على رفعها به فاوقف السائق الآلتين وخفض السرعة فنزلنا اضطراراً فوق الماء معرضين الطيارة للكسر على نواتئ الجليد لان جانبيها كانا يلمسان جداري الجليد على جانبي الممر الضيق

وقفنا في آخر الممر على ضيقه مرغمين ومقدم الطيارة يكاد يغرز في ركام الجليد الذي يسده ، لكنها لم تصب بعطل ما . وبعدما وقفنا حاولنا ان ندير الطيارة لنخرجها الى مكان قريب اكثر اتساعاً فكابدنا في سبيل ذلك مصاعب جمة واذ كنا على وشك الفوز بمرامنا اطبق الجليد على جوانب الطيارة وغدت كأنها علقت في شرك

ورآنا ديترخسن سائق الطيارة الثانية فحسب نزولنا في تلك البقعة ضرباً من الجنون لانهُ لم يعلم سبب نزولنا الحقيقي فلكي لا ينفصل عنا نزل هو ايضاً بطيارته على الجانب الآخر من الممر الذي نزلنا فيه وكان اكثر اتساعاً

كانت جدران الجليد تحجب عنا الطيارة الثانية فلم ندرِ اين حطت ولا اين استقر ركابها وكانت طيارتنا مستهدفة لان تحطم اذ زاد ضغط الجليد عليها

عرفنا من ارصاد اجريناها في الليل اننا على الدرجة ٨٧ والدقيقة ٤٣ والثانية ٢ من العرض الشمالي وعلى الدرجة ١٠ والدقيقة ١٩ والثانية ٥ من الطول الغربي وكنا قد وصلنا الى ابعد من ذلك شمالا حين كنا نبحث عن ساحة لنزولنا . فنكون قد قطعنا في ثماني ساعات اي من الساعة الخامسة مساء الى الساعة الاولى صباحاً ١٠٠٠ كيلو متر (نحو ٦٢١ ميلاً) بمتوسط ١٢٥ كيلو متراً في الساعة واقتربنا حتى صرنا على ١٣٦ ميلا جغرافياً من القطب ولولا الريح التي حرفتنا عن السير المستقيم لاقتربنا ٢٠٠ كيلو متر اخرى من القطب

وسبرنا غور البحر هناك فوجدنا عمقهُ ٣٧٥٠ متراً . ودرسنا في الايام التالية الظواهر الجوية وحركة الجليد ومغناطيسية الارض وكنا في طيراننا الى الشمال قد

لاحظنا بقعة مساحتها نحو ١٠٠ الف كيلو متر تمتد الى الدرجة ٨٨ والدقيقة ٣٠ من العرض الشمالي . فاتضح لنا من سبر غور الماء هناك انهُ لا يحتمل وجود يابسة قرب القطب في هذه الجهة من الاوقيانوس المتجمد الشمالي النروجي

ثم نظرنا في امر طيراننا الى القطب فاجمعنا على انه لايحتمل وجود مكان لنزول الطيارات اصلح من المكان الذي نزلنا فيهِ ولذلك فالنزول قرب القطب قد يكون محفوفاً بالخطر وحينئذ يتعذر القيام بارصاد ومباحث علمية . اضف الى ذلك اننا لم نر فائدة من مجرد الطيران فوق القطب تعادل الخطر الذي نتعرض له

واتفقنا ان نضع خطة الرجوع بدلاً من متابعة الطيران الى القطب لكن طيارتنا لصقت بالجليد في الليل فحاولنا ان نخلصها من الثلج المطبق عليها فذهبت اتعابنا ادراج الرياح . وبعد ما استرحنا ساعتين عزمنا ان نعود الى رأس كولومبيا على الاقدام وكنا قد اعددنا عدتنا لذلك لاننا حسبنا حساب عطل يصيب الطيارة فنعجز عن الرجوع بها

ثم حاولنا ان نبحث عن رفاقنا على غير جدوى لان جداراً عالياً من الجليد كان يحول بيننا وبينهم فلم نرهم . ولكن خيل الينا اننا سمعنا طلقاً نارياً على مقربة منا وقد صدق ظننا بعدئذ اذ قالوا لنا حينما التقينا انهم اطلقوا النار ليعرفونا بوجودهم هناك

وحولنا جهدنا ثانية لاخراج الطيارة من شركها الجليدي لكننا ما كنا نفتح ثغرة في الجليد حتى تمتلىء ثانية وتتجمد باسرع مما نفتحها وكان البرد في الليل قد هبط الى ١٢ درجة تحت الصفر بميزان سنتغراد

وكان الهواء بعد الظهر صافياً فادرنا طرفنا في الجو الفسيح فرأينا رايتنا تخفق فوق ركام عالٍ من الجليد ، رفعها عليهِ رفاقنا لكي يعلمونا عن مكان وجودهم فرفعنا رايتنا اجابةً لهم

ومن ثم صرنا نستخدم الاشارات في المخاطبة فاخبرناهم عن حالتنا واخبرونا عن حالتهم وانهم يحاولون ابقاء طيارتهم مستعدة للطيران لتتضاعف اسباب النجاة من هذا المأزق الحرج وكان الجليد يتحرك فاقتربت محطتنا من محطتهم وفي ٢٥ مايو رأينا فقمة ملتحية ولكن تعذرت علينا مطاردتها انما سررنا جداً برؤية احياء في تلك الاصقاع المتجمدة وكان المظنون ان لا احياء وراء الدرجة ٨٥ من العرض الشمالي

وفي اليوم التالي عرفنا ان رفاقنا يستعدون للقدوم الينا لانهم فشلوا في كل محاولة حاولوها لتخليص طيارتهم ورأيناهم يقطعون طريقاً لهم في الجليد لكي لا يدوروا دورة

تستغرق ٢٤ ساعة قبل وصولهم الينا . فذهبت مع ريزر لارسن لملاقاتهم ومعنا مركب صغير لنقلهم فوق بقعة ماء خالية من الجليد

واذا بصراخ رنّ في آذاننا . صراخ ديترخسن وامدال يطلبان النجدة وقد علمنا بعدئذ انهما كانا يمشيان على الجليد وكل منهما يحمل حملاً ثقيلاً على ظهره فهبطا في مجرى من مجاري الجليد فهبّ إلزورث للحال لنجدتهما فانقذ ديترخسن اولاً ثم تعاونا على انقاذ امدال ولو تأخرا دقيقة عنهُ لكان افلت من ايديهما ولقي حتفهُ

ولم نستطع ان نمد يد المعونة لرفاقنا لان بقعة الماء بيننا كانت مغطاة بطبقة رقيقة من الجليد وكان يتحتم تحطيمها قبل استخدام الزورق . وان قلمي ليعجز عن وصف فرحنا حينما رأينا رءوسهم ظهرت وراء جدار الجليد بعد ان رنت في اذاننا اصوات اليأس وطلب النجاة

ومن ثم تعاونا جميعاً على فتح طريق لاخراج طيارتنا من الجليد فبقينا حتى الرابع عشر من يونيو نكابد من المشاق والمصاعب ما لا تقاس بهِ المشاق التي كابدتها في رحلتي الى القطب الجنوبي. لان حركة الجليد في هذه الاصقاع الشمالية لا تجري على خطة واحدة يمكن الاعتماد عليها . اخيراً وفقنا الى اخراج الطيارة من انياب الجليد الذي كاد يمزقها ، من غير ان تصاب بخلل او عطل ما ، وجررناها الى بقعة تستطيع الجري عليها مقدمة لطيرانها وكنا قد مهدناها بقوة سواعدنا وطولها ١٨٠٠ قدم وعرضها ٣٦ قدماً

وفي ١٤ يونيو ظهرت ثغور وشقوق في الجليد هددتنا بتعطيل جانب كبير من الجهد الذي كابدناهُ في تمهيد هذه الساحة للطيارة لكي تجري فيها قبل الطيران فخففنا احمال الطيارة للحال وفي صباح ١٥ يونيو جربنا ان نطير بها فافلحنا وكان ريزر لارسن يسوقها فطرنا جنوباً بعد ان تركنا الطيارة الاخرى مدفونة في الجليد وقد عجز رفاقنا عن اخراجها منهُ وحدهم وتركنا وراءنا من المعدات ما قيمتهُ نحو الف جنيه .وكانت ثقتنا بالآلات كبيرة فحسبنا نفوسنا قد خرجنا من منطقة الخطر حالما حلقت الطيارة في الهواء

ثم هبت علينا ريح جنوبية شرقية وانتشر الضباب امامنا فاضطررنا ان نطير على ارتفاع ٣٠٠ قدم اولاً ثم ارتفعنا فوق الضباب مسترشدين بالبوصلة الشمسية . وكان ديترخسن يلاحظ حركات الجليد كلما تسنى لهُ ذلك . كنا حينئذ على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم ولم تمض علينا مدة طويلة حتى خرجنا من منطقة الضباب وآلتا الطيارة في حالة جيدة جدًّا . وكنا قد حددنا ما يسمح للواحد منا اكلهُ لما كنا على الجليد ولا بارقة

امل بالفرج، اما الآن وقد فتحت امامنا ابواب النجاة فصرنا نأكل من غير حساب .
وكان امدال يراقب مقدار البنزين الذي معنا ويخبر ريزر لارسن بذلك فيقتصد جهده

وبعد ما قطعنا الدرجة ٨١ والدقيقة ٣٣ من العرض الشمالي لقينا الضباب ثانية .
وكنا قد اقتربنا من اليابسة فلم نستطع ان نلحق فوقهُ لئلا نضطر الى النزول فجأة اذ قد نفد البنزين الذي معنا . وزادت كثافة الضباب فطرنا على علو يتراوح ما بين ١٥ قدماً و٣٠ قدماً فوق سطح البحر . واذا بجبال سبتسبرجن تظهر عند الافق فطرنا باقصى سرعة الطيارة وسددنا مقدمنا نحو نورث كيب في جزيرة نورث ايست لند لنصل اليهِ باسرع ما يستطاع وكان ريزر لارسن قد لاحظ ان الاجنحة الصغيرة وعملها يشبه عمل الدفة قد صارت صعبة الحركة وجرب امدال وفوخت ان يعرفا موضع الخلل ليصلحاه فلم يستطيعا ذلك ونحن في الجو . وكان النزول فوق امواج البحر الهائجة محفوفاً بالاخطار لذلك طرنا بالطيارة ما بقي الطيران مستطاعاً . اخيراً وقفت الاجنحة الصغيرة فجرب ريزر لارسن ان يعتاض منها بالدفتين المستطيلتين فلم يجد ذلك نفعاً فاضطررنا ان ننزل على متن الامواج فامتطيناها نصف ساعة حتى وصلنا الى اليابسة التي على الجانب الغربي من نورث كيب وكان قد بقي معنا حينئذ ٢٠ لتراً من البنزين وهي كافية في احوال عادية ان توصلنا الى محطة هوبي لو لم تصب الطيارة بعطل

وكنا نعد شيئاً من الطعام واذا نحن بمركب في عرض البحر فذهبنا اليهِ في الحال فوجدنا انهُ المركب النروجي سويلف فاستقبلنا ضباطهُ وبحارتهُ احسن استقبال لان حديث رحلتنا كان قد بدأ يثير المخاوف في نفوس ابناء وطننا

وهبت في الليل عاصفة شديدة عرفنا اننا لا نستطيع الطيران فيها الى خليج الملك فوضعنا الطيارة في مكان امين في الجانب الغربي من خليج لادي فرنكان . وعمنا خليج الملك على ظهر المركب سويلف على ان يعود منا من يرجع بها حين تسكن العاصفة وتقر لجج البحر فبلغناه في الساعة الاولى صباحاً وكانت بعثة نروجية تستعد للضرب في الاصقاع القطبية للبحث عنا فوصلنا قبل قيامها بساعة واحدة وكان قد تجمع جمهور غفير لوداعها فرأوا المركب سويلف يقترب ولكن لم يخطر لهم اننا عليهِ ولما علموا بذلك علا هتاف البشر وازدحمت المناكب لمصافحتنا

وقد عاد أمدال بصندوق من شرائط السنما رسمت عليها مشاهد الاصقاع المتجمدة الشمالية وما قاستهُ البعثة من الاهوال مقتطف اغسطس سنة ١٩٢٥

اول رجل بلغ القطبين

رحلة امندسن الى القطب الشمالي بالبلون

١

اخذ القطب الشمالي يفقد جانباً مما يحيط بهِ من الاسرار فروّاد خمسٍ من الامم يعدّون معداتهم لاقتحام اهوالهِ في هذا الصيف وفي مقدمتهم امندسن الرحالة الاسوجي الشهير الذي عجز في الصيف الماضي عن الوصول اليهِ بالطيّارة فلم تثنهِ الاخطار التي لقيها مع رفقائهِ عن الاستعداد لارتياده ثانية فاتفق مع المستر الزورث الاميركي وكان من رفاقهِ في السنة الماضية ، ومع حكومة ايطاليا فاعطتهُ بلوناً دعي نورج وجعل احد مهندسيها قبطانهُ على ان يرفع هذا البلون العلم النروجي فغادر رومية في ١٠ ابريل طائراً فوق فرنسا الى بلاد الانكليز ومنها لم يطر رأساً الى سبتزبرجن بل طار الى اوسلو عاصمة بلاد نروج ومنها الى لننغراد عاصمة روسيا ثم الى فاردو في شمال بلاد نروج فخليج الملك في سبتزبرجن ومنهُ يمم القطب ليطير فوقهُ الى بوينت بارو في الاسكا. وقد وافتنا البرقيات العمومية قبيل كتابة هذه السطور ان امندسن وصحبهُ اجتازوا القطب الشمالي واتموا رحلتهم الهوائية في بلدة تيلر بالاسكا. بعدما بقي البلون ٧٢ ساعة في الهواء وقضى برهة فوق القطب لتدوين الارصاد الجوية المختلفة . وقد صنع هذا البلون في ايطاليا ووضع رسومهُ واشرف على صنعهِ قبطانهُ الملازم نوبيلي الايطالي طولهُ ٣٢٥ قدماً ويسع ٦٧٠ الف قدم مكعبة من الغاز وفيهِ ثلاث آلات قوتها معاً ٧٥٠ حصاناً يسير بها ٤٥ ميلا في الساعة وفي استطاعتهِ ان يطير ٣٦٠٠ ميل من غير ان يحط على الارض

بعثة ولكنز

الكبتن جورج ولكنز رائد استرالي اشترك مع جمعية الطيران بدوترويت والجمعية الجغرافية الاميركية واتحاد الصحف الاميركي في اعداد بعثة هوائية الى القطب الشمالي وخطتهُ فيها ان يطير من فربانكس بالاسكا الى بوينت بارو ومنهُ يطير فوق القطب الى سبتزبرجن بطيارتين من ذوات السطح الواحد صنع فُكر Fokker بدأ رحلتهُ هذه في ٢٦ مارس الماضي واخفق حين حاول الطيران فوق القطب لعدم تمرس طياريهِ بهذا

النوع من الطيارات وقد عزم الآن على ان ينقل الوقود والطعام من فربانكس الى نقطة قريبة من القطب ثم يحاول ثانية تحقيق خطته الاولى على ما فيها من المغامرة والمخاطرة

بعثة برد

والكومندور رتشرد برد ضابط متقاعد من ضباط البحرية الاميركية غادر نيويورك على باخرة الى سبتزبرجن في ٦ ابريل الماضي ومعهُ طيارة من ذوات السطح الواحد من صنع فكر ايضاً وخطتهُ ان يطير عليها من خليج الملك في سبتزبرجن الى نقطة في « بيريلاند » تبعد نحو ٤٠٠ ميل عن القطب يجعلها مركزهُ المتقدم ومنها يحاول الطيران الى القطب لارتياد المجاهل التي تحيط بهِ. ويحذو حذو ولكنز في نقل الاطعمة والوقود من خليج الملك الى المكان الذي يختارهُ للطيران منهُ الى القطب . ويعضده في بعثتهِ هذا المستر ادزل فورد ابن هنري فورد الشهير والمستر جون روكفلر وغيرهما من اغنياء الاميركيين

بعثات اخرى

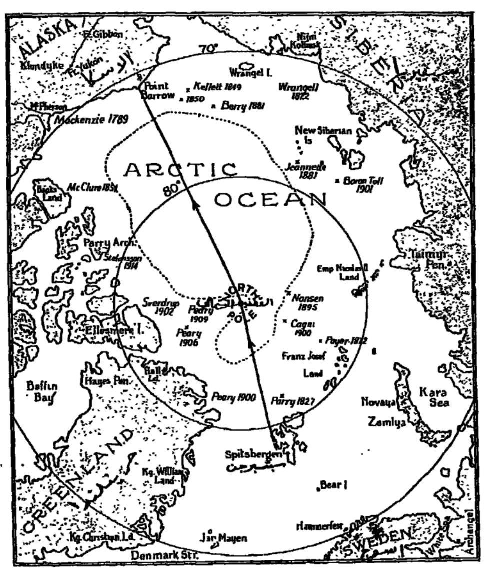
عدا هذه البعثات تستعد وزارة البحرية الفرنسوية لارسال بعثة لارتياد مجاهل القطب الشمالي تجعل عمدتها على المزالق المحركة والطيارات المائية ويستعد القبطان مكملان الاميركي الذي قام برحلة قطبية في الصيف الماضي للعود الى تلك الاصقاع في هذا الصيف . كذلك تعد روسيا معدات بعثتين تقصدان الى الاصقاع المتجمدة شمال سيبريا وقد جاء في انباء نروج ان القبطان ايلياسون النروجي سيذهب الى جزيرة نوفا زمبلا ومنها يحال الطيران الى القطب الشمالي على زورق هوائي . وقد ارسل متحف التاريخ الطبيعي في نيويورك بعثة علمية الى الاصقاع المتجمدة شمالي جزيرة جرينلاندا لتجمع الحقائق العلمية المتعلقة بتلك الاصقاع وستنشيء هذه البعثة محطة لاسلكية في ايتاه قد تساعد الرواد الذين يحاولون الطيران الى القطب او فوقهُ على تذليل بعض المخاطر التي يتعرضون لها . وقد اهتمت جريدة نيويورك تيمس تعضدها في ذلك اتحاد الصحافة الاميركية على انشاء محطة لاسلكية في بوينت بارو بالاسكا للاتصال بالبعثات القطبية

اما النتائج التي ينتظر تحقيقها من هذه البعثات فاهمها ايجاد خط جويّ فوق القطب تسلكهُ الطيارات والبلونات بين اوربا واميركا واسيا فترسل بهِ الرسائل وينتقل بهِ المسافرون الذين يودون الانتقال على جناح السرعة . فاذا تحققت هذه الامنية اصبحت

مدن الشمال في اوربا واميركا واسيا لا تبعد احداها عن الاخرى اكثر من ٢٤ ساعة بطريق الجو

٢

ذكرنا في ما تقدم ان امندسن الرحالة النروجي بلغ في طيرانهِ بالبلون القطب الشمالي . وهو الرحالة الوحيد الذي بلغ قطبي الارض الشمالي والجنوبي وقد بلغ القطب



خريطة الاصقاع المتجمدة الشمالية والخط الذي سار فيه امندسن وصحبه بالبلون من سبتسبرجن الى الاسكا مارين فوق القطب الشمالي

الجنوبي في ١٤ دسمبر سنة ١٩١١ فقلنا في مقتطف ابريل سنة ١٩١٢ ما نصهُ

« لقد كان من نصيب اهل نروج الساكنين في اقصى الشمال ان يكون مكتشف القطب الجنوبي منهم فقد ثبت الآن ان الرحالة امندسن النروجي الذي سار بسفينتهِ

الفرام قاصداً الوصول الى القطب الجنوبي وصل اليهِ في ١٤ دسمبر الماضي وقد بعث الى جريدة الديلي كرونكل الانكليزية بوصف اكتشافهِ للقطب الجنوبي فنشرتهُ في ٨ مارس وخلاصتهُ انهُ شرع في سفره نحو القطب في ١٠ فبراير سنة ١٩١١ فوصل الى حيث قضى فصل الشتاء القطبي وكان متوسط درجة الحرارة ٢٦ تحت الصفر بميزان سنتغراد واوطأ ما بلغتهُ ٥٩ درجة تحت الصفر . وابتدأ فصل الربيع في اواسط اكتوبر فعاد الى السير جنوباً فوصل الى الدرجة ٨٣ في ٩ نوفمبر والى الدرجة ٨٥ في ١٤ نوفمبر . وفي ١٧ نوفمبر وصل الى ارض مرتفعة فجعل يصعد فيها هو ورجالهُ حتى بلغوا ما ارتفاعهُ ١٠٧٥٠ قدماً في ٦ دسمبر وكان ذلك حيث العرض ٨٧ درجة و ١٤ دقيقة وفي ٩ دسمبر بلغوا الدرجة ٨٨ والدقيقة ٣٩ من العرض الجنوبي أي بقي بينهم وبين القطب درجة و٢١ دقيقة . وفي ١٢ دسمبر بلغوا الدرجة ٨٩ والدقيقة ٣٠ وفي ١٣ دسمبر بلغوا الدرجة ٨٩ والدقيقة ٤٥ وفي ١٤ دسمبر بلغوا القطب نفسهُ وكانت درجة الحرارة حينئذ ٢٣ تحت الصفر . والقطب في سهل مرتفع فسيح جداً . وفي اليوم التالي كانت السماء صافية فرصدوا ارصاداً فلكية كثيرة من الساعة ٦ قبل الظهر الى الساعة ٧ بعده فوجدوا انهم كانوا حيث العرض ٨٩ درجة و٥٥ دقيقة فساروا جنوباً مسافة ٩ كيلومترات حتى يكونوا قد مشوا على القطب حتماً . وقد كانت المسافة من آخر مكان شتوا فيهِ الى القطب ١٤٠٠ كيلو متر وعليهِ فقد كان متوسط ما قطعوه في اليوم ٢٥ كيلو متراً »

لكن شتان بين ما عاناه امندسن حينئذ في الوصول الى القطب وبين ما لقيهُ الآن من السهولة في البلون نورج فقد ثبت الآن ان بلونهُ سار من خليج الملك في سبتسبرجن في ١١ مايو الماضي نحو الساعة العاشرة صباحاً ومر فوق القطب الشمالي في اليوم التالي نحو الساعة الثانية والدقيقة الثلاثين وكان معهُ المستر السورث الاميركي والكبتن نوبلي الايطالي فانزلوا البلون حتى صار على ٦٠٠ قدم فوق الارض وطرح كل منهم علم بلاده وهو متصل بحربة ثقيلة فغرزت الاعلام الثلاثة في الثلج عند قطب الارض. ووصل البلون بهم الى الاسكا بعد ان قطع المسافة من سبتسبرجن اليها في ٤٥ ساعة ولم تكشف ارض جديدة . والبلون ايطالي وهو اخن البلونات الشائعة الآن نسبة الى طولهِ

رحلة الكومندر برد

الى القطب الشمالي بالطيارة

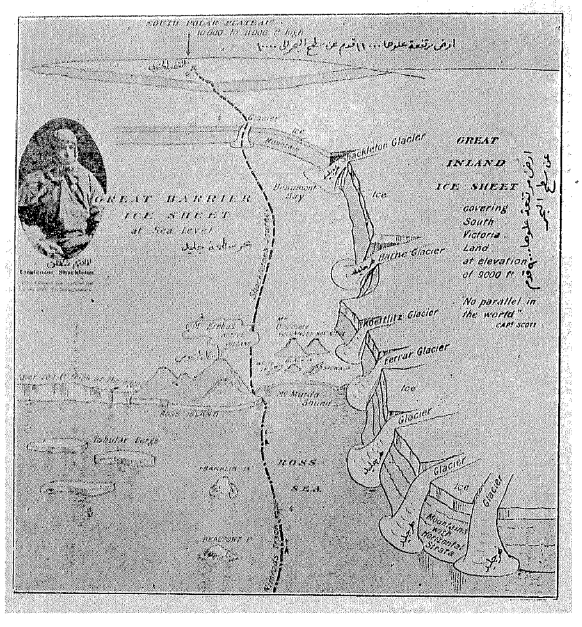
من اغرب الامور في تاريخ الارتياد ان ينقضي على الروّاد ما يزيد على اربعمائة سنة منذ كشفت اميركا لا يصل منهم الى القطب الشمالي سوى رائد واحد هو الكومندر پيري الاميركي سنة ١٩٠٩ . ثم تنتشر الانباء البرقية في شهر مايو سنة ١٩٢٦ ان ٢٠ رجلاً تمكنوا من بلوغ القطب الشمالي في اسبوع واحد اثنين منهم بطيارة والباقين في بلون . وسيخلد ذكر هاتين الرحلتين الجويتين الى القطب الشمالي في تاريخ الارتياد لما احاط بهما من الحزم والاقدام وما تعرض اصحابهما لهُ من المخاطر التي تغلبوا عليها بما ريضوا عليهِ من الشجاعة والصبر وما تجهزوا بهِ من معدات العلم ومستنبطاتهِ

وقد تمضي سنوات قبلما تنشأ الخطوط الهوائية تمر فوق القطب تنقل البضائع والمسافرين بالبلونات والطيارات بين البلدان الشمالية، ولكن طيران برد وبنت بالطيارة، وامندسن ونوبلي وصحبهما بالبلون نورج ، اثبت انهُ في الامكان استعمال طريق جوي فوق القطب للمواصلات وان كل بقعة من الكرة تحيط بالقطب لا بد ان ينتابها الروّاد يكشفون مجاهلها

قضى پيري خمساً وعشرين سنة يستعد ويحاول بلوغ القطب الشمالي ولما بلغهُ واراد الرجوع قضى شهوراً عديدة قبلما عاد فى العمران وقبلما تمكن من نشر انبائهِ في الصحف والكتب . واما الكومندر برد فطار من سبتسبرجن الى القطب الشمالي وعاد الى سبتسبرجن في اقل من ست عشرة ساعة، وطار امندسن ونوبلي وصحبهما بالبلون نورج من سبتسبرجن فوق القطب الى الاسكا مسافة ٢٧٠٠ ميل في ٤٦ ساعة.وكانت اخبارهم تذاع بالراديو ساعةً ساعة وتنشر في كبريات صحف العالم . وسنصف فيما يلي رحلة الكومندر برد تلخيصاً عن مقالة لهُ في المجلة الجغرافية الوطنية الاميركية مبقين الكلام فيها بضمير المتكلم قال :

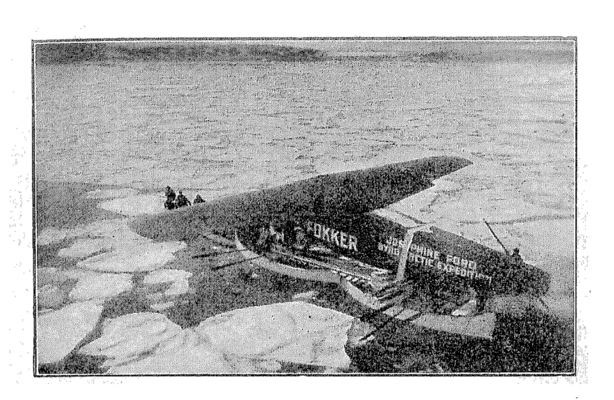
***

منذ سبع عشرة سنة قضى الكومندر پيري في رحلتهِ الى القطب الشمالي ذهاباً واياباً نحو ١٣ شهراً اما نحن — اي برد ورفيقهُ فلويد بنت — فتركنا معالم العمران صباح



رسم تصوري للاصقاع القطبية الجنوبية

انظر الروّاد صفحة ١٩١



الطيارة جوزفين فورد

برد بملابس الطيران الى الاصقاع القطبية

الروّاد صفحة ٢٥٧

احد الايام باكراً وطرنا الى القطب فبلغناه وحومنا فوقهُ وعدنا الى مقرنا بعد ظهر ذلك اليوم

لما اعلمني وزير البحرية الاميركية المستر ولبورانهُ مستعد لان يمنحني اجازة لهذه الغاية ذهبت الى المستر ادزل فورد (ابن فورد المشهور) لاطلب معاونتهُ فلما اطلعتهُ على خطتنا وطلبت منهُ في حياء تأييدنا بالمال اجاب طلبنا من غير تردد وانضم اليهِ بعض اصدقائهِ فجمعنا ما يلزمنا من المال على اهون سبيل

اخترنا طيارة من صنع فكر ذات جناح واحد (مونوبلاين) طولها ٤٢ قدماً و ٩ بوصات والمسافة بين طرفي جناحيها ٦٣ قدماً و٣ بوصات تحمل ٤ خزانات للبنزين اثنين يسعان ٢٠٠ جالوناً والاثنين الآخرين يسعان ٢٢٠ جالوناً وفيها ثلاث محركات اثنان منها كافيان للنهوض بالطيارة والطيران بها فاذا اختل احدها كان المحركان الباقيان كافيين لتسييرها ودعيناها « جوزفين فورد » وهو اسم ابنة المستر ادزل

امتحنا الطيارة قبيل سفرنا من اميركا فوجدناها وافية بالمرام لاتحرق سوى ٢٨ جالوناً من البنزين في الساعة وهو أقل مما كنا ننتظر وتسرع في الطيران حتى تبلغ سرعتها ١١٧ ميلا في الساعة

سافرنا ومعنا هذه الطيارة على الباخرة « شانتيه » الى سبتسبرجن فبلغنا خليج الملك الساعة الرابعة من صباح ٢٩ ابريل فوجدنا امندسن ونوبلي وصحبهما يعدون معدات البلون نورج للطيران فوق القطب

كان المرفأ مغطى بقطع الجليد مما جعل الدنو من الرصيف متعذراً فرسونا على ٩٠٠ قدم من الشاطىء واخذنا نعد طوفاً من الواح الخشب تنقل عليهِ الطيارة الى البر . وفيما كنا نفعل ذلك اخذ الثلج يتساقط والهواء يبرد ولكن ذلك لم يبرد همتنا وربط احد ربانيي السفينة الطيارة ربطاً محكماً ورفعت عن ظهر السفينة وانزلت الى الطوف فسار بها البحارة الى البر سالمة . لكننا في عملنا هذا جازفنا مجازفة كبيرة لانهُ لو اتفق هبوب ريح شديدة حينئذ لمزقت قطع الجليد الطوف الضعيف ولتحطمت الطيارة التي بها مناط آمالنا

نزلنا الى البر وشرعنا نعد الطيارة للطيران فوضعنا فيها كل لوازمها ولوازمنا ولما حاولنا ان نطير بها لامتحانها انكسرت احدى المزالق التي تجري عليها فوق الجليد

وكادت تنقلب الطيارة شبر منقلب وانحنت احدى آلاتها على ان اليأس لم يخامر قلوب رجالنا فاخذ بعضهم يصلح ما يجب اصلاحهُ فيها وآخرون يعدون مزالق جديدة دهنوها بالقطران حتى يسهل زلقها على الجليد والباقون مهدوا لنا طريقاً منحدراً فوق الجليد طوله نحو ميل لتجري عليهِ الطيارة قبل طيرانها . فلما اطرناها ثانية مدة ساعتين لامتحانها ثبت لنا ان كل شيء فيها على ما يرام

واتممنا كل المعدات يوم ٨ مايو ولما اخبرنا المستر هاينز المتيورولوجي ان الطقس صالح ادرنا المحركات واخذنا ما نحتاج اليهِ من البنزين والطعام وفحصنا كل الآلات التي معنا وصعدت مع صديقي بنت الى الطيارة ولكنها لم تطر بنا . وذلك لان ثقل ماحملتهُ كان فوق طاقتها فلم تنهض عن الارض بل جرت بنا فوق الطريق المنحدر الممهد وفي آخره اصطدمت بقطع من الجليد وكادت تنقلب وتتحطم . فخرجت من الطيارة جزعاً وفحصت المزالق وآلة النزول فوجدتهما سليمين فسرّي عني بعض الشيء فخففنا حملها بضع مئات من الارطال وجررناها الى اعلى المنحدر واشتغلنا كل الليل لتمهيده ثانية

كان الجو لا يزال صافياً فعزمنا ان نبدأ رحلتنا من جديد حوالي منتصف الليل ولما مضى على انتصاف الليل نصف ساعة كنا قد اعددنا كل امر للرحيل وكان قد انقضى عليّ وعلى رفيقي بنت ٣٦ ساعة من غير ان نذوق طعم الكرى فتوسل الينا الدكتور اوبرين ان نام قليلاً قبيل السفر فلم نفعل لاننا رأينا الفرصة سانحة والشمس الى الشمال تدعونا

سرنا للمرة الرابعة فوق المنحدر الجليدي وقبل ان نبلغ آخره ارتفعت بنا الطيارة

كان معنا آلة راديو صغيرة مبنية على محرك يدار باليد نستطيع استعمالها اذا اضطررنا ومزلقة لنقل طعامنا ، وطعام يكفينا نحو عشرة اسابيع وملابس وبندقية ومسدس وخيمة وفاس وسكين وكل ما نحتاج اليهِ في تلك الاقطار النائية

ونظرنا الى تحت فرأينا رفاقنا يلوحون لنا بايديهم وبرانيطهم كأنهم يتمنون لنا النجاح في مهمتنا . ما زلت حياً لاانسى فضل اولئك الرفاق ! انهم انكروا نفوسهم وبذلوا جهدهم ليمهدوا لنا سبيل الطيران الى القطب

مصاعب الطيران فوق البحر القطبي

لست تجد فوق قطع الجليد الطافية في البحار القطبية اعلاماً او معالم تهتدي بها في اثناء الطيران . فالطيارة من هذا القبيل اشبه شيء بباخرة في عرض الاوقيانوس ليس لها ما تهتدي بهِ سوى القمر والنجوم فيقيس ربانها بالسدس (سكستنت) علو احد النجوم فوق الافق ويستخرج من ذلك موقعهُ الحقيقي بعملية رياضية طويلة . على ان افق البحر القطبي لايعتمد عليهِ لان قطع الجليد وجبالهُ تحجب الافق الحقيقي . كذلك لايستطيع الطيار ان يضيع وقتاً في عملية رياضية طويلة لانهُ اذا كان سائراً خطأً انحرف عن محجتهِ عشرات الاميال قبل الانتهاء من عملية رياضية بدأها لمعرفة مكانهِ . لذلك يجب عليهِ ان يجد طريقة اخرى يعرف بها مكانهُ معرفة سريعة حتى يجني فائدة هذه المعرفة

وكانت غايتنا ان نتجه اتجاهاً شمالياً من غير انحراف لكي نصل الى القطب اولاً ولكي نتمكن من الرجوع الى سبتسبرجن ثانية لانهُ اذا لم نتمكن من معرفة اتجاهنا تعذر علينا ان نعود . وكانت البوصلة (الحك) لاتجدينا نفعاً لان ابرتها تتجه الى القطب المغنطيسي الشمالي وهو يبعد نحو الف ميل عن القطب الجغرافي الشمالي جنوباً ولو ان ابرة البوصلة تتجه تماماً الى القطب المغنطيسي لكان يسهل علينا ان نستخرج من ذلك موقعنا فوق البحر القطبي ولكن الابرة تتأثر بما حولها فقد توجد قربها قطعة كبيرة من الحديد تحرفها عن اتجاهها الحقيقي ولذلك لم نستطع الاعتماد على البوصلة كذلك لم نستطع الاعتماد على الدوامة «الجيروسكوب» لانهُ كلما اقتربنا من القطب الشمالي اتجه محورها اتجاهاً عمودياً

فلم يبق لدينا سوى الاعتماد على الشمس لتكون دليلنا ولذلك اخذنا معنا بوصلة شمسية استنبطها المستر بمستد رئيس الرسامين الفنيين بالجمعية الجغرافية الوطنية ولولاها لما استطعنا ان نصل الى القطب ولا ان نعود الى سبتسبرجن

وهذه البوصلة الشمسية كالمزولة الا انها تعكس فعلها . ففي المزولة يلزم معرفة الجهة الشمالية فموقع ظل الشمس يدل على الوقت . اما في البوصلة الشمسية فاذا عرفنا الوقت عرفنا الجهة من اتجاه ظل الشمس

اضف الى ذلك ان الطيارة وهي طائرة تكون جزءا من الهواء الذي تسبح فيهِ كسفينة

تسير في تيار. فاذا هبت ريح سرعتها ٣٠ ميلا في الساعة حرفت الطيارة عن مسيرها المستقيم ثلاثين ميلا الى اليمين او الى الشمال حسب اتجاه الريح . ولمعرفة هذا الانحراف كان لدينا آلة تدل عليهِ . وكان لابد لنا في كل ذلك من معرفة وقت غرينتش معرفة دقيقة لذلك كان معي كرونومتران حفظتهما في غرفتي اسابيع وعرفت مبلغ الخطأ الذي يصيبهما من تقلص اجزائهما اذا تعرضا للبرد الشديد . ودوّنت ذلك لادخلهُ في حسابي

كان بنت يسوق الطيارة وانا اعطيهِ تعليمات الاتجاه التي استخرجها من رصد الآلات التي معنا فاذا انحرفت الطيارة من وقت الى آخر كان ينظر الى الوراء فاخبره في اي اتجاه يجب ان يسير وكنا نفعل ذلك كل دقيقتين لنتحقق صحة المسير

وكنت انا احقق مرةً كل ثلاث دقائق قوة اتجاه الهواء لاكون على بينة من هبوب ريح متى هبت

ولما ثبت لي اننا سائرون في اتجاه شمالي مستقيم حولت نظري الى مفازة الجليد التي تحتنا وكنا حينئذ على ارتفاع ٢٠٠٠ قدم واستطيع ان ارى الى بعد خمسين ميلاً من اليمين وخمسين ميلاً من اليسار فلم ار اثراً ما لليابسة ولو كان هناك اثر لليابسة في منطقة قطرها ١٠٠ ميل لكنا رأينا قمم جبالها لان الهواء كان صافياً

وكانت الحرارة حينئذ ٨ درجات فوق الصفر بميزان فارنهيت اي ٢٤ درجة تحت درجة الجليد اي نحو ١١ درجة تحت الصفر بميزان سنتغراد . وكان في مفازة الجليد شقوق كثيرة في اتجاهات مختلفة وكان الهواء ساكناً ليس فيهِ تيارات متعارضة لتسطح الجليد وانتظام الحرارة وهذا كلهُ سهل علينا الطيران

نظرت الى بنت فرأيت ان احل محله قليلاً في تسيير الطيارة لكي يستريح قليلاً ولكي يملأ الخزان بالبنزين الذي كنا نحمله في صفائح صغيرة

ولم يكن تسيير الطيارة صعباً للاسباب المتقدم ذكرها فكنت ادير الدولاب بيد واحمل بيد اخرى البوصلة الشمسية لا تثبت من اننا نسير في خط مستقيم متجهين الى الشمال

ولما اتمّ بنت املاء الخزان بالبنزين عاد الى مكانهِ وعدت الى رصد الآلات وكاد يصيبني البهر من كثرة تحديقي الى الجليد لكننا كنا قد اخذنا معنا نظارات من لون الكهرباء تمنع ذلك

واخذت محل بنت مرتين في الساعتين التاليتين . ولما دلت حساباتنا على اننا صرنا على ساعة من القطب لحظت ان هناك ثقباً في خزان الزيت الذي يزيت احد المحركين ورأيت الزيت يكف منهُ . وكان بنت قد لحظ ذلك ايضاً فكتب على وريقة « سيقف المحرك »

واقترح بنت ان نحاول الهبوط الى الارض لاصلاح الخلل . اما انا فكنت قد عرفت ان بعثات كثيرة كبعثتنا فشلت لنزولها فوق الجليد فقررنا ان نستمر في سيرنا الى القطب ولو اضطررنا ان نعتمد على المحركين الباقيين فقط . لان الخطر في نزولنا قرب القطب اذا اضطررنا الى ذلك لا يكون اعظم من نزولنا حيث نحن . ولو تبعنا الخطة التي سار عليها الرواد قبلنا لكنا فشلنا في مهمتنا

ولما اخذت مكان بنت بعيد ذلك كنت انظر الى ذلك الثقب والى عداد الزيت وجلاً لانهُ اذا خف الضغط في العداد وجب توقيف المحرك . على ان قبلتنا كانت قد صارت على قاب قوسين او ادنى منا ولم نشأ ان نلوي راجعين

القطب

وفي الساعة التاسعة والدقيقة الثانية (وقت غرينتش) دلت حساباتنا على اننا فوق القطب فتحققت بذلك امنية كانت تساورني منذ طفولتي

صورنا بضع صور ثابتة ومتحركة وسرنا بضعة اميال في الجهة التي اتينا منها ثم درنا حول القطب في دائرة متسعة . هنا يضيع كل حساب في الوقت والاتجاه لان كل مكان وانت فوق القطب هو الى الجنوب

وفي الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة عشرة اتجهنا الى سبتسبرجن بعد ما عدلنا عن المرور فوق كايب مورس بسبب الثقب في خزان الزيت ولكن دهشنا بعدئذ من استمرار المحرك في عمله وتوقف الزيت عن الوكف من الخزان . والسبب ان الزيت كان يكف من ثقب مسمار غير ثابت في مكانهِ فلما انخفض مستوى الزيت عن ذلك الثقب وقف الوكف وبقي المحرك سائراً على ما يرام

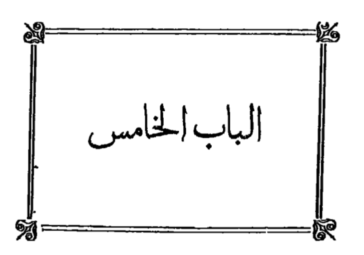
ران الكرى علينا من شدة الفرح في اتمام مهمتنا ومن تأثير هدير المحركين ومن التعب الذي نالنا من قلة النوم فغفوت لما كنت اسير الطيارة مرة ، وحلت محل بنت مراراً لنعاسهِ وتعبهِ

وكانت غايتنا القنة المسماة بوينت غراي في سبتسبرجن فلما رأيناها امامنا عرفنا اننا قد سرنا سيراً مستقيماً من القطب الى سبتسبرجن . ووصلنا الى خليج الملك ونحن على علو ٤٠٠٠ قدم ولم تكن الا بضع دقائق حتى جعلنا نصافح رفاقنا — بعد طيران نحو ١٦ ساعة متواصلة بلغنا فيها القطب الشمالي وعدنا منهُ سالمين . اه

هذا وقد منح برد مدالية هبرد الذهبية ومنح رفيقهُ بنت مدالية ذهبية في حفلة زاهرة اقامتها الجمعية الجغرافية الوطنية الاميركية حضرها الرئيس كولدج وخطب فيها وذلك بعد ما حققت لجنة من العلماء ما دونهُ برد على خريطتهِ من الاقيسة والملاحظات مما اثبت انهُ اول من وصل الى القطب الشمالي عن طريق الجو

مقتطف نوفمبر سنة ١٩٢٦





الباب الخامس



عبور الاتلنتيكي

بالطيارة والبلون

الطيران بين اوروبا واميركا

١

استعداد البارون فون تسبلن

يقال ان الكونت تسبلن الالماني المعروف بالبلونات المنسوبة اليهِ يحاول الآن صنع طرز جديد يجتاز الاوقيانوس لاتلنتيكي الفاصل بين اوروبا واميركا . وقد عرف عن هذا البارون ان الغاية التي كان يرمي اليها من عمل بلوناتهِ في بادىء الامر هي اكتشاف القطب الشمالي فلما سبقهُ پيري الاميركي الى ذلك غير خطتهُ فجعل من جملة اغراضهِ اجتياز الاتلنتيكي ببلونهِ . فتألفت لجنة لاخراج هذه الفكرة الى العمل يرأسها الاستاذ هرجسل المتيورولوجي الالماني

ومما هو جدير بالذكر ان الرحالة الاميركي « ولمان » كان قد بنى بلوناً لاكتشاف القطب سماهُ « اميركا » فاخفق ولكنهُ سبق كلّ من سلفهُ بجعل بلونهِ يطير مدة ٧٠ ساعة متوالية من غير ان ينزل بهِ الى الارض : وحذا رحالة آخر اميركي اسمهُ « ڤنيمان » حذوه فبنى بلوناً اسمه « اكرون ا » على نية اجتياز الاتلنتيكي من الغرب الى الشرق فضاع البلون بمن فيهِ

وعلى هذا الاثر تألفت شركة المانية اميركية لعبور الاوقيانوس المذكور برئاسة رجل اسمه جويروكر . فصنع بلوناً سماه « سوكارد » وعزم على السفر بهِ من جزر كناري غربي افريقيــة الى جزر الانتيل الصغرى مطاوعة للرياح التجارية ثم عدل عن هذا العزم كما سيجيء

وقد بحث كاتب في السينتفك اميركان في مسئلة الطيران فوق الاتلنتيكي وما تستلزم من التدابير قبل الاقدام عليها فقال انها تستلزم اختيار طريق يكون اخصر الطرق وتكون الاحداث الجوية فيهِ اكثر ملاءمة للمسافر منها في غيره . وهـذه الاحداث هي اولاً دوام الحرارة والضغط الجوي على حال واحدة تقريباً غير عرضة للتقلب الكثير . وثانياً هبوب رياح ثابتة معتدلة لا تزيد شدتها على حد معين

اما من حيث الامر الاول فيقال اجمالاً ان كل تغير مفاجيء في درجة الحرارة

والضغط الجوي يقضي الى تقلص غاز الهدروجين الذي يملأ البلون بهِ او الى تمدده فلا بد من التحوط لذلك اذا اريد ابقاء البلون على علو واحد وهـذا ما يسمونهُ بالتوازن العمودي وهو اهم ما يشغل المشتغلين بهذا الفن . وقد احتاطوا لتقلص الغاز وما يعقبهُ من تغير شكل البلون بنفخ الهواء فيهِ الى ما يسمونهُ « البالونت » وهي بلونات صغيرة ضمن البلون الكبير ويعيضهُ الهواء مما فقده تقلص الغاز ولكن يزيد ثقله ويقل ارتفاعهُ . ومتى تمدد الهدروجين ضغط على الهواء واخرجهُ من « البالونت » ولكن قد يبقى الهدروجين آخذاً في التمدد بعد خروج الهواء من البالونت فلا بد حينئذٍ من ايقافهِ عند حده خشية ان تفضي زيادة تمدده الى انشقاق البلون . وفي معظم البلونات يتداركون ذلك بمصراع يخرج منهُ الغاز متى بلغ حداً معيناً من الضغط . وعيب هذه الطريقة فقد بعض الغاز من غير ان تكون هناك واسطة لتعويضهِ عند الاقتضاء

وقد اخترع مشاهير الطيارين عدة طرق لاصلاح هذا العيب . فالطيار « ولمان » وصل ببلونهِ « اميركا » ذيلاً وتركه يغوص في ماء البحر فاذا خف البلون بتمدد الغاز اخذ في الارتفاع فيرتفع الذيل معهُ فيزيد ثقله بخروجهِ من الماء وبالتالي يزيد ثقل البلون فيكف عن الصعود واذا ثقل البلون بتقلص الغاز غاص الذيل في الماء فخف وبالتالي خف البلون فكف عن الهبوط . ولكنهُ وجد بالاختبار ان هذا الذيل لا يفي بالمرام لانهُ يعرض البلون لكثير من الاضطراب لاقل نوء يحدث في البحر

اما الطيار فيمان فاحاط البلون بشبكة من اسلاك الفولاذ تمنع الغاز من التمدد وتبقيهِ على حجم محدود فاذا احمت الشمس الغاز ازداد الضغط في البلون ولكن حجم الغاز يبقى واحداً وبالتالي تبقى قوة رفع البلون كما هي . واذا برد الغاز باقبال الليل او بسبب آخر قل ضغط الغاز ولكن حجمهُ يبقى كما كان لان البلون يملأ غازاً تحت اقل درجات الحرارة . اما ارتفاع البلون فيضبط باجربة تملأ هواء اذا ارتفع البلون فيكف عن الارتفاع او يأخذ في الهبوط حتى يبطل ارسال الهواء الى الاجربة

واما الطيار بروكر فكان يرمي الى ابقاء ضغط الغاز في بلونه متساوياً برشاش من الماء يبقي حرارة الغاز واحدة على الدوام . ولكن شركتهُ توقفت كما تقدم القول

ويقال ان في احداث البلونات التي بنيت على نية اجتيـاز الاوقيانوس جهازاً مؤلفاً من طلمبة مزدوجة تصل ما بين غلاف البلون الحاوي للغاز وخزان حاوٍ للغاز

الاحتياطي فتعطي الطالبة وتأخذ بينهما على حسب تقلص الغاز في غلاف البلون او تمدده . ولهذه الطريقة مزيتان الاولى عدم فقد شيء من الغاز . والثانية ان الخزان يعيض البلون مما يفقد من غازه بخروجهِ من مسامهِ

هذا ما يقال في الحرارة وضغط الهواء . اما مسألة اعتدال الرياح فغاية ما يقال فيها انهُ منذ نحو عشر سنين كانت سرعة اسرع البلونات لا تزيد عن اربعين ميلاً في الساعة وعليهِ لم يكن البلون ليستطيع المسير ضد ريح تساوي سرعتها سرعتهُ او تزيد عليها اما الآن وقد بلغت سرعة احدث البلونات ٧٥ ميلاً في الساعة فقد سهل عليها اجتياز الاتلنتيكي على نسبة ازدياد سرعتها

ومما يساعدها على ذلك ما رسم من الخرائط الكثيرة في بعض مراصد اميركا وانكلترا مدة سنين كثيرة . وفي هذه الخرائط بيان الرياح المتسلطة على جوّ الاتلنتيكي الى علو كثير باعظم ما يكون من الضبط والدقة . ويؤخذ منها ان اسهل الدروب التي يجتاز فيها الاوقيانوس اثنان . الاول طريق يمتد بين مدينة سان جون في نيوفوندلند بازاء كندا وبين مدينة فالنشيا في ارلندا والمسافة بينهما ١٨٠٠ ميل (انظر الخريطة المرسومة) ولا تزيد سرعة هبوب الرياح فيها على ٢٨ ميلاً . ويمكن البلون الذي سرعتهُ ٧٥ ميلاً في الساعة ان يجتاز هذه المسافة من الغرب الى الشرق في ١٨ ساعة الى ٢٠ ساعة . ومن الشرق الى الغرب في ٣٦ ساعة الى ٤٠ ، وهذا الفرق ناشيء عن تسلط الرياح الغربية . وكذلك يمكن البلونات ان تسير على هذا الخط ستة اشهر في السنة على القليل

واما الطريق الثاني فيمتد ما بين لسبون (لشبونه) عاصمة برتوغال واحدى جزر الانتيل الصغرى والمسافة بينهما ٣٦٠٠ ميل فهو طويل فلذلك تبذوهُ في جنب الطريق الاول المختصر

على ان وجود طرفي الطريق الاول في ارض انكليزية يحول الآن دون قيام البلونات الالمانية منها فلا بد من قيامها من ارض المانية هي اقرب ما يكون الى الساحل الاميركي. واذا قلنا ان الالمان اتخذوا غانت في البلجيك قاعدة لبلوناتهم هذه فان المسافة بينها وبين فرضة بنفور في ولاية ماين باميركا نحو ٣٢٠٠ ميل . فهل عندهم بلونات تقوى على البقاء طائرة طول هذه المسافة . والمقول ان عندهم ما يشبه هذه البلونات فانهم بنوا بلونات ثقل الواحد منها ٦١ طناً منها ٢١ طناً حمولة تقسم هكذا :

١/٢	١	طن ثقل ١٥ رجلاً (ربان ومساعدان له و٤ للدفة ومهندس و٧ ميكانيكيين)
١/٢	١٩	« ثقل الوقود مدة ٥٢ ساعة
١/٤		« مؤونة
	٢١	

وغني عن البيان انهُ اذا كانت سرعة البلون في الساعة ٧٥ ميلا فانهُ يقطع ٣٩٠٠ ميل في ٥٢ ساعة . وهذا يزيد ٧٠٠ ميل على المسافة بين البلجيك واميركا والمظنون ان هذه الزيادة قد تكفي لحساب الطوارىء التي تطرأ على البلون فتعوق مسيره . على انها قد تكون دون الكفاية بكثير . وهذا ما تبينهُ لنا الايام

مقتطف ديسمبر ١٩١٦

٢

الطياروه ريد وهوكر والكوك

صار الطيران فوق البر امراً محققاً لا خطر فيهِ او لا يزيد خطره على خطر السير بالاتوموبيل كما كان منذ عشر سنوات . ولكن لا دليل حتى الآن على ان الطيارات ستستعمل لغرض تجاري وغاية ما يحتمل انها تستعمل لهُ غير النزهة والاغراض الحربية نقل البريد المستعجل . والهمة مبذولة الآن في جعل الطيارات تسير فوق البحار الكبيرة وقد جرّبوا سيرها فوق الاوقيانوس الاتلنتيكي من اميركا الى اوربا وهو اشد خطراً من سيرها فوق البر لانهُ اذا وقع خلل في الطيارة وهي طائرة فوق البر استطاع الطيار ان ينزل بها ويصلحها واما فوق البحر فلا يستطيع ما لم تكن من الطيارات البحرية او الزوارق الطيارة كما يسميها الاميركيون

وقد تمكنت طيارتان من عبور الاتلنتيكي في هذه الاثناء اولاها بحرية اميركية والثانية برية انكليزية . اما الاولى فديرها الكومندر ريد ومعهُ خمسة رجال وهي من ذوات الزورق طار بها في السادس عشر من مايو الماضي من تراباسي بنيوفوندلند في الطرف الشرقي من اميركا الشمالية قاصداً ان يقطع الاوقيانوس الاتلنتيكي الى البرتغال بطريق جزائر الازورس فوصل الى الازورس في اليوم التالي والمسافة بينهما ١٣٨١ ميلاً قطعها في ١٥ ساعة و١٨ دقيقة فكان متوسط سرعته ٨١ ميلاً وسبعة اعشار الميل

البحري في الساعة . وطارت معهُ طيارتان اخريان ولكن اكتنفهما الضباب فتعذر عليهما السير فاضطرتا ان تنزلا الى البحر ونجا ركابهما لان الحكومة الاميركية كانت قد بثت سفنها في كل الطريق الذي سارت فيهِ هذه الطيارات من اميركا الى اوربا حتى لا يقع بركابها مكروه . وبعد ان قام ريد بطيارتهِ يومين في الازورس طار في ٢١ مايو قاصداً مدينة لسبون في البرتغال فوصلها سالماً والمسافة بينهما ٩٠٤ اميال ثم طار فوق البر الى شمال اسبانيا ومن هناك فوق البحر الى مدينة بليموث في بلاد الانكليز مسافة ٥٠٠ ميل قطعها في خمس ساعات فقط فوصل بليموث في ٣١ مايو وكان لوصولهِ اليها احتفال عظيم جداً والعبرة هنا في المسافة الاولى وهي ١٣٨١ ميلاً طارها شوطاً واحداً ولو استطاع ان يمتد في هذا الشوط ٤٢٠ ميلاً لبلغ انكلترا

ولهذه الطيارة مزية في الطيران فوق البحر لانها اذا وقع فيها خلل طفيف استطاع الطيار ان ينزل بها الى سطح الماء ويقف ويصلح خللها ثم يطير بها لان في اسفلها زورق متصل بها ولكنها لو طارت فوق البر ووقع فيها خلل لما استطاع ان يقف بها ويصلحها . ولا بد من استنباط وسيلة تتمكن بها الطيارات من الوقوف في البر والبحر . ويظهر لنا ان ذلك ممكن بان يجعل للطيارة البحرية اربع عجلات اوطأ من قاربها نحو قدم فاذا نزلت في البحر غاصت هذه العجلات في الماء واذا نزلت في البر استقرت عليها لانها اوطأ من القارب

وقد صنعت هذه الطيارة في اميركا هي وكل ادواتها في معمل كرتس فنال بها الاميركيون فخر السبق في قطع الاوقيانوس الاتلنتيكي طيراناً وترى صورتها في الشكل المقابل ففي القسم الايمن منهُ لا يزال رجالها فيها فوق زورقها حينما وصلوا الى بليموث وفي القسم الايسر اخذوا يخرجون منهُ الى زورق اتى لاستقبالهم

وكان الطيار هوكر الانكليزي الاسترالي قد طار من نيوفوندلند في ١٨ مايو قاصداً ارلندا بطيارة برية فيها قارب يسهل فصلهُ عنها فاختلت طيارتهُ واضطر ان يفصل القارب منها وينزل فيهِ هو ورفيقهُ فرأتهما الباخرة ماري في منتصف الطريق بين نيوفوندلند وارلندا وانقذتهما لانهُ حالما وصلت طيارتهما الى سطح الماء جعلت تغرق . الا ان ما فات الانكليز في السفرة الاولى احرزوه في الثانية فقد جاءت الاخبار التلغرافية ان طيارين من طياريهم طارا بطيارة برية من نوع فكرس من طرف اميركا الشمالية الى ارلندا فبلغاها سالمين وهما الكبتن الكوك والملازم برون وقد

استغرق طيرانهما ١٥ ساعة و٥٧ دقيقة وكانت الريح اولاً ملائمة ولكن حالة الجو كانت من اسوإ ما يكون وكان معظم الطيران بين الغيوم وطبقات الضباب الكثيف فلم يكد الطياران يريان الجو والبحر وقد حلقا في الجو الى علو ١١ الف قدم فلم يستطيعا التملص من الغيوم ونزلا الى علو ٣٠٠ قدم عن سطح البحر فكان الضباب كثيفاً هناك ووقف مقياس السرعة عن العمل . وكانت الطيارة في بعض الاحيان في حالة خطرة ولم يكونا يشعران بوجود الافق وكان الجو شديد التقلب والريح شديدة حتى على سطح الماء وكان ماء المطر يجمد على العدة وغطى الجليد نوافذ الطيارة وظلت بلوراتهُ تنزل وتصيب وجهيهما فتفعل بهما فعل المدى اما في ما سوى ذلك فلم يتألما من البرد والاعياء وقد شربا القهوة والبيرة واكلا السندويتش والشكولاته . ولما صارا على بعد ساعة ونصف ساعة من البر اضاعا مكانهما . ولم يوقدا سوى ثلثي البنزين الذي كان معهما . ويرى الكبتن الكوك ان عبور الاتلنتيكي في الجو يجب ان يكون بزورق طيار كالذي طار بهِ الطيار الاميركي

وقد صنعت طيارة فكرس لتطير مسافات بعيدة وتلقي القنابل . وقوة عدتها ٧٠٠ حصان وسرعتها في طيرانها ٩٠ ميلاً في الساعة ويسع حوضها من البنزين ٨٦٥ غالوناً تكفي لطيرانها ٢٤٤٠ ميلاً . وقد خدم الكبتن الكوك في الحرب مع تركيا وكان في سلاح الطيران البحري ووقع اسيراً في يد الترك لخلل طرأ على عدة طيارتهِ فظل في الاسر الى انتهاء الحرب . اما الملازم برون فخدم في فرنسا كرقيب وجرح واسر سنة ١٩١٥ واعيد الى وطنهِ سنة ١٩١٧ بعد اعتقالهِ في سويسرا. وقد نزلت طيارتهما الآن في حمأة فاصيبت بعطل يسير وكاد برون يفقد صوابهُ وصمت اذنا الكوك من شدة الصدمة عند نزول الطيارة على الارض

وقال الكبتن الكوك من حديث ان السر العظيم في عبور الاتلنتيكي بطيارة هو حسن العناية بعدتها فان سرعة طيارة فكرس العادية ٩٠ ميلا في الساعة وكان في استطاعتنا ان نجعلها ١١٥ ميلا ولكننا لم نفتح المصرف مرة واحدة وهبت ريح ملائمة فتمكنا بها من جعل متوسط سرعة الطيران ١٢٠ ميلا في الساعة

وقد جاءت طيارة فكرس بثماني مئة رسالة ولم يتمكن الكبتن برون من تعيين موقع الطيارة الا بالاستعانة بالشمس والقمر ونجم القطب الشمالي والنسر الواقع

مقتطف يوليو سنة ١٩١٩

٣

طيارة فكرس

ذكر في الفصل السابق ان الكبتن الكوك طار من اميركا الى اوربا بطيارة انكليزية من غير ان يقف في الطريق فنال جائزة الديلي مايل وهي عشرة آلاف جنيه . وقد نشر محل فكرس صانع هذه الطيارة كراساً فيه صورتها وصورة الكبتن الكوك وربان الطيارة ورفيقه الملازم برون . فالكبتن الكوك شاب ولد في منشستر سنة ١٨٩٢ واشتهر في الحرب الحاضرة بطول المسافات التي كان يقطعها بطيارته واصيبت طيارته بعطل مرة فاسره الاتراك وبقي في اسرهم الى آخر الحرب . ورفيقه الملازم برون اكبر منه سناً ولد في غلاسكو سنة ١٨٨٦ وانقطع لدرس الطيران وجرح في فرنسا في الحرب الحاضرة وأخذ اسيراً ثم اعتقل في سويسرا وردّ الى بلاده سنة ١٩١٧ ومن ثم انتظم في وزارة الذخيرة وطار مراراً كثيرة وهو الذي ساق الطيارة عبر الاوقيانوس

وقد شرع الاثنان في الطيران من طرف نيوفوندلند الشرقي في ١٤ يونيو الساعة الرابعة والدقيقة ١٣ بعد الظهر فارتفعت الطيارة بهما ١٠٠ قدم وفي سبع دقائق غابت عن الابصار وكان النسيم يهب لطيفاً فحسبنا انهما يقطعان ١٤٠ ميلاً في الساعة ما دام على هذه الصورة فوصلا الى كلفدن بارلندا في الخامس عشر من يونيو الساعة ٩ والدقيقة ٤٠ قبل الظهر . فاذا اعتبر فرق الوقت بين ارلندا واميركا فقد قطعا ١٨٨٠ ميلاً في ١٥ ساعة و٥٧ دقيقة وحرقا في هذه المدة ٥٨٠ جالوناً من البنزين وهي ثلثا ما كان معها . ولما وصلت الطيارة الى ارلندا ارتطمت في حمأة حتى كادت تتلف ولكن الطيارين خرجا منها سالمين وتغديا مع ملك الانكليز في قصر وندزر في ١٩ يونيو واولمت لهما جريدة الديلي مايل وليمة في اليوم التالي واعطتهما الجائزة وهي عشرة آلاف جنيه

ولا نرى ان مسألة عبور الاوقيانوس بهذه الطيارة حلت الآن حلا يقنع الناس باستعمالها في السفر من اوربا الى اميركا ومن اميركا الى اوربا . ومن المحتمل ان تزاد قوة المحركات حتى تتغلب على العواصف مهما كانت كما تتغلب السفن البخارية بقوة آلاتها على امواج البحر وحينئذ يصير السفر بالطيارات مأموناً فوق البحر كما يكاد يكون مأموناً فوق البر

والطيارة المذكورة هنا صنعتها شركة فكرس واسمها Vickers Vimy Rolli وقد تم صنعها في اواخر ابريل الماضي وامتحنها الكبتن الكوك والملازم برون فوجداها طبق المرام وللحال فككت ونقلت الى نيوفوندلند في اميركا الشمالية فوصلت اليها في اواخر مايو.

وفيها آلتان من نوع رولز رويس قوة كل منهما ٣٥٠ حصانا وفيها احواض للبنزين تسع ٨٦٥ جالوناً ولزيت التزييت تسع ٥٠ جالوناً وهذا البنزين يكفيها وقوداً لتقطع ٢٤٤٠ ميلا . ومعظم سرعتها ١١٥ ميلا في الساعة . ومعظم طولها ١٥ قدماً و٣ بوصات ومعظم عرضها بامتداد جناحيها ٦٧ قدماً وتحرق كل آلة من آلتيها ١٧ جالوناً ونصف جالون في الساعة وتستعمل جالوناً من زيت التزييت في الساعة لكل آلة

وقد وزعت شركة فكرس كراساً متقناً جدًّا فيهِ صورة هذه الطيارة والتفاصيل المتقدمة

مقتطف اغسطس سنة ١٩١٩

٤

البلون R 34

سفره بين انكلترا واميركا ذهاباً واياباً

اما تفصيل هذه الرحلة من انكلترا الى اميركا فهو ان البلون قام من مخزنهِ في ايست فورتشن بمقاطعة هدنتونشر في اسكتلندا فجر ٢ يوليو فارتفع حالاً الى علو ١٥٠٠ قدم وسار غرباً مارًّا فوق غلاسجو في اسكتلندا وما زال كذلك حتى بلغ الاتلنتيكي وكان يرتفع وينخفض طبقاً لمركز الغيوم وكانت تضايقهُ كثيراً فتحرم ركابهُ رؤية ما حولهم . وكان كلما بلغ موقعاً معيناً يرسل الانباء بالتلغراف اللاسلكي مبيناً فيها مركزه من العرض والطول حتى بلغ مدينة منيولا في الجزيرة المتاوحة لنيويورك والمعروفة باسم لونج ايلند بعد ما لقي مخاطر جمة في الجزء الاخير من رحلتهِ .

وكانت المسافة التي قطعها ٢٠٥٠ ميلاً من ايست فورتشن سكتلندا الى خليج ترينتي و١٠٨٠ من هذا الخليج الى نيويورك فالمجموع ٣١٣٠ ميلاً قطعها البلون في نحو ١٠٨ ساعات . اي ان متوسط سرعتهِ بلغ ٢٩ ميلاً في الساعة او ربع سرعة الطيارة التي اجتازت الاتلنتيكي .

واسم ربانهِ الماجور سكوت وكان فيهِ خمس آلات محركة قوتها معاً ١٣٧٥ حصاناً

وكان فيهِ زاد كثير و١٨ طنّ من السبرتو وطن زيت لتزييت الآلات و٤٩٠٠ جالون من البنزين ثقلها نحو ١٦ طنًّا . وقوة البلون الرافعة ٦٠ طنًّا . وفي اواخر رحلتهِ نفد البنزين وكان قد قرب من نيوفوندلند فارسل يطلبهُ بالتلغراف اللاسلكي فامدتهُ بهِ الحكومة الاميركية على عجل

هذه خلاصة رحلتهِ من انكلترا الى اميركا . اما عودتهُ فنلخصها من التلغرافات التي نشرت في الصحف اليومية . وقد جاء فيها ان البلون قام على عجل في ١٠ يوليو اذ جاء في التقرير الرسمي ان عاصفة تهب من البحيرات العظيمة فقام قبل ان تصل اليهِ . وقد شاهد عشرات الالوف البلون يطير فوق نيويورك ووقفت حركة الاعمال والاشغال واكثر الناس من الهتاف لهُ

واعلنت وزارة الطيران البريطانية ان مركزه في الساعة التاسعة من صباح ١٠ يوليو كان عند الدرجة ٤٠ والدقيقة ٤٧ من العرض الشمالي والدرجة ٧٠ والدقيقة ٣٠ من الطول الغربي بحساب وقت الصيف في بريطانيا

وفي ظهر ذلك اليوم كان قد بعد نحو ٥٠٠ ميل من نيويورك . وفي اليوم التالي ١١ يوليو ورد على وزارة الطيران تلغراف لاسلكي من البلون فحواه انهُ كان الساعة ٢ ½ بعد الظهر بحساب وقت جرينتش عند الدرجة ٤٦ والدقيقة ٣٢ شمالاً والدرجة ٣٨ والدقيقة ٩٨ غرباً . وانهُ ينوي النزول في ايستفورتشن وان عدة من عدده تعطلت تماماً

ثم اعلنت الوزارة المذكورة ان مركز البلون كان في الساعة الرابعة صباحاً عند الدرجة ٤٣ والدقيقة ٤٠ شمالاً والدرجة ٤٦ غرباً اي في منتصف الطريق فوق الاتلنتيكي . وهو يخاطب كلفدن وجزر الازورس ويطير بسرعة ٤٥ ميلاً في الساعة

وكان في نيتهِ ان ينزل في ايست فورتشن كما تقدم وهي المدينة التي طار منها ولكن وزارة الطيران بعثت تطلب منهُ ان ينزل في بلهام فنزل فيها الساعة ٦ والدقيقة ٥٧ من يوم ١٣ يوليو بعد ما قضى على الطريق ٧٥ ساعة و٣ دقائق من لونج ايلند الى بلهام . وكان قد بقي معهُ الف جالون من البنزين

مقتطف اغسطس سنة ١٩١٩

٥

Z. R. 3

وهو المعروف ببلون لوس انجلوس

صنع الاميركيون في المانيا بلوناً كبيراً من نوع بلونات تزبلن طولهُ نحو ٧٠٠ قدم سمي Z.R.3 وقد طار البلون في شهر اكتوبر الماضي من المانيا الى الولايات المتحدة مسافة تزيد على خمسة آلاف ميل في ٨٠ ساعة و٤٥ دقيقة فاقترب بذلك تحقيق الامل بانشاء خط هوائي يصل نيويورك بمدن اوروبا . وتقول الصحف الاميركية ان لا حديث لارباب الاموال واصحاب معامل الطيران في هـذه الايام إلا حديث هذا الخط حتى لقد شاع انـ سينشأ قريباً خط هوائي منتظم بين نيويورك ولندن فيقطع المسافر بهِ المسافة بينهما في ٧٢ ساعة ثم يصبح انتقاله من لندن الى مختلف مدن اوربا من الهنات الهينات . فيستطيع النيويوركي حينئذ ان يأتي لندن او غيرها من عواصم اوربا فيقضي ما لهُ فيهـا من الشؤون ويعود فلا يستغرقهُ ذلك اكثر من اسبوع . ولو اراد ان يقطع الاوقيانوس الاتلنتيكي ذهاباً واياباً واستقل الموريتانيا اسرع البواخر الآن لما تم لهُ ذلك في اقل من ١١ يوماً

لـكن قبل ان يصبح هذا الخط الهوائي امراً واقعاً يجب بناء بلون يستطيع ان يقاوم التقلبات الفجائية في الهواء التي تحتمل مصادفتها في شقة طويلة كالشقة بين اوربا واميركا . ولقد اثبت البلون الالماني في طيرانهِ من المانيا الى الولايات المتحدة ان البلونات تستطيع قطع الاتلنتيكي باسرع سرعتها الحاضرة والثبات امام تقلبات الهواء الفجائية وهذان الامران يجعلان الامل وطيداً ان يزيد اتقان البلون حتى يصح الاعتماد عليهِ في السير سيراً منتظماً فيسافر في اوقات معينة ويصل في اوقات معينة مهما كانت الاحوال الجوية . ولا يخفى ان السرعة لها شأن كبير في سلامة الطيارة او البلون وثباتهما على هبوب الرياح والعواصف فالطيارات التي تطير الآن بسرعة ١٥٠ ميلاً مثلاً تستطيع الثبات والطيران في عاصفة تقلب ما كان من الطيارات ابطأ منها . وقد طار البلون الالماني بمعدل ثمانين ميلاً بحرياً في الساعة فقاوم ريحاً شديداً تقلب بلوناً من البلونات البطيئة التي على الطرز القديم . وسيعني المهندسون بزيادة سرعة البلون ومتانة بنائهِ حتى يستطيع ان يقاوم كل عاصفة تثور عليهِ ويشق طريقهُ فيها

والامر الثاني الذي يجب النظر فيهِ لانشاء خط هوائي منتظم بين العالم القديم

والعالم الجديد هو الغاز الذي يملأ بهِ البلون

فبلونات تزبلن كانت ولا تزال تستخدم غاز الهدروجين والالمان يقولون ان هذا هو الغاز الوحيد الذي يستطاع استخدامهُ الآن ولكن الخبراء في البحرية الاميركية وكثيرين غيرهم من المهندسين يقولون ان غاز الهليوم هو الغاز الذي يصح الاعتماد عليهِ لانهُ لا يشتعل . ولا يستطاع التوفيق بين هذين المذهبين الا بعد تجارب كثيرة . فالهدروجين يشتعل بسرعة ويصير من المتفجرات حين امتزاجهِ بالهواء اما الهليوم فليس كذلك . ولو كان هذا الامر وحدهُ ركن الخلاف بين الرأيين لحكم الجميع للهليوم لكن هناك مسألة الثمن فالهليوم لا يزال غالي الثمن جداً ويقول الالمان انهُ بسبب غلائهِ ما من شركة نقل تستطيع ان تسيّر بلوناتها اذا اضطرت ان تملأها كلها بهِ وان الهدروجين اذا أُحسن استعمالهُ لم يكن خطراً

ويظهر ان المعامل الالمانية التي تصنع بلونات تزبلن ما فتئت تهتم بانشاء خط هوائي ينقل المسافرين بين اوربا واميركا وهاك رأي الدكتور دور Dorr من كبار المهندسين بمعامل تزبلن واحد الذين وضعوا رسوم البلون Z.R.3 قال

« اعتقد ان طيران هذا البلون يثبت اثباتاً لا يقبل الريب اننا نستطيع المضي في صنع السفن الهوائية للمسافرين . فقد اثبتنا ان البلون يعتمد عليهِ في سفرة طويلة . وقد قطع الاوقيانوس ولم يصب بمكروه . وسرعة سيره ستعجل في انشاء خط هوائي للمسافرين . الا نرى كيف تقدم السفر البحري بعد اكتشاف البخار . فنحن لا نرضى بتقدم ابطأ من ذلك . «وسأرى السفن الهوائية تنقل المسافرين بعد سنين قلائل .ولا ما يمنع الشروع في ذلك الآن فلقد اثبتنا صحة المبدإ الذي يقوم عليهِ مثل هذا النقل»

« ولقد وضعنا رسوم بلونات حجمها ضعف حجم هذا البلون او ثلاثة اضعافهِ لكننا لم ننته من درس مسألة المسافرين والعدد الذي يستطيع البلون ان ينقله منهم . فالبلون Z.R.3 يستطيع ان ينقل ٥٠ راكباً او ستين اذا كانت سفينتهُ اوسع مما هي الآن فاذا بنينا بلوناً حجمهُ ضعف هذا ضاعفنا عدد المسافرين . ولا ما يمنع ان نبني بلوناً مثل خمسة اضعاف هذا البلون او ستة اضعافهِ فيصبح عدد المسافرين الذين يستطاع حملهم في بلون واحد ٣٠٠ راكب او ٤٠٠ او ٥٠٠ »

وقد رأينا صوراً لهذا البلون وضباطهِ جالسون الى موائد الطعام يأكلون ويشربون كأنهم في باخرة كبيرة متقنة مقتطف ديسمبر ١٩٢٤

عبور الاوقيانوس الاتلنتيكي بالطيارة

سنة ١٩٢٧

رأي الكومندر برد أول من طار الى القطب الشمالي

نكتب هذه السطور وقد انقضت عشرة ايام على شروع الطيار الفرنسوي نتجسر ورفيقه كولي في محاولة الطيران من باريس الى نيويورك دفعةً واحدة . غادرا باريس قبل فجر الاحد في ٨ مايو الماضي وقيل في اليوم التالي انهما بلغا نيويورك سالمين فقام الجمهور الفرنسوي وقعد فرحاً بهذا الفوز الجديد في الطيران البعيد المدى . على انهُ لم يلبث فرحهُ ان تحوّل ترحاً لانهُ لدى التثبت ظهر ان نتجسر ورفيقهُ لم يصلا الى نيويورك فطيرت الانباء الى البواخر التي تشق عباب الاوقيانوس ان تتنسم اخبارهما وهبت الطيارات الاميركية وبواخر مصلحة الشواطئ الى البحث عنهما في جوار جزيرة نيوفوندلند وشواطئ لبرادور ونوفاسكوشا فلم تقف لهما على اثر . على ان الامل بوجودهما لم يقطع بعد اذ قد يكونا نزلا في البحر قرب خليج من الخلجان الصغيرة النائية عن العمران

ولا يخفى ان الطيران بالطيارة من باريس الى نيويورك او من نيويورك الى باريس في شوط واحد عمل محفوف بالمخاطر لان الشقة بينهما نحو ٣٦٠٠ ميل لاتستطيع الطيارة ان تجتازها في أقل من اربعين ساعة ولا بد ان يكون جانب من الرحلة في اثناء الليل وهذا يزيد المخاطر التي يتعرض لها الطيار اذ لامنائر في البحر يهتدي بنورها اذا ضل السبيل . اضف الى ذلك ما قد يثور في وجههِ من العواصف التي تحملهُ على تخفيف سرعة سيره او على تنكب الطريق الذي رسمهُ . وقد يضطر ان يهبط على سطح الماء في بحر ثائر متلاطم الامواج واذا اتفق حدوث هبوطهِ ليلاً فهناك الويل الاكبر

على ان في صدور بعض الناس قوة تدفعهم الى اقتحام المخاطر في الصحاري المحرقة والاصقاع المتجمدة والمسالك الجوية والبحرية الحافلة بالمخاطر والمشاق . هذه هي القوة التي دفعت كولمبوس ومجلان وسكوت وبيري وشكلتون وكوبهام وامندسن وده بنيدو وبرد وحسنين وغيرهم من الروّاد الذين كانت اعمالهم أعلاماً يهتدى بها على طريق التقدم والارتقاء

وقد اطلعنا على مقالة في مجلة العلم العام للكومندر برد الاميركي اول من طار الى

القطب الشمالي ذهاباً واياباً جاء فيها على ذكر المعدات التي اعدها للطيران من نيويورك الى باريس فاقتطفنا منها ما يأتي :

لما وضعت الحرب الكبرى اوزارها اخذتُ اعد العدة لعبور الاتلنتيكي بالطيارة فسبقني الى ذلك الكومندر ريد اذ طار في مايو سنة ١٩١٩ من جزيرة نيوفوندلند الى جزائر الازورس والمسافة بينهما ١٣٨٠ ميلاً اجتازها في ١٥ ساعة و١٨ دقيقة وتلاه الطياران ألكوك وبرون في يونيو من السنة نفسها فطارا من نيوفوندلند الى ارلندا مسافة ١٩٦٠ ميلاً في ١٦ ساعة و١٢ دقيقة . على ان المسافة بين نيويورك وباريس تبلغ نحو ٣٦٠٠ ميل ويستغرق اجتيازها نحو اربعين ساعة ولم يفز احد بعد بعبورها بالطيارة دفعة واحدة مع ان البلون الالماني الذي سمي لوس انجلوس طار من همبرج الى نيويورك سنة ١٩٢٤ مسافة تزيد على خمسة آلاف ميل في نحو ثمانين ساعة . واودّ كثيراً ان يتاح لي ان اكون اول من يفوز بالطيران من نيويورك الى باريس لان من يفعل ذلك يكون من اعظم المحسنين للعمران

ثم قال انهُ يعد العدة لهذه الرحلة فاذا نجحت او اذا خرج منها سالماً على الاقل فانهُ ينوي الطيران الى القطب الجنوبي في اواخر هذه السنة . وسيجعل اعتماده على طيارة من ذوات السطح الواحد كالطيارة « جوزفين فورد » التي طار بها الى القطب الشمالي ويكون لها ثلاثة محركات ككل الطيارات الانكليزية التي تطير بين هليوبوليس وبغداد انما تختلف طيارتهُ عن هذه الطيارات في امر جوهري . ذلك ان المحركات الثلاثة في طيارتهِ الاولى وفي الطيارات الانكليزية بعيد احدها عن الآخر فتجد احدها عند مقدّم الطيارة والاثنين الباقيين على كل من الجانحين يبعد نحو خمسة امتار او اكثر عن مقعد السائق . فاذا اصيب احد هذين المحركين بخلل ما في اثناء الطيران تعذر على السائق او احد رجالهِ ان يتصل بهِ ليصلح ذلك الخلل . وقد تلافى الكومندر برد هذا الامر بجعل المحركات الثلاثة في متناول السائق او متناول احد رجالهِ من غير عناء كبير . وادخل على خزّانات طيارتهِ تحسيناً لا بدّ منهُ اتقاءً لبعض المخاطر التي قد يعرض لها اذ اضطر ان ينزل في البحر فصنع لها صمامات خاصة تمكنهُ من افراغ ما فيها من البنزين بسرعة ليخف وزن الطيارة ثم يسدّها سدًّا محكماً ويستعملها كطوّافة تحفظ الطيارة عائمة بمن فيها الى ان يقيّض لهم من ينجيهم

لما طار برد الى القطب الشمالي كان يرافقهُ معاونٍ واحد فكان يتناوب معهُ تسيير

الطيارة وادارة دفتها . ولكن الرحلة الى القطب ذهاباً واياباً استغرقت نحو ١٦ساعة فقط وينتظر ان تستغرق الرحلة من نيويورك الى باريس ٤٠ ساعة كما تقدم وعليهِ فلا بد من معاون آخر يحل محل احدهما آناً ويعنى بآلة التلغراف اللاسلكي وباصلاح ما قد يطرأ على الآلات من خلل طفيف آناً آخر

واكبر خطر يعرّض له الطائر من نيويورك الى باريس هو اضطراره ان ينزل بطيارتهِ في عرض البحر ليلاً .فاذا حدث للكومندر برد ما حملهُ على ذلك افرغ البنزين من خزانات طيارتهِ بسرعة وسدها سدها محكماً حتى تبقى عائمة وقصّ جناحي الطيارة ونصب فيها سارية ورفع على السارية شراعاً ومن ثم يحاول ان يسير بها الى اليابسة كانهُ في مركب شراعي صغير . ويقتات مع رفاقهِ حينئذ بما يصطادونهُ من السمك ياكلونهُ نيئاً . وقد ثبت لهُ في جهات القطب الشمالي ان اكل السمك نيئاً ليس امراً كريهاً . وعنده ان اكبر خطر يعرضون لهُ حينئذ هو الموت ظمأً لان الحصول على ماء للشرب اصعب المصاعب التي قد يلاقونها فماء البحر اجاج لايشرب ومحركات الطيارة تبرد بالهواء فلا ماء فيها يمكن شربهُ وما يستطيعون حملهُ من الماء معهم قليل لان الطيارة يجب ان تحمل اكبر مقدار تستطيع حملهُ من البنزين

ويجب الابتداء في هذه الرحلة عند طلوع الفجر ويستمر الطيران طول النهار والليل وطول النهارالتالي اي لاأقل من اربعين ساعة.ولما كانت حالة الجو في يونيو تبعث على الارتياح والرياح تهب من الغرب فتدفع الطيارة في سيرها الى الامام بدلاً من ان تعيقها فالمرجح ان الكومندر برد يشرع في رحلتهِ هذه في يونيو.وهو يعتقد ان مخاطر الطيران فوق الاتلنتيكي اقل من مخاطر الطيران من شرقي الولايات المتحدة الى غربها وسيحمل معهُ آلة لاسلكية ترسل الاشارات اللاسلكية وتستقبلها وبها يستطيع ان يبقى على اتصال بالبواخر التي تمخر الاوقيانوس بين اوربا واميركا

اما الفوائد التي تجنى في هذا الطيران فكثيرة اولها في رأيهِ انها تثبت للناس ان هذا الطيران في حيز الامكان وقد قال في ذلك « ان طيراني الى القطب الشمالي اثبت ان هذا الطيران مستطاع وانهُ امين الجانب وكفى بهذا فائدة تجنى منهُ ». ومن هذه الفوائد امتحان آلات الطيارة ومتانة المواد التي تبنى منها واصلح الاشكال لبنائها وهلمّ جرًّا مما لاتثبت حقيقتهُ الا بالامتحان الفعلي. ومنها معرفة حقائق جمة عن احوال الجو وامكان تسيير طيارات الركاب بين اميركا واوربا

مقتطف يونيو سنة ١٩٢٧

٢

لندبرغ

فيما الناس يتحدثون بجرأة الطيارين الفرنسويين نتجسر وكولي على الطيران من باريس الى نيويورك دفعة واحدة ويترقبون اخبار وصولهما ثم البحث عنهما بفارغ الصبر وفيما الناس يطالعون في الصحف انباء الاستعدادات الكبيرة التي يقوم بها كبار الطيارين الاميركيين لاجتياز الاتلنتيكي من نيويورك الى باريس وفي مقدمتهم الكومندر برداول من طار الى القطب الشمالي ذهاباً واياباً ، اذا طيار اميركي مجهول الاسم الا في دوائر البريد الجوي الاميركي يستقل طيارة من ذوات السطح الواحد من طراز ريان ويقوم بها من ميدان روزفلت قرب نيويورك الساعة السابعة والدقيقة ٥٢ من صباح ٢١ مايو قاصداً اجتياز الاتلنتيكي وحده لم يصحب معهُ سوى قطتهِ وثلاث قطع صندويتش وزجاجة ماء صغيرة و٤٢٠ جالوناً من البنزين ، فبهت الناس لهذا الاقدام النادر المثال وباتوا يترقبون اخباره ساعة فساعة مخافة ان يكون نصيبهُ من الفشل والفقدان نصيب سابقيهِ الفرنسويين ، ولكن لم تلبث ان وردت الانباء البرقية انهُ شوهد اولا طائراً فوق سانت جون بنيوفوندلند ثم رؤي فوق ارلند متجهاً الى باريس ثم شوهد فوق شربورغ وفي الساعة العاشرة والدقيقة ٢١ حط في مطار لوبورجه بباريس بعد طيران مستمر استغرق نحو ٣٢ ساعة اجتاز في اثنائها نحو ٣٦١٠ اميال فتفوق بذلك على جميع الذين سبقوه من طياري العالم في الطيران البعيد المدى وابدى في عملهِ من الشجاعة والاقدام والصبر وقوة الارادة ما يندر مثيلهُ في تاريخ الارتياد

ولما شاع في باريس ان وصولهُ بات محققاً احاط جمع غفير من الناس يقدر بنحو مائة وخمسين الف نفس بمطار لوبورجه قبل وصولهِ بساعتين ولما انسدل ستار الظلام انيرت المنائر واوقدت المشاعل فظهرت جماهير الناس متدلية من جدران المنازل كعناقيد العنب

وفي الساعة العاشرة والدقيقة ١٥ من مساء ٢٢ مايو سمع محرك الطيارة فأثار ذلك هزة في النفوس وصوبت اشعة المنائر الى الفضاء فظهرت طيارتهُ على ارتفاع قليل فحامت حول المطار قليلاً ثم حطت على الارض بخفة ورشاقة . ولم تكد تستقر حتى

اندفع عشرات الألوف من الناس اندفاع السيل فاكتسحوا امامهم رجال البوليس وحطموا حواجز الحديد وكانت مظاهر السكينة والوقار بادية على محيا الطيار المقدام فوثب من طيارتهِ الى الارض ونزع قبعة الطيران عن رأسهِ فحملهُ المعجبون بهِ على الاكتاف ثم احاط بهِ الجنود وساروا بهِ بكل صعوبة الى مركز ادارة المطار فحياه السفير الاميركي والوزراء

واتصل خبر فوزه بالاميركيين فظهروا في نيويورك بمظاهر من الحماسة والابتهاج لم يشاهد مثلها منذ عقد الهدنة . وارسل اليهِ الرئيس كولدج تلغرافاً اعرب فيهِ عن ابتهاجهِ بنجاحهِ وقال فيهِ « هذه اول مرة طار فيها طيار من نيويورك الى باريس وحده من غير ان يقف في الطريق . ان هذا العمل تاج على مفرق اميركا يبين ما لها من فخر السبق في الطيران » وختم تلغرافهُ بالاعجاب بنتجسر وكولي ونوَّه بما تعانيهِ اميركا من القلق عليهما وارسل اليهِ زعماء البرلمان في استوكوهلم تلغراف تهنئة لأنهُ من اصل اسوجي وارسل اليهِ السنيور موسوليني تلغراف تهنئة اطنب فيهِ « بالعزيمة التي تفوق طاقة البشر والتي قبضت على زمام الفضاء بقوة واخضعتهُ » . واستقبلهُ ثاني يوم وصولهِ الرئيس دومرغ في قصر الاليزة وقلده وسام اللجيون دونور وسلمهُ كتاباً الى امهِ يهنئها فيهِ بابنها البطل واستقبله المسيو بوانكاره في نادي الطيران ثم سلّم اليهِ المدالية الذهبية الكبرى بحضور السفير الاميركي والوزراء الفرنسويين وكبار الطيارين . وقيل ان السر الان كوبهام الطيار الانكليزي المشهور طار من لندن الى باريس ليهنئهُ بنفسهِ نيابة عن الطيارين الانكليز . ورفع الفرنسويون الاعلام الاميركية في كل مكان ابتهاجاً. وكان اول عمل عملهُ لندبرج في باريس ان زار والدة نتجسر الطيار الفرنسوي فدخل بيتها حاسر الرأس وخاطبها متهدج الصوت فاعرب عن اعرابهِ بشجاعة ابنها ثم خاطب والدتهُ بالتلفون اللاسلكي وهي في مدينة دترويت

***

كتب احد اساتذة اللغة الانكليزية وآدابها في اميركا مقالة بين فيها ان طيران لندبرغ من نيويورك الى باريز وما سبقهُ من الحوادث رواية كاملة تجتمع فيها كل فنون التأليف الروائي على اتم ما يكون ، وقال انهُ لا يعرف مؤلفاً يستطيع ان يبتكر رواية



لندبرغ

الروّاد صفحة ٢٧٩



الطيار تنجسر الفرنسي



الطيار كار الانكليزي

وينسق حوادثها بحيث تكون اوقع في النفس من تتابع الحوادث الواقعية في رواية لندبرغ الجوية

يرتفع الستار عن رجل من اغنياء اميركا يهتم بشؤون الطيران فيعرض على الطيارين جائزة قيمتها ٢٥ الف ريال ينالها اول رجل يطير من نيويورك الى باريس دفعة واحدة. فتثير جائزته بعض الاهتمام في الرأي العام وتبدأ الصحف تعنى بعض العناية باخبار الطيارين الذين يظن انهم قد يتقدمون الى نيل هذه الجائزة . على ان احاديث العارفين بشؤون الطيارات والطيران تدور على مصاعب هذه الرحلة الجوية وما يحول دون تحقيقها من المخاطر . فيزداد اهتمام الناس بها وتكثر عنايتهم بقراءة ما تنشره الصحف في هذا الشأن . ثم يتقدم طيار افرنسي يدعى فونك يجيء بطيارته من فرنسا الى نيويورك خاصة . وبعد ما يعد معداتهِ للطيران يحاول الارتفاع بطيارتهِ فترتفع قليلاً ثم تنكس رأسها وتهبط الى الارض تتحطم وتحترق ويقتل اثنان من ركابها وينجو سائقها . ثم يتقدم طيار اميركي يدعى نول دايفس فيحاول امتحان طيارتهِ قبل الاقدام على هذه الرحلة الشاقة فتهوي بهِ من الجو فيقتل هو ورفيقهُ . وفيما الناس يطالعون هذه الانباء والحزن ملء نفوسهم يطير من باريس اثنان من اكبر الطيارين واشجعهم ، نتجسر وكولي ، فيضلان الطريق وتنقطع اخبارهما . يجري كل ذلك وبطل الرواية لم يظهر بعد في ميدان العمل . ولكن الرواية تتقدم رويداً رويداً وحوادثها تزدحم وتتوالى آخذ بعضها برقاب بعض، فيزداد الاهتمام بتوالي هذه الحوادث اذ يرى القارئ من خلالها امرين الاول ما لهذه الرحلة من الشأن الكبير والثاني المصاعب والمخاطر الجمة التي تحول دون تحقيقها

واي شأن لهذه الرحلة الجوية ! ها خمسة آلاف جنيه بانتظار الفائز وشهرة تطبق الخافقين وتهليل من الجماهير يسكر النفوس . ولكن النقود لا قيمة لها ازاء النجاح في هذا العمل العظيم لان النقود في الحقيقة رمز الى النجاح لا اكثر ولا اقل . والقيمة الحقيقية صعب تحديدها لان هذا العمل ككل الاعمال الفنية العظيمة لا فائدة ظاهرة تنجم عنهُ . ولكن من ينكر اثرهُ الخفي في النفوس ؟ ان الفوز في الطيران من نيويورك الى باريس شبيه بآية من آيات الفن فيهِ تتجلى كل الصفات السامية التي تشرف الانسان

كذلك نرى ان الحوادث التي سبقت طيران لندبرغ وتعليق الصحف على الفوائد الظاهرة والخفية التي تنجم عنهُ اثبتت لنا قيمة العمل وفي الوقت ذاتهِ بينت ما يحول دون تحقيقهِ من المصاعب والمخاطر — مصاعب النهوض بالطيارة بعد تحميلها حملاً كبيراً من البنزين والمخاطر التي تنجم عنهُ تقلبات الهواء وضعف في بناء الآلات او خلل يطرأ عليها ، اضف الى ذلك ضعف الانسان وتعرضهُ للخمول والنوم على اثر جهاد عنيف

ها قد مرَّ امامنا اكثر الاشخاص الذين تدور عليهم الرواية ونحن بانتظار بطلها . وفيما نحن ننتظر يزداد اهتمامنا بالامر لما نطالعهُ في الجرائد من منافسة نشأت بين اثنين من اكبر الطيارين في اميركا تقدما لنيل هـذه الجائزة ، احدهما اول رجل بلغ القطب الشمالي عن طريق الجو وهو الكومندر برد والثاني رجل حلق بطيارتهِ فبقي فيها ٥١ ساعة و١٢ دقيقة في الجو وهو كلارنس تشمبرلين

واذ نحن مأخوذون بحوادث هذه المنافسة يدخل علينا بطل الرواية كأنه ملك هابط من الجو ويكون دخولهُ على اعظم جانب من الاثر في نفوس المشاهدين . ما من روائي مهما سمت فيهِ قوة الابتكار يستطيع ان يبتدع طريقة لتعريف البطل بالقراء اقرب الى الحقيقة واوقع في النفس . انهُ يجتاز القارة الاميركية في مرحلتين فيأخذنا بأقدامهِ ومفاجأتهِ

لكن احوال الجو تحول دون استئناف طيرانهِ بالسرعة التي كان يريدها فيلبث هنيهة في نيويورك والناس تنتظر ما يكون من امره وهم في هذا الانتظار اشد ما يكون اهتماماً وعناية بحوادث الرواية وتشوقاً لمعرفة الوجه الذي تنتهي عليهِ . وهذا من الفن الروائي في مكان عظيم . لانهُ لو هبط البطل نيويورك واستأنف طيرانهُ بعيد وصوله لما كان اهتمام الناس بهِ كبيراً . ولو انهُ انتظر طويلاً قبل طيرانهِ الى باريس لكان اهتمامهم بهِ فتر وزال . ولـكن الحقيقة شاءت ان يلبث زمناً كافياً حتى يرتفع اهتمام الناس بهِ الى اوجه . وفي هذه الهنيهة اخذت الناس سورة من اللوعة والشوق لان البحث عن الطيارين الفرنسويين المفقودين كان قائماً على قدم وساق والامل في العثور عليهما يتراوح بين اليأس والرجاء بين ساعة واخرى . وفيما نحن ننتظر ما يكون من امر هذا البحث ومن امر بطلنا تطلع علينا الصحف والمجلات باوصافهِ — امهُ

معلمة في احدى مدارس دترويت . وهو حديث السن ، لكن حداثته لا تمنع ان يكون له تاريخ في الطيران حافل بالمخاطر والمغامرات . اربع مرات لزم الامر ان ينجو من طيارة محطمة في الجو باللجوء الى شمسية (باراشوت) . ثم نسمع انهُ عثر في مقعد طيارتهِ على قطة سوداء فيتخذها شعاراً له ولكنهُ يخاف ان يصطحبها معهُ لئلا تموت في الطريق من شدة البرد . ثم تنشر صورهُ فتسرنا قسمات وجههِ ، ونقرأ عما يقوم بهِ من الاعمال فاذا بهِ يدل على انهُ سكوت ، هادىء ، وديع ، حرُّ الرأي ، شجاع . ثم تأتي امهُ لتودعهُ وداعاً قد يكون الاخير ، وحينما يطلبُ اليها مصورو الصحف ان تقبل ابنها امامهم ترفض طلبهم باباء — كلّ هذه الامور تحببهُ الينا وتزيد في شوقنا لمعرفة نهاية امره

ها نحن نستقبل اكبر المشاهد اثراً في النفس ، نفاجىء بهِ مفاجأة كما فوجئنا بوصول البطل الى الميدان . انهُ يعزم فجأة على استئناف الطيران الى باريس فيقضي الليل يعدُّ طيارتهُ لا ينام إلا ساعتين ، ثم يصعد الى مقعده عند الفجر فيرتفع بالطيارة فتترنح قليلاً لثقل حملها ويرفرف شبح الفشل والموت عليها هنيهة فيضع الناس ايديهم على قلوبهم وجلاً على هذا الفتى النض الاهاب ، يقدم وحيداً على رحلة حافلة بالمخاطر العظيمة ليجتاز بحر الظلمات . ولكن الطيارة لا تلبث ان تستوي على متن الهواء وتتجه الى هدفها فيودعها جمهور قليل في مقدمتهم الكومندور برد اول رجل طار الى القطب الشمالي

وتعود الام الى مدرستها تسير في عملها اليومي كأن ليس لها ابن يغالب العواصف ويجالد عناصر الجو وحيداً كمتن السيف عري متناهُ عن الخلل . ان تلاميذها يجتنبون ذكرى ابنها امامها لكي لا تثور شجونها. وتسير سيرة النزاع بين الطيارين الآخرين وترد الانباء باضطراب الجو فنخاف سوء المصير . ثم يصحو الجو فنرى بارقة امل في نجاح بطلنا ولكن تعاودنا المخاوف حينما نذكر انهُ لم ينم في الليل السابق لطيرانهِ سوى ساعتين. ترى أيغلب الليل والنعاس ? كيف يتقي البرد وهو لم يعدّ لذلك عدة خاصة ? ايبقى صافي الذهن يسير الى هدفهِ على هدى الى ان يبلغهُ ?

وفيما نحن على احرَّ من الجمر تبدأ الاخبار البرقية بالورود وفيها انهُ شوهد اولاً فوق نيوفوندلند ثم فوق ارلندا . ثم فوق شربورغ . ها هو ينزل في باريس في جمع

محتشد يقدر بمائة وخمسين الفاً . ان اسمهُ على كل الشفاه .وصورهُ في صفحات الجرائد الاولى الملوك ورؤساء الجمهوريات يستقبلونهُ ويهدون اليهِ اوسمة الشرف . والجمعيات المختلفة تتسابق الى تكريمهِ والاحتفال بهِ . ها هي الرواية الكاملة خطتها يد الحقيقة على صفحات التاريخ فجاءت في مجملها وتفاصيلها اغرب من بنات الخيال يبتكرها ابرع الروائيين

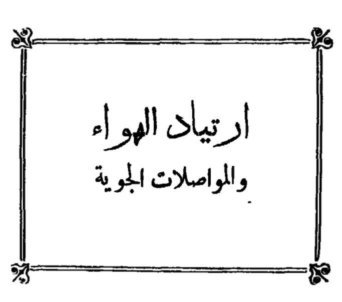
مقتطف يونيو واغسطس سنة ١٩٢٧

٣

تشمبرلين وبرد

وبعد طيران لندبرغ فاز الطيار تشمبرلين الاميركي بالطيارة من نيويورك الى ايزلابن على مقربة من برلين وتلاهُ الكومندر برد اول من بلغ الى القطب الشمالي بالطيارة فطار مع ثلاثة من نيويورك الى فرنسا وكسرت بوصلتهُ فلم يستطع ان يعرف مكانهُ بالتدقيق لما صار فوق باريس فنزل في البحر قرب بلدة فيرسيرمير Ver-sur-mer





ارتياد الهواء
والمواصلات الجوية

ركوب الهواء في السلم والحرب

١

لا نزال بعيدين عن الزمن الذي يستخدم فيهِ ركوب الهواء للنقل والانتقال لكنهُ آتٍ كما اتى استخدام البخار . اما الآن فاستخدم في الحرب للاستطلاع والارهاب وفي السلم للنزهة والمباراة باقتحام الاخطار . وقد وقفنا على ما كتبهُ اثنان ركبا الهواء منذ عهد قريب الاول في الحرب والثاني في السلم ووصفا ما شاهداه وشعرا بهِ ادق وصف فرأينا ان نعرّب بعض ما قالا

ركوب الهواء في الحرب

قال الطيّار الروسي توما افيموف الذي كان مع جيش البلغار وطار فوق ادرنه في اوائل الحرب ما خلاصتهُ

كنتُ في مصطفى باشا في الثامن عشر من اكتوبر (١٩١٢) وكان الهواء ساكناً حارًّا كأن الفصل غير الخريف . فجعلت انا ورفاقي نعد محرك الاروبلان ونركب اجزاؤهُ بعضها مع بعض وجعل الجنرال يدور حولهُ من وقت الى آخر وهو يتكلم معنا في امر الاستطلاع . ثم طلب مني ان اطير فوق ادرنه لكي اقف على احوالها وارمي فيها بعض المنشورات المطبوعة باللغة التركية وقد وعد فيها المحصورين بالمعاملة الطيبة ان هم سلموا لهُ . ولم اكن مستعدًّا لهذا الاستطلاع ولا كانت معي النظارات التي اقي بها عينيَّ ومع ذلك وعدتهُ ان افعل ما طلب . وكان معنا اروبلانان من نوع بلريو احدهما قديم ركبتهُ مراراً والآخر جديد لم اركبهُ من قبل فاخترت القديم لاني قطعت بهِ مسافات شاسعة وعرفت اطوارهُ فجلست فيهِ وودعت الذين حولي وادرت الآلة وسلمت نفسي للهواء فارتفعت رويداً رويداً على مهل وكان النسيم عليلاً حتى كاد يتولاَّني النعاس

ومرّت تحتي البيوت والحراج والآكام وصغرت الخيام حتى صارت نقطاً على بساط الغبراء فالتفت الى البارومتر واذا انا لم اعل غير ٦٠٠ متر فقلت في نفسي لقد شاخ هذا الاروبلان وضعف عن الطيران . وخفت ان لا يعلو بي عن ذلك الحد فتبلغني بنادق العثمانيين وجعلت احاول الارتفاع وهو لا يطيع لي امراً الى ان أسقط

في يدي فسلمت امري للتقادير . وكان جمال الطبيعة يختلب الالباب فنظرت الى ما حولي يمنة ويسرة وكأني سمعت صوت البنادق ودوي المدافع وملاك الموت من خلالها يحصد الارواح ودماء القتلى تصبغ اديم الارض وانين الجرحى يمزق كبد السماء لا من يرثي ولا من يغيث . هنا تتبارى الامم ويمحق بعضها بعضاً لكني لم اكن اسمع في الحقيقة شيئاً لان صوت الآلة ومقاومة الهواء صما اذني . الارض تحتي قلقة مضطربة والسماء فوقي ساكنة هادئة وانا بينهما كالساعي الى حتفهِ بظلفهِ

هناك ادرنة وهذا نهرها واما حصونها ومعاقلها وخيام جنودها فلا تزال على خمس كيلو مترات مني وانا على ٩٠٠ متر فوق وجه الارض فلا ازال في موقع الخطر ولكن ليس تحتي الآن سوى خنادق البلغار . ثم ارتفعت الى ١٣٠٠ متر وهذا ايضاً لا يكفي وقد فرغت حيلتي ورأيت ان لا بد لي من الدنو من المدينة ولو بقيت على ثلاثة كيلو مترات منها فجعلت ادور حولها وانا اقترب منها رويداً رويداً فمررت فوق بعض الثكنات ورأيت الجيوش تستعرض فصوبوا بنادقهم اليَّ ورأيت الدخان خارجاً من افواهها ولكنني كنت ابعد من ان يصل اليَّ رصاصها فابعدت عنهم واختفى دخان بنادقهم

ثم خطر لي ان آلتي قد تقف فاقع بين هؤلاء الجنود فالتفت اليها ورأيتها دائرة دوراناً منتظماً فاطمأن بالي

الى الآن لم اصل الى ما فوق المدينة نفسها ولكن لا بد من ان اطير فوقها وارمي المنشورات فيها فتأهبت لذلك ووجهت الاروبلان اليها ولم يكن الا القليل حتى صرت فوقها تماماً فرأيت بيوتها تحيط بها الحدائق واخرجت رزمة من المنشورات ورميت بها فنزلت معاً ثم تفرقت وللحال جعلت البنادق تطلق عليَّ فخرقت رصاصة جناح آلتي الايمن فخفضت الرافعة خمس درجات لكي ازيد سرعتها ورميت رزمة ثانية من المنشورات ثم رزمة ثالثة واذا برصاصة خرقت الجناح الايمن على قدمين مني ورأيت الدخان ينفجر تحتي وعلمت اني رميت بمدفع رشاش . ورأيت بعد ذلك قاع الطيارة مخروقاً بالرصاص وثلاث قنابل بلغارية سقطت في الطابية . فابعدت عن المدينة ووصلت الى مخيم البلغاريين وبعد ثلث ساعة بلغت مصطفى باشا سالماً

ركوب الهواء في السلم

لما صنع الكونت زبلن الالماني بلونهُ المسير وطار بهِ الى ابعاد شاسعة وعاد الى المكان الذي طار منهُ حسب كثيرون انهُ حل مسألة ركوب الهواء ولم يبق امامهُ الا

التوسع والاتقان . ثم لما سقط ذلك البلون وعصفت بهِ الرياح قال الاكثرون انهُ قضي على مراكب الهواء التي من نوع البلون ولم يبقَ لركوب الهواء الا الطيارات المعروفة بالاروبلان سواء كانت من ذوات السطح الواحد او من ذوات السطحين . ولكن عزيمة الكونت زبلن لم تضعف بفشلهِ الاول فصنع بلوناً بعد آخر واستعان بالآلات المحركة التي استنبطت حديثاً لتسيير الاوتوموبيل والاروبلان فنجح نجاحاً باهراً

وقد ركب احد الادباء البلون المعروف باسم فكتوريا لويزا من بلونات زبلن وسار بهِ من مدينة دوسلدرف بالمانيا الى مدينة برلين عاصمتها مسافة اربع مئة ميل ووصف سفرتهُ بهِ قال

يظهر ان الرغبة في ركوب البلون شديدة جدًّا فلا يجد الانسان مكاناً فيهِ ما لم يوص عليهِ قبل يوم السفر بثلاثين يوماً وكان ميعاد قيام بلوننا من دوسلدرف الساعة الرابعة والدقيقة الثلاثين صباحاً فوصلت الى المكان الذي يطير منهُ قبل الميعاد بساعة ولكنني رأيت الركاب قد ازدحموا فيهِ وكان ربانهُ يدور حولهُ وهو لايزال في بيتهِ وطياروه يتفقدون آلاتهِ المختلفة وحبالهُ وطبقاتهِ

وكان الركاب ثلاثة وعشرين نفساً فلما جلسنا في اماكننا بدت علينا كلنا امارات الاهتمام بما نحن مقدمون عليهِ . فرفعت المرساة فارتفع رأس البلون ومخر بنا في الجو بقوة آلاتهِ الرافعة والدافعة حتى اذا بلغنا حدًّا معلوماً من الارتفاع استوى البلون في سطح افقي وسار بنا سيراً منتظماً كأنهُ قطر من قطار سكة الحديد لا يرتفع ولا ينخفض ولا يميل يمنة ولا يسرة . وكانت الريح تهب جنوباً بشرق . واما نحن فكنا سائرين شمالاً كما يستدل من حركة القمر. وعلونا فوق الضباب وكان يغطي وجه الارض وفوق النيران التي كانت السنتها تندلع من افواه مداخن المسابك وكنا اعلى من ان تصل الينا لكننا سررنا بالابتعاد عنها والسير فوق السهول والهضاب. وكنا نقطع اربعين ميلاً في الساعة والبلون يسرع اكثر من ذلك عند الاقتضاء فقد بلغ متوسط سرعتهِ في سفرة اخرى ٩٤ ميلاً في الساعة

ووصلنا فوق مدينة بريمن قبيل الساعة السابعة فرأينا زُمر العمال آتين الى المعامل فنظروا الينا على غير اكتراث لكثرة ما شاهدوا هذا البلون وامثالهُ . وكنا من وقت الى آخر نرى تحتنا رجلاً يرد تحيتنا بمثلها . اما في الارياف ومزارع الفلاحين فكان الناس يقفون وينظرون الينا مسرورين وكانت المواشي تخاف منا اذا رأتنا كأننا

قضاء مبرم او طائر كبير آت لاختطافها فتقف اولاً تحدق بنظرها الينا ثم تفر لا تلوي على احد

ووصلنا الى فوق مدينة همبرج الساعة الثامنة والدقيقة الثلاثين فدرنا حولها وكنا نسمع لفظ سكانها وآلاتها فوق صوت آلاتنا . ومررنا من هناك نحو برلين جنوباً بشرق وعند الظهر صرنا فوق وادي الالب ومدّت لنا حينئذ موائد الطعام فتغدينا غداء فاخراً شوربا ومقيلات ورستو وخضر مطبوخة وسلطة وجبناً وشربنا القهوة . وكان غداؤنا كالعشاء في تنوع اشكاله ولكنهُ لم يطبخ على نار بل طبخ على الحرارة المتولدة من آلات البلون . ونام اكثرنا القيلولة بعد الغذاء وكنا نشعر ان الهواء نقي منعش يصلح للعمليات الجراحية من غير تطهير

وقبيل الساعة الثالثة مررنا فوق برج التلغراف اللاسلكي بنوان الذي يتراسل مع اماكن تبعد عنهُ ثلاثة آلاف ميل وكان في بلوننا جهاز لهذا التلغراف فتراسل هو والبرج ولكن الركاب لم يعرفوا ما دار بينهما

واستمر البلون سائراً بنا الى ان وصل الى مقره في برلين قبيل الساعة الرابعة نخفض رأسهُ كأنهُ ينوي النزول على العمال الواقفين في انتظاره لكي يمسكوه بحبالهِ . وهنا لقينا الصعوبة الوحيدة التي صادفتنا في هذه السفره . فان ثقل البلون نقص نحو طن بما حرق من وقوده نخف ولما قل دوران الآلات المحركة ارتفع في الجو قبلما تمكن العمال من استلام الحبال التي ينزلونهُ بها حتى اذا بلغ الف قدم في الارتفاع اطلق منهُ جانب من الغاز فثقل وعاد الى الهبوط والآلاتِ المحركة تسدده الى المكان الذي يراد نزولهُ فيهِ . وبعد قليل استلمت آلة زمامهُ وانزلتهُ الى الارض فخرجنا منهُ على الرصيف المعد لنزول ركابهِ . انتهى

فهنا بلون يسير اربع مئة ميل اي نحو اربعة اضعاف المسافة بين القاهرة والاسكندرية يركبهُ ثلاثة وعشرون راكباً ما عدا ربانهُ وخدمهُ وفيهِ موائد للطعام وكراسي مبسوطة للقيلولة وكل لوازم الراحة ولا يشعر ركابهُ بشيء من التعب . والاجرة الآن نصف شلن عن كل ميل ولذلك فالسفر فيهِ لا يزال من انواع الترف التي لا يستطيعها الا الاغنياء . ويشترط في وسائل النقل والانتقال حتى تعم ان تكون رخيصة او تكون درجات للاغنياء والفقراء ولكن ما هو خاص بالاغنياء اليوم لا يبعد ان يصير عاماً لجميع الناس غداً

وفي المانيا نوع آخر من البلون المسير اسمهُ بلون بارسفال وهو كثير الاستعمال فيها مثل بلون زبلن أو اكثر وقد صادف ربانهُ الكبتن ستلنج مرة زوبعة اذاقتهُ المر وهاك وصف ما عاناه منها قال

سار البلون ضد الريح مع ان سرعتها كانت ٢٥ ميلاً في الساعة لكنني علمت اننا ملاقون المشاق حتماً ولم يكن الا قليل حتى دخلنا نوءًا كهربائياً فاشتدت العاصفة حتى اوقفتنا عن سيرنا . ابتدأت ونحن على ٣٠٠ قدم فوق الارض ثم انصب المطر علينا كالوابل الهتون فزاد بهِ ثقل البلون . واستحال علينا ان نغالب العاصفة بخفضتهُ لان سرعة الريح تقل قرب سطح الارض ولكن الدنو من الارض لا يخلو من الخطر فقد كان على يميننا قرية ببيوتها وعلى يسارنا غابة باشجارها وامامنا اكمة مرتفعة فاضطررنا ان نسير في طريق سوي لا نعرج يمنة ولا يسرة . وكلما وقفت الريح لحظة وثبنا بالبلون وثباً وكدنا مرة نصطدم بصوار من البقر كان مجتمعاً بعضهُ مع بعض لينجو من عصف الرياح وكانت سرعتها قد بلغت ٤٥ ميلاً في الساعة

ولا تسل عما اصاب الركاب من الاضطراب حتى عزمت ان انزل بالبلون حيث كنا اذا لم تسكن الريح قبل الليل . وبعد جهاد ساعتين هجعت قليلاً فعاد البلون يسير وئيداً ثم اسرع قليلاً وكنا لا نزال على ستين قدماً فوق سطح الارض وهو موقف لا يخلو من الخطر لما يحتمل ان يصطدم بهِ من الاشجار والبيوت ولكنني لم اجسر ان ارتفع اكثر من ذلك خوفاً من العاصفة

ثم زاد هجوع الريح فعلونا الى ٢٢٠ قدماً فوق الارض ووصلنا الى مدينة اوغسبرج عند الغسق فنزلنا هناك وتركنا البلون معرضاً للامطار والرياح الليل كلهُ لكنها لم تضر بهِ ضرراً يذكر ثم ركبناه في الصباح وطرنا بهِ الى مقره . انتهى

وطول البلون الاول الموصوف هنا أي فكتوريا لويزا ٤٨٦ قدماً وعرضهُ ٤٦ قدماً وفيهِ ثلاث محركات من نوع ديزل قوتها معاً ٤٥٠ حصاناً ويمكن تسيير البلون بها ٥٠ ميلاً في الساعة اذا لم تكن الريح شديدة . واذا وقف محركان منها لسبب من الاسباب فالمحرك الثالث وحده يكفي لتسيير البلون ضد الريح ولو كانت سرعتها ٢٧ ميلاً في الساعة . وفي كل بلون من بلونات زبلن جهاز للتلغراف اللاسلكي فيستخبر بهِ عن حالة الهواء امامهُ حتى اذا علم انهُ ملاق عاصفة تجنبها

والظاهر ان في الجو مجاري وانهراً وتيارات كما في البر والبحر وقد جعل ربانو البلونات يبحثون عنها الآن حتى يستخدموا النافع منها ويتجنبوا الضار . قال القبطان هيكر ربان البلون فكتوريا لويزا انهُ صادف الريح في الربيع الماضي تعصف عند سطح الارض عصفاً شديداً وكانت سرعتها ٣٠ ميلاً في الساعة فارتفع ١٨٠٠ قدم فوجد الهواء ساكناً لا يتحرك فارتفع الف قدم فوقها فوجد ريحاً سرعتها ١٥ ميلاً متجهة في الجهة التي كان يقصد السير فيها . واتفق مرة انهُ صادف زوبعة في طريقهِ واعلمهُ التلغراف اللاسلكي حينئذ انهُ اذا حاد خمسين ميلاً ابعد عنها ففعل ونجا منها

وغرف هذا البلون مثل غرف افخر الفنادق في اثاثها وتدفئتها وفيها كتب وجرائد ومقاعد للاستلقاء . والمجال على الركاب اوسع مما هو في مركبات السكك الحديدية ذات الكراسي وفي اماكن الغسل ماء بارد وماء سخن . واصحاب هذه البلونات في المانيا شركات تجارية غرضها الربح ويقال ان ربحها غير قليل فهي تحرص عليهِ وتهتم باصلاح البلون لزيادتهِ . ومتى صارت الاعمال تجارية فلا بد من ان تنتشر ويكثر استعمالها مقتطف ابريل سنة ١٩١٣

٢

من القاهرة الى الكاب

اشارت التلغرافات في اوائل هذا الصيف الى عزم الحكومة الانكليزية على انشاء خط للطيارات في الشرق الاوسط وجعل القاهرة مركزاً لهُ . ويراد بالشرق الاوسط هنا شمال افريقية وسورية والبلاد الواقعة على جانبي البحر الاحمر واملاك انكلترا في شرق افريقية وجنوبها والهند .

وفي مقدمة الطرق التي وجهت الحكومة الانكليزية همها اليها طريق القاهرة والراس . فان وقوف القتال بين انكلترا وتركيا في آخر اكتوبر الماضي مكن قوة الطيران الملكية في الشرق الاوسط من التفرغ لانشاء الطرق الجوية لنقل البريد خصيصاً بعد الحرب فعينت ثلاث بعثات لاختيار افضل الطرق للطيران بين القاهرة ومدينة الراس

وكان منذ سنتين ان الماجور مكارن عند طيرانهِ من انكلترا الى مصر انشأ ميادين للطيران في السلوم ومرسى مطروح والعمرية قرب الاسكندرية واعدت

محطات للنزول بينها عند حدوث الطوارىء . وكذلك انشأ ميدان آخر في الخرطوم عند استخدام الطيارات في مقاتلة علي دينار

وقد قسمت قارة افريقية لهذه الغاية الى ثلاثة اقسام وكلت كل بعثة من البعثات الثلاث بواحد منها . فوكل الى الاولى تخطيط طريق السير في مصر والسودان حتى فكتوريا نيانزا . ووكل الى الثانية تخطيط طريق القسم الاوسط من فكتوريا نيانزا الى كتوتة في الطرف الجنوبي من بحيرة تانجانيكا . ووكل الى الثالثة تخطيط الطريق من كتوتة الى مدينة الراس

اما البعثة الاولى فطريقها اطول ولكن تخطيطهُ سهل . وهـذا الطريق يسير حذاء النيل من اوله الى آخره تقريباً . وقد استعانت بالنهر في نقل الرجال والمؤونة . واما الثانية فقد كان طريقها قصيراً ولـكنهُ يمر في ارض مجهولة كثيرة الصعوبات من كل وجه . واما الثالثة فقد كان طريقها طويلاً جداً . لـكنه محاذ لسكة الحديد من اوله الى آخره . وكل بعثة مؤلفة من رئيس وخمسة ضباط الى ثمانية ونحو عشرين جندياً من رجال قوة الطيران الملكي في الشرق الاوسط

ورئيس البعثة الاولى الماجور لونغ . والمحطات التي في طريقها هي القاهرة واسيوط واسوان ووادي حلفا ومروي واتبره والخرطوم وكدبك وجنـدكورو وجنجا وبورت فكتوريا

ورئيس الثانية المـاجور امت ومحطاتها موانزا عند الطرف الجنوبي من فكتوريا نيانزا واوجيجي كيتوته

ورئيس الثالثة الماجور كورت تريت ومحطاتها ابركورن (قرب كيتوته) وبروكن هل ولفنستون وساسبري وبولووايو وبلانشوي قرب ميكنغ (او كمبرلي — قرب بريتوريا) وبلومفونتين وبوفورت وست ومدينة الراس

هذا هو الطريق الذي وقع الاختيار عليهِ وكانوا قد بحثوا عن طريق آخر ثم عدلوا عنهُ وهو اتباع مجرى النيل الى فكتوريا نيانزا ثم الى بحيرة تنجنيكا ونياسا فنهر الزمبيسي فشرق افريقية البرتوغالي ثم السير حذاء الساحل حتى مدينة الراس

اما اسباب اختيار الطريق المشار اليهِ فهي اولاً ان اتجاه وادي النيل من الشمال الى الجنوب هو خير هاد للملاحة الجوية ثم ان اتباع مجرى النهر يسهل النقل ويمكن

من استعمال الطيارات او الزوارق الطيارة حسبما يقتضي الحال . وزد على ذلك ان سكة الحديد تحاذي النيل في جزء كبير من الطريق . وثانياً ان الجزء الاوسط على مشقة السير فيهِ لا تجد الطرق الاخرى اسهل منهُ . فطريق بحيرة كيفو مثلا اخصر ولكن البلاد التي بين سلسلة البحيرات العظمى ذات اشجار غبياء ومستنقعات بحيث يتعذر على الطيارات مهما يكن نوعها ان تسير فوقها . وثالثاً ان سكة الحديد ممتدة في معظم الجزء الجنوبي والارض هناك صالحة للطيران كلها

وفي ديسمبر الماضي خرجت البعثة الاولى من القاهرة بطريق النيل . وقصدت الثانية بمباسا في شرق افريقية . والثالثة لورنسو ماركيس ومدينة الراس فبلغتا قاعدتيهما في اواخر ديسمبر . ولم تجد البعثة الاولى صعوبة ما حتى الخرطوم فلم تدخل السنة الجديدة حتى كان الخط الى الخرطوم مستعداً للسير فيهِ ولم تمض ثلاثة اسابيع حتى ركب الجنرال هربرت طيارة من طرز هندلي بايج من القاهرة الى الخرطوم

اما جنوبي الخرطوم من الدرجة ١٣ شمالي خط الاستواء الى بروكن هل على نحو الدرجة ١٣ جنوبية فقد وجدوا مصاعب كأداء وعليهِ استقر الرأي على انشاء ميادين للطيران تكون كبيرة وداعة والمسافة بين الواحد والآخر منها ٤٠٠ ميل الى ٥٠٠ وترك الاهتمام بالمحطات الصغيرة التي يراد انشاؤها بينها لنزول الطيارات عند الضرورة الى فرصة اخرى . وتقرر ان يكون الميدان الاول قرب كدك اذا امكن ذلك وهي ٤٠٠ ميل جنوبي الخرطوم ثم عدل عن هذا القرار لاسباب صحية واختيرت الملاكال لبناء ميدان للطيران فيها دون كدك وهي تبعد عن كدك ٤٠ ميلاً الى الجنوب وعاصمة مديريات النيل الاعلى

وبين الملاكال وجندكورو جنوباً — والمسافة نحو ٤٠٠ ميل — يجري النيل في ارض السد المشهورة وقد فتشت البعثة كل التفتيش في بلاد رجاف وجندكورو ومنجلا لعلها تعثر على بقعة تصلح لنزول الطيارات فيها فلم تفلح . فاقترح بعضهم ان تبنى دكة لهذه الغاية ولكن اقتراحهُ لم يحز قبولاً لعظم النفقة . فلا حل لهذه المشكلة على ما يظهر إلا باستخدام الزوارق الطيارة لان النهر عريض فيمكن نزول الطيارات مهما يكن اتجاه الريح

ولم نعلم حتى الآن نتيجة عمل البعثة الثانية في بلاد البحيرات الكبيرة . فان البلاد

بين جندكورو وجنجا كثيرة الغابات والانجم والحشائش الغزيرة النمو وفي فصل الامطار من مارس الى يناير تبيت مستنقعات غامرة . فاذا حرقت الاعشاب في فصل القيظ امكن نزول الطيارات حيث تحرق

والزوارق الطيارة تستطيع الطيران بسهولة فوق فكتوريا نيانزا وموانزا وعلى ضفافها كثير من الخلجان والخيران يمكن اتخاذها محطات للزوارق . على ان اعظم عقبة في هذا السبيل تكرر الزوابع ومفاجآتها واشتداد النوء في البحيرات على اثرها . ومتوسط ما ينزل من المطر هناك نحو ٦٠ بوصة في السنة . وتكثر الاعاصير في خلال وقوع الامطار ويصعد من البحيرة احياناً اسراب من الحشرات الصغيرة يخيل الى الناظر اليها عن بعد انها سحب كثيفة

والارض بين موانزا واوجيجي سهلة المراس على مسافة ٣٠٠ ميل فيسهل الاهتداء فيها الى بقعة تعد ميداناً للطيران . ومثل ذلك يقال عن الارض الواقعة شرقي بحيرة تنجنيكا بخلاف كيتوته عند طرف البحيرة الجنوبي . ومن ابركورن جنوباً يتعذر الطيران على الزوارق الطيارة فلا بد من استعمال الطيارات العادية بطريق سرنجي حتى بروكن هل والمسافة ٤٤٠ ميلاً

اما البعثة الثالثة فلم تجد مصاعب عاتية في تخطيط الارض التي وكل اليها تخطيطها بل ربما كان اعظم مصاعبها اختيار احسن الميادين من بين ميادين كثيرة

ومن الطرق التي تعد للطيران في القارة الافريقية طريق من الاتبرة الى ترنكيتات على البحر الاحمر ومنها الى جزيرتي فرسان وقمران ثم الى بريم وعدن . والمرجح ان هذه الطريق تستعمل للاغراض الحربية اكثر منها للاغراض الملكية ولكنها قد تصبح جزءاً من طريق اخرى الى الهند مارة بمصر وساحل شبه جزيرة العرب . وقد عهد في تخطيط هذه الطريق وتمهيدها الى الماجوركارت

ويرجح ان تستعمل الزوارق الطيارة والطيارات معاً في بادىء الامر وان يشرع في الطيران من القاهرة الى الراس في اكتوبر او نوفمبر من هذه السنة

مقتطف إغسطس سنة ١٩١٩

—0:0—

٣

الطيران التجاري في اوربا

اصبح الطيران التجاري في اوربا عملاً منتظماً وقد انتشرت فوق اوربا شبكة كبيرة من الخطوط الهوائية فينتقل بالطيارات الوف المسافرين وتنقل مقادير كبيرة من البضائع ولولا مساعدة الحكومات للمهتمين بهذا العمل وتنظيمه لمات في مهده ولما كان كما نراهُ اليوم زاهياً زاهراً

وقفت حكومات اوربا عام ١٩٢٠ امام امرين حقيقيين — اما ان تقف وقفة الناظر الى هذا العمل فيموت واما ان تمدّ اليهِ يدها فيحيا ويعيش فعضدت الامر الثاني وشجعت القائمين بهِ وامدتهم بالاموال فازدهى ونما وذلك لانها رأت في احيائهِ واسطة جديدة للدفاع عن بلادها ووسيلة فعالة لدرء الكوارث عنها لذلك لا تجد في اوربا كلها ولا في العالم باسرهِ خطاً هوائياً تجارياً مستقلاً ينفق على تعزيزه من ارباحهِ وعوائدهِ فخط الشركة الهولندية الذي يعتبر من اكثر الخطوط التجارية شغلاً واتقاناً يزيد دخلهُ شيئاً قليلاً على نفقاتهِ

فشركات الطيران الانكليزية تتناول كل سنة من حكومتها مليون جنيه انكليزي والشركة الهولندية تتقاضى من حكومتها كل سنة ستة عشر الف جنيه انكليزي وقد تناولت شركات الطيران الافرنسية من حكومتها ما يقارب سبعة وسبعين مليون فرنك في السنة الماضية ولا يعلم بالتمام ما تتناولهُ الشركات الالمانية من حكومتها لتعزيز خطوطها

ولقد بلغ عدد الذين نقلوا بالطيارات من محل الى آخر في اوربا سنة ١٩٢٤ تسعين الفاً وتضاعف عددهم سنة ١٩٢٥ اما مقدار الشحن والوسق فلا يوجد احصاء رسمي لهُ الا انهُ في ازدياد مطرد

واليك البيان الآتي عن الخطوط التجارية الهوائية في اوربا :

تقوم الطيارة الساعة التاسعة والنصف صباحاً من مطار تمبلدرف في برلين الى امستردام فتصلها الساعة الثانية والنصف بعد الظهر ومنها اما ان تستأنف طيرانها الى لندن فتصلها الساعة السادسة والنصف مساء واما ان تتجه الى باريز فتبلغها الساعة السابعة مساء فتكون المسافة بين برلين ولندن بالطيارة تسع ساعات وبينها وبين باريز

تسع ساعات ونصف ساعة وتستغرق هذه السفرة بين برلين ولندن اثنتين وعشرين ساعة في اسرع قطار بخاري وبينها وبين باريز عشرين ساعة

وتترك الطيارة موسكو عاصمة السوفيات الساعة السابعة صباحاً فتصل الى كونجسبرغ الساعة السادسة مساء ومنها يركب المسافر القطار السريع فيصل الى برلين في الصباح الثاني اي تستغرق السفرة بين عاصمة السوفيات وبين لندن وباريز ستاً وثلاثين ساعة يقابلها ثلاثة ايام بالقطار الحديدي لو سار كل هذه المسافة بهِ

ولا تستغرق الرحلة من باريز الى ڤينا بالطيارة اكثر من نهار واحد ومنها اي من باريز الى بلغراد ست عشرة ساعة والى الاستانة اربعاً وعشرين ساعة اي ان السفرة من باريز الى الاستانة لا تستغرق اكثر من يوم كامل واذا لم تطر الطيارة ليلاً تناولت ثلاثة ايام مقابل خمسة ايام في القطار الحديدي

ثم ان هلسنغفور عاصمة فنلندا وكوبنهاغن وموسكو وورسو وبراغ وڤينا وبودابست وبلغراد والاستانة متصلة رأساً بالخطوط الهوائية مع برلين وباريز ولندن

ولفرنسا الآن المقام الثاني في الطيران التجاري ففيها تسعة خطوط — اثنان منها يسيران الى مستعمراتها الافريقية والباقية الى انحاء متعددة في اوربا . الا ان الخط من باريز الى لندن اكثرها عملاً وحركة ويستخدمهُ السياح الاميركيون كثيراً واجرة السفر فيهِ ستة جنيهات يتلوهُ في الشأن خط باريز — بروكسل — امستردام واجرة السفر فيهِ مثل اجرة الدرجة الاولى في السكة الحديدية

وهنالك خطان هوائيان يكادان يعادلان الخطين المذكورين آنفاً اهمية وشأناً — الاول يسير شرقاً من باريز الى زورخ فبراغ فورسو فجنوباً الى ڤينا وبودابست فبخارست فالاستانة فانقرة. والثاني يسير من طولوز على الشاطىء الاسباني الى الدار البيضاء في افريقيا الى دكر في السنغال وخط من اليكانت في اسبانيا الى الجزائر وآخر من انتيبس الى تونس

ويعتبر مطارها الذي في اللابورجه على تسعة اميال عن باريز من ارقى المطارات الاوربية فهنالك البنايات الفخمة التي لا تحرق والنزل المتقنة وشعب البريد المنظمة والمحطات للارصاد الجوية ومن هذه المحطات يتناول الطيارون التقارير الرسمية عن الاحوال الجوية فيأخذون للامر اهبتهُ

ولالمانيا المركز الاول في عالم الطيران التجاري وهي وروسيا الدولتان الوحيدتان

اللتان تسيّران خطوطاً رسمية الى مدنهما في الداخل والسبب في ذلك انصراف الدول عن التعاطي معهما واقامتها الصعوبات المتعددة بينها وبينهما

وتعتبر برلين اليوم نقطة مركزية في شركة تجارية هوائية كبيرة تمتد منها الخطوط الهوائية الى كل مدينة كبيرة في ولايات المانيا والى ممالك البلطيق والشمال

تخرج من برلين ثماني عشرة طيارة للركاب كلّ يوم الى كونجسبرج ومنها الى موسكو فالمدن البلطيقية ريغا وريفال وهلسنغفور ومن هذه المدن تمتد الخطوط الى درسدن التي ينتظر ان تتصل في القريب العاجل ببراغ والبلقان متى تم الاتفاق مع تشكوسلوفاكيا . ويسير خط يومي الى ليبسك وستتغارت وسويسرا وتمتد خطوط غربية الى همبرغ وبريمن وامستردام حيث تتصل بالخطوط الممتدة الى لندن وباريز

وفي الجنوب تصل الخطوط الهوائية مونيخ وستتغارت وفرنكفورت وغيرها من المدن الكبيرة ببرلين وهمبرغ وبريمن وڤينا وبودابست وتمتد خطوط هوائية الى كوبنهاغن واستوكهلم وامستردام

وتمتاز المانيا عن غيرها بان لها خطوطاً تحمل بريدها ليلاً فتبرح الطيارة برلين الساعة العاشرة ليلاً فتصل مالو في اسوج صباحاً فينقل البريد الى القطار السريع في استوكهلم الساعة السابعة والنصف

وقد عززت المانيا مطاراتها الهوائية ومحلات النزول فيها . فمطار تمبلدورف في ضواحي برلين يعتبر من ارقى المطارات الاوربية ترتيباً وتنظيماً وتهيء المحطة العامة فيه للارصاد الجوية الخرائط المتقنة التي تنبيء عن الاحوال الجوية في اوربا كلها . وفي المطار ذاته مركز متقن للراديو متصل بكثير من المدن الكبيرة في اوربا كلها

وتضاء محطات النزول بين برلين وكوبنهاغن في الطيران الليلي

اما الخطوط النمساوية فتتمة للخطوط الافرنسية في شرقي اوربا وتتصل النمسا بواسطة الخطوط الافرنسية بزورخ وباريز ولندن في الغرب وبالبلقان وبالاستانة في الجنوب الشرقي وبخط آخر يمتد الى ورسو . اما اتصالها بالبلطيق فبواسطة خط بولوني عبر بورسو الى دنتزغ ومنها يتصل بالخط الالماني

ويصل خط الماني ڤينا بمونيخ ومنها يتصل بالمدن الالمانية وبهولندا وبالبلاد السكانديناوية

اما روسيا فقد اضطرت ان تخطو خطوة كبيرة في هذا العمل بسبب رداءة سككها

الحديدية وترامي اجزاء جمهوريتها المتسعة فهنالك الف ميل بين اركنجل في الشمال وباكو على بحر قزوين وستة آلاف بين موسكو وڤلاديفستوك

ففيها خط يسير بين موسكو وكونجسبرغ فيتصل بالخطوط الالمانية وخطان آخران يسير الاول منهما الى الجنوب الى روستوف وتفليس وباكو والثاني يتجه من موسكو الى لننغراد وخط يسير شرقي الاورال وآخر يسير في سيبيريا . وتعد الحكومة الخطوط الجديدة لربط مدن سيبيريا الاوربية

اما هولندا فالخطوط فيها دولية بسبب صغر البلاد فتسير الخطوط المنظمة فيها الى بروكسل وباريز ولندن وكوبنهاغن وهمبرغ . وتسير الشركة الهولندية كل يوم خطين منتظمين الاول من امستردام الى روتردام وباريز والثاني من امستردام الى روتردام فلندن

ولامستردام اليوم مركز خطير في النقل والانتقال الجوي فهي فضلاً عن انها منتهى الخطوط الهوائية تعتبر ايضاً نقطة تحويل للخطوط الافرنسية والانكليزية والالمانية والسويسرية والدنماركية ومنها ايضاً يتفرق الركاب الى جهات اوربا المختلفة ويوزع البريد الى انحاء اوربا السحيقة كهلسنغفور وموسكو وورسو والاستانة

اما حالة الطيران التجاري في بريطانيا العظمى فمختلفة تماماً عنها في الممالك التي ذكرناها اذ لافرق يذكر في الوقت بين ما تقطعهُ البواخر في المياه والطيارات الطائرة في الجو فالسفر من لندن الى باريز في البحر وفي القطار يستغرق سبع ساعات وفي الجو حوالي ثلاث ساعات اما الخطوط الدولية المستعملة اليوم فتربط لندن بامستردام وباريز وزورخ وتفكر الحكومة في تسيير الخطوط الهوائية المنظمة من بلادها الى مستعمراتها ومناطق نفوذها في الشرق الادنى

اما دول اوربا الصغرى فبعضها لهُ خطوط خاصة بهِ والبعض الآخر يسعى لتأسيس خطوط هوائية جديدة

الخلاصة مما تقدم اولاً ان في اوربا اليوم خطوطاً هوائية تجارية تسير من بلاد الى بلاد ومن مدينة الى آخرى وان مقدار البضاعة المنقولة على ازدياد مطرد

ثانياً — لايمكن تسيير الخطوط التجارية بدون مساعدة الحكومة المالية لان تسيير الشركات لها مستقلة عاد عليها بالخسارة

نجيب نصار

مقتطف مايو سنة ١٩٢٦

الطيران التجاري في المانيا

امين الجانب — قليل النفقات — منتظم المواعيد

رحل منشئ مجلة « الطيران » الاميركية واحد الثقاة في تاريخ ارتقاء الطيران، رحلة جوية طويلة في اوربا والبلدان المجاورة لها قطع فيها ٢١ الف ميل واجتاز ٢٦ بلداً من بلدان اوربا وافريقية واسيا ، واستقلّ ٦٥ طيارة مختلفة وبلوناً واحداً فلم يحدث لهُ او للمسافرين معهُ وكانت زوجتهُ احدهم حادث ما ، بل كان السفر منتظم المواعيد في القيام وفي الوصول ، امين الجانب في اثناء الطيران وحين النزول على الارض ولم تصب الطيارات التي طار فيها بعطل حين طيرانها ولا اضطرت احداها ان تحط على الارض الاَّ في المحطات المعينة للنزول وفي المواعيد المضروبة لذلك. وقال في ذلك ان نفقات السفر في اكثر شركات الطيران الاوربية لا تزيد على نفقات السفر في مركبات الدرجة الاولى من السكك الحديدية اذا اضفت اليها اجرة غرف النوم وثمن الطعام. لان مديري شركات الطيران عرفوا انهم لا يستطيعون ان يزاحموا السكك الحديدية اذا تقاضوا اجوراً تفوق الاجور التي تتقاضاها السكك الحديدية وساعدتهم الحكومات المختلفة في ذلك فعينت لهم في ميزانياتها مبالغ مختلفة لسدّ ما تقع فيهِ شركاتهم من العجز . والحكومات لا تستفيد من ذلك فائدة مباشرة بل تحسب ان للطيران التجاري علاقة متينة بالطيران الحربي فتعمد الى تنشيط القائمين بامره وتمدهم بالمال بدلاً من ان تنفق مباشرة على معدات الطيران الحربي فتثير حول عملها الشبهات

والظاهر ان المانيا كانت ولا تزال اسبق البلدان في هذا المضمار، رغماً عما قيدتها بهِ معاهدة فرسايل من القيود . فقد صنعت شركات الطيران فيها طيارات كبيرة كلها من المعدن تحتوي الطيارة منها على اسرَّة للنوم ، لانها كثيراً ما تطير ليلاً ،وغرفة لتناول الطعام، واخرى للتدخين وتناول الاشربة المختلفة. وخطوطها الجوية تمتد بين اكبر المدن الالمانية والى البلدان المجاورة . وقد اطلعنا على مقالة في هذا الموضوع لاحد كتاب الانكليز نشرها في الجزء الاخير من مجلة القرن التاسع عشر فاقتطفنا منها ما يلي قال :

في ربيع السنة الماضية اتحدت شركات الطيران التجاري في المانيا فتألفت منها شركة كبيرة تدعى لُفت هنسا رأسمالها ٢٥ مليون مارك ، واشترك في انشائها والاشراف على ادارتها اكبر رجال المال والاعمال في المانيا

تنال هذه الشركة من حكومة المانيا اعانة مالية بلغ قدرها في السنة الماضية خمسة ملايين مارك وزاد هذه السنة فصار ثمانية ملايين مارك ونصف مليون . ويضاف الى ذلك اعانة قدرها نحو خمسة ملايين مارك تنفق خاصة على محطات التلغراف اللاسلكي والظواهر الجوية وغير ذلك من الوسائل اللازمة لجعل الطيران امين الجانب فمجموع ما تنفقهُ الحكومة الالمانية على تنشيط الطيران التجاري يبلغ ١٣ مليون مارك . وليس هذا كل ما ينفق على الطيران التجاري في المانيا من قبيل الاعانة فان مدن المانيا ومجالسها البلدية تنفق ايضاً على تنشيط الخطوط الجوية التي تمرّ بها وقد بلغ مجموع ما انفقتهُ سنة ١٩٢٥ ثلاثة عشر مليون مارك ٨ ملايين منها أنفقت في اعداد مطارات فيها كل المعدات الحديثة لنزول الطيارات واستقبال الركاب وخمسة ملايين لشراء اسهم في شركات الطيران التي تمر خطوطها بها . فمدينة مونخ مثلاً انفقت ثلاثة ملايين مارك على بناء مطار ووضعت جائزة قدرها خمسة آلاف مارك لمن يرسم افضل رسم لهُ

***

برلين اكبر مركز للطيران التجاري في المانيا وعليهِ فهي اكبر مركز لهُ في كل البلدان وقد بني مطارها في تمبلهوفر فلد وهي الساحة التي كان الامبراطور غليوم يستعرض فيها جيوشهُ قبل الحرب وفيها الآن فندق حديث ينزل فيهِ المسافرون قبل سفرهم اوحين وصولهم . رأيت هذا المطار حوالي الساعة العاشرة صباحاً فزرت المكاتب وغرف الانتظار ومكاتب البريد ورأيت نحواً من خمسة عشرة طيارة مستعدة للطيران، طارت كلها في خلال ساعة بعيد وصولي حسب المواعيد المضروبة لطيرانها فاتجهت احداها الى امستردام واخرى الى ليبزغ فنورنبرج فمونخ واخرى الى دانزغ وكونجزبرج واخرى الى اسن وكولون واخرى الى فينا وبودابست . ومطار تمبلهوفر يدار كما يدار مرفأ من المرافئ ، اي انهُ يخص شركة لا علاقة لها بشركات الطيران تتعاقد مع شركات الطيران على استقبال طياراتها وتجهيزها بما يلزم لها لقاء اجور معينة

اما الطيارات التي تستعملها شركة لفت هنسا فكثيرة الانواع. واكثر اعتمادها على طيارات تصنعها شركة ينكرز تعرف بـ (ج٢٣) وهي مصنوعة من المعدن وجوانحها من الدورالنيوم وهو معدن متين خفيف الوزن وعليهِ فاصحاب الطيارات الالمانيـة يسمحون للمسافرين بالتدخين لان الطيارات معدنية وغير معرضة للاحتراق . وكل طيارة لها ثلاثة محركات اذا اصيب احدها بعطل كان المحركان الباقيان كافيين لتسييرها

وهذا يكفل سلامة الركاب . وتغادر الطيارات المطار في المواعيد المضروبة لا تتأخر دقيقة واحدة عنها لكي تنتظر احد المسافرين . فاصبحت من هذا القبيل منتظمة انتظام القطارات اذ لا نسمع الآن ان مدير محطة يؤخر قطاراً عن القيام في ميعاده لتأخر احد الركاب عن الوصول الى المحطة في الموعد المعين . وشراء تذكرة السفر باحدى طيارات هذه الشركة بمثابة تأمين على حياة المسافر قيمتهُ ٢٥ الف مارك ذهب تدفع لاهلهِ اذا قتل في اثناء الطيران واذا اصيب بحادث ما اقعده عن العمل تدفع لهُ الشركة ٢٥ ماركاً ذهباً كل يوم ما زال تحت المعالجة . وغني عن البيان انهُ لم تحدث حادثة ما في المانيا في السنة الماضية ولا تحطمت فيها طيارة او اصيب راكبوها بضرر ما

وهناك نوع آخر من الطيارات يدعى البترُس ويطير بين برلين ومالمو وكوبنهاغن عاصمة الدنمارك. ولما كانت هذه الطيارات قد بنيت للطيران الليلي على مسافات شاسعة فالكراسي التي يجلس فيها المسافر نهاراً تتحول الى اسرة ليلا فينام فيها، والطيارة تسع ثمانية مسافرين نائمين . وتغادر الطيارة برلين ليلاً وتصل كوبنهاغن صباح اليوم التالي

وهناك نوع ثالث من الطيارات يدعى «روبرخ» كل طيارة فيها ثلاثة محركات وتسع عشرة ركاب ، واهم ما يلفت النظر فيها ان لاصوت لمحركاتها يصمّ الاذان كما في الطيارات الاخرى ، وهي ذات سطح واحد، كأكثر الطيارات التجارية الالمانية ،وترتفع الف متر في سبع دقائق وقوة كل من محركاتها ٢٣٠ حصاناً وقد صنعت شركة يُنكرز طيارة جديدة اطلقت عليها اسم (ج ٣١) لها ثلاثة محركات قوة كل منها ٢٨٠ حصاناً وفيها ثلاث غرف احداها للنوم واخرى للتدخين والثالثة لتناول الطعام وتسع ٢٨ راكباً

والظاهر ان شركة لفت هنسا لم تقرر بعد الخط الجوي الذي تسير فيه هذه الطيارة والراجح انها ستنشىء خطًّا جوياً بين برلين وباكين عن طريق موسكو فتستعملها فيهِ

وتبنى على شواطئ بحيرة كونستانس الآن طيارات مائية هي اكبر طيارات من نوعها وقد اشترت شركة لفت هنسا اولى هذه الطيارات لتسيرها بين مرسيليا وبرشلونة في اسبانيا لانها تهم الآن بانشاء خط جوي بين برلين وبرشلونة عن طريق مونخ ومرسيليا وقد اتفقت مع الحكومة الفرنسوية على شروط استقبال هذه الطيارة في مرفإ مرسيليا ، وقيامها منهُ . وهي تحمل ٢١ مسافراً ومن رأي المسيو دورنر وهو من كبار اصحاب المعامل التي تصنعها ان ما من مانع يمنع بناء طيارة تحمل ثمانين راكباً فالمسألة في رأيهِ « مالية لا هندسية »

مقتطف ابريل سنة ١٩٢٧

٥

الطيران من انكلترا الى الهند

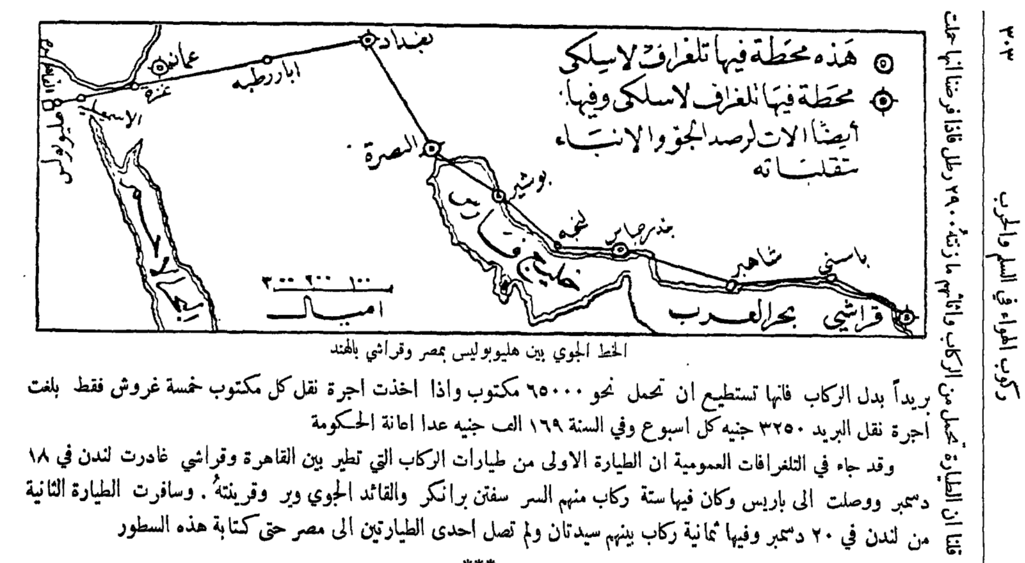
مصر والمواصلات بين الغرب والشرق

لقد كان اهتمام ملوك اوربا وتجارها بالوصول الى الهند من اكبر البواعث على السير بسفنهم حول افريقية ثم على فتح ترعة السويس بعد ان كان الوصول الى الهند براً بطريق سورية وبغداد وايران وافغانستان يقتضي شهوراً كثيرة ويعرض القوافل للمخاطر . اما الآن فاهل هذا العصر لم يكتفوا بطريق البر والبحر بل عزموا ان يزاحموا الطيور ويصلوا الى الهند في الهواء . وللانكليز في ذلك الشأن الاكبر لاتساع املاكهم في الشرق الاقصى فرسموا خطاً تسير فيهِ طياراتهم من القاهرة الى قراشي في بلاد الهند وهو المرسوم في الصفحة التالية بمحطاتهِ المختلفة وطولهُ ٢٥٣٦ ميلاً . اما بين انكلترا والقاهرة وبين القاهرة وبغداد فقد صارت السكة الهوائية مطروقة

وقد تعهدت الحكومة الانكليزية بان تعطي الشركة التي تسير طياراتها الى الهند ٩٣٦٠٠ جنيه كل سنة وتساعدها في تنظيم المحطات بمبلغ ٦٤٠٠ جنيه فيكون مجموع الاعانة السنوية مائة الف جنيه . واشترطت عليها ان يكون في كل طيارة محركان او ثلاثة . وان تسير الطيارات بين اوربا والهند مرةً كل اسبوعين ثم تسير مرةً كل اسبوع . وفي الاشهر الثلاثة الاولى تصل من القاهرة الى البصرة مسافة ١١٢٠ ميلاً ثم تصير تصل الى قراشي بعد الاشهر الثلاثة وستكون محطة هليوبوليس (مصر الجديدة) اهم المحطات كلها

وكل طيارة تحمل ١٤٨٠٠ رطل وهي تشمل وزن الطيارة وآلاتها وطيارها والعامل بالتلغراف اللاسلكي فلا يبقى فيها مما يدفع اجرة إلا ٢٩٠٠ رطل فلا تحمل إلا ١٢ نفساً وما يلزم لهم وتكون سرعتها من ٩٥ ميلاً الى ١٠٠ ميل في الساعة فتقطع المسافة بين مصر والهند في نحو ٢٩ ساعة ولكن لا بد من الوقوف والمبيت في بعض المحطات فيقتضي قطع المسافة من مصر الى الهند ثلاثة أيام او اربعة على الاكثر واما في البحر فلا يمكن الوصول الى الهند في اقل من ١١ يوماً اذا سارت السفينة من الاسماعيلية الى الهند تواً واذا اراد المسافر ان يمر على بغداد والبصرة لزم لهُ ١٨ يوماً . وهي الآن من بغداد الى قراشي سبعة أيام بحراً مقابل يومين في الهواء

قلنا ان الطيارة تحمل من الركاب واثاثهم ما زنته ٢٩٠٠ رطل فاذا فرضنا انها حملت



الخط الجوي بين هليوبوليس بمصر وقراشي بالهند

بريداً بدل الركاب فانها تستطيع ان تحمل نحو ٦٥٠٠٠ مكتوب واذا اخذت اجرة نقل كل مكتوب خمسة غروش فقط بلغت أجرة نقل البريد ٣٢٥٠ جنيه كل اسبوع وفي السنة ١٦٩ الف جنيه عدا اعانة الحكومة

وقد جاء في التلغرافات العمومية ان الطيارة الاولى من طيارات الركاب التي تطير بين القاهرة وقراشي غادرت لندن في ١٨ دسمبر ووصلت الى باريس وكان فيها ستة ركاب منهم السر سفتن برانكر والقائد الجوي وير وقرينته . وسافرت الطيارة الثانية من لندن في ٢٠ دسمبر وفيها ثمانية ركاب بينهم سيدتان ولم تصل احدى الطيارتين الى مصر حتى كتابة هذه السطور

***

وفي ٨ يناير وصل السر صموئيل هور واللادي قرينته الى دهلي عاصمة الهند على متن طيارة طارا بها من لندن فقطعا مسافة تزيد على ستة آلاف ميل في ٦٣ ساعة من الطيران الفعلي . وكان وصولها الى دهلي في الميعاد المضروب لم تتأخر سوى بضع دقائق مع انها اجتازت بلداناً تتفاوت في حرها وبردها وحالة اجوائها فثبت ان السفر في الجو كالسفر في البر والبحر مأمون يصح الاعتماد على انتظامه وأي باخرة بل أي قطار حديدي لا يتأخر من حين الى آخر دقائق عن ميعاده

وسلم وزير الطيران البريطاني الى حاكم الهند العام رسالة بعث بها ملك بريطانيا وامبراطور الهند فكانت أول رسالة أرسلت كذلك وكان الوزير وقرينته اول الذين طاروا من لندن الى دهلي

ثم عاد السر صموئيل هور وقرينته بالطيارة من دهلي الى قراشي ومنها الى البصرة فبغداد فهليوبوليس فوصلاها في الساعة السابعة والدقيقة الخامسة من مساء يوم الاثنين في ٧ فبراير سنة ١٩٢٧ وبذلك تمت اول رحلة جوية من انكلترا الى الهند على غاية ما يرام من الانتظام وسلامة الجانب

والطيران بين هليوبوليس وبغداد والبصرة منتظم الآن كل الانتظام وقد زاد الركاب زيادة حملت الشركة على تخفيض اجورها

مقتطف يناير سنة ١٩٢٧



٦

طبقات الجو العالية وارتيادها

في ١٥ ابريل سنة ١٨٧٥ طار المسيو غاستون تيسنديه مع رفيقين لهُ في بلون كروي فحلقوا فوق باريس الى علو ٢٨ الف قدم او خمسة اميال وثلث ميل . لكن شدة البرد وقلة الاكسجين فعلتا بهم فاغمي على تيسنديه ومات رفيقاه . اما الآن وقد مضى على ذلك نحو خمسين سنة فقد صار في وسع الطيارين ان يحلقوا بالطيارات وهي اثقل من الهواء الى علو ٣٨ الف قدم او نحو ثمانية اميال من غير ان يتعرضوا للخطر وقد استنبطت آلات مختلفة تجهز الطيار بالاكسجين ومحرك الطيارة بضغط كضغط الهواء على سطح البحر فيبقى سائراً في عملهِ من غير خلل او نقص في قوتهِ . واذا كان الجوّ صافياً تمكن الطيار البارع ان يصور البلاد التي تحتهُ من ارتفاع شاهق كما ترى في الصورة التالية وهي صورة لمدينة ديتون باوهايو من اعمال الولايات المتحدة الاميركية صورت من علو ٣٢ الف قدم . وقد اطلعنا الآن على مقالة للملازم مكريدي الاميركي وهو الطيار الذي حلق الى اعلى ما بلغهُ الانسان فاقتطفنا منها ما يأتي : قال

في فبراير سنة ١٩٢٠ استقل الماجور شرويدر الاميركي طيارة من طراز لوبير مجهزة بكل الآلات الحديثة وحلق بها فوق الغيوم فلما وصل الى ارتفاع ٣٣ الف قدم اختلت الآلة التي تجهزه بالاكسجين فرفع نظاراتهِ التي تقي عينيهِ من البرد القارس لكي يرى سبب الخلل فلم يستطع لان قلة الاكسجين كانت قد افقدتهُ رشده فهبط هو وطيارتهُ من حالق كانهما احد الرجيم المنقضة في الفضاء وبقيا هابطين كذلك نحو ستة اميال . وكأن وجود الاكسجين في الهواء القريب من سطح الارض انعشهُ واعاده الى رشده فاستيقظ قبل وصولهِ الى الارض وقبض على زمام طيارتهِ واعاد موازنتها وحطّ بها سليمةً مع انهُ كان قد عشي لتجمد رطوبة الهواء على عينيهِ المكشوفتين

كنت حينئذٍ قد شرعت اقوم بتجاربي في « التحليق بالطيارة » وكنت بين الذين شهدوا نزول الماجور شرويدر الى الارض وهو على هذه الحالة وساعدت في حملهِ الى الاتومويبل الذي نقله الى المستشفى فاثر ذلك بي ، ولكن لم يخطر لي حينئذٍ اني سانتزع منهُ قصب السبق الذي حازه ذلك اليوم بتحليقهِ الى ذلك العلو الشاهق

لكل طيارة حد لاترتفع فوقهُ

يظن الناس انهُ ما من مانع يمنع تحليق الطيارة الى طبقات الجو العليا سوى مقدرة الطيار على احتمال البرد وقلة الاكسجين والضغط وغير ذلك من المصاعب التي تؤثر في الجسد وتضعفهُ. ولكن ذلك بعيد عن الحقيقة البعد كلهُ ولا اذكر اني نزلت مرة من حالق لسبب من هذه الاسباب بل لان جزءاً من اجزاء الطيارة اصيب بعطل اواختلت الآلة التي تجهزني بالاكسجين او لان الطيارة لم تتمكن من الارتفاع فوق حد محدود. ومع ذلك فلا بد للطيار من ان يثابر على تمرين جسمهِ ليحفظهُ في حالة صحية تامة

ولكل طيارة حد لاتستطيع ان ترتفع فوقهُ وهذا الحد يتوقف على ثقل الحمل الذي تحملهُ وقوة الآلة التي تسيرها وشكل اجنحتها ومحركاتها وغير ذلك من العوامل فالطيارة من الطيارات العادية لاتستطيع ان ترتفع اكثر من ١٦ الف قدم الى ١٧ الفاً. ان الطيارة المعروفة « بيارلنغ بومبر » وهي اكبر طيارة صنعت حتى الآن يبلغ وزنها ٤٢ الف رطل متى حملت كل ما تستطيع حملهُ وهي لاتستطيع ان ترتفع حينئذٍ اكثر من ثلاثة آلاف قدم فوق سطح البحر . ومتى بلغت حدها هذا فمن العبث ان يحاول سائقها الارتفاع بها اكثر من ذلك

وهناك عامل آخر شديد الاثر في ارتفاع الطيارة وهو ضغط الهواء فمن المعروف المقرر في العلوم الطبيعية انهُ كلما ارتفع الانسان فوق سطح البحر قلت كثافة الهواء وقل ضغطهُ وهذا الضغط لازم للآلة التي تسيّر الطيارة حتى تولد اقصى ما تستطيع توليده من القوة. فضغط الهواء على سطح البحر يساوي ٧و١٤ الرطل على كل بوصة مربعة ولكنهُ ينخفض الى رطلين ونصف على ٣٥ الف قدم . والمحرك الذي يولد قوة تساوي ٤٠٠ حصان على سطح البحر لا يولد سوى ٨٧ حصاناً على علو ٣٥ الف قدم او اقل من ذلك ومن الواضح ان هذه القوة ليست كافية لرفع الطيارة

وعليهِ فقد استنبطت آلة تضغط الهواء اللطيف في المرتفعات العالية حتى يصير ضغطهُ كضغط الهواء على سطح البحر ومن ثم يتصل الى الآلة في انبوب فتستعملهُ وهذا يزيد حد الارتفاع في اية طيارة بضعة آلاف قدم . اي اذا كان اعلى ما تبلغهُ طيارة من غير هذه الآلة ٢٠ الف قدم فقد يصبح حدها الاعلى متى استعملت هذه الآلة فيها ١٥ الف قدم او اكثر . قد يستغرب القارئ كيف تستطيع آلة الطيارة ان تولد القوة اللازمة لرفع الطيارة من هواء تبلغ درجة حرارتهِ في بعض الاحيان نحو

٦٠ درجة تحت الصفر بميزان سنتغراد والسبب في ذلك ان هذا الهواء متى دخل هذه الآلة ارتفعت حرارتهُ حتى تلزم لهُ آلة تبرده لكي لا يحمى فوق درجة معينة ٦٣ درجة تحت الصفر بميزان سنتغراد

اهم المصاعب التي تعترض الطيار الذي يريد ان يحلق الى اعلى ما يستطيعهُ في الجو شدة البرد وقلة الاكسجين وضعف الضغط الناتج عن لطافة الهواء

اما البرد فاقلها خطراً وقد دوّن ميزان الحرارة في احدى التجارب التي حلقت بها الى علو شاهق ٦٣ درجة تحت الصفر بميزان سنتغراد وما من وسيلة لصد هذا البرد عن الطيار ، لانهُ يخترق الجسم الى العظام وكل ما نستطيع ان نستعمله للوقاية منهُ هو الاكثار من الملابس الدافئة

انني البس تحت ملابسي العسكرية ثوبين او ثلاثة اثواب من الصوف وفوقها قميصاً من الصوف ايضاً ثم فوق كل ذلك ثوباً من الجلد مبطناً بالريش والبس على يدي قفازات من الجلد مبطنة بالفرو وعلى رجلي مثل ذلك ثم البس على وجهي خوذة كالخوذة التي يلبسها الغواص وفيها انبوب متصل بالآلة التي تجهزني بالاكسجين حين احتاج اليهِ . والنظارات التي اضعها على عيني مصنوعة من نوع من الجلاتين يمنع تجمد الماء عليهِ ولو كانت درجة الحرارة خمسين درجة تحت الصفر . واما اذا تجمد بعض بخار الماء على النظارات تحت تلك الدرجة فيتعذر البصر على الطيار ولا يستطيع ان ينزع نظارتهِ حينئذٍ لئلا يتجمد الماء على عينيهِ وهذا شر اعظم من الاول

وقد ثبت ان الملابس التي تدفأ بالكهربائية لا تفيد لانها تعرض الطيار للموت برداً اذا اختل نظام الاسلاك الكهربائية المتصلة بالثوب وهو دقيق جداً سهل الاختلال

اما الغرفة التي يقعد فيها السائق ليدير دفة الطيارة فتحمى بهواء سخن يتصل بها من المحرك وهي مبطنة بطبقة سميكة من اللباد . وما زالت الطيارة آخذة في الارتفاع او سائرة سيراً افقياً تبقى غرفة الطيار دافئة ولكن متى بدأ الطيار بالهبوط او وقف المحرك عن العمل وبذلك يقف تسخين الهواء فتبرد برداً شديداً

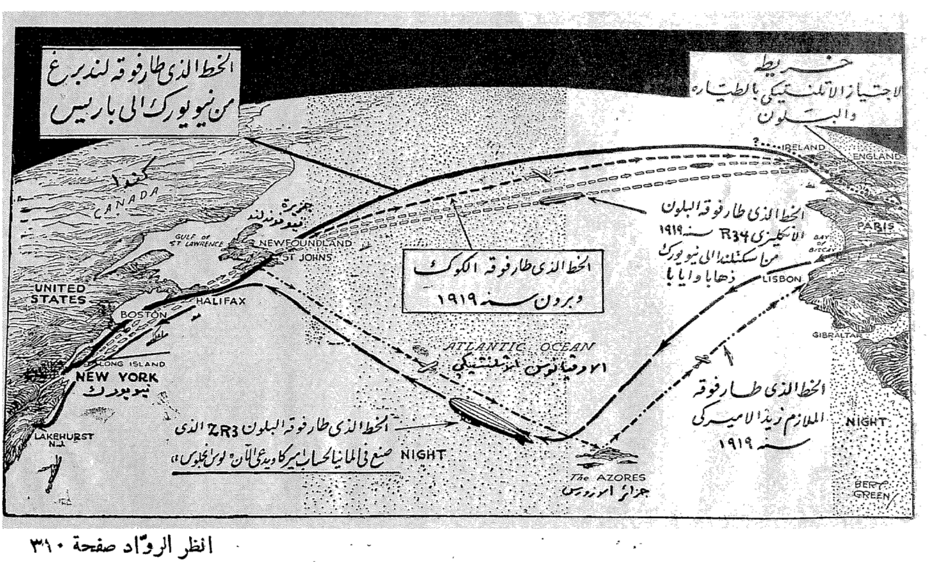
وقد كان المظنون ان حرارة الهواء لا تتغير فوق ارتفاع محدود . على ان تجاربي في فصول السنة المختلفة اثبتت بطلان هذا الظن . فقد طرت في يناير وفبراير هذه السنة (سنة ١٩٢٦) مراراً الى علو ٣٧ الف قدم فدوَّن ميزان الحرارة في طيارتي على هذا العلو ادنى درجات الحرارة التي دوَّنها الى ذلك الوقت وهي نحو ٦٢ ٢/٩ درجة تحت

الصفر بميزان سنتغراد . وفي ١٠ ابريل طرت ايضاً الى ذلك العلو فدون الميزان درجة ٦٣ ١/٣ تحت الصفر بميزان سنتغراد . على اني طرت في يناير (١٩٢٦) فلما بلغت علو ٣٧ الف قدم كانت الحرارة ٧/٩ ٦٢ تحت الصفر بميزان سنتغراد ولما بلغت علو ٣٨٧٠٢ اقدام كانت الحرارة قد ارتفعت الى درجة ٦٠ تحت الصفر . ثم في فبراير كانت الحرارة على علو ٣٥ الف قدم ٥/٩ ٦٠ الدرجة تحت الصفر بميزان سنتغراد فلما بلغتُ علو ٣٦ الف قدم ارتفعت الحرارة الى ٥/٩ ٥٥ وبقيت كذلك الى علو ٣٩ الف قدم ، وهو حدّ الطيارة الاعلى. وقد دعيت منطقة الهواء التي ترتفع فيها درجة الحرارة بعد علو معين « الستراتوسفير » وجربت تجارب مختلفة لمعرفة حرارتها باطارة بلونات ترتفع من نفسها فيها آلات لتدوين الحرارة فاذا بلغت علوًّا معيناً اشتد ضغط الغاز فيها فتنفجر وتقع الآلات منها وقد دونت هذه الآلات درجة ٧/٩ ٦٧ تحت الصفر بميزان سنتغراد على علو ٥٨ الف قدم . وقد حققت هذه القياسات في بلدان مختلفة وحتى الآن لم يستطع احد ان يطير الى ذلك العلو

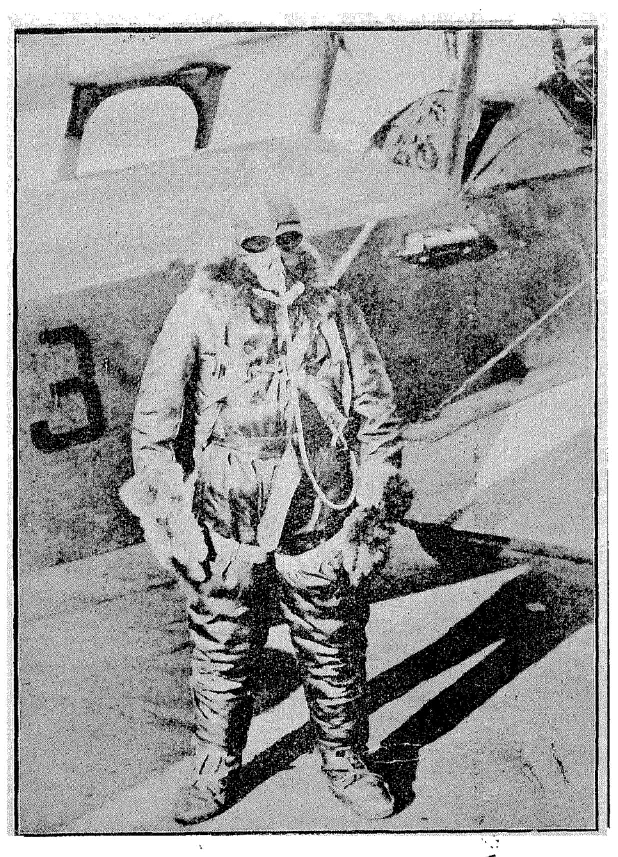
الطيار والاكسجين

صعبٌ على الطيار ان يقاوم البرد ولكن قلة الاكسجين تضعفهُ وتفقدهُ رشدهُ وتمنعهُ عن العمل فاذا بلغ علو ٢٠ الف قدم فوق سطح البحر امتلكهُ ضعف عام في قواه الجسدية والفكرية فيضع انبوب الاكسجين في الخوذة التي على وجههِ ويتنفس هذا الغاز اللازم للحياة فتشرق الدنيا في عينيه وتبسم لهُ ويحس بنشاط في جسمهِ وفكره . واذا بلغ علو ٣٠ الف قدم احس ان كل عمل يعملهُ يزيد حاجتهُ الى الاكسجين واذا لم يزد مقدار الاكسجين الذي يتنفسهُ غامت الدنيا في عينيهِ ورأى الآلات امامهُ اشباحاً وفقد صوابهُ .واكثر الطيارين يبدأُون يتناولون الاكسجين من الآنية التي يحفظ فيها على علو ١٦ الف قدم او ١٧ الفاً ويزيدون مقدار ما يتناولونهُ كلما ارتفعوا في الجو. وقد كان الاكسجين الذي يتناولونهُ يحفظ غازاً في آنية من حديد تحت ضغط شديد ولكنهم الآن لا يستعملون الاكسجين السائل الاَّ في الآنية التي تستعمل حين الخطر فهذه تحتوي على غاز الاكسجين وهو خال من كل الشوائب فليس فيهِ شيء من الماء لان الماء قد يجمد في الانبوب ويسده ويعرض حياة الطيار للخطر

يوضع الاكسجين السائل في الآنية المعدة لهُ وهو يغلي لان درجة غليانهِ واطئة جدًّا وكلما ارتفع الطيار في الهواء وقل ضغط الهواء زاد غليانهُ وزاد تبخره او



انظر الرواد صفحة ٣١٠



الملازم مكريدي بالملابس التي يلبسها حين التحليق الى اعالي الجو

انظر الروّاد صفحة ٣٠٧

تحولهُ الى غاز فيزيد مقدار ما يتناوله الطيار منهُ نسبة الى العلو

الطيار وضغط الهواء

اتقنت الوسائل التي تجهز الطيار بالاكسجين والدفء فيتغلب بهما على قلة الاكسجين وشدة البرد في الاعالي . ولكن العلماء لم يستنبطوا حتى الآن وسيلة ما تمكن جسم الانسان من اعتياد قلة الضغط الناجمة عن لطافة الهواء .

اذا صعد احد الى قمة جبل عال صعوداً سريعاً رعف انفهُ لان ضغط الدم في انابيب جسمهِ الشعرية على سطح البحر مساوٍ لضغط الهواءِ فاذا قلَّ ضغط الهواء في الخارج فجأة وهو ما يحدث حين التصعيد في جبل تصعيداً سريعاً اشتد ضغط الدم داخل الانابيب الشعرية التي في انفهِ فتتمدد حتى ينبثق الدم منها . كذلك نعلم ان الغواص اذا نزل الى اعماق البحر لم يستطع جسمهُ ان يحتمل ضغط الماء عليهِ فيرسل اليهِ اكسجين مضغوط في انبوب فيتنفسهُ ويعدل بهِ الضغط داخل جسمهِ حتى يساوي ضغط الماء خارجهُ .

وقد ثبت حتى الآن ان قلة الضغط في الهواء لا تضر الطيار كثيراً ولكننا لا نعلم الى اي حد يستطيع ان يحلق من غير ان يصاب بضرر ما من هذا القبيل . ولا شك في ان عدم اكتشاف وسيلة تساعده على حل هذه المسألة يجعل التقدم في درس الستراتوسفير على مرتفعات عالية متعذراً . وقد حاولت مصلحة الطيران في الجيش الاميركي ان تجد حلاً لهذا المشكل فلم تسفر تجاربها عن نتيجة ما حتى الآن . وقد حاول احدهم منذ سنوات ان يجعل الغرفة التي يجلس فيها الطيار في شكل برميل من الفولاذ يزداد فيها الضغط بآلة خاصة كلما ارتفع الطيار لكن بعد ما جربت وجد ان الخطر الذي يتعرض لهُ من قلة الضغط. ذلك انهُ اذا اختل نظام الجهاز الذي يصرف بعض الضغط من الغرفة تعرض الطيار للموت اختناقاً من شدة الضغط

الطيران فوق جبل افرست

اعلى ما حلقت اليهِ بالطيارة XCO5 — A كان ٣٨٧٠٤ اقدام وقد بنيت هذه الطيارة خصوصاً لهذا النوع من الطيران وفيها كل الآلات اللازمة لتدوين الحرارة والعلو وتصوير الارض من علو ٣٠ الف قدم وغير ذلك مما يلزم لدرس احوال الجو في طبقاتهِ العالية . وبها تمكنا ايضاً من تصوير قمم بعض الجبال التي لم تصل اليها قدم انسان ولا ارى سبباً يحول دون الطيران بها او بطيارة مثلها فوق جبل افرست الذي ما زال محجة لمصعدي الجبال تتحطم دون بلوغها آمالهم مقتطف ينار سنة ١٩٢٧

٧

غلب النسر على دولته

اتجهت انظار الامم في الشهرين الماضيين في شؤون الطيران على اختلافها . فالصحف حافلة باخبار الطيارين وفعالهم ، واحاديث المجالس تدور على جرأتهم واقدامهم ، والجو يعج بطياراتهم وضجيج محركاتها . فانك كيف اجلت نظرك في هذا الفضاء الفسيح تسمع عن جماعة من الطيارين الشجعان يغامرون بنفوسهم لتمهيد سبل الجو والقبض على زمام الهواء. ان اقبالهم على هذه الرحلات الحافلة بالمشاق والمخاطر واقدامهم على التعرض لانواع المكاره والصبر عليها يعيدان الى الذهن ما دونهُ التاريخ في طياتهِ عن عصور الارتياد الذهبية — عصر كولمبوس ومجلان وفاسكودي غاما في ارتياد البحار وعصر لفنستون وستانلي وسبيك وشوينفرت في كشف المجاهل الافريقية وعصر ننسن وپيري وسكوت وشاكلتن وامندسن في اقتحام الاصقاع المتجمدة حول قطبي الارض والانتصار عليها

كان الطيران في مهده منذ ١٧ سنة لاتتجاوز المسافة التى يستطيع الطيار قطعها مائة من الاميال وكانت قوة المحرك من محركات الطيارات لاتزيد على عشرين حصاناً او ثلاثين وكانت نكبات الطيران يتلو بعضها بعضاً بسرعة تدمي القلوب وتثير الريب في امكان النجاح . ولكن ماذا نرى اليوم ؟

دع عنك حديث الطيران التجاري وتقدمهِ في اوربا واميركا عامة وفي المانيا خاصة بل دع عنك حديث الطيران حول الارض الذي قام بهِ جماعة من الطيارين الاميركيين سنة ١٩٢٤ والطيران الى القطب الشمالي والطيران من لندن الى مدينة الكاب ثم من لندن الى استراليا ذهاباً واياباً دع عنك كل هذا وما هو من قبيلهِ واحصر نظرك في حوادث الشهرين الماضيين ترَ في لمحة الشوط البعيد الذي قطعهُ الطيران في حقبة وجيزة من الزمان لاتحسب شيئاً يذكر في تاريخ ارتقاء العمران فينطلق لسانك بابيات شوقي مخاطباً فرنسا سنة ١٩١٣ لما جاء الطيار فدرين الى مصر

غلب النسر على دولتهِ وتنحى لك عن عرش الهواء
واتتك الريح تمشي امةً لك يابلقيس من اوفى الاماء
رُوّضت بعد جماح وجريت طوع سلطانين علم وذكاء

في ٢٠ مايو الماضي طار الكابتن لندبرغ من نيويورك الى باريس بطيارة من ذوات السطح الواحد تسير بمحرك واحد قوتهُ ٢٢٠ حصاناً غير مصطحب معهُ سوى قطته واربع قطع من الصندوتش وزجاجة من الماء فوصل باريس بعد ما طار ثلاثاً وثلاثين ساعة ونصفاً قضى عشراً منها في مجالدة عاصفة هوجاء لقيها فوق الاوقيانوس الاتلنتيكي بعد مروره فوق جزيرة نيوفوندلند . ولما وصل الى باريس استقبل فيها استقبال الملوك وكبار الفاتحين وانهالت عليهِ رسائل التهنئة واوسمة الامتياز ودعوات التكريم فكان فوزه التام في هذه الرحلة الجوية الصعبة المراس اعظم مظهر للعزيمة الصادقة التي قبضت على زمام الهواء فاخضعتهُ لمطالبها .

وقبيل وصول لندبرغ الى باريس نزلت في خليج فارس على ٥٠ ميلاً من بندر عباس طيارة انكليزية تقل ضابطين من ضباط الجيش الانكليز — كار وجلمان — صدرت اليها الاوامر من رؤسائهما ان يطيرا من انكلترا الى الهند دفعة واحدة فغادرا كرنول بانكلترا يوم ٢٠ مايو وطارا فوق اوربا من غربها الشمالي الى شرقها الجنوبي ثم اجتازا آسيا الصغرى وبادية الشام وبلاد العراق فاشرقت عليهما الشمس مرتين وغابت مرتين وهما محلقين في الجوّ الى ان اصيب محرك طيارتهما بخلل حملها على النزول في خليج فارس بعد ما اجتازا ثلاثة آلاف وثلاثمائة ميل دفعة واحدة

وبعيد وصول لندبرغ الى باريس قام المركيز ده بنيدو الايطالي من جزيرة نيوفوندلند على طيارتهِ الى جزائر الازورس عائداً الى ايطاليا بعد رحلة جوية طويلة الشقة جمة المخاطر قام بها من روما الى جنوب اميركا مجتازاً الاوقيانوس الاتلنتيكي بين جزائر الرأس الاخضر وشواطئ البرازيل . وبعد ما جوّل في اميركا الجنوبية بطيارتهِ اتجه شمالاً الى اميركا الوسطى ثم الى الولايات المتحدة الاميركية فاحترقت طيارتهُ بعيد وصولهِ الى ولاية اريزونا ونزولهِ على سطح بحيرة فيها . فطار منها الى نيويورك بطيارة اميركية ولبث ينتظر وصول طيارة ايطالية ارسلت اليهِ من ايطاليا ليكمل بها رحلتهُ فحالت دون ذلك عاصفة شديدة ثارت في وجههِ قبيل وصولهِ الى جزائر الازورس فنزل على يم ثائر متلاطم الامواج ولبث بين الموت والحياة الى ان انتشلتهُ باخرة دانماركية

وفي ٢٢ مايو اي بعد وصول لندبرغ الى باريس عادت الى مطار هليوبوليس

الطيارات الاربع التابعة لفرقة الطيران الانكليزية المعسكرة في مصر وكانت قد غادرتها بضباطها الى مدينة الكاب في جنوب افريقية في ٣٠ مارس الماضي . ومما هو جدير بالذكر ان قيادة فرقة الطيران في مصر كانت قد وضعت بياناً لهذه الرحلة ذكرت فيه اسماء البلدان والمحطات التي تمرُّ بها الطيارات وتحط فيها ومواعيد وصولها اليها وقيامها منها فجرت هذه الطيارات في ذهابها وايابها على هذا البيان من غير ان تحيد عنهُ قيد شعرة

نكتب هذه السطور بعيد ورود الانباء البرقية عن قيام الطيار الاميركي تشمبرلين من نيويورك على طيارة من ذوات السطح الواحد تدعى كولومبيا قاصداً الى برلين ومعهُ مسافر اميركي من ارباب الاموال رضي ان يقوم بنفقات هذه الرحلة وإن يغامر بنفسهِ ثقة منهُ بنجاحها .وقد جاءت الانباء انهُ وصل الى المانيا ونزل على مقربة من برلين سالماً بعد ما نفد منهُ البنزين ولكنهُ كان قد قضى في الجو ما يزيد على ٤٢ ساعة واجتاز نحو اربعة الآف ميل فتفوق على كل الطيارين الذين سبقوه في الطيران الطويل المدى

وفي اليوم الذي طار فيهِ تشمبرلين من نيويورك قام طياران فرنسويان من باريس قاصدين ان يطيرا الى طوكيو عاصمة اليابان دفعة واحدة مجتازين اوربا وجبال الاورال وسيبيريا ولكنهما نزلا قرب طوبولسك بعد ما اجتازا نصف المسافة تقريباً بين باريس وطوكيو في ٢٩ ساعة ونصف ساعة

كذلك نرى ان تاريخ الاكتشاف والارتياد بل تاريخ العلم يعيد نفسهُ .نرى الروَّاد يسير بعضهم في اثر بعض يفوزون آناً ويفشلون آونةً ولكنهم مهما تعددت وجوه الفشل والفوز فانهم يتخذون من الفوز مرتبة يرقون عليها الى فوز آخر ويتربصون للفشل حتى يثأروا لاخوانهم منهُ بفوز جديد. اخفق نتجسر ورفيقهُ كولي في عبور الاتلنتيكي من باريس الى نيويورك واخفق ده بنيدو في اتمام رحلتهِ الجوية الواسعة النطاق قبيل نهايتها واخفق الطياران الانكليزيان قبل بلوغ الهند واخفق الطياران الفرنسويان قبل بلوغ طوكيو ولكنهم كلهم اخفقوا بعد ما تجاوزوا ما سبقهم اليهِ الطيارون من قبل وجاء طيران لندنبرغ ثم تلاه طيران تشمبرلين فكان انتصارهما تامًّا باهراً وستتلوه انتصارات اخرى يثأر بها الطيارون لاخوانهم من الفشل الذي كان نصيبهم

